
الإخوان المسلمون
٧٠ عاما في الدعوة والتربية والجهاد
بمناسبة مرور سبعين عاما على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين
(وخمسين عاما على استشهاد مؤسس الجماعة حسن البنا)
لا إله إلا الله محمد رسول الله
دكتور يوسف القرضاوي
مكتبة وهبة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، ومن بهم اقتدى فاهتدى.

أما بعد ...

ففي شهر يوليو «تموز» عام (1998م) أذاعت قناة الجزيرة في دولة قطر حلقة مثيرة في برنامجها الشهير «الاتجاه المعاكس» عن «جماعة الإخوان المسلمين» بمناسبة مرور سبعين عامًا على تأسيسها.

وكان الطرف الأول في الحوار هو الأستاذ الدكتور توفيق الشاوي الأستاذ السابق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، وعضو الهيئة التأسيسية للإخوان والكاتب الإسلامي المعروف.

والطرف الآخر هو اللواء فؤاد علام، الذي كان أحد ضباط مباحث أمن الدولة الذين اشتهروا بتعذيب الإخوان في سنة 1965م حتى أطلقوا عليه «ملك التعذيب»!

وبعد أن أحيل على التقاعد ظلت عقدة تعذيب الإخوان تلاحقه، وكان المظنون أن يعترف بذنبه، ويستغفر الله تعالى ويتوب إليه مما صدر منه، ولكنه أصدر كتابا سماه «الإخوان وأنا» برأ فيه نفسه، وألصق بالإخوان كل نقيصة.

وعلى كل حال فشهادة مثله مردودة، لأكثر من سبب، وأول هذه الأسباب أنه خصم، ولا يكون الخصم شاهدًا ولا حكمًا، وقديمًا قال العرب: من استرعى الذئب فقد ظلم!

ولهذا استغربت من البرنامج أن يستضيفه أكثر من مرة، وهو ليس من أهل العلم والفكر، ولا من أهل الدين والشرع، واستغربت من الدكتور الشاوي أن يقبل محاورته.

وقد طرحت قضايا في هذه الحلقة - بعضها من أناس تكلموا بالهاتف - لم تأخذ حقها من الإيضاح، وتساؤلات لم يجب عنها كلها، إما لضيق الوقت أو لضيق الصدر، أو لغير ذلك.

وقال لي بعض الإخوة: لماذا لا تكتب شيئا في ذلك ينصف الإخوان، ويرد على اتهامات المغرضين، ويضع الأمور في نصابها، وللإخوان حق عليك، وإن كنا نعلم أنك الآن للمسلمين جميعًا؟

قلت للإخوة: هذا حق، وأنا بالفعل ملك أمتي الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ولكني لا أتنكر لدعوة الإخوان، ولا أجحد أني نشأت في ظلها، وتعلمت من إمامها وإخوانه وتلاميذه، وصهرت في بوتقتها حتى نضجت واستقلت في العلم والفكر.

ولهذا أرى لزامًا على أن أمسك بالقلم، لأكتب هذه الصحائف، لأجلو الغبار عن وجه الدعوة الإخوانية، وألقي بعض الضوء على حقيقة أهدافها ومناهجها، ومقوماتها وخصائصها، وأعطي بعض الإشارات واللمحات عن سيرتها ومسيرتها، وعن ثمراتها وآثارها، وعن معاناتها ومحنها، وأرد على

التهم الموجهة إليها، مركزًا على موقف مؤسس الحركة الإمام الشهيد حسن البنا مستشهدًا بكلماته، وناقلًا من رسائله، بشكل أساسي، باعتبارها «المنهاج الرسمي» للإخوان، الذي ارتضوه، وانضموا للجماعة على ضوء توجهاته وتوجيهاته، «وربما أطيل النقل أحيانا - على غير ما يوصي به الأكاديميون - لمزيد البيان والتوثيق» وإن كان المصدر الأول للحركة من غير شك، هو القرآن والسنة، ولهذا كان من شعار الجماعة: القرآن دستورنا، والرسول زعيمنا.

وكان من أصول الجماعة التي ذكرها الشهيد البنا: كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم .

ولكن «حركة الإخوان» بعد سبعين عاما، أصبحت أوسع من رسائل الإمام البنا وتراثه، إنما هي كل التراث الفكري والعملي والجهادي التراكمي للتيار الإسلامي الكبير، الذي مضى في طريق حسن البنا واستمد منه، وأضاف إليه وربما عدل منه في بعض الأحيان.

وحديثي عن حركة الإخوان هنا ليس حديث المؤرخ المستوعب، فلست أزعم أني أملك الأدوات اللازمة لذلك، ولا الوقت الكافي له، وإنما هو حديث موجز بعض الإيجاز، يجيب عن بعض التساؤلات، ويضع بعض النقاط على بعض الحروف، من امرئ عاش في الإخوان، وعايش الأحداث، وخاض غمار المحن في عهد الملكية وعهد الثورة، مع إخوانه الذين صبروا وصابروا ولم يزدهم الابتلاء إلا ثباتا وإيمانا: **{فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ146 وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ**

ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 146، 147].

والحق أني ما كنت أتوقع أن يطول بي البحث إلى هذا الحد، ولكن هكذا كان. وهو ليس بكثير على أولى الجماعات الإسلامية من حيث الزمن، وكبرى الجماعات من حيث العدد، وأوسع الجماعات من حيث المساحة، فللإخوان وجود وأتباع في أكثر من سبعين قطرًا.

هذا وقد كنت أخذت على الإخوان - ولا أزال - أنهم لم يكتبوا تاريخهم بطريقة علمية موضوعية موثقة، بعيدا عن كتابة «المتحاملين» من خصوم الإخوان، أو خصوم الإسلام، وعن كتابة «المناقبيين» من كتاب الإخوان، الذين ينظرون إلى تاريخ الإخوان على أنه جميعه مناقب وأمجاد، بل ينبغي النظر إلى الإخوان نظرة وسطية منهجية، تقول ما لهم وما عليهم، مميزين بين أصولهم وأهدافهم الإسلامية التي لا ينبغي الخلاف عليها، وبين مواقفهم واجتهاداتهم البشرية، باعتبارهم مجموعة من المسلمين تجتهد في خدمة الإسلام، والنهوض بأمته، وإعلاء رايته، ونصرة قضاياه، مغلبين حسن الظن، وواكلين السرائر إلى ربها، فإن أصابت هذه المجموعة فلها أجران، وإن أخطأت بعد اجتهادها فلها أجر واحد، كما علمنا رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام. وكل منصف يدرك أن أكثر اجتهادات الإخوان كانت صوابًا. والحمد لله.

وينبغي - لكي نكون منصفين علميين حقًا - أن نضع الأحداث في إطارها الزمني، ولا نخرجها عن سياقها التاريخي، وأن نفهمها كما تفهم النصوص في ضوء أسبابها وملابساتها ومقاصدها.

ولقد بدأ عدد من الإخوان يكتبون بصفة فردية، مثل الأساتذة محمود عبد الحليم، وعباس السيسي، وغيرهما، كما كتب بعضهم عن مؤسس الحركة الإمام البنا رضي الله عنه.

وهذه كلها خطوات في الطريق، إلى كتابة التاريخ العلمي الذي تشرف عليه الجماعة، وتكله إلى أساتذة متخصصين، قادرين على التوثيق والنقد والموازنة والتحليل.

ومن عجائب الأقدار أني أبيض هذه المقدمة في منتصف شهر فبراير 1999م أي بعد خمسين سنة شمسية تماما من مقتل الإمام حسن البنا، الذي اغتيل في الثاني عشر منه (1949/2/12م) ليكون هدية للملك فاروق في عيد ميلاده الذي احتفل به يوم (1949/2/11م) وهو يوم إجازة رسمية في مصر في ذلك الوقت.

ولا زلت أذكر ذلك اليوم الذي قرأنا فيه نبأ اغتيال الشيخ البنا، فقد كان يوم خروجنا من سجن شرطة قسم أول طنطا، بعد أن مكثنا فيه نحو أربعين يومًا، وذلك لترحيلنا إلى معتقل الطور. وكانت الصحف ممنوعة عنا، ولا نعرف شيئًا عن أخبار الدنيا، إلا إذا جاءنا ضيف جديد من الإخوان لينضم إلينا. فكانت الفجيعة الفظيعة أن يكون أول خبر نقرؤه بعد هذه المدة هو خبر استشهاد مؤسس الحركة رضي الله عنه.

فهذا الكتاب جاء في مناسبتين مهمتين:

مرور سبعين عامًا شمسية أو ميلادية على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين، وأكثر من اثنين وسبعين عامًا قمرية أو هجرية ... «في ذي القعدة

سنة 1347هـ الموافق أبريل أو مايو سنة 1929م، كما تبين ذلك بالدليل، وليس سنة 1928م كما هو مشهور».

ومضى خمسين عامًا على استشهاد الإمام البنا، وقد كنت كتبت بمناسبة مرور ثلاثين سنة على وفاته: كتابي «التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا»، فالآن أكتب هذا الكتاب بمناسبة مضي نصف قرن على هذا الاستشهاد.

وعلى كل حال، هذه شهادتي أكتبها للحق والتاريخ. وقد قال الشاعر:

وما من كاتب إلا سيبلي ويبقى - الدهر - ما كتبت يداه!
فلا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه!

{رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ} [إبراهيم: 38].

الدوحة: ذو القعدة 1419هـ

فبراير 1999م

يوسف القرضاوي

* * *

الباب الأول
الإخوان المسلمون
دعوة اكتملت مقوماتها

الحاجة إلى الدعوة

التميز ووضوح الشخصية

حسن البنا: القائد المنتظر

الجنود الصادقون

وضوح الأهداف وشمولها

وضوح الوسائل

وضوح المواقف

* * *

دعوة اكتملت مقوماتها

للدعوة الموفقة أو الدعوة الناجحة أو الدعوة المكتملة: مقومات أو أركان لا بد أن تتوافر لها حتى تقوم بمهمتها، وتؤدي دورها، وتحقق أهدافها التي تنشدها في الإيقاظ والتنوير أو في التربية والتطهير، أو في التجديد والتغيير، أو في البناء والتعمير، أو في الجهاد والتحرير، أو في التوحيد والوحدة.

هذه المقومات أو الأركان الأساسية قد قدر الله لها أن تجتمع وتتكامل في دعوة الإخوان المسلمين، وإن شئت قلت: في حركة الإخوان المسلمين، فهي دعوة، وهي حركة، أو هي دعوة متحركة، وحركة داعية.

المقومات السبعة في دعوة الإخوان:

هذه المقومات للدعوة الموفقة، وللحركة الناجحة، نستطيع أن نجملها في سبعة:

1 - أن تكون الحاجة داعية إليها، لتسد فراغا قائما.

2 - أن تكون متميزة، واضحة الشخصية والسمات.

3 - أن ترزق بقيادة واعية حكيمة تعرف غايتها وطريقها.

4 - أن يهيأ لها جنود مؤمنون برسالتهم، صادقون واعون مترابطون.

5 - أن تكون أهدافها واضحة، لا يشوبها ضباب ولا اضطراب.

6 - أن تكون وسائلها لتحقيق غاياتها واضحة كذلك، معروفة المراحل والخطوات.

7 - أن تكون مواقفها من القضايا الكبيرة واضحة بينة غير غامضة ولا غائمة.

وأعتقد أن من قرأ تراث الإخوان، وتتبع تاريخ دعوتهم منذ مطلع فجرها في مدينة الإسماعيلية على ضفاف قناة السويس بمصر، حيث وضعت اللبنة الأولى في شهر ذي القعدة سنة 1347هجرية - تبين له أن هذه الدعوة توافرت لها تلك المقومات السبعة، وهو ما نلقي عليه الضوء الكاشف في الصحائف التالية - بإذن الله.

* * *

1 - الحاجة إلى الدعوة

فأما الحاجة إلى الدعوة، فقد كانت حاجة ماسة، بل كانت ضرورة ملحة: أن تقوم في الأمة عامة، وفي مصر خاصة: دعوة جديدة، تبني ما هدمه الاستعمار، وتصلح ما أفسده الحكام، وتنقي الحياة مما لوثتها به عصور الانحطاط، وتقاوم ما يخطط له أعداء الإسلام.

كان الناس في حاجة إلى دعوة تجدد العقول بالمعرفة الواعية، وتجدد القلوب بالإيمان الدافق، وتجدد الحياة بالالتزام الصادق، وتقف بالمرصاد للأفكار الهدامة، والدعوات المنحرفة، والهيئات المضللة، التي تغزو العقول بالشبهات، وتغزو النفوس بالشهوات.

كان الإسلام في حاجة إلى دعوة تملأ الساحة، وتسد الثغرة، وتعبئ الأمة.

ولم يكن فيمن يمثلون الإسلام في ذلك الزمن من يقدر على القيام بهذه المهمة.

فعلماء الأزهر كانوا مشغولين بقضايا داخلية، وكانت السلطة الحاكمة قد ورثت من عهد الاستعمار: أن تعزل الأزهر عن التأثير في الحياة، وأن تضيق على علمائه وأبنائه، حتى تلهيهم لقمة العيش عن هموم الدعوة إلى الدين، وقضايا الأمة المصيرية. وتحاول أن تشغلهم عن الإصلاح بقضايا جزئية، وتجتهد أن تشغل بعضهم ببعض.

وكانت الطرق الصوفية مشغولة بأذكارها وأورادها - وبعضها بموالدها وموائدها - عن التصدي للإصلاح، وحمل راية الدعوة العامة لتجديد الإسلام

في الأمة. وهي نفسها في حاجة إلى الإصلاح والتجديد، وفاقد الشيء لا يعطيه.

فكانت الأمة في حاجة إلى دعوة جديدة، تجدد دعوة النبي الأمين، يقوم عليها «صحابة جدد» يقومون في الآخرين مقام الصحابة في الأولين. وهم القابضون على دينهم في أيام الشدائد والفتن أو أيام الصبر، التي جاء فيها الحديث الشريف: «**إن من ورائكم أياما، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين يعملون مثل عملكم**».

وفي رواية قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلا منا أو منهم؟ قال: «**بل أجر خمسين رجلا منكم**»[1].

دعوة في أوانها:

لقد كان من دلائل التوفيق في ظهور حركة الإخوان المسلمين: أنها جاءت دعوة في أوانها، وأحوج ما يكون المسلمون إليها، بعد أن احتلت أوطان المسلمين وطنًا بعد آخر، وأصبح الاستعمار يتحكم في رقابها بعد الحرب العالمية الأولى، وغدت بريطانيا لها نصيب الأسد في هذه الغنيمة وبعدها فرنسا، قد تقاسما ذلك في اتفاقية «سايكس بيكو» المعروفة، كانت مصر والسودان والعراق وفلسطين والهند - قبل التقسيم - وماليزيا ونيجيريا، وغيرها من بلاد إفريقيا من حصة الاستعمار البريطاني، وكانت سوريا ولبنان وشمال إفريقيا «تونس والجزائر ومراكش» وموريتانيا والسنغال

---

(1) رواه الترمذي في التفسير (3060) وقال: حسن غريب، وأبو داود في الملاحم (4341)، وابن ماجه في الفتن (4014) كلهم عن أبي ثعلبة الخشني.

وغيرها من حصة الاستعمار الفرنسي، حتى هولندا التي لم يكن يزيد تعدادها في ذلك الوقت على خمسة ملايين، كانت تستعمر إندونيسيا التي تزيد على خمسين مليونا.

وهكذا وقع العالم الإسلامي كله - فيما عدا الحجاز ونجد واليمن - في قبضة الاستعمار.

ثم أصيبت الأمة الإسلامية بصدمة هائلة، حين سقطت خيمة الخلافة التي كانت تظلل أمة الإسلام، وتمزقت «الدولة الواحدة» إلى «دول» أو «دويلات»، و«الأمة الواحدة» إلى «أمم» أو «أميمات» يجافي بعضها بعضا، بل يعادي بعضها بعضا، بل يقاتل بعضها بعضا، تحت نداءات مختلفة، كلها يحمل العصبية الجاهلية من عنصرية أو إقليمية أو لغوية، وأصبح الوطن الواحد الذي سماه الفقهاء «دار الإسلام» دورًا وأوطانًا، تتنازع فيما بينها على الحدود، التي صنعها لهم المستعمر الغاصب.

وغدا «القانون الوضعي» الذي جاء في ركاب المحتل، هو الذي يحكم الناس رغم أنوفهم، بدلا من الشريعة الإسلامية، التي ظلوا يرجعون إليها في الإفتاء والقضاء والتشريع، ثلاثة عشر قرنا كاملة من الزمان.

وأمسى فكر الغرب الفلسفي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي هو مصدر التوجيه، ومصدر التأثير، ومصدر التحريك، ومصدر التخطيط، لمجتمعنا المسلم، بعد أن كان الإسلام هو الموجه الأول، والمؤثر الأول، والمحرك الأول للأمة، في شتى ميادين الحياة.

لم يعد الإسلام هو أساس الهوية، والانتماء والولاء لأبناء الأمة، كما كان من قبل، وغدت تنافسه، بل تقاومه هويات وولاءات وانتماءات أخرى، وأصبحت المسلمات العقدية والفكرية والشرعية عرضة للتشكيك، وظهر في مصر كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين سنة 1926م، وقبله كتاب «في أصول الحكم» للشيخ على عبد الرازق (سنة 1925م)، وهو الذي جرد فيه الإسلام من الحكم، واعتبره مجرد رسالة روحية، وهو ما لم يقل به أحد قط طوال العصور الماضية.

وكان سقوط الخلافة إيذانًا بأن القلعة باتت بلا حراس، وأن الحمى أمس مستباحًا لكل من هب ودب، حتى اجترأ عليه الجبناء، واستنسر في أرضه البغاث.

وكان سقوط الخلافة سنة 1924م فاجعة من الفواجع الكبرى في تاريخ الأمة، زلزل كيانها، وهز بنيانها، أشبه بدخول الصليبيين بيت المقدس، ودخول التتار بغداد في العصور الماضية.

ولعل أعظم من عبر عن هذه الفاجعة هو أمير الشعراء أحمد شوقي في حائيته الشهيرة التي رثى فيها الخلافة، كما رثى أبو البقاء الرندي غرناطة عند سقوطها في نونيته[2].

---

(2) التي يقول في مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان!

وقال في ختامها:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان!

وكان مما زاد هول الفاجعة أن الذي ألغى الخلافة رجل ضلل المسلمين ردحًا من الزمن، حتى كانوا يحسبونه من أبطال الإسلام، وقال فيه شوقي نفسه بعد انتصاره في إحدى المعارك:

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب

كان المسلمون يهللون ويكبرون كلما انتصر «الغازي مصطفى كمال» - كما كانوا يسمونه - يحسبون ذلك انتصارًا للإسلام، ودعما للخلافة، وشدًا لأزر الأمة، وتقوية لجهود الإصلاح والتجديد، ولكنهم فوجئوا بهذا الرجل الذي خدعوا فيه «كمال أتاتورك» ينقلب على الإسلام وأمته وحضارته وشريعته، ويتحول إلى عدو له، موال لأعدائه، محطم لقلاعه، وأولاها الخلافة.

يقول شوقي رحمه الله يخاطب الخلافة:

عادت أغاني العرس رجع نواح   ونعيت بين معالم الأفراح!

كفنت في يوم الزفاف بثوبه   ودفنت عند تبلج الإصباح!

ضجت عليك منابر ومآذن   وبكت عليك ممالك ونواح!

الهند والهة ومصر حزينة   تبكي عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس: أمحا من الأرض الخلافة ماح!

وثار ثائر المسلمين في كل مكان، ونادى المنادون، وعقدت المؤتمرات، من أجل إعادة الخلافة، ولكن العقد قد انفرط، وتناثرت حباته هنا وهناك وهنالك، ولم يكن من السهل جمعه من جديد. فقد كانت المؤامرة أكبر وأعمق من تلك المحاولات الغاضبة والحزينة، في الهند وفي مصر، وغيرهما من

بلاد الإسلام. وبقى الميدان خاليًا، يحتاج إلى فارس جديد، يخطط للمعركة بفكر جديد، وسلاح جديد، وجنود جدد.

موجة التغريب العاتية:

وكان من أبرز ما يجسد الحاجة إلى دعوة جديدة: الموجة العاتية للتغريب الفكري والاجتماعي، التي سماها الإمام حسن البنا «طغيان المادة على بلاد الإسلام». وقد بين رحمه الله آثار هذا الغزو الغربي المكثف، الذي استبانت أخطاره على الأمة الإسلامية في شتى أقطارها، وتجلى أظهر ما يكون في مصر، برغم منزلتها الإسلامية، وتاريخها في الدفاع عن الإسلام بين ذلك بجلاء في رسالة «بين الأمس واليوم» فقال:

وقد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة، جميع البلاد الإسلامية التي امتدت إليها أيديهم، وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة، من العلوم والمعارف والصناعات، والنظم النافعة. وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي، إحكامًا شديدًا، واستعانوا بدهائهم السياسي، وسلطانهم العسكري، حتى تم لهم ما أرادوا.

أغروا كبار المسلمين بالاستدانة منهم والتعامل معهم، وسهلوا عليهم ذلك وهونوه عليهم، واستطاعوا بذلك أن يكتسبوا حق التدخل الاقتصادي، وأن يغرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم، وأن يديروا دولاب العمل الاقتصادي كما يريدون، وأن يستأثروا دون الأهلين بالأرباح الطائلة،

والثروات العظيمة. وتمكنوا بعد ذلك من أن يغيروا قواعد الحكم والقضاء والتعليم، وأن يصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصيغتهم الخالصة في أقوى بلاد الإسلام.

وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات، وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم، وقصصهم وجرائدهم، ورواياتهم وخيالاتهم، وعبثهم ومجونهم، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم. وزينوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة، التي تعج بالإثم وتطفح بالفجور، في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء، وذوى الرأي فيهم، وأهل المكان والسلطان.

ولم يكفهم هذا حتى أنشأوا المدارس والمعاهد العلمية والثقافية في عقر ديار الإسلام، تقذف في نفوس أبنائه الشك والإلحاد وتعلمهم كيف ينتقصون أنفسهم، ويحتقرون دينهم ووطنهم، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ما هو غربي، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة.

واحتوت هذه المدارس على الطبقة العليا وحدها وصارت وقفا عليها، وأبناء هذه الطبقة هم العظماء والحكام، ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هذه الأمم والشعوب. ومن لم يتم نضجه في هذه المعاهد الموضعية فإن في البعثات المتلاحقة ما يكفل لهم التمام.

ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب، طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف.

وتغالت بعض الأمم الإسلامية في الإعجاب بهذه الحضارة الأوروبية، والتبرم بصبغتها الإسلامية، حتى أعلنت تركيا أنها دولة غير إسلامية، وتبعت الأوروبيين بعنف قاس في كل ما يصنعون. وحاول ذلك أمان الله خان ملك الأفغان، فطاحت تلك المحاولة بعرشه، وازدادت في مصر مظاهر هذا التقليد واستفحلت، حتى استطاع رجل من ذوي الرأي فيها أن يجهر بأنه «لا سبيل إلى الترقي إلا بأن نأخذ بهذه الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب» وأخذت تنتقل في سرعة وقوة من مصر إلى ما جاورها من البلاد، حتى وصلت إلى أقصى المغرب، وطوفت بالمشاعر المقدسة في ربوع الحجاز.

ونستطيع أن نقسم البلاد الإسلامية بحسب تأثرها بهذه الحضارة المادية وطغيان مادتها عليها إلى ثلاثة أقسام:

1 - بلاد بلغ بها هذا التأثر مبلغًا يصل إلى القلوب والمشاعر، كما غير الأوضاع والمظاهر، ومن هذه البلاد تركيا ومصر، فقد انحسر ظل الفكرة الإسلامية في هذه البلاد عن كل الأوضاع الاجتماعية، وطردت الفكرة الإسلامية، لتقبع في المساجد والزوايا والربط والتكايا.

2 - بلاد تأثرت بهذه الحضارة في أوضاعها ومظاهرها الرسمية، ولكنها لم تتغلب فيها على المشاعر القلبية كإيران وبلاد المغرب وشمال أفريقيا.

3 - بلاد لم تتأثر بهذه الحضارة فيها إلا طبقة خاصة من المثقفين والحكام دون العامة والدهماء، كسوريا والعراق والحجاز، وكثير من أجزاء الجزيرة العربية وبقية ممالك الإسلام.

ومع هذا فالموجة تمتد بسرعة البرق، لتصل إلى ما لم تصل إليه بعد من النفوس والطبقات والأوضاع.

ولقد استطاع خصوم الإسلام أن يخدعوا عقلاء المسلمين وأن يضعوا ستارًا كثيفًا أمام أعين الغير منهم، بتصوير الإسلام نفسه تصويرًا قاصرًا في ضروب من العقائد والعبادات والأخلاق، إلى جانب مجموعة من الطقوس والخرافات والمظاهر الجوفاء، وأعانهم على هذه الخديعة: جهل المسلمين بحقيقة دينهم، حتى استراح كثير منهم إلى هذا التصوير، واطمأنوا إليه ورضوا به، وطال عليهم في ذلك الأمد، حتى صار من العسير أن نفهم أحدهم أن الإسلام نظام اجتماعي كامل يتناول كل شؤون الحياة.

نستطيع بعد ذلك أن نقول: إن الحضارة الغربية بمبادئها المادية، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معًا في أرض الإسلام نفسه، وفي حرب ضروس، ميدانها نفوس المسلمين، وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري، ولا عجب في هذا، فإن مظاهر الحياة لا تتجزأ، والقوة قوة فيها جميعًا، والضعف ضعف فيها جميعًا كذلك: **{وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ}** [آل عمران: 140]، وإن كانت مبادئ الإسلام وتعاليمه ظلت قوية في ذاتها فياضة بالخصب والحياة، جذابة أخاذة بروعتها وجمالها، وستظل كذلك، لأنها الحق ولن تقوم الحياة الإنسانية كاملة فاضلة بغيرها، ولأنها من صنع الله وفي حياطته: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ}** [الحجر: 9]، **{وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ}** [التوبة: 32].

اهـ[3].

تصوير واقع مصر والوطن العربي والإسلامي

والنتيجة بعد ذلك كله: أن واقع الحال في مصر، وفيما حولها من الوطن العربي الإسلامي، كان ينادي بوجوب دعوة جديدة، سماها الإمام حسن البنا «دعوة البعث والإنقاذ».

ويلزمنا أن نصور هذا الواقع تصويرًا موضوعيًا بعيدًا عن لغة العواطف والإثارة، لنعلم أن دعوة الإمام حسن البنا كانت فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

وسأستعين في هذا بما كتبه د. محمود أبو السعود في مقدمته لكتاب ريتشارد. ب. ميتشل عن الإخوان، في وصف حالة مصر، مع بعض التصرف بالإضافة والحذف، وذلك في الفقرات التالية:

1 - وطن باهت اقتطع من أصله بعد أن قطع الحلفاء المنتصرون أوصال الإمبراطورية العثمانية، وبعد أن أطاح كمال أتاتورك بالخلافة الإسلامية، وأعلن العلمانية، حينئذ طبق الإنجليز معاهدة «سايكس - بيكو» السرية التي عقدت في موسكو عام 1915م، وأصبحت مصر داخل نطاق الإمبراطورية البريطانية، وإن منحت في الظاهر ملابس الاستقلال.

وجدت مصر نفسها منعزلة عن دول العالم الإسلامي في الشرق الأوسط،

---

(3) من رسالة «بين الأمس واليوم» (ص104 - 106) من مجموع الرسائل نشر المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر في بيروت.

وأحست بعجز المسلمين، وفي عنقها قيد ثقيل من الاستعمار، وشجع المستعمرون النعرة الوطنية، هادفين إلى أن يحل «الوطن» محل «الدين»، وأن يكون الولاء «للوطن» لا «لله»، وأن يقسم للناس «بالوطن» لا «بالله»، وأن يموتوا «في سبيل الوطن» لا «في سبيل الله». حتى قال شوقي - رغم نزعته الإسلامية المعروفة في شعره - يخاطب المصريين:

وجه الكنانة ليس يغضب   أن تجعلوه كوجه معبودًا!

2 - شعب مؤمن بالله والإسلام: عقيدة راسخة، ولكنه شعب جاهل، الأغلبية الساحقة فيه لا تقرأ ولا تكتب، وهو شعب فقير مستغل أسوأ الاستغلال، ولكنه أيضًا شعب عريق قديم كريم، فيه طيب أرومة مع ذكاء وفطنة، أضفت عليه ظروفه البيئية والتاريخية حب السلام، وليس الاستسلام، كما يظن الكثيرون. فقد يرضخ المصري المسلم وغير المسلم لحاكم ظالم، وقد يكف عن المجاهدة المادية إذا غلبه مستعمر فاتح، ولكنك تجده أبدًا ثائرًا في ذات نفسه على الظلم والاستعمار، ترى ذلك في بسمته الساخرة، وتسمعه في نكتته اللاذعة، بل إنه ليندفع في ثورته حين تتاح له فرصته، فإذا به يحقق ما كان يظن أنه مستحيل عليه.

وكان الشعب في هذه الحقبة الزمنية مغلوبًا على أمره تمامًا، وما قام بثورة 1919م إلا لإحساسه بالضياع، وقد وجد فيها تحقيقًا لذاته، وتعبيرًا عن وجوده، وكأنه أراد أن يحس بإنسانيته بإظهار إرادته.

ثار هذا الشعب ولم يطالب بالخبز وهو جائع، ولا بإلغاء ملكية الأرض

الزراعية وهو لا يكاد يملك منها شيئًا[4]، ولم يطالب بإلغاء الألقاب والقضاء على طبقة «البكوات والباشوات»، والجمهور من لابسي الجلابيب و «الطواقي» ... كانت ثورته تعبيرًا عن صادق شعوره برفضه الاستعمار، وكان مخلصًا في مطالبته بالاستقلال، وإن لم يفكر أو يتصور ماذا سيكون شأنه بعد الاستقلال، بل لم يرسم لنفسه صورة ولو باهتة لهذا الوطن في ظل الاستقلال ... ومع هذا كله، وفي وسط هذه الثورة العارمة، كان الإسلام حيًا في قلبه، متحركًا في باطن عقله ومستتر ضميره، فاعتبر من قتل في الثورة برصاص الإنجليز أو السلطة الحاكمة شهيدًا له جنات الخلد عند ربه، واقترنت الثورة «بالمسجد»، وخرجت المظاهرات من الأزهر، وهو رمز الإسلام ومعهده آنذاك.

3 - مستعمر قوي ذكي لئيم ذو دهاء ومكر شديد، درس أحوال البلاد عن كثب، ومكن لنفسه على أيدي بعض الحكام، كون منهم طبقة «المستوزرين»، ومهد لتضامن الحكم إليه عن طريقين:

أ - الاستعمار الفكري: حيث عمل منذ بدء الاحتلال على تنحية الشريعة الإسلامية من قانون القضاء، وحصرها في الأحوال الشخصية. وحيث فصل بين «العلم» و «الدين»، بل فصل بين المدارس المدنية والمدارس الدينية، فأوجد هوة سحيقة بين المثالية الإسلامية والمذهبية المادية التي فرضها بحكم القانون والتعليم.

---

(4) كان 90% من السكان يملكون 10% من الأرض الزراعية، و10% من الباشوات والبكوات يملكون 90%.

ب - الاستعمار المادي: حيث وجه اقتصاد البلاد إلى إنتاج المادة الخام التي تنتجها الأرض الزراعية، حتى كنا نقرأ في الكتب المدرسية أن مصر بلد زراعي لا يملك مقومات الصناعة! يضاف إلى ذلك أن الاستعمار وجه الناشئة إلى محراب «الحكومة» فكانت المدارس تخرج الموظفين. وأصبحت القيم الاجتماعية تقيس المرء بوظيفته الحكومية. فإذا علمنا أن من يدرس العلوم الدينية تقتصر وظيفته على إمامة مسجد أو «مأذونية» زواج وطلاق، أو عمل في المحكمة الشرعية، أو تدريس اللغة العربية والقرآن في المدارس المدنية، أو التدريس في المعاهد التي تخرج فيها ... إذا علمنا هذا اتضح لنا كيف استطاعت السياسة الاستعمارية أن تحارب شريعة الإسلام كفلسفة حياة، ونظام تعامل، ودستور يرسم للأفراد حدود المساواة والحرية، وحقوق التكافل والتعلم والعمل.

4 - نظام حكم ظالم: حيث فرض ملك على شعبه، وحيث صيغ دستور يحد من سلطة الحكومة المصرية ومن سيادتها ويعامل الأجنبي بقانون يختلف عن القانون الذي يسري على المواطنين، ويطبقه قاض من غير المواطنين.

كان الملك غريبًا عن رعيته، لا يكاد يتحدث لغتهم، دع عنك مشاركته لعواطفهم، وآلامهم وآمالهم، وكان همه البقاء في الحكم، والاستمتاع بجاه الملك ونعيمه، وكان ينظر إلى هذا الوطن نظرته إلى ملك يمينه، يتحكم في الشعب ومصايره بما يراه ويهواه.

5 - طبقة حاكمة التي استصفاها الملك ورضي عنها المستعمر، غالبيتها من سلالة ألبانية أو تركية، ورثت عن آبائها وأجدادها القريبين مساحات

واسعة من الأرض الزراعية التي أممتها الدولة في عهد محمد على الكبير، ووزعها إسماعيل على أقربائه وأصفيائه.

وظلت هذه الطبقة التي لم تكن تعرف من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا اسمه، وبعض شعائره، والتي تربت في مدارس الأوربيين، وأتقنت لغاتهم أكثر مما اتقنت لغة القرآن والمواطنين، ظلت تتولى مقاليد الحكم، حتى بعد قيام الثورة عام 1919م، وبعد دستور 1923م، وإن ظهر على المسرح رجال من صميم الشعب انضموا إلى حزب الوفد الذي كان يمثل غالبية المصريين، وكانوا يحكمون لفترات قصيرة، كلما هبت رياح أزمة أتي بهم الملك، ثم يعصف بهم إثر أزمة يفتعلها هو، أو يفتعلها له المستعمر المحتل للبلاد.

كانت الطبقة الحاكمة هي الطبقة الغنية، وهي الطبقة المتعلمة، وهي المالكة لمنابع الثروة، وبالرغم من وجود الأحزاب المتعددة، فإن الأكثرية من الشعب كانت متعلقة بحزب واحد: هو حزب الوفد الذي تزعمه رجل من صميم الشعب هو سعد زغلول، وخليفته مصطفى النحاس.

لم يناد الوفد قط بالإسلام نظامًا للحياة، ولم يكن في برنامجه أن يعيد للناس قوانينهم الإسلامية، أو أن يشيع بينهم الإسلام منهاجًا وفكرة وشريعة نزل بها وحي الله على نبيه عليه الصلاة والسلام تحدد المثل الأعلى، وترسي للناس قواعد معاملاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقيمية، ومع ذلك كان زعماء هذا الحزب يدركون تمامًا مدى تغلغل الإسلام في النفوس، فاستعملوا الدين وسيلة لتوطيد زعامتهم، واكتساب قلوب العامة من شعبهم، وكان غير المسلمين من القادة الوفديين يحفظون من آيات القرآن الكريم ما يترنمون به

في خطبهم، وهم يعلمون كم يلقي ذلك من قبول الناس في نفوس السامعين، وكيف تخشع له قلوبهم.

هكذا كان حال مصر والمصريين: وطن ضربت عليه العزلة، وشعب مؤمن جاهل مغلوب على أمره، ومستعمر داهية متمكن من الحكم سافرًا أو مقنعًا، وملك غريب عن شعبه لغة وفكرًا وعاطفة، وطبقة حاكمة منعزلة عن الرعية، وهي المالكة لمنابع الثروة بغير حق شرعي، ونظام قانوني مستقي من الغرب بعيد عن أعراف الناس ومعتقداتهم، ونزعة وطنية مستحدثة، وإقصاء متعمد للدين الإسلامي عن واقع الحياة ... التعليم لا توجهه فكرة الإسلام، والثقافة لا ترتكز على مفاهيم الإسلام، والتقاليد لا ترجع إلى قيم الإسلام، كما أن القوانين لا تحتكم إلى شريعة الإسلام[5].

6 - ووطن عربي وإسلامي، يشبه حاله حال مصر، في تحكم الاستعمار في مقدراته، وفي اصطناع طبقة يربيها الاستعمار في حضانته، ويرضعها من ألبان ثقافته، ويهيئها لحكم الشعب كما يريد المستعمر، وفجوات اجتماعية بين ذوي الثراء الفاحش والفقر المدقع، وفلسفة علمانية دخيلة عزلت الدين عن الحياة، وتبنت فكرة «الوطنية الإقليمية» أو فكرة «القومية العنصرية» بين شعوب المسلمين، حتى تغيب فكرة «الأمة الواحدة» التي أرادها الله، لتتحول إلى «أمم شتى» يجافي بعضها بعضًا، بل يعادي بعضها بعضًا، بل ربما قاتل بعضها بعضًا، بعد أن كانت

---

(5) انظر: مقدمة د. أبو السعود لكتاب «ميتشل عن الإخوان» (ص: 20 - 24). وانظر: فصل «كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع» من كتابنا «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا».

تضمهم «دار واحدة» هي دار الإسلام، وتحكمهم «مرجعية واحدة» هي شريعة الإسلام، وتجمعهم «دولة واحدة» هي دولة الخلافة.

في هذا الجو الغائم القاتم ولدت دعوة الإخوان المسلمين، أحوج ما تكون مصر - والوطن العربي والإسلامي الكبير - إليها، لتكون «دعوة البعث والإنقاذ» كما عبر عنها الإمام حسن البنا مؤسس الحركة.

بدأت هذه الدعوة منطلقة من فكر مؤسسها وشعوره الداخلي الغامر بأن عليه فرضًا لأمته يجب أن يؤديه، وأن لديه طاقة يجب ألا يدخرها في إحياء الأمة، وتجديد دينها.

وقد كانت نشأته وتربيته ودراسته كلها مساعدة له على المضي في هذا الطريق، وكانت ظروف دراسته في القاهرة بعد دمنهور، وما رآه وسمعه وعايشه في عاصمة مصر، دافعًا قويًا؛ ليقوم بدعوته.

وبدأت الدعوة بسيطة، ولكنها عميقة، محدودة ولكنها قوية، صغيرة في كمها، ولكنها كبيرة في كيفها، فقيرةفي المال، ولكنها عنية بما تملك من إيمان لا يتزعزع، قليلة الإمكانات، ولكن لديها يقين وطموح وآمال، ستزلزل الدنيا يوم تعرفها.

والبحر ماذا كان؟ كان جداولًا   والبدر ماذا كان؟ كان هلالًا!
وأسد في وثباتها وثباتها   درجت على آجامها أشبالًا!

* * *

2 - التميز ووضوح الشخصية

أما التميز ووضوح الشخصية، فقد توافر في دعوة الإخوان من يومها الأول، فقد أعلنت من أول الأمر: أنها «دعوة إسلامية صميمة» من الإسلام تستمد، وعلى الإسلام تعتمد، وإلى الإسلام تهدف، وبالإسلام تمضي، وعن الإسلام تصدر. غايتها هي الإسلام، ووسيلتها من الإسلام، ومردها إلى الإسلام.

من الإسلام حددت أهدافها، ومن الإسلام عينت وسائلها ومناهجها، وإلى الإسلام ردت مرجعيتها.

شعاراتها إسلامية: الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والآن شرعتنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.

وهتافاتها إسلامية. الله أكبر ولله الحمد، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلنا نجاهد حتى نلقى الله.

وأناشيدها إسلامية:

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا الكتائب آساده ودكوا به دولة الباطل

يقول الإمام حسن البنا مجيبًا عن سؤال يسأله الناس: ما أنتم أيها الإخوان؟ إننا لم نفهمكم بعد. فأفهمونا أنفسكم، وضعوا لأنفسكم عنوانا نعرفكم به، كما تعرف الهيئات بالعناوين، هل أنتم طريقة صوفية أو جمعية خيرية أو مؤسسة اجتماعية أو حزب سياسى؟

ويقول الإمام حسن البنا لإخوانه: قولوا لهؤلاء المتسائلين: نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة: طريقة صوفية ... وجمعية خيرية ... ومؤسسة اجتماعية ... وحزب سياسي نظيف.

وقد يقولون بعد هذا كله: لا زلتم غامضين، فأجيبوهم: لأنكم ليس في يدكم مفتاح النور الذي تبصروننا على ضوئه. «نحن الإسلام» أيها الناس. فمن فهمه على وجهه الصحيح، فقد عرفنا كما يعرف نفسه، فافهموا الإسلام أولًا وقولوا عنا بعد ذلك ما تريدون[6].

وفي مقام آخر يبين الأستاذ البنا حقيقة دعوة الإخوان، في كلمات موجزة، ولكنها قوية قوة الحق مضيئة إضاءة الهدى، عميقة عمق الإيمان، فيقول:

«أيها الإخوان، أنتم لستم جمعية خيرية، ولا حزبًا سياسيًا، ولا هيئة موضعية الأغراض، محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة يحييه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوت داو يعلو مرددًا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الحق الذي لا غلو فيه: أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس.

إذا قيل لكم: إلام تدعون؟فقولوا: ندعوا إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه.

فإن قيل لكم: هذه سياسة، فقولوا: هذا هو الإسلام. ونحن لا نعرف هذه

(6) من خطاب الأستاذ البنا في اجتماع رؤساء المناطق في 3 شوال سنة 1364هـ (8 / 9 / 1945م) (ص252) من مجموع الرسائل.

الأقسام.

وإن قيل لكم: أنتم دعاة ثورة، فقولوا: نحن دعاة حق وسلام، نعتقده ونعتز به. فإن ثرتم علينا، ووقفتم فى طريق دعوتنا، فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا، وكنتم الثائرين الظالمين.

وإن قيل لكم: إنكم تستعينون بالأشخاص والهيئات، فقولوا: آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنتم به مشركين.

فإن لجوا فى عدوانهم، فقولوا: **{سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ}** [القصص: 55]»[7].

إسلام الإخوان:

وفي رسالة «دعوتنا» وهي من الرسائل القديمة، يتحدث الأستاذ تحت عنوان «إسلامنا» فيقول:

«اسمع يا أخي: دعوتنا دعوة أجمع ما توصف به أنها «إسلامية» ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الذي يفهمه الناس، فإنا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينتظم شؤون الحياة جميعًا، ويفتي في كل شأن منها، ويضع له نظامًا محكمًا دقيقًا، ولا يقف مكتوفًا أمام المشكلات الحيوية والنظم التي لا بد منها لإصلاح الناس».

---

(7) من رسالة «بين الأمس واليوم» وقد نشرت قديمًا تحت عنوان «من تطورات الفكرة الإسلامية وأهدافها» وذلك قبل الحرب العالمية الثانية، وفيها تنبأ الأستاذ للغربيين بحرب ضروس تبدد شملهم وتمزق وحدتهم، وتهب لأمم الإسلام فرصة أخرى تسوي فيها صفوفها. انظر: (ص: 102، 110) من مجموع الرسائل.

وينكر الأستاذ فهم بعض الناس خطأ: أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات، أو أوضاع من الروحانية، حصروا أنفسهم وأفهامهم في دائرتها الضيقة.

ويقول: «لكنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه، فهمًا فسيحًا واسعًا ينتظم شؤون الدنيا والآخرة، ولسنا ندعي هذا ادعاء، أو نتوسع فيه من أنفسنا، وإنما هو ما فهمناه من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة المسلمين الأولين، فإن شاء القارئ أن يفهم دعوة الإخوان بشيء أوسع من كلمة «الإسلامية» فليمسك بمصحفه، وليجرد نفسه من الهوى والغاية، ثم يتفهم ما عليه القرآن، فسيرى في ذلك دعوة الإخوان.

أجل: دعوتنا «إسلامية» بكل ما تحتمل الكلمة من معان، فافهم فيها ما شئت بعد ذلك، وأنت في فهمك هذا مقيد بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة السلف الصالحين من المسلمين. فأما كتاب الله فهو أساس الإسلام ودعامته، وأما سنة رسوله فهي مبينة الكتاب وشارحته، وأما سيرة السلف الصالح فهم رضوان الله عليهم منفذو أوامره والآخذون بتعاليمه، وهم المثل العملية والصورة الماثلة لهذه الأوامر والتعاليم». اهـ[8].

الإخوان حركة إسلامية فاعلة:

كما تميزت دعوة الإخوان بإسلاميتها الواضحة: إسلامية المصدر، إسلامية المنطلق، إسلامية الغاية، إسلامية الوسيلة، فقد تميزت بأمر آخر، وهو أنها لم تكن مجرد جماعة وعظية تلهب مشاعر الجماهير بالخطب

---

(8) من رسالة «دعوتنا» (ص 18) من مجموع الرسائل.

البليغة، ولا محض جمعية خيرية، تعمل في خدمة المجتمع، وإشاعة البر، ونفع الفقراء والضعفاء فيه، وإن كان الوعظ والإرشاد من وسائلها، وفعل الخير جزءا من أعمالها.

ولكن أراد مؤسسها رحمه الله أن تكون «حركة إسلامية» إيجابية فاعلة، محركة للأمة، معبرة عن الإسلام كل الإسلام، بعد أن جعله الناس «لحمًا على وضم» وقطعوه إلى قطع وأجزاء، ولم ينظروا إليه نظرة كلية، ولم يربوا الأمة على الالتزام به، والدعوة إليه والجهاد في سبيله.

كان هذا المعنى واضحًا في عقل الأستاذ البنا منذ قام بدعوته، كما يبدو من مقالاته ورسائله الأولى، وعبر عنه في أكثر من موضع بعبارات مشرقة.

ومن هذه العبارات، ما قاله في رسالة «الإخوان تحت راية القرآن» تحت عنوان «طبيعة فكرتنا»:

«أيها الإخوان المسلمون ...

بل أيها الناس أجمعون ...

لسنا حزبًا سياسيًا وإن كانت السياسة على قواعد الإسلام من صميم فكرتنا ...

ولسنا جمعية خيرية إصلاحية، وإن كان عمل الخير والإصلاح من أعظم مقاصدنا ...

ولسنا فرقًا رياضية، وإن كانت الرياضة البدنية والروحية من أهم وسائلنا ...

لسنا شيئًا من هذه التشكيلات، فإنها جميعًا تبررها غاية موضعية محدودة لمدة معدودة، وقد لا يوحي بتأليفها إلا مجرد الرغبة في تألف هيئة، والتحلي بالألقاب الإدارية فيها.

ولكننا أيها الناس: فكرة وعقيدة، ونظام ومنهاج، لا يحدده موضع ولا يقيده جنس ولا يقف دونه حاجز جغرافي، ولا ينتهي بأمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك لأنه نظام رب العالمين، ومنهاج رسوله الأمين.

نحن أيها الناس ـ ولا فخر ـ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملة رايته من بعده، ورافعو لوائه كما رفعوه، وناشروا لوائه كما نشروه، وحافظو قرآنه كما حفظوه، والمبشرون بدعوته كما بشروا، ورحمة الله للعالمين **{وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}** [ص: 88] اهـ[9].

وهكذا كان الإمام البنا رحمه الله حريصًا على ألا تكون دعوته أو جماعته مجرد تشكيلات إدارية أو رياضية، أو كشفية أو خيرية، بل حركة إسلامية إيجابية، تحمل في القرن الرابع عشر الهجري: روح الصحابة في القرن الأول.

مصطلح «الحركة الإسلامية»:

وقد شاع مصطلح «الحركة الإسلامية» في أدبيات «الإخوان المسلمين» في مصر، منذ وقت مبكر، كما شاع في أدبيات «الجماعة الإسلامية» التي أسسها الإمام أبو الأعلى المودودي في الهند قبل أن تقسم إلى دولتين: الهند وباكستان «الشرقية ـ وهي التي صارت الآن ـ بنجلاديش ـ والغربية»

---

(9) «الإخوان تحت راية القرآن» (ص: 197، 198) من «مجموع الرسائل».

وتنطق في لغة الأوردو بلفظها العربي «تحريك إسلامي».

فقد كان المصطلح المشهور المعبر عن التيار الإسلامي من قبل - أيام السيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده - هو تعبير «الجامعة الإسلامية» كما هو معروف في مقالات «العروة الوثقى» ومقالات الشيخ عبده، وتلميذه رشيد رضا بعد ذلك.

وكلا العنوانين أو المصطلحين يعبر عن مرحلته وعن مضمون دعوته أو ملخصها، وكان مضمون الدعوة في مرحلة «العروة الوثقى» هو «جمع الأمة» وتوحيد صفوفها لمواجهة الاستعمار، أما مضمون الدعوة في مرحلة الأستاذ حسن البنا فهو «تحريك الأمة»: تحريك عقولها حتى تفهم، وتحريك قلوبها حتى تؤمن، وتحريك إرادتها حتى تصمم، وتحريك أيديها حتى تعمل، «وإن كان جمع الأمة وتوحيدها من الأهداف الأساسية للحركة أيضًا».

ويبدو أن هذا المصطلح شاع في مقابل مصطلح آخر راج في فترة من الزمن في أقطار عربية وإسلامية شتى، هو مصطلح «الحركة الوطنية» أو «الحركة القومية» وكان كثير من دعاة هذه الحركات - وخصوصا الحركة القومية - يعادون التيار الإسلامي، ودعاة الإصلاح الإسلاميين، ويعتمدون الغرب وفلسفته وحضارته مرجعًا فكريًا وقيميًا لهم، هو مصدر الإلهام، ومصدر الإلزام.

وهذا واضح لمن يدرس نشوء «الحركة القومية الطورانية» التي ظهرت في تركيا، دولة الخلافة العثمانية، والتي كانت تعادي العروبة والإسلام، وأنشأت حزب «الاتحاد والترقي» والتي انتهت بتهديم قلعة الخلافة، التي

كانت تمثل آخر تجمع للأمة الإسلامية تحت راية الإسلام.

كما هو واضح في نشوء «حركة القومية العربية» الأولى التي كانت لها صلة معروفة بالماسونية، والتي قادها في الأصل غير المسلمين[10].

على أية حال، لقد ظهر مصطلح «الحركة الإسلامية» وذاع على ألسنة وأقلام كتاب الحركة وغيرهم، وغدًا مفهومًا ينسب إليه، فيقال: الفكر الحركي، والدعوة الحركية، والتربية الحركية، والعمل الحركي إلخ، نسبة إلى الحركة الإسلامية.

الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية:

ولا غرو أن أصدر الأستاذ الدكتور/ إسحاق موسى الحسيني «في سنة 1947م على ما أذكر» كتابًا بعنوان «الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة» وهو دراسة علمية موضوعية محايدة إلى حد كبير عن حركة الإخوان، على عكس بعض الدراسات التي كانت قد صدرت عن بعض التيارات المعادية للإسلام عمومًا، وللإخوان خصوصًا، والتي اتسمت بالهجوم والتحامل والتصيد للشبهات بل الاختلاق للتهم أحيانًا.

وقد أنصف الدكتور الحسيني الإخوان أيضًا في عنوان كتابه حين أطلق عليهم «كبرى الحركات الإسلامية الحديثة». ولا يزال هذا الوصف صادقًا إلى اليوم، بل اكتسب صدقية أكبر وأوسع، حيث اتسعت الحركة، ليكون لها أعضاء مشتركون وأنصار معاضدون في كل أقطار العالم العربي

---

(10) انظر: ما كتبنا، عن ذلك في كتابنا «الحلول المستوردة» تحت عنوان «القومية العربية والنزعات الإقليمية» (ص: 142 - 160).

والإسلامي تقريبًا، بل وخارج العالم الإسلامي، في أوروبا وأمريكا والشرق الأقصى وغيرها من بلدان العالم «في أكثر من سبعين دولة في القارات الخمس أو الست».

وكان من فضل الله على الحركة أن المحن القاسية التي حاقت بأبنائها في مصر - البلد الأم للحركة - جعلت كثيرًا منهم حين خرجوا من أتون المحنة ابتداء من سنة 1956م ينطلقون في أرض الله الواسعة يلتمسون الحرية والأمن، فذهب منهم من ذهب إلى أوروبا غربية وشرقية، وإلى أمريكا شمالية وجنوبية، وإلى استراليا، وإلى اليابان وغيرها من ديار الشرق الأقصى، فبذر الله تعالى - بهؤلاء الأبناء الذين تفرقوا في الأرض - بذور الدعوة التي أينعت وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، وأنشأوا تيارًا إسلاميًا في كل أرض نزلوا بها. وبهذا تحولت المحنة إلى منحة، ورب ضارة نافعة، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

والإخوان المسلمون ليست هي كبرى الحركات الإسلامية فحسب، بل هي أم الحركات الإسلامية أيضًا، فهي الأصل والأساس، ولا سيما في العالم العربي، والحركات الأخرى التي تنتسب إلى الإسلام، إما ناشئ بعدها، وإما فرع عنها وامتداد لها، وإما انشقاق عنها وخروج عليها.

المقصود بمصطلح «الحركة الإسلامية»:

ولكم ماذا نقصد بـ «الحركة الإسلامية»؟ وبعبارة أخرى: ما المفهوم العلمي المحدد لكلمة «الحركة الإسلامية» إذا أطلقناها؟ فإن «تحديد المفاهيم» أمر واجب، حتى لا تترك مائعة رجراجة يفهمها كل فريق كما يحلو له، فهذا

يشرق وهذا يغرب، فماذا نريد بكلمة «الحركة الإسلامية» بالضبط؟

لقد تعرضت لذلك في كتابي «أولويات الحركة الإسلامية»[11] وقلت فيه: نريد بالحركة الإسلامية: ذلك العمل الشعبي الجماعي المنظم للعودة بالإسلام إلى قيادة المجتمع، وتوجيه الحياة، كل الحياة، بأوامره ونواهيه، وتشريعاته، ووصاياه.

فالحركة الإسلامية قبل كل شيء عمل، وعمل دائب متواصل، ليست مجرد كلام يقال، أو خطب تلقى، أو محاضرات تنظم، أو كتب تؤلف، ومقالات تنشر، وإن كان هذا كله مطلوبًا طلبًا مؤكدًا بلا ريب، ولكنه جزء من حركة، وليس هو الحركة، والله تعالى يقول: **{وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ}** [التوبة: 105].

الحركة عمل على مستويات عدة:

إن الحركة الإسلامية عمل متكامل على مستويات عدة:

إنها عمل فكري تنويري يضيء العقول، وهي علم دعوي تحريضي يحرك المشاعر، وهي عمل تكويني تربوي ينشئ الشخصية المسلمة، وهي عمل اجتماعي يساهم في حل مشكلات المجتمع وإشاعة الخير فيه، وهي عمل اقتصادي يحرر اقتصاد الأوطان المسلمة من التبعية المطلقة للغرب ومن رجس الربا والمعاملات المحظورة، وهي عمل سياسي لإقامة حكم الإسلام وإعادة دولته، وتطبيق شريعته، وتوحيد أمته، وهي عمل جهادي لتحرير أرض الإسلام في المشرق والمغرب من كل سلطان أجنبي أو طغيان

(11) انظر: «أولويات الحركة الإسلامية» (ص: 9) وما بعدها. نشر مكتبة وهبة.

داخلي.

الحركة عمل شعبي محتسب:

وهي عمل شعبي يقوم أساسًا على الانبعاث الذاتي، والاقتناع الشخصي، إيمانًا واحتسابًا، وابتغاء ما عند الله، لا ما عند الناس.

والأصل في هذا الانبعاث: هو هذا التوتر الذي يحس به المسلم حين تدركه الصحوة، ويوقظه الوعي، وتمور به أعماقه، نتيجة التناقض بين إيمانه من جهة، وواقع أمته من جهة أخرى، فينطلق من حبه لدينه، ونصحه لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولكتابه ولأمته، وشعوره بتقصيره وتقصير الجماعة من حوله، وحرصه على أداء الواجب، واستكمال النقص، والإسهام في إحياء الفرائض المعطلة من الحكم بشريعة الله، وتوحيد الأمة الإسلامية على كلمة الله، وموالاة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله، وتحرير الأرض الإسلامية من كل عدوان، أو سيطرة غير إسلامية، وإعادة الدولة الإسلامية، أو الخلافة الإسلامية الواجبة شرعًا إلى القيادة من جديد، وتجديد فريضة الدعوة إلى الإسلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله بكل أنواعه وأدواته، باليد أو باللسان، أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان، حتى تكون كلمة الله هي العليا.

قصور العمل الرسمي:

هذا العمل الشعبي المحتسب، هو الذي ينشيء الحركة الإسلامية, أما العمل الحكومي الرسمي, أو شبه الرسمي, مثل إنشاء مجالس عليا, أو اتحادات أو روابط, للشؤون الإسلامية, تشرف عليها وزارات الأوقاف, أو

غيرها من الأجهزة التابعة للدولة, فقد يسهم في خدمة الإسلام وأهله بنصيب يقل أو يكثر, وفقًا لنية القائمين عليه وهمتهم, ومقدار ولائهم لدينهم, قبل ولائهم لدنياهم ودنيا من ولوهم المناصب.

ولكن هذا العمل قاصر, ومعيب دائمًا من عدة أوجه:

1 - إنه يدور في فلك السياسة المحلية للدولة التي تنشئه, وتنفق عليه, فهو يتحرك أو يتوقف, ويتكلم أو يصمت, ويشرق أو يغرب, تبعًا لهذه السياسة, ولهذا لا يعبر عن الإسلام الخالص, وعن أمته الكبرى, بقدر ما يعبر عن هذه الدولة المعينة.

2 - إنه لا يقوم - غالبًا - على أناس يفرزهم العمل, ويصهرهم الجهاد, ويبرزهم الميدان, بل على «التعيين» من رجال ترضى عنهم الدولة المنفقة, ويحرصون على إرضائها رغبًا أو رهبًا. ولهذا لا يسعهم أن يخالفوا عن أمرها, أو يقولوا: لم؟ أو: لا. وأنا أتحدث هنا عن الأعم الأغلب, وإلا فقد يوجد بين «الرسميين» من يفوق بعض العاملين «الشعبيين» إخلاصًا لله, وغيرة على دينه, وعملًا لتمكينه.

3 - إنه كثيرًا ما تنقصه النية الصادقة لنصرة الإسلام, بل قد يراد به كسب سياسي خالص, وغالبًا ما يكون هذا العمل «مسجد ضرار» ظاهره العبادة والتقوى, وباطنه التفريق بين المؤمنين, وتعويق العاملين المخلصين.

4 - إنه - لهذا كله - متهم من الجماهير والشعوب، معزول عن مشاعرها وتأييدها. حتى العلماء الرسميون الذين جندوا أنفسهم لخدمة سياسة الدولة,

فينطقون إذا أرادت لهم أن ينطقوا, ويصمتون إذا أرادت أن يصمتوا - يفتقدون ثقة الجماهير بهم، ويسمونهم «علماء السلطة» أو «عملاء الشرطة».

ولهذا كله لا يستطيع العمل الإسلامي الرسمي أو شبه الرسمي - في غيبة الحكم الإسلامي - أن ينشيء حركة إسلامية حقيقية, وإن كان يستطيع - بما لديه من إمكانات - أن يقوم ببعض الخدمات العلمية والعملية, وتقديم المعونات المادية والأدبية للعمل الإسلامي الشعبي ومؤسساته. وخصوصًا إذا كان على رأسه بعض المخلصين الشجعان.

الحركة عمل جماعي منظم:

والحركة الإسلامية - إلى جوار أنها عمل شعبي محتسب - هي «عمل جماعي منظم», فلا يكفي أن يقوم أفراد محتسبون مخلصون من هنا وهناك، يعملون متناثرين للإسلام, وإن كان عملهم مفيدًا ومرصودًا لهم في ميزانهم عند الله، فإن الله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى. وكل امرئ يجزي بما قدم حسب نيته وإتقانه **{فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ}** [الزلزلة: 7] ، **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ}** [النساء: 40].

ولكن «العمل الفردي» في واقع الأمة الإسلامية المعاصر، لا يكفي لسد الثغرة, وتحقيق الأمل المرتجى، بل لا بد من «عمل جماعي» وهذا ما يوجبه الدين ويحتمه الواقع.

فالدين: يدعو إلى «الجماعة» ويكره «الشذوذ» فيد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار, وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية, ولا صلاة لمنفرد

خلف الصف, ولا لمتقدم على الصف, والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا. والتعاون على البر والتقوى فريضة من فرائض الدين, والتواصي بالحق والصبر أحد شروط النجاة من خسران الدنيا والآخرة.

والواقع يحتم أن يكون العمل المثمر جماعيًا, فاليد الواحدة لا تصفق, والمرء قليل بنفسه, كثير بإخوانه, ضعيف بمفرده, قوي بجماعته، والأعمال الكبيرة لا تتم إلا بجهود متضافرة, والمعارك الحاسمة لا يتحقق النصر فيها إلا بتضام الأيدي, وتعاضد القوى, كما قال القرآن: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ}** [الصف: 4].

يؤكد هذا: أن القوى المعادية لرسالة الإسلام وأمته، لا تعمل بطريقة فردية، ولا في صورة فئات مبعثرة، بل تعمل في صورة تكتلات وتجمعات منظمة غاية التنظيم، لها هياكلها، ولها أنظمتها، ولها قيادتها المحلية والإقليمية والعالمية.

ومن الواجب علينا أن نحارب أعداءنا بمثل ما يحاربوننا به، لا يجوز لنا أن نحارب المدفع بالعصا، ولا الدبابة بالحصان أو البغل. كما لا يجوز لنا أن نقاوم العمل الجماعي بالعمل الفردي، والعمل المنظم بالعمل المبعثر، فالفوضى لا تقاوم النظام، والفرد لا يقاوم الجماعة، والحصاة لا تقاوم الجبل.

والقرآن الكريم يحذرنا من ذلك حين يقول: **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ}** [الأنفال: 73]. ومعنى: **{إِلَّا تَفۡعَلُوهُ}** أي: إن لم يوال بعضكم بعضًا ويساند بعضكم بعضًا، ويلتحم بعضكم ببعض: تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وأي فتنة وأي فساد أكبر من أن

تتجمع قوى الكفر، وتتفرق قوى الإسلام، وأن يتلاحم الباطل ويتمزق الحق، فهذا هو الخطر الكبير، والشر المستطير.

ولا بد أن يكون العمل الجماعي منظمًا، قائمًا على قيادة مسؤولة، وقاعدة مترابطة، ومفاهيم واضحة، تحدد العلاقة بين القيادة والقاعدة، على أساس من الشورى الواجبة الملزمة، والطاعة المبصرة اللازمة.

فالإسلام لا يعرف جماعة بغير نظام، حتى الجماعة الصغرى في الصلاة تقوم على النظام، لا ينظر الله إلى الصف الأعوج، ولا بد للصفوف أن تتراص وتتلاحم، ولا يجوز ترك ثغرة في الصف دون أن تملأ، فأي فرجة تهمل يسدها الشيطان، المنكب بجوار المنكب، والقدم بجانب القدم، وحدة في الحركة والمظهر، كما أنها وحدة في العقيدة والوجهة: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[12].

يعدل الإمام الصف خلفه حتى يستقيم ويتصل، وينصح من وراءه أن «**لينوا بأيدي إخوانكم**»[13] فالجماعة تقتضي قدرًا من الليونة والمرونة لموافقة سائر الصف.

وبعد ذلك تكون الطاعة للإمام «**إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا**»[14].

---

(12) رواه أحمد وأبو داود عن البراء كما في «صحيح الجامع الصغير» (7256) وهو جزء من حديث رواه مسلم عن ابن مسعود.

(13) رواه أحمد وصححه الشيخ شاكر عن ابن عمر (5724)، وأبو داود (666)، وصححه النووي في «الرياض».

(14) متفق عليه من أبي هريرة، ونحوه عن عائشة، ورواه البخاري عن أنس كما في

ولا يقبل من أحد أن يشذ عن الصف، ويسبق الإمام فيركع قبله أو يسجد قبله، ويحدث نشازًا في هذا البناء المنظم المتناسق، فمن فعل ذلك يخشى أن يمسخ الله رأسه رأس حمار.

ولكن هذا الإمام إذا أخطأ، فإن من حق وراءه - بل من واجبه - أن يصحح خطأه، سواء أكان من غلط أم سهو، وسواء أكان الخطأ في القول أم الفعل، في القراءة أم في أركان الصلاة الأخرى.

حتى إن المرأة في الصفوف البعيدة تصفق بيدها؛ لينتبه الإمام إلى خطئه.

إنها صورة مصغرة لنظام الجماعة الإسلامية، وما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين القيادة والجندية، فليست إمامة معصومة، ولا طاعة عمياء مطلقة.

هذا ما وعاه حسن البنا الشاب العبقري وفقهه حين أسس - وهو ابن الثانية والعشرين من عمره - حركته الإسلامية المباركة ولم يكتف بالخطب والدروس والوعظ والإرشاد العام، على أهميته، بل رأى بنور بصيرته أنه لا بد من «التكوين بعد التنبيه، ومن التأسيس بعد التدريس» كما عبر هو بقلمه.

مهمة الحركة تجديد الإسلام:

ما مهمة الحركة الإسلامية؟

إن الحركة الإسلامية إنما قامت لتجديد الإسلام والعودة به إلى قيادة الحياة من جديد، بعد عزل الإسلام عن قيادة الحياة وتوجيهها في شتى المجالات: في مجال السياسة والحكم، وفي مجال التشريع والتقنين، وفي مجال الفكر

«صحيح الجامع الصغير» (2357).

والتثقيف، وفي مجال التعليم والإعلام، وفي مجال الآداب والتقاليد، وفي مجال المال والاقتصاد.

والذي صنع هذا وعزل الإسلام عن موقعه في الحياة والمجتمع - بمكر ودهاء وتخطيط خبيث - إنما هو الاستعمار، الذي استولى على أوطان المسلمين، ووضع الأغلال في أعناقهم والقيود في أرجلهم(15).

و «تجديد الإسلام» ليس تعبيرًا من عندي. إنه تعبير نبوي نطق به الحديث الذي رواه أبو داود والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**»، وتجديد الدين يعني: تجديد الفهم له، وتجديد الإيمان به، وتجديد العمل بأحكامه وآدابه، وتجديد العمل له والدعوة إليه والجهاد في سبيله.

ولقد كان اتجاه أغلب شراح هذا الحديث إلى أن كلمة «من» فيه تعني «فردًا» واحدًا معيَّنًا يقوم بتجديد الدين، وحاولوا بالفعل تعيينه في الغالب من العلماء والأئمة الأعلام ممن تكون وفاته قريبة من رأس قرن مضى، مثل عمر بن عبد العزيز في القرن الأول (ت 101هـ) والشافعي في القرن الثاني (ت204هـ) واختلفوا كثيرًا في مُجَدد المائة الثالثة والرابعة، واتفقوا على مجدد المائة الخامسة، كما قال السيوطي في منظومته عن المجددين:

والخامس: الحبر هو الغزالي وعده ما فيه من جدال

---

(15) انظر: فصل «كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع» من كتابنا «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» نشر مكتبة وهبة في مصر، ومؤسسة الرسالة في بيروت.

واختلفوا في مجدد المائة السادسة، واتفقوا على مجدد المائة السابعة، قال السيوطي:

والسابع الراقي إلى المراقي ابن دقيق العيد باتفاق

وهكذا نظروا إلى المجددين في الحديث الشريف.

بيد أن بعضهم نظر إلى أن «من» في الحديث تصلح للجمع كما تصلح للفرد، فيجوز أن يكون المجدد جماعة لا واحدًا. وهذا ما رجحه ابن الأثير في كتابه «الجامع للأصول» والحافظ الذهبي وغيرهما.

وأزيد على هذا أمرًا آخر فأقول: ليس من الضروري أن يكون المجدد جماعة بمعنى عدد من الأفراد هم فلان وفلان، بل جماعة بمعنى مدرسة وحركة فكرية ودعوية وعملية تقوم بتجديد الدين متضامنة.

وهذا ما أرجحه في فهم هذا الحديث الشريف(16).

وأعتقد أن المدرسة أو الحركة الأولى التي جسدت «التجديد» الإسلامي في هذا القرن - خلال سبعين عامًا - هي حركة الإخوان المسلمين.

وهذا لا ينفي أن لغيرهم من الجماعات والأفراد نصيبًا في التجديد يقل أو يكثر. ولا يجوز لنا أن نبخس الناس أعمالهم.

المقومات الأساسية للتجديد:

والتجديد الذي قامت به الحركة الإسلامية كان يتجسد في أمور ثلاثة

---

(16) انظر في هذا: موضوع «تجديد الدين في ضوء السنة» في كتابنا: «من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا».

جعلتها نصب عينيها، تعتبر هي المقومات الأساسية للتجديد:

الأول: تكوين طليعة إسلامية, قادرة - بالتكامل والتعاون - على قيادة المجتمع المعاصر بالإسلام, دون تقوقع ولا تحلل, وعلى علاج أدواء المسلمين من صيدلية الإسلام نفسه، بتجديد الاجتهاد بشروطه وضوابطه، وإعداد المجتهدين القادرين على الجمع بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية للشريعة، دون تعصب لرأي قديم، ولا عبودية لفكر جديد. طليعة تستلهم الماضي، وتعايش الحاضر، وتستشرق في المستقبل. طليعة يجمع بين أفرادها: الإيمان العميق، والفقه الدقيق, والترابط الوثيق.

والثاني: تكوين رأي عام إسلامي يمثل القاعدة الجماهيرية العريضة، التي تطالب بتطبيق الإسلام في كل جوانب الحياة، وتنتصر له، وترى فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وتقف وراء الدعاة إليه, تحبهم وتساندهم، وتشد أزرهم, بعد أن وعت مجمل أهدافهم، ووثقت بإخلاصهم وقدرتهم، ونفضت عنها غبار التشويش، والتشويه للإسلام ورجاله وحركاته.

والثالث: تهيئة مناخ عام عالمي كذلك يتقبل وجود الأمة الإسلامية، حين يتفهم حقيقة الرسالة الإسلامية, والحضارة الإسلامية, ويتحرر من العقد الخبيثة, التي تركها تعصب القرون الوسطى, في أعماق نفسه, ومن الأباطيل التي خلفها الكذب والتشويه في أم رأسه, رأي عام يفسح صدره لظهور القوة الإسلامية بجوار القوى العالمية الأخرى, مدركًا أن من حق المسلمين أن يحكموا أنفسهم وفق عقيدتهم, باعتبارهم أغلبية في بلادهم, كما تنادي بذلك مبادئهم الديموقراطية التي يتغنون بها, وأن من حقهم أن يدعوا إلى رسالتهم الربانية الإنسانية العالمية, باعتبارها إحدى الرسالات أو «الأيديولوجيات»

الكبرى في العالم التي لها ماض وحاضر ومستقبل, ويدين بها مليار وثلث من الناس في دنيانا التي نعيش فيها، وهم يمثلون 24% من سكان العالم، أي حوالي الربع، فكل أربعة من سكان عالمنا يوجد بينهم مسلم واحد.

وتهيئة هذا المناخ يتطلب من الحركة أن تشرح الإسلام للعالم بلسان العصر، وتقدمه للناس بشموله وتكامله وتوازنه، ويسره وسماحته، وترد عن ساحته الشبهات والمفتريات.

دور الحركة الإسلامية في تجديد الإسلام:

إن الذي قام بالدور الأكبر في تجديد الدين على رأس هذا القرن هو «الحركة الإسلامية» بمدلولها الواسع، والتي يشرفني أن أكتب هذه السطور اليوم عنها.

ولا يسعفني الوقت ولا الجهد ولا المعرفة أن أكتب عن كل الحركات الإسلامية، ولكني اكتفي بالحديث عن أم هذه الحركات وكبراها وهي حركة «الإخوان المسلمون» التي أسسها الإمام الشهيد حسن البنا رضي الله عنه.

وأبادر فأقول: إن مما يؤخذ على الحركة أنها - حتى اليوم - لم تكتب تاريخها بأقلام أبنائها كتابة علمية موثقة، قائمة على الموازنة والتحليل، بعيدة عن التهوين والتهويل، ولعلها بدأت ذلك ونرجو أن تكمل الشوط.

وأستطيع أن أقول في غير لبس ولا مبالغة: إن الحركة الإسلامية - التي يمثلها الإخوان المسلمون - قامت بدور بارز في تجديد الإسلام في هذا القرن.

وتجديد الإسلام لا يعني إصدار طبعة جديدة منقحة منه، فمصادر هذا الدين ثابتة خالدة، وفي مقدمتها القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

من خلفه، وصحيح السنة المبينة للقرآن.

ولا يمكن زيدًا أو عمرًا من الناس أن يأتي بإسلام جديد يقدمه غير إسلام القرآن وما بينه من صحيح السنة.

ومهما حاول المستشرقون أن يبثوا فكرة وجود «إسلامات» متعددة بتعدد الأعصار أو بتعدد الأقطار، بدعوى أن هناك إسلامًا راشديًا، وإسلامًا أمويًا، وآخر عباسيًا، ورابعًا عثمانيًا، كما أن هناك إسلام آسيوي، وآخر أفريقي، أو إسلام عربي، وآخر عجمي ... إلى آخر هذه التقسيمات، فالحق الذي لا ريب فيه: أن الإسلام المعترف به هو الإسلام كما جاء به القرآن الكريم، وكما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وكما فهمه الصحابة ومن تبعهم بإحسان وطبقوه في حياتهم العملية.

وهنالك جملة دراسات تناولت حركة الإخوان، صدرت بالعربية وغيرها، تتفاوت في نواياها، وفي مناهجها، وفي نتائجها، ولا ريب أن بعضها متحامل على الجماعة، ولا يكتب عنها إلا بقصد تشويه صورتها، وتضخيم سلبياتها إن وجدت، فإن لم توجد حاول أن يختلقها، وكذلك يحاول إخفاء محاسنها، بل والافتراء عليها.

ولكن بعضا آخر يميل إلى الإنصاف، أو يحاول أن يبدو في مظهر المنصف، ولكن تحكمه أمور لا تخفى على الدارس المتعمق:

أولها: قصور المعلومات اللازمة عن الإخوان، وعلاقاتها المختلفة، ومواقفها المتنوعة، وغاياتها المنشودة، ودوافعها المحركة، ومعاييرها المحكمة، فهذه الأمور مجهولة لدى أكثر الكاتبين، وهناك معلومات لا زالت

في صدور أصحابها، ومعلومات في وثائق لم تنشر، أو لم تجمع لتكون في متناول الدارسين.

ثانيها: تضليل المصادر التي يعتمد عليها الكثيرون؛ لأنها من صنع خصومهم، سواء أكانوا في الداخل أم في الخارج، هناك وقائع شتى حرفت عن حقيقتها أو وضعت في غير مكانها وزمانها، فأخذت أكبر أو أصغر من حجمها.

ثالثها: أن كل كاتب ينظر إلى الحركة من منطلقه الفكرى الخاص، ويحاكمها إلى مسلماته العقلية والأيديولوجية.

ولهذا نجد الماركسي يحكم عليها بغير ما يحكم الليبرالي، وذا التفكير الديني يحكم عليها بغير ما يحكم به ذو التفكير العلماني، والمتطرف - من ذوي التفكير الديني - يحكم عليها بغير ما يحكم المعتدل، والسلفي يحكم عليها بغير ما يحكم به الصوفي وهكذا.

* * *

3 - حسن البنا: القائد المنتظر

من سنن الله تعالى: أن يهيئ لكل مرحلة رجلها الذي يناسبها، وأن يبعث لهذه الأمة في كل قرن من يجدد لها دينها، ويعيد إليها حيويتها.

ومن شأن الأمة أن يعتريها الضعف، أو تحل بها الأسقام، أو تغط في نوم عميق، ولكن هذه لا تموت، فإن فيها من الطاقات المكنونة، والإمكانات المذخورة، ما يجدي عند الشدائد والمحن، حين تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم عندما يتهيأ لها القائد الذي يفجرها، ويستخرجها من مكامنها.

وقد قال سيدنا علي كرَّم الله وجهه: لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بالحجة.

وقد لاحظ العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه القيم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»: أن التاريخ الإسلامي في كل مراحله، يبرز فيه رجال يحتاج إليهم الموقف، فيسدون الثغرة، ويلبون الحاجة، ويقومون بالواجب المطلوب لزمانهم ومكانهم في إيقاظ الأمة، وترميم ما أصابه البلى أو التصدع في بنيانها.

قد يكون الرجل المنشود إمامًا أعظم كعمر بن عبد العزيز، وقد يكون أميرًا أو قائدًا عسكريًّا مثل نور الدين محمود أو صلاح الدين، وقد يكون إمامًا فكريًّا ودعويًّا، مثل أبي حامد الغزالي، وقد يكون مربيًا روحيًّا، مثل عبد القادر الجيلاني، وقد يكون مجددًا فقهيًّا وتربويًّا وإصلاحيًّا مثل أبي العباس ابن تيمية. فكل واحد من هؤلاء جدد فيما كان يفتقر إليه عصره وبيئته من جوانب التجديد الضرورية واللازمة.

وقد كان وضع العالم الإسلامي عامة، ووضع مصر والعالم العربي خاصة: يحتاج إلى رجل ذي فكر ثاقب، وحس مرهف، وإيمان دافق، وإرادة صُلبة، يشعر بما تعانيه الأمة من أمراض وآلام، ويقدر على تشخيص الداء، ووصف الدواء، ويصبر على متابعة مريضه، حتى ينتقل به من مرحلة السقام إلى مرحلة العافية، ومنها إلى مرحلة القوة.

كان هذا الرجل المنشود أو القائد المنتظر، هو «حسن البنا».

لقد هيأ الله له من الأسباب - منذ نعومة أظفاره - ما يرشحه للمهمة المطلوبة.

أب صالح مشغول بالعلم وبالعمل معًا، فهو من المشتغلين بعلم الحديث، وله فيه إسهام يقدره العلماء، يذكر فيشكر، وهو ممن يكسبون عيشهم بالعمل في إصلاح الساعات، أو تجليد الكتب، ولذا اشتهر بالشيخ الساعاتي.

وبيئته ريفية متدينة محافظة، بعيدة عن صخب المدن، وما ابتليت به من تقليدِ الفرنجة، وما دخل عليها من مفاهيم وتقاليد مستوردة من خارج دار الإسلام.

وأساتذة صالحون، أحاطوا الصبي بمزيدٍ من الرعاية، لما لمسوا فيه من ذكاء وتفوق، ومن غيرة وحماس، ومن أدب وأخلاق.

وطريقة صوفية تعرف بـ«الطريقة الحصافية» أيقظت حاسته الروحية، وعلَّمته شيئًا من أدب الطريق، وأخلاق المريدين، ولكنها لم تشبع نهمه، ولم يجد فيها ضالته.

وجمعيات دينية، كان يُنشئها أو يشارك فيها، لنشر الخير، أو مقاومة الشر،

أو منع المحرمات، ولكنها أيضًا كانت دون طموحه، إلا أنها غرست فيه الروح الجماعية، والعمل الجماعي.

وحفظ الصبي القرآن، وانتقل من مدينته الصغيرة «المحمودية» إلى مدينة أكبر هي «دمنهور» عاصمة إقليم البحيرة، ليتلقى تعليمه في «مدرسة المعلمين» بها.

ثم كانت النقلة الكبرى، بذهابه إلى القاهرة، وقد صلب عوده، وتفتح فكره ووجدانه، واتسعت قراءته ومعارفه، وعرف بعض ما يُعانيه وطنه مصر، وما تُعانيه أمته الكبرى ... وكيف تواجه هذه الأمة أزمتها الروحية والعقلية والاجتماعية، ومن لها من الرجال الذين يحملون عبئها، وقد قابل من قابل من العلماء وكبار القوم، ولكنه لم يجد الاستجابة إلا من القليلين، وكان يشعر في أعماقه أنه قادر على أن يفعل شيئًا. وقد سأله أحد شيوخه في «دار العلوم» عن أحسن بيت أعجبه في معلقة طرفة بن العبد، فقال له:

إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت عُنيتُ، فلم أكسل، ولم أتبلد!

فأثنى عليه أستاذه، وعرف علو همته. وكان كثيرًا ما يتمثل بقول أبي الطيب المتنبي كما سمعت من الشيخ الغزالي:

يقولون لي: ما أنت؟ في كل وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن

يصف الكاتب الأمريكي ريتشارد. ب. ميتشل هذه الفترة - فترة الانتقال إلى القاهرة - وأثرها في مسيرة حسن البنا، وفي توجهه. فيقول: «وافق وصول البنا إلى القاهرة فترة الغليان السياسي والفكري الشديد الذي غير

العشرينات في مصر، فنظر إلى ذلك المشهد بعين القروي المتدين[17]، واستخلص ما اعتبره مشاكل جدية، وهي التنازع على حكم مصر بين حزبي الوفد والأحرار الدستوريين السياسيين، والجدل السياسي الصاخب وما نتج عنه من الفرقة التي أعقبت ثورة 1919م، والدعوة إلى الإلحاد والإباحية التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي، ومهاجمة الأعراف المستقرة والمعتقدات، التي ساندتها «الثورة الكمالية» بنبذها الخلافة والخط العربي، وهي مهاجمة تمَّ انتظامها في حركة «التحرر الفكري والاجتماعي» لمصر، ثم التيارات غير الإسلامية بالجامعة المصرية التي أعيد تنظيمها آنذاك، والتي بدا أنها تستمد إلهامها من الفكرة القائلة بأن «الجامعة لا يمكن أن تكون جامعةً علمانيةً ما لم تثُر ضد الدين، وما لم تحارب الأعراف الاجتماعية المستمدة منه»، يضاف إلى ذلك الدهريون والتحرريون من رواد الندوات الأدبية والاجتماعية، ثم الجمعيات والحفلات والكتب والصحف والمجلات التي روَّجت الأفكار التي كان هدفها الوحيد هو إضعاف أثر الدين[18].

وكان رد فعل هذه الصورة على البنا ونظرائه في التفكير ما عبَّر عنه بقوله: «ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء، ونفكر في العلاج وحسم الداء. ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء».

ما إن وصل البنا إلى القاهرة حتى قام ببعض الاتصالات مع أتباع طريقته

---

(17) انظر: «أحمد نهضة» (ص105).

(18) انظر: أنور الجندي «قائد الدعوة» (ص: 137 - 139) والحسيني «الإخوان المسلمون كبرى الحركات» (ص: 10، 11).

الحصافية، ولكن سرعان ما تبين له أنها غير مجدية. وفي عامه الثاني التحق بمجموعة دينية أخرى هي «جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية» التي عنيت بإلقاء محاضرات في موضوعات إسلامية[19].

ولكن كان ذلك أيضًا غير كاف لمواجهة مشكلة الفجوة التي بدت له تفصل بين المسلمين وبين العقيدة وتعاليمها.

وهكذا انبعثت خطوته التالية من مخاوفه تلك ومن اقتناعه المتزايد بأن «المسجد وحده لا يكفي» لنشر العقيدة بين الناس، وبالتالي قام بتنظيم مجموعة من طلبة الأزهر ودار العلوم الراغبين في التدرب على مهمة «الوعظ والإرشاد»، وبعد مدة وجيزة دخل هؤلاء المسجد واعظين، وأهم من ذلك هو أن طريقتهم في الوعظ قد لاقت نجاحًا كبيرًا فيما بعد، إذ اتبعوا سبيل الاتصال المباشر بالناس، في أماكن اجتماعاتهم العامة، كالمقاهي والمجتمعات الشعبية الأخرى، قاصدين بذلك تعزيز الفكرة الإسلامية ونشرها من جديد.

حفز اهتمام البنا بمشكلة ابتعاد «الشباب المتعلم» عن الحياة الإسلامية إلى طلبه المشورة ممن يكبرونه من رجال الدين وغيرهم، وكثيرًا ما تردد على المكتبة السلفية التي كان يديرها آنذاك «محب الدين الخطيب» كما جالس رشيد رضا السوري والذي يعتبر وارث مشعل «محمد عبده» ومحرر «مجلة المنار» كما أصبح معجبا مخلصا بفريد وجدي وأحمد تيمور باشا، إذ رأى في هؤلاء أنصارا للقضية الإسلامية.

---

(19) «رسالة المؤتمر الخامس» (ص117) من مجموع الرسائل.

وأخيرًا حمل مخاوفه من هذا الموقف إلى مشايخ جامعة الأزهر، وهو عماد الفكر الإسلامي، وانتقد بمرارة معارضتهم غير الفعالة واستسلامهم الواضح «للتيارات التبشيرية والإلحادية» التي مزقت المجتمع الإسلامي. لقد أحس البنا بأن وقت العمل قد حان وجادل عن ذلك[20]، وقد أرهف حسه ما اكتسبه من خبرة في بدء حياته ليشعر بهذا الأمر يلح عليه ويدفعه وحتى إنه ظل بقية عمره يحمل ذكريات مؤلمة عن القلق الروحي العميق، الذي غمر هذه الفترة من حياته في القاهرة، حينما اتصل بالرسميين من رجال الدين. وحينئذ بدأ يرى بوضوح نوع «العمل» اللازم لانقاذ المجتمع الإسلامي، ودوره في هذه المجهودات «العملية» الموجهة نحو تحقيق هذه الغاية. وفي عامه الأخير بدار العلوم طلب من صفه أن يكتب كل طالب مقالا في الموضوع التالي: «اشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك وبين الوسائل التي تعدها لتحقيقها».

بدأ البنا بقوله: «أعتقد أن خير النفوس تلك النفس الطيبة التي ترى سعادتها في إسعاد الناس وإرشادهم» واستطرد مقررًا أن خير ما يتحقق به هذا الهدف هو إحدى وسيلتين: الأولى: «طريق التصوف الصادق الذي يتلخص في الإخلاص والعمل لخدمة الإنسانية» والثاني: «طريق التعليم والإرشاد الذي يجامع الأول في الإخلاص والعمل، ويفارقه في الاختلاط بالناس».

---

(20) يرى البنا أن نتيجة تبادل الآراء كما ذكرنا أدى إلى تطورين إسلاميين إيجابيين عام 1927م، أولهما: تأسيس جمعية الشبان المسلمين على نسق جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشبان اليهود. وثانيهما: إنشاء مجلة قصد منها أن تكون «صوت للإسلام» سميت مجلة الفتح. انظر: «مجلة الدعوة» (15 / 2 / 1955م ص18) للعلم وذلك حول المقالات الأولى التي نشرها البنا والتي ظهرت في مجلة الفتح. ميتشل.

ثم أضاف البنا: «وأعتقد أن قومي بحكم الأدوار السياسية التي اجتازوها، والمؤثرات الاجتماعية التي مرت بهم، وبتأثير المدنية الغربية ... والفلسفة المادية، والتقليد الفرنجي بعدوا عن مقاصد دينهم. ونتيجة لذلك ورث الشباب عقيدة «فاسدة» وعمهم «شك وحيرة» «بدلًا الإيمان إلحادًا».

رأى البنا في موقفه ذلك أن رسالته في الحياة هي قلب هذه التيارات، وأن عليه لتحقيق ذلك أن يصبح «معلمًا ومرشدًا» واهبًا نفسه للأطفال أطراف النهار، ولآبائهم آناء الليل، حتى يلقنهم جميعًا «أهداف الدين ومصادر سعادتهم ورفاهيتهم في الحياة».

بداية تأسيس الإخوان:

بدأ «البنا» يقوم بدور نشط في حياة مجتمع الإسماعيلية بجانب قيامه بواجباته الأساسية في المدرسة. وكان المسجد والمدرسة هما الطريقتين الأساسيتين اللتين سلكهما البنا للتعارف على الهيئات الدينية والشخصيات الهامة بالمدينة. وفي وقت قصير، وكما وعد في مقال تخرجه كان لا يضطلع بأعباء حصصه اليومية فحسب، بل أخذ يقوم بتعليم آباء التلامذة أثناء الليل، وكان غالبية هؤلاء آنذاك من العمال، وصغار التجار، وموظفي الحكومة وعاود البنا استخدام «المقاهي» عل غرار ما استخدمها في القاهرة، لاجتذاب مستمعيه، بجانب المدرسة والمسجد، وكان منهجه أن يخطب في الناس، ويلحظ من تأثر بقوله، فيدعوهم في جماعات قليلة إلى مكان آخر حيث يعلمهم ويعظهم، ويناقش معهم قضية الإسلام، جاهدًا خلال هذا النشاط المبدئي أن يتعرف بصفة عامة إلى مصادر القوة في المجتمع وأن ينفذ إليها.

وسرعان ما تبين أن المصادر الأولى للنفوذ هي (1) العلماء و (2) مشايخ الطرق الصوفية و (3) كبار القوم، وكان يعني بذلك الأسر الكبيرة المعروفة والتجمعات بشكل عام و (4) النوادي وعني: الجمعيات الدينية والاجتماعية، وهكذا وجه اهتمامه إلى هذه المصادر محاولا التأثير فيمن يكونون الرأي العام.

على أن ملاحظات البنا حول هذا المجتمع، زادت من إدراكه للدور المخصص لهذه المدينة، بوصفها نقطة تمركز للاحتلال العسكري البريطاني «وللاحتلال الاقتصادي» الأجنبي، ذلك أنها لم تقتصر على احتوائها المعسكرات الحربية البريطانية ولكنها أيضًا كانت مركز شركة قناة السويس، وهذا وضع لا يقل إزعاجًا عن الاحتلال لما يتضمنه من سيادة أجنبية مطلقة على المرافق العامة ولما ترتب عليه من إقامة المساكن البادية الأناقة والرفاهة يقطنها الأجانب ويشرفون منها على بيوت العمال «البائسين»، بل إن البنا لاحظ أن أسماء الشوارع، ولافتات الطرقات في الأحياء الشعبية المصرية كانت مكتوبة «بلغة الاحتلال الاقتصادي».

وبالرغم من أن انتباه البنا كان مركزًا بالضرورة حول البيئة الجديدة، إلا أنه ظل دائب التفكير في القاهرة بما فيها من آثام، وما يرجيه من آمال، لذلك ظل مبقيًا على «صلاته» بالجماعات الإسلامية هناك وبالأصدقاء الذين «تعاهد» معهم على خدمة «رسالة الإسلام». فأولى «جمعية الشبان المسلمين» اهتمامًا خاصًا، وأعان على تأسيسها عام 1927م، كما عمل مندوبًا لمجلة الفتح التي أصدرها آنذاك محب الدين الخطيب مدير المكتبة

السلفية وأحد مؤسسي جمعية الشبان المسلمين[21].

وما لبثت جمعية البنا الخاصة أن ولدت بُعيد تأسيس جمعية الشبان المسلمين، ففي شهر ذي القعدة لعام 1347هـ[22] (مارس 1928م) حسبما سجله البنا، اجتمع ستة أعضاء من عمال المعسكر البريطاني بالبنا، وأعلنوا

---

(21) لم ير البنا قط في جمعية الشبان المسلمين سعة الأفق التي تستغرق كل جهده واجتهاده.

(22) يوافق ذو القعدة 1347هـ تمامًا شهر إبريل مايو 1929م كما ذكره هيورث كرن في كتابه: «مصر الحديثة» (ص15) وفي روزنتال في كتابه «الإخوان المسلمون في مصر» (أكتوبر 1947م) (ص278)، إلا أن البنا أورد شهر مارس 1928م مزاوجًا التاريخ العربي وقد أورد الحسيني في كتابه «الإخوان» (ص17) مارس سنة 1928م دون الرجوع إلى التاريخ الهجري وتواتر ذكر أحد التاريخين على لسان الكتاب دون الإشارة إلى الفارق بينهما. على أن ذكرى تأسيس الجمعية العاشر قد احتفل به في يناير 1939م مما يجعل 1929م أقرب إلى الصحة، أما الذكرى العشرون فقد احتفل بها في سبتمبر 1948م. وترى غالبية الأعضاء أن 1928م هي السنة الأصح. وقد وردت في المادة الأولى من نظام الجماعة «قانون النظام الأساسي لهيئة الإخوان المسلمين العامة» (ص5) مقرونة بالتاريخ الهجري المذكور. «راجع هاريس: الوطنية والثورة ص 150». اهـ.

أقول: والذي أراه أن التاريخ المعتمد لتأسيس جماعة الإخوان هو التاريخ الهجري، وقد ذكره الأستاذ البنا أكثر من مرة في رسائله، في «رسالة المؤتمر الخامس» (ص118) من مجموع الرسائل. وفي «اجتماع رؤساء المناطق» (ص 254) وفي «مذكرات الدعوة الداعية» (ص66). ولكنه في المذكرات ذكر التاريخ الهجري مؤكدًا، وقال عن التاريخ الميلادي: فيما أذكر. فهو غير مستيقن منه. والصواب أنه (مايو 1929م). وقد كان رضي الله عنه حريصًا على استخدام التاريخ الهجري وتثبيته في وعي الإخوان، وقلما يذكر التاريخ الميلادي. إذ يستحيل أن يكون ذو القعدة سنة 1347هـ يوافقه أي شهر في سنة 1928م. وهذه أمور أصبحت معروفة ومحسوبة ومحسومة ولا مجال فيها للجدال، فلزم التنويه والتصحيح. «القرضاوي».

رسميا افتتاح جمعية الإخوان المسلمين[23].

وتلك رسالة تقتضي منه الدأب والتضحية والدراسة والفهم، كما تقتضي منه جسدا يقبل به على مواجهة الصعاب «وروحه التي باعها لله». واختتم البنا مقاله بهذه الجملة: «ذلك عهد بيني وبين ربي» (ص 54 - 57).

أنهى هذا الشاب المتفاني دراسته بدار العلوم في صيف عام 1927م وهو في سن الحادية والعشرين، وسرعان ما واجه احتمال الالتحاق بإحدى البعثات السنوية الحكومية للدراسة بالخارج، ولكنه لسبب غير معلوم عدل عن ذلك «وقبل التعيين في السلك المدرسي بمصر» وكانت مهمته تدريس اللغة العربية في مدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية بمدينة الإسماعيلية بمنطقة القناة، وقد انتقل إلى منزله الجديد ووظيفته الجديدة في 1927/9/19م. وظل في السلك المدرسي حتى استقالته عام 1946م أي تسعة عشر عامًا.

حسن البنا رجل المرحلة:

هكذا كان العالم الإسلامي يعاني ما يعاني من تمزق في كيانه، وتصدع في بنيانه، ومن تهديم منظم لمادياته ومعنوياته.

وكان القدر الأعلى يصنع على عينه رجلًا، يعده لمهمة، ويسد به ثغرة كان الرجل هو حسن البنا، وكانت المهمة هي إيقاظ الأمة من رقود، وبعثها من همود، وتحريكها من جمود، وبعبارة أخرى: إحياء عقل الأمة وضميرها، وتفجير طاقاتها المكنونة بتجديد الإسلام فيها، وجمعها على

---

(23) «الإخوان المسلمون» لميتشل (ص 71 - 76) من الترجمة العربية.

رسالته، والإيمان به هدفًا ومنهاجًا للحياة، والجهاد في سبيل تمكينه في الأرض.

كانت الأمة في حاجة إلى عقل جديد، وقلب جديد، وعزم جديد، ودم جديد، وكانت في حاجة إلى أن تتجسد هذه المعاني في رجل يضع يده في يد الله، لينير له الطريق، ويهديه سواء السبيل.

لقد أدى الأفغاني دوره في الإيقاظ العام لمشاعر الأمة لمقاومة الاستعمار، وأدى الإمام محمد عبده دوره في إيقاظ عقل الأمة ومقاومة الجمود الفكري فيها. وقام العلامة رشيد رضا بعدهما بدور كبير غير منكور في التجديد والتأصيل الشرعي لمسيرة الإصلاح.

ولكن الأمة كانت تفتقر إلى «جيل جديد» من: **{ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ}** [الأحزاب: 39].

جيل يصنعه الله تعالى على عينه، من قوم ادخرهم لنصرة دينه حين يرتد المرتدون، ويمرق المارقون: **{يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ}** [المائدة: 54].

جيل يحسن فهم الإسلام، ويؤمن به، ويعمل به، ويدعو له، ويجاهد في سبيله، ويعمل على صبغ الحياة العامة بصبغته: **{صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ}** [البقرة: 138].

ولا يقدر على تربية هذا الجيل، وإعداده للمهمة الجليلة المنوطة به إلا رجل رباني، نذر نفسه وفكره وجهده وحياته لله رب العالمين، وكان الرجل المنتظر هو حسن البنا، الذي اصطفاه القدر ليكون للمتقين إمامًا. ولقد وجه

أحد الصحفيين إلى حسن البنا - ضمن عدة شخصيات - سؤالًا يقول: من أنت؟ فكانت إجابته: أنا سائح يبحث عن الحقيقة، وإنسان يفتش عن الإنسانية في الناس بمصباح «ديوجين». أنا متجرد أدرك سر وجوده، فنادى في الناس: {**إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**} [الأنعام: 162].

لقد سمعت حسن البنا في أواسط الأربعينات من القرن العشرين يتحدث في مدينة طنطا إلى المعلمين، فكان مما قاله: إن الناس في حاجة إلى رجل ذي قلب يفيض من قلبه على قلوب من حوله، ومن هذا الفيض الرباني يفيضون على من حولهم، وبهذا يتحولون من حال إلى حال، ويخرجون من الظلمات إلى النور.

وكأن حسن البنا كان يتحدث عن نفسه، فهو ذلك الرجل المنشود «ذو القلب» كما أنه أيضًا «ذو العقل» والإسلام أبدًا يقوم على القلب النقي والعقل الذكي، وهما يثمران: العزم الفتي والسلوك السوي.

استمعت إلى حسن البنا وأنا طالب في السنة الأولى الابتدائية بمعهد طنطا الديني الأزهري، في مناسبة ذكرى الهجرة النبوية، وقال كلامًا لا زلت أعيه إلى اليوم لأنه كان كلامًا جديدًا مركزًا مرتبًا مفيدًا، يغاير ما كنت أسمعه من الوعاظ والخطباء، كل عام في ذكرى الهجرة.

واستمعت إليه بعد ذلك كلما جاء إلى مدينة طنطا، وسافرت أكثر من مرة لاستمع إليه في بعض مدن الوجه البحري في مصر، مثل: كفر الزيات، ودسوق والمحلة الكبرى، ومحلة أبو علي.

وقرأت - تقريبًا - كل ما كتبه حسن البنا، مما نشر من تراثه[24] من رسائل وبحوث ومقالات ومنشورات، وعرفت أن الرجل كان موفقًا مسددًا مصنوعًا على عين الله، أحبه أصحابه وأتباعه أبلغ الحب، وقدروه أعظم التقدير، وقل في الناس من تجمع له بين الحب والتقدير، إلا القليل، وقل من الناس من اتصل به إلا أعجبه وأحبه.

بل ربما عاب بعض الناس على إخوان حسن البنا أنهم يكادون يضفون عليه نوعًا من القداسة أو العصمة، وهذا لا ذنب له فيه. فالرجل لم يدع لنفسه قداسة ولا عصمة، وقال في «أصوله العشرين» كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وكان في الأحفال التي تقام في مناسبات شتى إذا رأى من بعض الإخوان جنوحًا إلى الغلو في مدحه قال: تكلموا في الدعوة، فإنها باقية والأشخاص فانون.

وكل من لقي حسن البنا خرج من لقائه مثنيًا عليه، ومن عاشره أحبه، ومن خالطه أكثر إزداد له حبًا وتقديرًا.

وسماه رجل أجنبي «الرجل القرآني» وهي تسمية أصابت كبد الحقيقة، وقال عنه المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني: «الملهم الموهوب» وهي صفة ملموسة.

---

(24) هناك أشياء كثيرة لم تنشر من تراث حسن البنا مما كتبه قديمًا في مجلات الإخوان المسلمين وغيرها، وكنت نبهت منذ زمن على وجوب نشر «مجموعة أعمال حسن البنا» وقد بشرني الأستاذ أحمد سيف الإسلام البنا: أن تراث والده قد جمع، ووضع على «الكومبيوتر» وأرجو أن نقرأه قريبًا.

وهكذا ترى أكثر من أثنى على حسن البنا إنما هم الإخوان القريبون منه، العارفون به، المخالطون له، انظر ما قاله عنه الهضيبي والتلمساني، وأبو النصر، ومشهور، الذين تولوا منصب الإرشاد العام من بعده.

وانظر ما كتبه عنه محمد فريد عبد الخالق، وعباس السيسي، ومحمود عبد الحليم وغيرهم ممن صحبوه وعايشوه، وعرفوا مدخله ومخرجه.

وأكتفي هنا بنقل بعض الكلمات المضيئة والمعبرة من رجلين من كبار رجال الدعوة في مصر.

شهادة الشيخ الغزالي:

الأولى: من داعية عصره الأول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ، الذي قال في مقدمة كتابه «دستور الوحدة الثقافية» الذي شرح فيه «الأصول العشرين» لحسن البنا قال الشيخ: «ملهم هذا الكتاب وصاحب موضوعه: الأستاذ الإمام حسن البنا، الذي أصفه ويصفه معي كثيرون بأنه مجدد القرن الرابع عشر للهجرة، فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل المتفرق، وتوضح الهدف الغائم، وتعود بالمسلمين إلى كتاب ربهم، وسنة نبيهم وتتناول ما عراهم خلال الماضي من أسباب العوج والاسترخاء، بيد آسية، وعين لماحة فلا تدع سببًا لضعف أو خمول.

ومن الخطأ القول بأن حسن البنا أول من رفع راية المقاومة في هذا القرن الذليل، لقد سبقه في الشرق العربي، والمغرب العربي، وأعماق الهند وأندونيسيا، وغيرها، رجال اشتبكوا مع الأعداء في ميادين الحرب والسياسة والتعليم والتربية، وأبلوا بلاء حسنًا في خدمة دينهم وأمتهم.

وليس يضيرهم أبدًا أنهم انهزموا آخر الأمر، فقد أدوا واجبهم لله. وأتم من بعدهم بقية الشوط الذي هلكوا دونه.

إن حسن البنا استفاد من تجارب القادة الذين سبقوه، وجمع الله في شخصه مواهب تفرقت في أناس كثيرين.

كان مدمنًا لتلاوة القرآن يتلوه بصوت رخيم، وكان يحسن تفسيره كأنه الطبري أو القرطبي، وله قدرة ملحوظة على فهم أصعب المعاني ثم عرضها على الجماهير بأسلوب سهل قريب.

وهو لم يحمل عنوان التصوف، بل لقد أبعد من طريقه كانت تنتمي إليها بيئته.

ومع ذلك فإن أسلوبه في التربية وتعهد الأتباع وإشعاع مشاعر الحب في الله، كان يذكر بالحارث المحاسبي وأبي حامد الغزالي.

وقد درس السنة المطهَّرة على والده الذي أعاد ترتيب «مسند أحمد بن حنبل»، كما درس الفقه المذهبي باقتضاب، فأفاده ذلك بصرًا سديدًا بمنهج السلف والخلف.

ووقف حسن البنا على منهج محمد عبده وتلميذه صاحب «المنار» الشيخ محمد رشيد رضا، ووقع بينه وبين الأخير حوار مهذب، ومع إعجابه بالقدرة العلمية للشيخ رشيد، وإفادته منها، فقد أبى التورط فيما تورط فيه[25].

---

(25) يقصد: تصديه بعنف للحملة على الأزهر وعلمائه المقلدين للمذاهب، وعلى الطرق الصوفية وغيرهم فوافق الشيخ البنا الشيخ رشيد في فكره وخالفه في أسلوبه وطريقته. «القرضاوي».

ولعله كان أقدر النـاس علـى رفـع المستوى الفكـري للجمـاهير مـع لبقـة مـن أسباب الخلاف ومظاهر التعصب.

وقد أحاط الأستاذ البنا بالتاريخ الإسـلامي، وتتبـع عوامـل المـد والجـزر فـي مراحله المختلفة، وتعمق تعمقًا شديدًا في حاضـر العـالم الإسـلامي، ومؤامـرات الاحتلال الأجنبي ضده.

ثـم فـي صـمت غريـب أخذ الرجـل الصـالح يتنقـل فـي مـدن مصـر وقراهـا، وأظنه دخل ثلاثة آلاف من القرى الأربعة آلاف التي تكون القطر كله.

وخـلال عشـرين عامًـا تقريبًـا صـنع الجمـاهير التـي صـدعت الاسـتعمار الثقافي والعسكري، ونفخت روح الحياة في الجسد الهامد. اهـ.

شهادة الشهيد سيد قطب:

والداعية الثاني الذي تحدث عن «حسن البنـا وعبقريـة البنـاء» هو الشـهيد سيد قطب رحمه الله ففي إحدى مقالاتـه التـي جمعت فـي كتـاب تحت عنـوان «دراسات إسلامية» وهو لم يصاحب حسن البنا، وإن تعاصرا، وكـان كلاهمـا خريج دار العلوم، ولكن قطبا عرف البنا مـن آثـاره فـي إخوانـه، وفـى حركتـه، وفـى تـأثيره فـي مصـر وفـي العـالم الإسـلامي. وهـى شـهادة مـن شـهيد لاحـق لشهيد سابق، والمسلمون شهود عدول بعضهم على بعض.

يقول سيد قطب رحمه الله :

في بعض الأحيان تبدو المصادفة العابرة كأنها قدر مقدور، وحكمـة مدبرة في كتاب مسطور ... حسن البنا ... إنهـا مجرد مصـادفة أن يكون هذا لقبـه ... ولكـن مـن يقـول: إنهـا مصـادفة، والحقيقـة الكبـرى لهـذا الرجـل هـي البنـاء،

وإحسان البناء، بل عبقرية البناء؟

لقد عرفت العقيدة الإسلامية كثيرًا من الدعاة ... ولكن الدعاية غير البناء ... وما كل داعية يملك أن يكون بناء، وما كل بناء يوهب هذه العبقرية الضخمة في البناء.

هذا البناء الضخم ... الإخوان المسلمون ... إنه مظهر هذه العبقرية الضخمة في بناء الجماعات ...إنهم ليسوا مجرد مجموعة من الناس، استجاش الداعية وجداناتهم، فالتفوا حول عقيدة ... إن عبقرية البناء تبدو في كل خطوة من خطوات التنظيم ... من الأسرة إلى الشعبة، إلى المنطقة، إلى المركز الإداري، إلى الهيئة التأسيسية، إلى مكتب الإرشاد.

هذه من ناحية الشكل الخارجي، وهو أقل مظاهر هذه العبقرية، ولكن البناء الداخلي لهذه الجماعة أدق وأحكم، وأكثر دلالة على عبقرية التنظيم والبناء ... البناء الروحي ...هذا النظام الذي يربط أفراد الأسرة وأفراد الكتيبة وأفراد الشعبة. هذه الدراسات المشتركة، والصلوات المشتركة، والتوجيهات المشتركة، والرحلات المشتركة، والمعسكرات المشتركة ... وفي النهاية هذه الاستجابات المشتركة والمشاعر المشتركة التي تجعل نظام الجماعة عقيدة تعمل في داخل النفس، قبل أن تكون تعليمات وأوامر ونظمًا.

والعبقرية في استخدام طاقة الأفراد، طاقة المجموعات، في نشاط لا يدع في نفوسهم ولا يدعهم يتلفتون هنا أو هنالك يبحثون عما يملأون به الفراغ ... إن مجرد استثارة الوجدان الديني لا يكفي ... وإذا قصر الداعية همه على هذه الاستثارة فإنه سينتهي بالشباب خاصة إلى نوع من الهوس الديني، الذي لا

يبني شيئًا، وإن مجرد الدراسة العلمية للعقيدة لا تكفي. وإذا قصر الداعية همه على هذه الدراسة، فإنه سينتهي إلى تجفيف الينابيع الروحية التي تكسب هذه الدراسة نداوتها وحرارتها وخصوبتها. وإن مجرد استثارة الوجدان والدراسة معًا لا يستغرقان الطاقة، فستبقى هنالك طاقة عضلية، وطاقة عملية، وطاقة فطرية أخرى في الكسب والمتاع والشهرة والعمل والقتال.

وقد استطاع حسن البنا أن يكفر في هذا كله ... أو أن يلهم هذا كله، فيجعل نشاط الأخ المسلم يمتد - وهو يعمل في نطاق الجماعة - إلى هذه المجالات كلها، بحكم نظام الجماعة ذاته، وأن يستنفد الطاقات الفطرية كلها، في أثناء العمل للجماعة، وفي مجال بناء الجماعة ... استطاع ذلك في نظام الكتائب، ونظام المعسكرات، ونظام الشركات الإخوانية، ونظام الدعاة، ونظام الفدائيين، الذي شهدت معارك فلسطين، ومعارك القنال نماذج من آثاره، تشهد بالعبقرية لذلك النظام.

وعبقرية البناء في تجميع الأنماط من النفوس، ومن العقليات ومن الأعمار، ومن البيئات ... تجميعها كلها في بناء واحد. كما تتجمع النغمات المختلفة في اللحن العبقري ... وطبعها كلها بطابع واحد يعرفون به جميعًا، ودفعها كلها في اتجاه واحد ... على تباين المشاعر والإدراكات والأعمار والأوساط، في ربع قرن من الزمان.

ترى أكانت مصادفة عابرة أن يكون هذا لقبه؟ أو أنها الإرادة العليا التي تنسق في كتابها المسطور بين أصغر المصادفات وأكبر المقدورات في توافق واتساق؟

ويمضي حسن البنا إلى جوار ربه، يمضي وقد استكمل البناء أسسه، يمضي فيكون استشهاده على النحو الذي أريد له: عملية جديدة من عمليات البناء ... عملية تعميق للأساس، وتقوية للجدران. وما كان ألف خطبة وخطبة، ولا ألف رسالة للفقيد الشهيد لتلهب الدعوة في نفوس الإخوان، كما ألهبتها قطرات الدم الزكي المهراق.

إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع، حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة.

وحينما سط الطغاة الأقزام الحديد والنار على الإخوان، كان الوقت قد فاتن كان البناء الذي أسسه حسن البنا قد استطال على الهدم، وتعمق على الاجتثاث. كان قد استحال فكرة لا يهدمها الحديث والنار، فالحديد والنار لم يهدما فكرة في يوم من الأيام. واستعلت عبقرية البناء على الطغاة الأقزام، فذهب الطغيان، وبقى الإخوان.

ومرة بعد مرة، نزت في نفوس بعض الرجال - من الإخوان - نزوات ... وفي كل مرة سقط أصحاب هذه النزوات كما تسقط الورقة الجافية من الشجرة الضخمة، أو انزوت تلك النزوة، ولم تستطع أن تحدث حدثا في الصفوف.

ومرة بعد مرة، استمسك أعداء الإخوان بفرع من تلك الشجرة، يحسبونه عميقًا في كيانها، فإذا جذبوه إليهم جذبوا الشجرة، أو اقتلعوا الشجرة ... حتى إذا آن أوان الشد خرج ذلك الفرع في أيديهم جافًا يابسًا كالحطبة الناشقة، لا ماء فيه ولا ورق ولا ثمار!

إنها عبقرية البناء، تمتد بعد ذهاب النباء ...». اهـ[26].

شهادة العلامة أبي الحسن الندوي:

أضيف إلى هاتين الشهادتين «للغزالي وقطب» شهادتين من خارج محيط الإخوان، ومن خارج مصر، وممن لم يلقوا حسن البناء، ولكن عرفوه من آثاره ومن تلاميذه وأصحابه، الأولى هي شهادة من رباني عصره العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ظظظ الذي قال في تقديمه لكتاب «مذكرات الدعوة والداعية» للإمام الشهيد:

«إن الذي عرف الشرق العربي الإسلامي في فجر القرن العشرين، وعرف بصفة خاصة، وعرف ما أصيب به هذا الجزء الحساس الرئيسي من جسم العالم الإسلامي من ضعف في العقيدة والعاطفة، والأخلاق والاجتماع، والإرادة والعزم، والقلب والجسم، وعرف الرواسب التي تركها حكم المماليك وحكم الأتراك وحكم الأسرة الخديوية، وما زاد إليها الحكم الأجنبي الإنكليزي، وما جلبته المدنية الإفرنجية المادية والتعليم العصري اللاديني، والسياسة الحزبية النفعية.

وما زاد هذا الطين بلة من ضعف العلماء وخضوعهم للمادة والسلطة، وتنازل أكثرهم عن منصب الإمامة والتوجيه، وانسحابهم عن ميدان الدعوة والإرشاد، والكفاح والجهاد، واستسلامهم «للأمر الواقع» وخفوت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، زاد إلى ذلك كله نشاط دعاة الفساد

---

(26) انظر: «دراسات إسلامية» لسيد قطب. مقال «حسن البنا وعبقرة البناء» (ص255 - 228).

والهدم، والخلاعة والمجون، والإلحاد والزندقة، وتزعم الصحف والمجلات واسعة الانتشار، قوية التأثير، للدعوات المفسدة، والحركات الهدامة، والاستخفاف بالدين وقيمه، والأخلاق وأسسها، وما آل إليه الأمر ووصلت إليه الأقطار العربية بصفة عامة، والقطر المصري بصفة خاصة من التبذل والإسفاف، والضعف والانحطاط، والثورة والفوضى، والانهيار الخلقي، والروحي في الثلث الأول من هذا القرن الميلادي، ورأى كل ذلك مجسمًا مصورًا في أعداد «الأهرام» و«المقطم» و«الهلال» و«المصور»، وفي كتب كان يصدرها أدباء مصر وكتابها المفضلون المحببون عند الشباب، ورأى ذلك مجسمًا مصورًا في أعياد مصر ومهرجاناتها، وحفلاتها وسهراتها، واستمع إلى الشباب الجامعي في نواديهم ومجالسهم، وزار الإسكندرية وشواطئها ومصايفها، ورواقق فرق الكشافة والرياضة المباراة، ودخل دور السينما، ورأى الأفلام الأجنبية والمحلية، واطلع على الروايات التي تصدرها المكتبة العربية في مصر بين حين وآخر، ويتهافت عليها الشباب بنهامة وجشع، وعاش متصلًا بالحياة والشعب، وتتبع الحوادث ولم يعش في برج عاجي وفي عالم الأحلام والأوهام، وعرف رزية الإسلام والمسلمين، ونكبة الدعوة الإسلامية في هذا الجزء الذي كان يجب أن يكون زعيمًا للعالم العربي كله، وزعيمًا للعالم الإسلامي عن طريقه، وقد بقى قرونًا كناية الإسلام ومصدر العلم والعرفان، وأسعف العالم العربي وأنجده، بل أنقذه في فترات دقيقة عصبية في التاريخ الإسلامي، ولا يزال يحتضن الأزهر الشريف أكبر مركز ثقافي إسلامي وأقدامه.

إذ كان من عرف ذلك عن كثب لا عن كتب وعاش متصلًا به، عرف

فضل هذه الشخصية التي قفزت إلى الوجود، وفاجأت مصر ثم العالم العربي والإسلامي كله بدعوتها وتربيتها وجهادها، وقوتها الفذة التي جمع الله فيها مواهب وطاقات، قد تبدو متناقضة في عين كثير من علماء النفس والأخلاق، ومن المؤرخين والناقدين: هي العقل الهائل النير، والفهم المشرق الواسع، والعاطفة القوية الجياشة، والقلب المبارك الفياض، والروح المشبوبة النضرة، واللسان الذرب البليغ، والزهد والقناعة - دون عنت - في الحياة الفردية، والحرص وبعد الهمة - دونما كلل - في سبيل نشر الدعوة والمبدأ، والنفس الولوعة الطموح، والهمة السامقة الوثابة، والنظر النافذ البعيد، والإباء والغيرة على الدعوة، والتواضع في كل ما يخص النفس ... تواضعًا يكاد يجمع الشهادة عارفوه، حتى لكأنه - كما حدثنا كثير منهم - مثل رفيف الضياء: لا ثقل ولا ظل ولا غشاوة.

(57)@وقد تعاونت هذه الصفات والمواهب في تكوين قيادة دينية اجتماعية، لم يعرف العالم العربي وما وراءه قيادة دينية سياسية أقوى وأعمق تأثيرًا وأكثر إنتاجًا منها منذ قرون، وفي تكوين حركة إسلامية يندر أن تجد - في دنيا العرب خاصة - حركة أوسع نطاقًا وأعظم نشاطًا، وأكبر نفوذًا، وأعظم تغلغلًا في أحشاء المجتمع، وأكثر استحواذًا على النفوس منها.

وقد تجلت عبقرية الداعي مع كثرة جوانب هذه العبقرية ومجالاتها - في ناحيتين خاصتين لا يشاركه فيهما إلا القليل النادر من الدعاة والمربين والزعماء والمصلحين.

أولاهما: شغفه بدعوته إيمانه واقتناعه بها وتفانيه فيها وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله، وذلك في الشرط الأساسي والسمة الرئيسية

للدعاة والقادة الذي يجري الله على أيديهم الخير الكثير.

والناحية الثانية: تأثيره العميق في نفوس أصحابه وتلاميذه، ونجاحه المدهش في التربية والإنتاج: فقد كان منشئ جيل، ومربي شعب، وصاحب مدرسة علمية فكرية خلقية، وقد أثر في ميول من اتصل به من المتعلمين والعاملين، وفي أذواقهم، وفي مناهج تفكيرهم، وأساليب بيانهم ولغتهم وخطاباتهم، تأثيرًا بقى على مر السنين والأحداث، ولا يزال شعارًا وسمة يعرفون بها على اختلاف المكان والزمان». انتهى.

شهادة الشيخ عبد السلام يس:

وهناك شهادة أ خرى اتتنا من المغرب العربى، من المربي الكبير الشيخ عبد السلام يس مؤسس «جماعة العدل والإحسان» بالمغرب وصاحب الكتب التربوية والدعوية والحركية المعروفة لكل من يهتم بأمر الإسلام، قال ظظظ:

«لا معنى للتجديد ولا مكان له، ولو برز بين المسلمين زعماء عظام، ما لم يتجدد في الأمة الإيمان بصحبة المجددين، وكذلك كان حال الأستاذ البنا رحمه الله . كان مغناطيسيا ومركز إشعاع كثير من حملة الأقلام، وقراء الأدبيات الإسلامية رحمه الله رحمة واسعة.

كان فكر البنا مغناطيسًا ملائمًا لزمانه كما كانت روحانيته، وهو حي يرزق، آية من آيات الله. وكان حريصًا على أن يخرج بجماعته من سلبيات الطريقة الحصافية التبركية التي تربى طفلًا ويافعًا بين أحضانها. لكنه احتفظ بالبيعة الصوفية وطورها لتتسع للجهاد الذي ضاقت عنه الصيغة الموروثة عن المشايخ للبيعة. كانت بيعته لأصحابه بيعة مزدوجة، بين السيف

والمصحف. بيعة تأخذ من التقليد الصوفي جانبًا ومن التنظيم العصري جانبًا.

مهد الأستاذ البنا رحمه الله لشروط بيعته في «رسالة التعاليم» بشرح المفاهيم الأساسية لفكره وعمله. فبين ما يقصده بكلمة «فهم»، وهو فهم أصوله العشرين في العقيدة والشريعة والفقه، وتمييز ما بين البدعة والسنة. وبين ما يعنيه بكلمة «إخلاص» وكلمة «عمل» وكلمة «جهاد»، وكلمة «تضحية»، وكلمة «تجرد» وكلمة «أخوة». وختم شرح مفاهيمه بمفهوم «الثقة» وقال: «للقيادة في دعوة الإخوان حق الوالد بالرابطة القلبية، والأستاذ بالإفادة العلمية، والشيخ بالتربية الروحية، والقائد بحكم السياسة العامة للدعوة».

كان أفقه رحمه الله فسيحًاجامعًا لأطراف ما توزع من معان ومطالب. وكان شخصه الكريم فسيحًا جامعًا. فصحت قيادته وأثمرت أفضل الثمار. وبقيت البيعة بعده تراثًا ثقيلًا. اشترط رحمه الله على الملتحق بالجماعة المؤدي للبيعة ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين شرطًا، من بينها الوفاء بتعهدات شخصية مثل اجتناب الإسراف في شرب القهوة والشاي والاعتناء بالنظافة، ومن بينها التعبدية الإيمانية كإتقان الطهارة والصلاة وسائر الفرائض، ومنها الإحسانية كالمحافظة على الأوراد وحفظ القرآن، ومنها الأخلاقية كالحياء ورحمة الخلائق ومساعدة الضعيف، ومنها الحركية كالنشاط الدائم والتدرب على الخدمات العامة، ومنها السياسة كمقاطعة المحاكم الأهلية وعدم الحرص على الوظائف الحكومية، ومنها الاقتصادية كمقاطعة المعاملات الربوية والادخار للطوارئ.

ركز الشيخ ياسين على الشرط أو الواجب السادس والعشرين من شروط

بيعة الأستاذ البناء رحمه الله ، وفيه يقول: «أن تديم مراقبة الله تتت، وتذكرة الآخرة، وتستعد لها، وتقطع مراحل السلوك إلى رضوان الله بهمة وعزيمة، وتتقرب إليه سبحانه بنوافل العبادة. ومن ذلك صلاة الليل وصيام ثلاثة أيام من كل شهر على الأقل، والإكثار من الذكر القلبي واللسان، وتحري الدعاء المذكور على كل الأحوال».

قال الشيخ ياسين: وهي شروط عالية، من يفي بها لا شك يكون من المتقين. من بينها مسألة واحدة لا يفيد فيها إسرار ولا «إعلان» ولا يخبر عنها بوح ولا كتمان، ولا هي من شأن دون شأن، ألا وهي مسألة «قطع مراحل السلوك إلى رضوان الله». هذا لا يجئ إلا بصحبة. والمصحوب رجل حي سلك المراحل إلى الله، وتقرب حتى أحبه الله، وجعل قلبه مشكاة ونبراسًا وسراجًا وهاجًا. ما يحصل ذلك بإجازة تبركية، ولا بالانضواء تحت جناح عظيم من عظماء الأمة، عدا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، قبلة القلوب، رحمة العالمين، محبوب الرب جل وعلا[27]. اهـ.

الشيخ عبد السلام يرى أن الصحبة المؤثرة هي صحبة الأحياء، لا صبحة الأموات، وإن كانوا من الربانيين الصادقين، وهو أشبه بمن يقول في الفقه: لا يجوز تقليد الموتى، إنما يقلبد الفقيه الحي المتفاعل مع الناس والأحداث. وقد خالف في ذلك آخرون، وقالوا: الآراء لا تموت بموت أصحابها. وهذا صحيح، ولكنها لا تحيا إلا بتلاميذ أحياء، أقوياء، ويوقظونها في العقول والقلوب.

---

(27) من كتاب «الإحسان» للشيخ عبد السلام ياسين (ص 244 - 246).

لقد كان حسن البنا هبة من الله تعالى لمصر، ولأمة العروبة والإسلام. فبعد سقوط الخلافة بأربع سنوات أو خمس «أي سنة 1928م أو 1929م» بدأ حسن البناء دعوته، وأنشأ في مدينة الإسماعيلية التي كان يعمل مدرسًا بها جمعية «الإخوان المسلمين».

هذه الشهادات الأربع من هؤلاء الرجال الكبار: تكفينا للتعريف بقدر حسن البنا. فقد شهد له الغزالي بعبقرية الدعوة والتثقيف، وشهد له قطب بعبقرية البناء والتظيم، وشهد له الندوي ويس بعبقرية التربية والتكوين، وقد كان الرجل بالفعل إمامًا في هذه الميادين الثلاثة: في الدعوة وفي التربية، وفي التنظيم. وهي العلامات الفارقة التي تميزت بها حركته، التي تحمل «بصمته» الفكرية والدعوية والتربوية والتنظيمية.

غاية ضخمة وطريق شاقة:

كان حسن البنا قد عرف غايته وتبين طريقه، وعرف أن غايته كبيرة وضخمة، وأن طريقته شاقة وطويلة.

أما «الغاية»، فهي «تجديد الإسلام» في حياة الأمة - بدءًا بمصر وانتهاء بالأمة الإسلامية كلها - وقيادتها به إلى الكرامة والعزة والاستقرار والحياة الطيبة، سعيًا إلى الوحدة المنشودة والخلافة المفقودة، وعملًا على نشر الإسلام في العالم، كما أرادها الله **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107].

وأما الوسيلة، فهي تعريف الأمة بالإسلام شاملًا متكاملًا، كما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، ومطاردة الأفكار الغازية التي عششت في

عقول كثيرة من المسلمين، وخصوصًا طبقة النخبة، أو الطبقة المثقفة التي عزلها التغريب عن الإسلام، والأفكار المتخلفة المتوارثة عن عصور الانحطاط، حين ساء فهم الأمة للإسلام، وساء تطبيقها له. والعمل على تصحيح مفاهيم الأمة عن دينها، وواجبها نحوه، عملًا به، وعملًا له، ونصرة لدعوته، ونهوضًا بأمته، حتى يتكون رأي عام إسلامي ينادي بوجوب الرجعة إلى الإسلام.

وهذا ما يطلق عليه الإمام البنا وسيلة «التعريف» وتأتي بعدها وسيلة «التكوين» وهي وسيلة تعليمية تربوية طويلة المدى، عميقة الجذور، تقوم على تغيير الإنسان من أعماقه، وقيادته من داخله. وذلك باستخلاص العناصر الصالحة من الجماهير العريضة، العناصر المستعدة للبذل والعطاء وأعباء الجندية، لتكوين «جيل جديد» يفهم الإسلام فهمًا شاملًا لا يقبل التجزئة، ويؤمن به إيمانًا عميقًا لا يقبل الارتياب أو التزعزع أو المساومة، ويلتزم به في حياته: عقيدة وعبادة، وتفكيرًا وشعورًا، وخلقًا وسلوكًا، ويدعو إليه منهاجًا متكاملًا ومتوازنًا للحياة: روحًا وقانونًا، أو عقيدة وشريعة، دعوة ودولة، حقًا وقوة أو مصحفًا وسيفًا، صلاة وجهادًا، عبادة وقيادة.

يقول حسن البنا في رسالته «رسالة المؤتمر الخامس» مبينًا كيف بدأ يفكر في هذه الدعوة:

«وقفت نفسي منذ نشأت على غاية واحدة هي إرشاد الناس إلى الإسلام حقيقة وعملًا ولهذا كانت فكرة الإخوان المسلمين إسلامية بحتة، في غايتها وفي وسائلها، لا تتصل بغير الإسلام في شيء.

ظلت هذه الخواطر حديثًا نفسيًا ومناجاة روحية أتحدث بها في نفسي لنفسي، وقد أفضى بها إلى كثير ممن حولي، وقد تظهر في شكل دعوة فردية، أو خطابة وعظية، أو درس في المساجد إذا سنحت فرصة التدريس، أو حث لبعض الأصدقاء من العلماء على بذل الهمة، ومضاعفة المجهود في إنقاذ الناس، وإرشادهم إلى ما في الإسلام من خير.

ثم كانت في مصر وغيرها من بلدان لعالم الإسلامي حوادث عدة ألهبت نفسي[28] وأهاجت كوامن الشجن في قلبي، ولفتت نظري إلى وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس، ولا أطيل عليك بتفصيل حوادث انتهى أمرها وعفت آثارها، وفاء إلى الرشد أو بعض الرشد أصحابها.

ولقد أخذت أفاتح كثيرًا من كبار القوم في وجوب النهوض والعمل، وسلوك طريق الجد والتكوين، فكنت أجد التثبيط أحيانًا والتشجيع أحيانًا، ولتريث أحيانًا، ولكني لم أجد ما أريد من الاهتمم بتنظيم الجهود العملية، ومن الوفاء أن أذكر في هذا المقام المرحوم أحمد باشا تيمور أفسح الله له في جنته، فما رأيته مرة إلا مثالًا للهمة المتوثبة، والغيرة والمتوقدة، وما تحدثت إليه من شأن من شئون الأمة العامة، إلا وجدت العقل الكامل، والاستعداد التام والإلمام الشامل، وترقب ساعة العمل، فرحمه الله وأجزل مثوبته.

---

(28) لعلة يقصد: إلغاء الخلافة، وظهور كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، وكتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين ظهور أحزاب علمانية مثل «حزب الأمة» في مصر، وظهور مقالات في الصحف تجترئ على الإسلام، إلى غير ذلك مما حدث في تلك السنين. والله أعلم.

ووليت وجهي شطر الأصدقاء والإخوان ممن جمعني وإياهم عهد الطلب، وصدق الود، والشعور بالواجب، فوجدت استعدادًا حسنًا، وكان أسرعهم مبادرة إلى مشاركتي عبء التفكير، وأكثرهم اقتناعًا بوجوب العمل في إسراع وهمة، الإخوان الفضلاء: الأستاذ أحمد أفندي السكري، والأخ المفضال المرحوم الشيخ حامد عسكرية أسكنه الله فسيح جنته والأخ الشيخ أحمد عبد الحميد، وكثير غيرهم.

وكان عهد وكان موثق: أن يعمل كل منا لهذه الغاية، حتى يتحول العرف في الأمة إلى وجهة إسلامية صالحة.

ليس يعلم أحد إلا الله، كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء، ونفكر في العلاج وحسم الداء، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء، كم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة، والخليون هاجعون يتسكعون بين المقاهي، ويترددون على أندية الفساد والإتلاف، فإذا سألت أحدهم عما يحمله على هذه الجلسة الفارغة المملة قال لك: أقتل الوقت، وما درى هذا المسكين أن من يقتل وقته إنما يقتل نفسه، فإنما الوقت هو الحياة.

كنا نعجب لهؤلاء الناس، وكثير منهم من المثقفين، ومن هم أولى منا بحمل هذا العبء، ثم يقول بعضنا لبعض: أليس هذا داء من أدواء الأمة ولعله أخطرها: ألا تفكر في مرضها وألا تعمل لعلاج نفسها؟!

ولهذا وأمثاله نعمل، ولإصلاح هذا الفساد وقفنا أنفسنا، فنتعزى، ونحمد الله

على أن جعلنا من الداعين إليه العاملين لدينه.

وعمل الزمن عمله فتفرقنا نحن الأربعة، فكان أحمد أفندى السكري بالمحمودية، وكان المرحوم الشيخ حامد عسكرية بالزقازيق، وكان الشيخ أحمد عبد الحميد بكفر الدوار، وكنت بالإسماعيلية أذكر قول القائل:

بالشام أهلي، وبغداد الهوى، بالرقمتين، وبالفسطاط

وفي الإسماعيلية أيها الإخوان وضعت أول نواة تكوينيه للفكرة، وظهرت أول هيئة متواضعة نعمل ونحمل لواءها، ونعاهد الله على الجندية التامة في سبيلها، تحت اسم «الإخوان المسلمين» وكان ذلك في ذي القعدة سنة (1347هـ)[29].

هذه الخواطر والأفكار والمشاعر التي كان يعيش فيها حسن البناء قبل أن يؤسس حركته الميمونة، والتي كانت تؤرقه في ليله، وتشغله في نهاره، وتملك عليه قلبه ولبه، وهي تدل على معاناته، وامتلائه بالآلام والآمال، وأنه لم يكن يكتفي بالنواح على الماضي المجيد، والبكاء على الأطلال، بل كان يبحث عن ضالة، ويفتش عن شيء، عن عمل، عن علاج، عن أمل، عن حلم كبير، ويتمثل في واقع ملموس، عن جماعة تحمل راية بعد أن سقطت، وتوقظ الأمة بعد أن رقدت، وتبعث الهمم بعد أن استرخت ... حتى حانت ساعة المخاض، وولد المولود الجديد، دون احتفال ولا زغاريد، ألا وهو «الإخوان المسلمون».

* * *

---

(29) من رسالة المؤتمر الخامس (ص168 - 170) من مجموعة رسائل الإمام الشهيد.

4 - الجنود الصادقون

جرت سنة الله تعالى: ألا تنتصر الرسالات، ولا تحقق الدعوات الربانية أهدافها، إلا بأهلها وأنصارها المؤمنين بها، المجتمعين عليها، المتفانين في نصرتها.

فالحق لا ينتصر بذاته، وإنما ينتصر برجاله ودعاته الصادقين.

والشاعر العربي يقول:

وشيمة السيف أن يزهى وليس يعمل إلا في يدي بطل!

وكذلك سيف الحق لا يعمل وحده، ولا يقاتل وحده، إنما يقاتل بيد أبطاله الذين لا يهابون الموت.

وقد قرأ أحد الأجانب عن الإسلام وتعاليمه فأعجب به، وقال كلمة ما أجدرنا أن نحفظها ونرويها لما فيها من عبرة! قال: يا له من دين لو كان له رجال!

وما لنا نذهب بعيدًا؟ وها نحن نقرأ قول الله سبحانه في كتابه العزيز يقول مخاطبًا رسوله الكريم: **{وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ 62 وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ}** [الأنفال: 62، 63].

فأشار إلى أن الله جل ثناؤه - كما أيد الرسول بنصره - أيده بالمؤمنين، × الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وأشار إلى صفة مهمة من صفاتهم، بل لعلها أهم فضائلهم بعد الإيمان - في هذا المقام،

وهي: أخوتهم وترابطهم وتآلف قلوبهم، وهذا من أعظم نعم الله تعالى عليهم.

وقد وعد الله تعالى المؤمنين إذا مرق منهم مارقون، أو ارتد مرتدون، إن الدين لن تسقط رايته، ولن تخمد جذوته، ولكن الله تعالى سيجند له جنودًا لنصرته إذا خذله الخاذلون، جنودًا جلاهم بأوصاف مميزة، تجعلهم شامة في الناس، وذلك في قوله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ}** [المائدة: 54].

فهذه معالم مضيئة في تجلية هذا الجيل الرباني، جيل النصر المنشود، وهي تتجلى في ثلاثة أشياء رئيسية:

1 - المحبة المتبادلة بينهم وبين ربهم، فهم محبوبون من الله، محبون لله: **{وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ}** [البقرة: 165]، وبهذا الحب آثروا الله تعالى على كل ما يحرص الناس عليه في دنياهم من أهل وولد ومال ووطن، كما قال تعالى: **{قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ}** [التوبة: 24].

لقد وضعوا كل هذه الأنساب: آباء وأبناء وإخوان وأزواج ... إلخ في كفة، وحب الله ورسوله في كفة أخرى، فرجحت كفة حب الله.

2 - الذلة على المؤمنين، والعزة على الكافرين. ونلاحظ أن القرآن لم يمدح

الذلة إلا في موضعين:

أ - ذل الإنسان لأبويه: {وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ} [الإسراء: 24].

ب - ذل الإنسان لأخيه المؤمن، وقد عداه في الآية بحرف «على» ليضمنه معنى العطف والحدب والإشفاق.

وصفة هؤلاء هنا أشبه بصفة الصحابة الذين قال الله عنهم: {أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29]، وقد كان الكفار يمثلون الظلم والطغيان والاعتداء على حرمات المسلمين، وكانوا أجدر بالشدة عليهم.

3 - الجهاد في سبيل الله دون خشية من أحد، أو خوف من لومة لائم، مما يدل على إخلاصهم لغايتهم، وتجردهم لها، وعدم مبالاتهم بالخلق إذا أرضوا الخالق، كما قال تعالى في وصف دعاته الصادقين: {ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا} [الأحزاب: 39].

وقد كان حسن البنا يعي ذلك أعظم الوعي، ويدركه كل الإدراك، ويؤمن به أعمق الإيمان. ويبذل ما يمكنه من جهد لبناء هذا الجيل، الذي ينشده، لتحرير الأوطان، وقد آتاه الله من المواهب والملكات الروحية والعقلية والنفسية والتربوية ما يؤهله للقيام بهذه المهمة، التي لا يقوم بها إلا ورثة الأنبياء الحقيقيون، ومعلمو الناس الخير.

ولقد هيأ الله له من الأنصار والإتباع من كل فئات الشعب من هم أزكى أنفسًا، وأذكى عقولًا، وأصدق نيات، وأقوى عزائم، وأقدر على الالتزام بفرائض الإسلام وأخلاق الإسلام، ولوازم الجندية للإسلام.

اجتمع على الشيخ البنا: الشباب والشيوخ، وأبناء المدن والقرى،

والفلاحون والمتعلمون، والأميون وطلاب الجامعة وأساتذتها، وخريجو المدارس المدنية، وخريجو المعاهد الأزهرية، وكذلك الرجال والنساء، ولقد أسس مبكرًا «قسم الأخوات المسلمات»، فلا يجوز أن تهمل المرأة في مجال الدعوة، وقد كان أول صوت ارتفع بتأييد دعوة رسول الله: صوت امرأة، وهو صوت خديجة رضي الله عنها، وكان أول دم أريق في سبيل الله الإسلام: دم سمية أم عمار، أول شهيد في الإسلام، وإن كنت لاحظت أن «العمل النسائي الإسلامي» لم يتسع ولم يتطور، كما اتسع العمل الرجالي وتطور، ولذلك أسباب وملابسات ذكرتها في مقام آخر(30).

ولكن حسن البنا كان يوجه عناية أكبر «إلى الشباب» ولذا وجه لهم رسالة خاصة؛ باعتبار أن الشباب في كل أمة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سر قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها **{إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى}** [الكهف: 13].

وقد بين الأستاذ في هذا السياق: أن أي فكرة إنما تنجح إذا قوي الإيمان بها، وتوافر الإخلاص في سبيلها، وزادادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل التضحية والعمل لتحقيقها.

وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل، من خصائص الشباب. لأن أساس الإيمان: القلب الذكي، وأساس الإخلاص: الفؤاد النقي، وأساس الحماسة: الشعور القوي، وأساس العمل:

---

(30) تنظر: كتابنا «أولويات الحركة الإسلامية» فصل «الحركة والعمل النسوي» (ص64 - 69).

العزم الفتي. وهذه كلها لا تكون إلا للشباب[31].

وكانت عنايته في الشباب إلى طلبة الجامعات والمعاهد والمدارس، فهم محط الأنظار، ومهوي الأفئدة، لوعيهم وثقافتهم وتجمعهم، وحماسهم لقضايا أمتهم ووطنهم، وعليهم تتنافس الأحزاب والهيئات المختلفة.

وكان «قسم الطلاب» من أهم الأقسام - بل لعله أهمها وأنشطها - في المركز العام للإخوان، وفي كل مكتب إداري، وكل منطقة، وكل شعبة.

وكل الإخوان الدعاة والموجهين المرموقين، مروا بقسم الطلاب، وتربوا في أحضانه: محمد عبد الحميد أحمد، محمد الغزالي، عبد المعز عبد الستار، فريد عبد الخالق، مصطفى مؤمن، سعيد رمضان، فتحى عثمان، عز الدين إبراهيم، حسان حتحوت، نفيس حمدي، عمر شاهين، حسن دوح، حسن عبد الغني، مناع القطان، أحمد العسال، جمال عطية، يوسف عبد المعطي، عبد الحليم أبو شقة، على صديق، فتحى البوز، يوسف توبة، محمد المطراوي، علي عبد الحليم، صلاح أبو إسماعيل وغيرهم.

وكان الأستاذ البنا إذا زار مناطق الإخوان في مصر، في الصعيد، أو في الوجه البحري، يحرص على أن يلتقي بالطلاب، أذكر أنه حين زار مدينة طنطا التقى فيها بالطلاب أكثر من مرة، رغم أنهم من طلاب المرحلة الثانوية، إذ لم تكن هناك جامعة إلا في القاهرة، ثم بعد ذلك في الإسكندرية.

وأذكر آخر مرة التقى بنا في شعبة «قسم أول طنطا» وأوصانا بثلاث وصايا تتركز حول محاور ثلاثة: التفوق في العلم، والاستقامة في الدين،

---

(31) انظر: رسالة «إلى الشباب» (ص173) من مجموع الرسائل.

وتوثيق عرا المحبة بين بعضنا وبعض.

في رسالة المؤتمر الخامس ذلك الأستاذ: أن ستة من شباب الجامعة منذ سنوات، وهبوا لله أنفسهم وجهودهم، وعلم الله منهم ذلك، فأيدهم وآزرهم، فإذا بالجامعة كلها من أنصار الإخوان ... إذا من الشباب الجامعي فئة كريمة مؤمنة تتفانى في الدعوة، وتبشر بها في كل مكان.

قل مثل ذلك في الأزهر الشريف، والأزهر بطبيعته معقل الدعوة الإسلامية، وموئل الإسلام، ليس غريبًا عليه أن يعتبر دعوة الإخوان دعوته، وأن يعد غايتها غايته، وأن تمتلئ الصفوف الإخوانية، والأندية الإخوانية، بشبابه الناهض، وعلمائه الفضلاء، ومدرسيه ووعاظه، وأن يكون لهم جميعًا أكبر الأثر، في نشر الدعوة وتأييدها، والمناداة بها في كل مكان(32).

وكثيرًا ما أشاد الأستاذ البنا بالأزهر، واعتبر وجوده في مصر من أسباب زعامتها وتقدمها في العالم الإسلامي، وأهليتها للصدارة وقيادة الركب.

ولقد استمعت إلى الأستاذ في طنطا في إحدى المناسبات وقد حضر الحفل كثير من مشايخ المعهد الديني، ووكيل المعهد الشيخ محمد طبل، وكان مما قاله الأستاذ لعلماء الأزهر: أنتم بمثابة الجيش الرسمي للإسلام، ونحن بمثابة الجيش الاحتياطي له، نحن ردء لكم، وأعون على رسالتكم.

وفي ساحة الإخوان رأيت كثيرًا من الأزهريين المرموقين، أمثال المشايخ: محمد فرغلي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعبد المعز عبد الستار، وعبد اللطيف الشعشاعي، والأباصيري، وغيرهم ممن كانوا لا

---

(32) رسالة المؤتمر الخامس (ص131) من مجموع الرسائل.

يحبون أن يعلنوا عن أنفسهم.

وقد ذكر الأستاذ البنا في مذكراته: المؤسسين الأربعة الأول للدعوة هم: أحمد أفندي السكري، والشيخ حامد عسكرية رحمه الله ، والشيخ أحمد عبد الحميد.

ومن هنا لا أجد مساغًا لما افترضه ريتشارد ميتشل في كتابه عن الإخوان من فجوة أو جفوة مفتعلة بين الإخوان والأزهر(33)، وإن كان الأستاذ البنا أخذ على العلماء أو على كثير منهم تقاعسهم عن التصدي للحملات الموجهة ضد الإسلام.

وفي عصرنا كاد الأزهر كله يصبح قلعة إخوانية، ابتداء من شيخه الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، وعمداء الكليات، وأساتذتها، فضلًا عن الطلاب الذين آزروا دعوة الإخوان، وذلك في أوائل الخمسينيات.

يتحدث الأستاذ البنا باعتزاز وفخر عن نشاط الإخوان المكثف في خدمة المجتمع، وفي المشاركة الإيجابية في حل مشاكل الناس، وفي مقاومة خطر التبشير عن المستضعفين الفقراء، وفي إنشاء المدارس ونشر التعليم، وإنشاء المستوصفات لمعالجة المرضى، وغير ذلك من أنواع البر والخير ثم يقول:

«ولعلك تعجب حين تعلم أن جماعة الإخوان المسلمين التي قامت بهذه الأعمال العظيمة، لم تأخذ إعانة حكومية مرة م المرات، ولم تستعن بمال هيئة من الهيئات، اللهم إلا خمسمائة جنيه تبرعت بها شركة قناة السويس للجماعة،

---

(33) انظر: «الإخوان المسلمون» تأليف د / ريتشارد ميتشل، ترجمة محمود أبو السعود، وتعليق صالح أبو رقيق، طبع دار النشر الأمريكية، الطبعة الأولى.

بمناسبة عمارة المسجد والمدرسة بالإسماعيلية.

وإن الناس ليتقولون كثيرًا، وليظنون وبعض الظن إثم، ولينطقون بما ليس لهم به علم، وما علينا في ذلك من بأس، وحسبنا أن يعلم الله أن ذلك بتوفيقه، وأنها أموال الإخوان الخاصة انفقت بإخلاص، فأثمرت وبوركت، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، وحسبنا أن نقول لهم في عبارة صريحة واضحة نتحدى بها كل إنسان وكل هيئة وكل شخص كائنًا من كان: إن جماعة الإخوان المسلمين لم تستعن في مشروعاتها بغير أعضائها، وهي بذلك جد فخورة، تجد لذة التضحية ونشوة الفرح بالإنفاق في سبيل الله.

ولعلك تعجب كذلك إذا علمت أن الاشتراك المالي في جماعة الإخوان المسلمين اختياري لا إجباري، وأن العضو الذي يتخلف عن دفع الاشتراك لا ينقص ذلك من حقوق أخوته شيئًا، ومع أن هذا نص صريح في القانون الأساسي للجماعة، فإن الإخوان - جزاهم الله خيرًا - يبادرون إلى التضحية في سبيل الله إذا دعاهم إليها دعي الواجب، ويأتون في ذلك بالعجب العجاب، واسمع أحدثك:

في بناء مسجد بالإسماعيلية، دعاهم رئيسهم إلى التبرع فقام أحد الأعضاء الصناع وتبرع بجنيه ونصف يدفعها بعد ثلاثة أيام، هو صانع فقير أنى له بهذا المبلغ؟ أراد أن يقترض فأبت نفسه وخشى المماطلة ... حاول الحصول على هذا المبلغ من غير هذا الباب فلم يجد السبيل ميسرة ... لم يبق أمامه إذن إلا أن يبيع دراجته، دراجته التي يركبها من منزله إلى محل عمله، ومن محل عمله إلى منزله، وبينهما ستة كيلو مترات! وفعلًا أنفذ الفكرة وأحضر المبلغ في نهاية الموعد تمامًا فجمع بين الوفاء بموعده والقيام بتبرعه ...

ولاحظ رئيس الإخوان أنه صار يتأخر عن درس العشاء ولا يدركه إلا بشق النفس، وسأله عن ذلك فلم يجب، فأجاب عنه صديق عرف سره وأخبر الرئيس أنه باع عجلته ليفي بتبرعه، وأصبح يعود على رجليه فيتأخر عن الدرس، وأكبر الرئيس والإخوان هذه الهمة، وحيوا فيها هذه الأريحية، وأقروا تبرعه كما هو، واكتتبوا له في دراجة جديدة خير من دراجته لتكون عنده ذكرى الإعجاب بهذا الوفاء.

بمثل هذه النفوس التي تمت بصلة إلى نفس السابقين الأولين من رجال الإسلام الغُر الميامين نهضت فكرة الإخوان المسلمين، ونجحت مؤسساتهم وتمت مشروعاتهم.

إنهم فقراء ولكنهم كرماء، إنهم قليلو المال ولكنهم أسخياء النفوس، فهم يجودون بالكثير من هذا القليل فيكون كثيرًا، وتباركه نعمة الله فيأتي بالخير العميم، ولعلى بهذه الناحية قد كشفت ناحية غمضت على بعض الذين رأوا جهود الإخوان لنجاحهم سرًا إلا أن يتهموهم باستجداء الهيئات وخدمة المصالح والأغراض، وهم والحمد لله من ذلك براء[34].

ويعرض الإمام لصفحة أخرى من صفحات جهاد الإخوان في سبيل دعوتهم. فيقول:

«قليل من الناس من يعرف أن الداعية من دعاة الإخوان قد يخرج من عمله المصلحي في عصر الخميس، إذا هو في العشاء بالمنيا يحاضر الناس، وإذا هو في صلاة الجمعة يخطب بمنفلوط، فإذا هو في العصر يحاضر

---

(34) من رسالة «هل نحن قوم عمليون» (ص66، 67) من مجموع الرسائل.

بأسيوط، وبعد العشاء يحاضر بسوهاج، ثم يعود أدراجه فإذا هو في الصباح الباكر في مركز عمله بالقاهرة قبل إخوانه من الموظفين، أربع حفلات جامعات يحضرها الداعية من دعاة الإخوان في أطراف القطر في ثلاثين ساعة، ثم يعود أدراجه هادئ النفس مطمئن القلب يحمد الله على ما وفقه إليه ولا يشعر به إلا الذين استمعوه.

هذا مجهود لو قام به غير الإخوان لملأ الدنيا صياحًا ودعاية، لكن الإخوان - لما قدمت - يؤثرون ألا يراهم الناس إلا عاملين، فمن أقنعه العمل فيها، ومن لم يؤثر فيه العمل فلن يرشده القول.

فقد يقضي الأخ شهرًا أو شهرين بعيدًا عن أهله وبيته وزوجته وولده يدعو إلى الله، هو في الليل محاضر وفي النار مسافر، يومًا بحزوى يومًا بالعقيق، فيلقي أكثر من ستين محاضرة من شرق القطر إلى غربه، وقد تضم الحفلات التي يحاضر فيها الآلاف من مختلف الطبقات، ثم هو بعد ذلك يوصي ألا يكون ذلك محل دعاية ولا إعلان[35].

ليس معنى ذلك أن أن الإخوان ملائكة أطهار أو قديسون مقربون، هم بشر كالبشر، مخلوقون من طين، والطين لا يخلو من الكدر.

ولكن أثبت الواقع أنهم - بحكم عقيدتهم وتربيتهم الإسلامية - أفضل المجموعات الموجودة على الساحة، وأزكاها نفوسًا، وأطهرها مسلكًا، وأكثرها حماسًا لفعل الخير، ومعاداة الشر، وبذلك الغالي والرخيص في سبيل الإسلام.

---

(35) المؤتمر الخامس (ص128، 129) من مجموع الرسائل.

وفيما ذكره الأستاذ كامل الشريف من بطولات ومواقف يندر مثلها، في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» وهو شاهد عيان، وفيما ذكره الأستاذ حسن دوح عن «كفاح الشباب الجامعي في قناة السويس» ضد الإنجليز المحتلين، وهو أيضًا شاهد عيان في هذين النموذجين ما يشير إلى نوعية النموذج المؤمن الإيجابي الذي صقلته التربية الإخوانية، وغسله من أوضار الأنانية والشهوات: قيام الليل، وصيام النهار، وتلاوة القرآن، وذكر الله ذكرًا كثيرًا.

النموذج الأول من الإخوان:

ولا عجب أن توجد هذه النماذج الباذلة العملة المضحية في سبيل الله، المتفانية في نصر الدعوة وبذل النفس والنفيس في سبيل الله، فقد عرفنا ذلك منذ اليوم الأول لبزوغ فجر هذه الدعوة الربانية المباركة، وفي «الفوج الأول» من أبناء الإسماعيلية الكرام الذين جاءوا إلى الأستاذ البنا، بعد أن لازموه في دروسه، وأطالوا الاستماع إليه، وفهموا عنه ما يريد، فقالوا له في ثقة المؤمنين، وإيمان الواثقين:

«لقد سمعنا ووعينا، وتأثرنا، ولا ندري ما الطريق العملية إلى عزة الإسلام وخير المسلمين، ولقد سئمنا هذه الحياة: حياة الذل والقيود، وها أنت ترى أن العرب والمسلمين في هذا البلد لا حظ لهم من منزلة أو كرامة، وأنهم لا يعدون مرتبة الأجراء التابعين لهؤلاء الأجانب، ونحن لا نملك إلا هذه الدماء تجري حارة بالعزة في عروقنا، وهذه الأرواح تسري مشرقة بالإيمان والكرامة مع أنفسنا وهذه الدراهم القليلة، ولا نستطيع أن ندرك الطريق إلى العمل كما تدرك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما

تعرف، وكل الذي نريده الآن: أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدي الله وتكون أنت المسئول بين يديه عنا، وعما يجب أن نعمل، ويعلق حسن البنا على هذه الكلمات بقوله: إن جماعة تعاهد الله مخلصة على أن تحيا لدينه، وتموت في سبيله، لا تبغي بذلك إلا وجهه، لجديرة أن تنتصر وإن قل عددها وضعفت عدتها.

قبل البنا - وهو بالغ التأثر - الأعباء التي ألقيت على عاتقه وعاهد الجميع الله على أن يكونوا «لدعوة الإسلام جندا» واختار البنا اسم الجمعية قائلًا: «نحن إخوة في خدمة الإسلام فنحن إذن: الإخوان المسلمون»[36].

هؤلاء هم طليعة جنود الدعوة، وعلى هداهم سار السائرون، وبايع الصادقون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

في مدرسة الدعوة:

كان الجيل الأول الذي رضع من لبان الدعوة، وتربى في حجرها: مثلًا يحتذي في إيمانه وعمله وسلوكه.

كانت معاني التربية العملية التي تتفاعل في أنفسهم بالمخالطة والتصرفات الواقعية والود والمحبة فيما بينهم، والتعاون الكامل في شئون حياتهم، وتهئ نفوسهم لما في ذلك من خير؛ أقوى العوامل في تكوين هذه الجماعة، وأذكر أنني دخلت على الأخ السيد أبو السعود رحمه الله تاجر الخردوات، فرأيت الأخ مصطفى يوسف يشتري منه «زجاجة ريحة» والمشتري يريد أن يدفع

---

(36) انظر: «مذكرات الدعوة والداعية» (ص61)، و«الإخوان المسلمون» لريشتارد. ب. ميشيل (ص76، 77) من الترجمة العربية لمحمود أبو السعود.

10 قروش والبائع يأبى أن يأخذ أكثر من 8 قروش، وتدخلت في الأمر، فطلبت فاتورة الشراء، فوجدت أن الثمن الأساسي الذي اشترى به الأخ سعيد أبو السعود رحمه الله هو الذي يريد أن يبيع به لأخيه «الدستة 96 قرشًا».

فقلت له: يا أخي، إذا كنت لا تكسب من صديقك، ولا تشتري منك عدوك، فمن أين تعيش؟ فقال: لا فارق بيني وبين أخي، ويسرني أن يتقبل مني هذا العمل، قلت للأخ مصطفى: ولماذا لا تتقبل رفد أخيك؟ فقال: إذا كنت اشتريتها من الخارج بهذه العشرة فأخي أولى بهذه الزيادة، ولو عرفت أنه يقبل أكثر منها لزدت، وبالتدخل أنتهينا إلى 9 قروش.

ليس الشأن شأن قرش أو قرشي، ولكنه شأن هذا المعنى النفساني الذي لو انتشر في الناس واستشعروه واستولى على أنفسهم، لانحلت المشكلة الفردية والاجتماعية والعالمية، ولعاش الناس سعداء آمنين.

علم هؤلاء أن أحد إخوانهم متعطل عن العمل، فجاء أكثر من عشرة منهم كل واحد يهمس في أذنه على انفراد، يعرض كل مدخر من مال ليكون رأس مال يعمل فيه أخوه المتعطل، قال الأخ: اكتفيت ببعضهم وشكرت الآخرين، فانصرفوا وهم آسفون لما فاتهم من فضل المساعدة.

نماذج من أخلاق الرعيل الأول:

وحدثنا الإمام البنا عن الرعيل الأول الذي تخرج على يديه في الإسماعيلية، وعن نماذج من سلوكياته فيقول:

كان هؤلاء الإخوة مثلًا رائعة، ونماذج طيبة في التمسك بأحكام الإسلام الحنيف في كل تصرفاتهم، والتأثر بأخلاقه ومشاعره فيما يصدر عنهم من

قول أو عمل، سواء أكان ذلك مع أنفسهم أو مع غيرهم من الناس.

كان الأخ حسن مرسي يعمل عند الخواجه مانيو، ويخرج نماذجًا ممتازًا من صناديق الراديو، وكان الصندوق حينذاك يتكلف جنيهًا تقريبًا، فجاء أحد الخواجات من أصدقاء مانيو وساوم الأخ حسن على أن يصنع له بعض الصناديق بنصف القيمة، على ألا يخبر بذلك الخواجة مانيو، فيستفيد حق النصف الذي يأخذه ويستفيد هذا الخواجه من النصف الباقي، وكان مانيو يثق في الأخ ثقة تامة، وقد أسلم إليه كل ما في الدكان من خامات وأدوات، وأراد صديق مانيو أن يستغل هذه الثقة، ولكن الأخ حسنًا ألقى عليه درسًا قاسيًا في الأخلاق وقال له: إن الإسلام وكل دين في الوجود يحرم الخيانة، فكيف بمن وثق في هذه الثقة؟ وإني لأعجب أن تكون صديقه ومن جنسه ودينه، ومع ذلك تفكر في خيانته، وتحاول أن تحملني على مثل ذلك، يا هذا يجب أن تندم على هذا التفكير الخاطئ، وثق بأنني لن أخبر الخواجة مانيو بعملك هذا حتى لا أفسد صداقتكما، ولكن بشرط أن تعدني وعدًا صادقًا بألا تعود إلى مثل ذلك، ولكن هذا الخواجه كان سخيفًا، فقال له: إذًا سأخبر الخواجه مانيو بأنك أنت الذي عرضت على هذا العرض، وهو سيصدقني ولا شك، فإنه يثق بكلامي كل الثقة، وسيترتب على ذلك إخراجك من العمل، وفقدانك لهذه المنزلة التي تتمتع بها عنده، وخير لك أن تتفق معي وتنفذ ما أريد، فغضب الأخ وقال له: افعل ما تشاء، وسيكون جزاؤك الخزي إن شاء الله: ونفذ الرجل وعيده، وجاء مانيو يحقق في الأمر، فاكتسحت أضواء الحق ظلمات الباطل، وأخبره الأخ حسن بالأمر، ولم يشك الرجل أبدًا في صدقه، وطرد هذا الصديق الخائن، وقطع صلته به، وزاد في راتب الأخ جزاء أمانته.

وهذا الأخ عبد العزيز غلام النبي، الهندي الذي يعمل «ترزيًا» في المعسكر الإنجليزي، تدعوه زوجة أحد كبار الضباط لبعض الأعمال الخارجية بمهمته، لتنفرد به في المنزل، وتغريه بكل أنواع المغريات، فيعظها وينصح لها ثم يخوفها ويزجرها، فتهدد بعكس القضية تارة، وبتصويب المسدس إلى صدره تارة أخرى، وهو مع ذلك لا يتزحزح عن موقفه قائلًا: إني أخاف الله رب العالمين، وكم كان جميلًا ومضحكًا في وقت واحد: أن توهمه في إصرار أنها قد قررت قتله، وستعتذر عن ذلك بأنه هاجمها في منزلها وهم بها، وتصوب المسدس إليه، فيغمض عينيه، ويصرخ في يقين: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فتفاجئها الصيحة، ويسقط المسدس على الأرض، ويسقط في يديها، فلا ترى إلا أن تدفعه بكلتا يديها إلى الخارج، حيث ظل يعدو إلى دار الإخوان المسلمين.

هكذا كان أولئك الإخوان، وحوادثهم في هذه المعاني كثيرة ومن أجل ذلك بارك الله الدعوة التي استنارت بها مثل هذه القلوب وصدق الله العظيم: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ 24 تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}** [إبراهيم: 24، 25]. اهـ[37].

مدرسة حسن البنا في التربية الإسلامية:

كان حسن البنا مربيًا متميزًا، بالفطرة والممارسة، وكان يضع كل موهبته وخبرته في تربية الجيل المؤمن الذي ينشده للنهوض بالأمة، وكان حريصًا

---

(37) انظر: «مذكرات الدعوة والداعية» (ص67 - 70).

على أن يزوده بفضائل معينة، تلزم كل جيل حمله القدر أمانة التغيير، وتبعة التجديد والإصلاح الشامل لوطنه، ثم لأمته جمعاء، وقد كون عددًا غير قليل من المربين ساعدوه في مهمته.

وقد أنشأ حسن البنا مدرسة متميزة في التربية والتكوين، تحدثنا عنها في كتاب لنا سميناه «التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا».

فضائل مميزة لأجيال الإخوان:

ولا شك أن هذه المدرسة كان لها تأثيرها وبصماتها في عقول أبنائها وفي قلوبهم، وفي أخلاقهم وسلوكهم، بحيث أصبح لهم سمات وفضائل عرفوا بها، وكأنما هي شامة لهم.

من هذه الفضائل: الاستعداد للبذل والتضحية إلى غير حد، فكل واحد في هذا الجيل: هو جندي عقيدة لا جندي غنيمة، مهمته أن يعطي لا أن يأخذ، وأن يضحي لا أن يستفيد، وقد جعل البنا من أركان دعوته أو أركان بيعته «التضحية» وفسرها بقوله: وأريد بها: بذل النفس والمال والوقت والحياة وكل شيء في سبيل الغاية، وليس في الدنيا جهاد لا تضحية معه، ولا تضيع في سبيل فكرتنا تضحية، وإنما هو الأجر الجزيل، والثواب الجميل، ومن قعد عن التضحية معنا فهو آثم **{إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ}** [التوبة: 111].

{قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ} [التوبة: 24].

ومن هذه الفضائل: الاستعداد لمواجهة المحن والشدائد، فقد أفهم البنا أبناء دعوته وأنصار فكرته من وقت مبكر: أن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالأزهار والرياحين، بل هو مغروس بالأشواك، مضرج بدماء الشهداء، تتناثر عن يمينه وعن شماله أشلاء ضحايا البطش والقهر والجبروت العنيد، وكما قال الإمام ابن القيم في أحد كتبه: يا مخنث العزم! الطريق تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، وتعرض للنار إبراهيم، وللذبح إسماعيل، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى ...

وفي الثلاثينيات أصدر حسن البنار رسالته «بين الأمس واليوم» وفي نهايتها أراد أن يعد إخوانه وجوده نفسيًا لما ينتظرهم من أعباء وشدائد، قد يكونون في غفلة عنها، وتمثل ذلك في كلمات حفظها الإخوان بعد ذلك، وطالما رددوها في مناسبات مختلفة: يقول رحمه الله تحت عنوان «العقبات في طريقنا»:

«أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها، ستلقى منهم خصومة شديدة، وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيرًا من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات؛ أما الآن فلا زلتم مجهولين، ولا زلتم تمهدون للدعوة، وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد، سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في صريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم في سبيله، سيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات على

السواء، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم.

وسيتذرع الغاصبون بكل طريقة لمناهضتكم، وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة، والأخلاق الضعيفة، والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال، وإليكم بالإساءة والعدوان، وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، ويحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة، معتمدين على قوتهم وسلطانهم ومعتدين بأموالهم ونفوذهم: **{يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ}** [الصف: 8]. وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان، فتسجنون وتعتقلون، وتنقلون وتشردون، وتصادر مصالحكم، وتعطل أعمالكم، وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان: **{أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}** [العنكبوت: 2]، ولكن الله وعدكم من بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ 10 ... فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ}** [الصف: 10 - 14]. فهل أنت مصرون على أن تكونوا أنصار الله؟ اهـ[38].

ومن هذه الفضائل: الأمل، الذي لا يخبو ضياؤه، ولا تذوي أوراقه، في نصر الله، وأن الغد لدعوة الإسلام، والمستقبل للمسلمين، وكان يعتبر هذا الأمل جزءًا من الإيمان، ويدل على ذلك بأدلة شتى: دليل من النصوص، مثل

---

(38) من رسالة «بين الأمس واليوم» (108، 109) من مجموع الرسائل.

قوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ} [التوبة: 33، والصف: 9].

ودليل من التاريخ، وهو أن الإسلام أصل ما يكون عودًا، وأشد ما يكون قوة، وأصفى ما يكون جوهرًا، حين تحيط به الشدائد، وتحل بساحته الكروب، كما في حرب الردة، وحروب الصليبيين الزاحفين من الغرب، وحروب التتار، الزاحفين من الشرق، وقد انتصر الإسلام في هذه المعارك جميعًا، بعد أن كان أعداؤه يظنون أن رايته قد سقطت للأبد.

ويستدل هنا كذلك بتاريخ الأمم المختلفة، ووثباتها غير المتوقعة، وانتصار بعض الرجال الذين حققوا آمالهم الكبيرة، برغم قلة العدد، وضعف العدة، مثل الملك عبد العزيز بن سعود رحمه الله .

ويقول الأستاذ هنا: أن حقائق اليوم كانت أحلام الأمس، وأحلام اليوم هي حقائق الغد.

ودليل آخر سماه الإمام البنا: الدليل الحسابي، يوضحه بأن قيادة العالم كانت في مدة من الزمن للشرق أيام الحضارات الشرقية القديمة: الفرعونية والفينيقية، والأشورية والبابلية، والفارسية والهندية ... إلخ.

ثم انتقلت عجلة القيادة للغرب أيام ظهور فلسفة اليونان، وتشريع الرومان، ثم عادت إلى الشرق مرة أخرى على يد الحضارة العربية الإسلامية، وظلت قرونًا، ثم غفا الشرق الإسلامي غفوته الكبرى، واستيقظ الغرب الذي استفاد من علوم الشرق، ومن مناهج معرفته الاستقرائية والتجريبية، فنهض نهضته الحديثة، واستخدم العلم والتكنولوجيا، ووصل إلى ما وصل إليه الآن من رقي

وتقدم مادي وعمراني، ولكنه أفلس في الجانب الروحي والأخلاقي، ولم يقم بحق القيادة في إقرار العدل ونصرة الحق، وإشاعة الخير والفضيلة، فكان لا بد بمقتضى سنن الله أن تنتقل عجلة القيادة إلى غيره، ونحن الأحق بها، والدور لنا لا علينا. **{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ}** [الأنبياء: 105].

وعندما بدأت بوادر المحنة تظهر، وبدأت سحائبها تغشي جو العلاقات بين الإخوان والحكومة، وأطلت بواكير الصدام، كان البنا رحمه الله يركز أشد التركيز على بعث الأمل وإحياء الرجاء في أنفس أصحابه، فكتب في صحيفة «الإخوان المسلمون» اليومية عدة مقالات، في هذا المعنى، منها: «بين المحنة والمنحة» ومقالة «ولو» و «أربعة أدلة» وغيرها، حتى لا يخيم اليأس على القلوب فيقتلها، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون.

الرجاء معقود بالإخوان الصادقين:

وكان حسن البنا يعرف أن الناس جد متفاوتين في استعداداتهم وقدراتهم وإيمانهم، فليس كل الناس في إيمان أبي بكر، ولا في قوة عمر، ولا في بذل عثمان، ولا في شجاعة علي، وإنما هم كما قال تعالى في كتابه العزيز: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ}** [فاطر: 32].

لهذا قسم الإمام البنا «الإخوان» إلى مستويات، بحسب نضجهم وترقيهم في التربية والوعي والسلوك والبذل، أعلاهم «الأخ الصادق» أو «المجاهد»،

وهم الذين كتب لهم «رسالة التعاليم» فهي للصادقين من الإخوان المسلمين، فهي ليست كلمات تحفظ، ولكنها تعليمات تنفذ، أما غيرهم فلهم مظاهر وإداريات، ورسوم وشكليات.

ومن هنا كان أكبر همه أن يرتفع بالإخوان إلى درجة «الصدق» في الإيمان وفي مقامات الدين.

وهي الدرجة التي يصبح المسلم فيها من «الصادقين» الذين أمرنا الله أن نكون معهم بقوله: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ**} [التوبة: 119].

وهؤلاء الصادقون هم الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: {**إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ**} [الحجرات: 15].

وفيهم نزل قوله تعالى: {**مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا 23 لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ**} [الأحزاب: 23، 24]. وهم الموصوفون بالبر والتقوى في قوله عز وجل : {**لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ**} [البقرة: 177] فأولئك الذين وصفوا بالبر في عقيدتهم، والبر في سلوكهم، والبر في عبادتهم، والبر في

أخلاقهم هم: **{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا}**.

اثنا عشر ألف مؤمن صادق:

وكان حسن البنا مؤمنًا بأنه إذا اجتمع لـه اثنـا عشـر ألـف مؤمن من هؤلاء الصـادقين، نضـجت تـربيتهم، وتكامـل تكـوينهم: إيمانيًـا بالعقيـدة والعبـادة، وأخلاقيًـا بالاسـتقامة والفضـيلة، وعقليًـا بـالوعي والثقافـة، وبـدنيًا بالرياضـة والخشـونة، فإنـه يسـتطيع أن يخـوض بهـم لجـج البحـار، ويقـتحم بهـم عنـان السماء، ما داموا مؤهلين هذا التأهيل المطلوب، وخصوصًا جانب الإيمان.

وكان يعتمد على الحديث النبوي «**لن يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة**»[39].

ولكنه كان يريد هؤلاء «الاثنى عشر ألفًا» ممن اكتمل إيمانهم وتربيتهم.

فلم يكن يريد (24000) أربعة وعشرين ألفًا من «أنصاف» المؤمنين.

ولم يكن يريد (48000) ثمانية وأربعين ألفًا من «أرباع» المؤمنين.

ولم يكن يريد (96000) ستة وتسعين ألفًا من «أثمان» المؤمنين.

ولا ملايين من «كسور المؤمنين»، فإن مستشفى من المرضى لا تقاوم رجلًا واحدًا صحيحًا قويًا، وإن مائة أو ألفًا من المجانين لا تساوي رجلًا عاقلًا واحدًا.

فالمدار على الكيف لا على الكم، والقرآن الكريم يخاطب المسلمين في عهد النبوة فيقول: **{لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ}**

---

(39) انظر تخريج بعد في (ص118).

[التوبة: 25].

وقال في مقام آخر: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران: 123].

ومهما يقل القائلون، ويتجن المتجنون، فلقد اكتسبت دعوة الإخوان، في مصر وفي غيرها من بلاد العرب مجموعات من خيرة عناصر الوطن: توقد عقول، وزكاة نفوس، وتدفق مشاعر، وقوة عزائم، وطهارة أخلاق، وسمو أرواح، صقلهم الدين، وضمهم الإسلام في رحابه، وتولاهم بتربيته وتزكيته، فثقفهم عقولًا، ونقاهم قلوبًا، وقواهم أجسامًا، ولا أزكيهم على الله، فهم بشر من البشر، ليسوا ملائكة مطهرين، ولا أولياء قديسين، ولكنهم - إذا قيسوا بغيرهم - كانوا في المقدمة فهمًا وإيمانًا وسلوكًا، في مجموعهم، وهذا من ثمار التربية الإيمانية التي تصنع الأعاجيب.

ولا أجد في وصفهم أبلغ مما وصفهم به الشاعر الكبير محمود غنيم في قصديته التي حيا فيها «مجلة الشباب» التي أصدرها الشهيد البنا في نوفمبر سنة (1947م) وصدر منهم خمسة أعداد، وفيها يقول مخاطبًا «الشهاب» في عددها الأول:

أرسل وميضك يا شهاب   واكشف عن الحق الحجاب

إلى أن يقول:

حييت فيك عصابة   لبسوا على الطهر الثياب

ومشوا على سنن الهدى   والدين في شرخ الشباب

هم في المصلى خاشعو   ن، وفي الكريهة أسد غاب

لـــــم يحســــبوا إلا حســـــا ب الله فـــي يـــوم الحســـاب
أو يبتغـــوا مـــن غيـــره فـــي هـــذه الـــدنيا الثـــواب
أقســـمت أن معـــادن الإ خـــوان مـــن ذهـــب لبـــاب
ومبـــادئ الإخـــوان أنـــ ـــقع للغليـــل مـــن الشـــراب
المصـــلحون الطـــارقو ن إلـــى الهدايـــة كـــل بـــاب
الصـــامتون عـــن الهـــرا ء، النـــاطقون بغيـــر عـــاب
القـــائلون كأنمـــا قـــد ألهمـــوا فصـــل الخطـــاب
الكـــاتبون بكـــل ســـن يقطـــر الشـــهد المـــذاهب
لـــيس التـــدين عنـــدهم محـــض الســـجود والاقتـــراب
وتبتـــل الرهبـــان فـــي ربـــع مـــن الـــدنيا خـــراب
الـــدين زهـــد واحتســـا ب، وهـــو ســـعي واكتســـاب
الـــدين أس حضـــارة شـــماء عاليـــة القبـــاب
الـــدين أجنحـــة محلقـــ ـــة علـــى مـــتن الســـحاب
الـــدين جـــيش يجعـــل الـــ أوطـــان أمنـــع مـــن عقـــاب
الـــدين كـــل الـــدين تحريـــ ـــر الحمـــى مـــن الاغتصـــاب

وفي وصف الإخوان كان لي قصيدة قديمة ألقيتها في حف الإخوان بميدان السيدة زينب بعد خروجنا من المعتقل سنة 1949م، وفيها قلت مخاطبًا الرسول الكريم:

يا سيد الخلق طب نفسًا بطائفة بـاعوا إلـى الله أرواحًـا وأبـدانا
قـادوا السـفين، فمـا ضـلوا ومـا وكيـف لا؟ وقـد اختـاروك رُبانـا
الله يعـــرفهم أنصـــار دعوتـــه والنـاس تعـرفهم للخيـر أعوانـا

والليـل يعـرفهم قـوام هجعتـه	والحـرب تعـرفهم فـي الـروع
عاشوا على الحب أفواها وأفئدة	باتوا على البؤس والنعماء إخوانا
لم يفهموا الدين أورادا ومسبحة	بل أشربوا الدين محرابا وميدانا
أعطوا ضريبتهم للدين من دمهم	والنـاس تـزعم نصـر الـدين
أعطـوا ضـريبتهم صـبرا علـى	صـاغت بـلالا وعمـارا وسـلمانا
دسـتورهم لا فرنسـا قننتـه، ولا	رومـا، ولكـن قـد اختـاره قرآنـا
زعيمهم خير خلق الله، لا بشر	إن يهد حينا، يضل القصيد أحيانا
الله غـايتهم، والشـرع رايـتهم	والحـق آيـتهم، سـرا وإعلانـا
«الله أكبـر» مـا زالـت هتـافهمو	لا يسـقطون ولا يحيـون إنسـانا

* * *

5 - وضوح الأهداف وشمولها

لـم تكـن أهـداف دعـوة الإخـوان - كمـا رسـمها الإمـام البنـا - غائمـة أو غامضة، بل كانت واضحة وضوح الشمس، للقيادة وللقاعدة، وكان الجميع يعلمون علم اليقين، مدى ضخامة هذه الأهداف، ومدى سعتها.

لقد كانت أهداف دعوة الإخوان كبيرة وواسعة، فلم تقتصر على الجانب الفكري كما هو شأن النخبة من المثقفين الذين يعنون بتنوير العقول فقط، وإن كانت تنوير العقول، وتثقيفها وتوعيتها بالإسلام الصحيح، من أبرز الأهداف لدى جماعتهم.

ولم تقتصر أهداف الإخوان على الجانب الروحي أو الرباني، كما هو شأن أهل السلوك والتربية الروحية والإيمانية من الصادقين من رجال التصوف الملتزم، وإن كان هذا في رأس برنامجهم، ومن أوائل ما يهتمون به، فإن صلاح الإنسان بصلاح قلبه.

ولم تقتصر أهداف الإخوان على الجانب الاجتماعي، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، ومنع التظالم بين الناس، حتى لا يأكل القوي الضعيف، أو الغني الفقير، كما هي دعوة الاشتراكيين وغيرهم، وإن كان العدل والتكافل وتقريب الفوارق من أول ما سعى إليه الإخوان.

ولم تقتصر أهداف الإخوان على الجانب الاقتصادي والتنموي، كما هو شأن كثير من رجال الإصلاح، الذين يسعون إلى زيادة الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، وعدالة التوزيع، واستقامة التداول، وإن كان هذا الإصلاح

الاقتصادي من المعالم الرئيسة في برنامج الإخوان، بالإضافة لدعوتهم إلى تحرير الاقتصاد من التبعية، وقيام اقتصاد وطني قوي.

ولم تقتصر أهداف الإخوان على الجانب السياسي، الذي يعني به عادة زعماء الأحزاب السياسية، وإن كان هذا الجانب في طليعة ما دعا إليه الإخوان، من وجوب تحرير الوطن من كل سلطان أجنبي، وتحقيق مطالب الشعب في تحكيم شريعته، وتحريره من آثار التبعية التشريعية والثقافية وغيرها.

ولم يكن هدف الإخوان مقصورًا على مصر، الوطن الأول، الذي نشأت فيه الحركة، ومنه انطلقت إلى غيره من البلدان، وإن كانت مصر تحظى بالنصيب الأكبر من التفكير والاهتمام والجهد، لأنها الوطن الأم للجماعة أولًا، ولمالها من أثر ومكانة في تاريخ الإسلام والعرب ثانيًا، ولما يعلق عليها من آمال ثالثًا، بل استعت هذه الأهداف، لتشمل الوطن العربي من الخليج إلى المحيط، والوطن الإسلامي، من المحيط إلى المحيط، × من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، أو من جاكرتا شرقًا، إلى مراكش غربًا.

فقد كان الإخوان يعنون بقضايا العالم العربي، والعالم الإسلامي جميعًا، فهم يعتبرون كل أرض ترتفع فيها المآذن، ويهتف فيها المؤذنون: الله أكبر، الله أكبر، ويعيش فيها المسلمون، توجب عليهم حقوقًا للدفاع عنها، ورد العدوان عليها، والذود عن حرماتها، وتحريرها من كل سلطان غاصب معتد عليها، ثم معاونتها لتقيم الإسلام في ربوعها، عقيدة وشريعة، إيمانًا وعملًا، دعوة ودولة، قرآنًا وسلطانًا، ولتستطيع أن تنهض وتنمو وترقى في كل المجالات.

ثم لم يقف الإخوان عند هذا الحد، فهم يؤمنون أن رسالة الإسلام ليست لجنس دون جنس ولا لإقليم دون إقليم، ولا لطبقة دون طبقة، أو لسان دون لسان، بل هي دعوة عالمية, لكل الأجناس والألوان، ولكل الشعوب والأوطان، ولكل الألسنة والطبقات، كما قال تعالى لرسوله: **{قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}** [الأعراف: 158]، وقال: **{تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا}** [الفرقان: 1].

هكذ كانت أهداف الإخوان شاملة شمول الإسلام، فضمت الجانب العقلي، والجانب الروحي، والجانب الجسمي، والجانب التربوي، في حياة الفرد، كما ضمت: الجانب الأسري، والجانب الاجتماعي، والجانب الاقتصادي، والجانب السياسي، في حياة المجتمع: الوطني والعربي والإسلامي والعالمي.

أهداف سبعة أساسية:

وقد عبر عن ذلك مؤسس الجماعة، حين قال: نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والأمة المسلمة، وتبليغ الدعوة في العالم، ولا أجد أبلغ من تعبير حسن البنا عن ذلك إذ يقول في رسالته «إلى الشباب»:

إن منهاج الإخوان المسلمين محدد المراحل، واضح الخطوات، فنحن نعلم تمامًا ماذا نريد، ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة.

1 - نريد أولًا: الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، فهذا هو تكويننا الفردي.

2 - ونريد بعد ذلك: البيت المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته،

وفي عمله وتصرفه، ونحن لهذا نعني بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعني بالطفولة عنايتنا بالشباب، وهذا هو تكويننا الأسري.

3 - ونريد بعد ذلك: الشعب المسلم في ذلك كله أيضًا، ونحن لهذا نعمل على أن تصل دعوتنا إلى كل بيت، وأن يسمع صوتنا في كل مكان، وأن تنتشر فكرتنا، وتتغلغل في القرى والجوع والمدن والحواضر والأمصار، لا نألو في ذلك جهدًا، ولا نترك وسيلة.

4 - ونريد بعد ذلك: الحكومة المسلمة، التي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر وعمر من قبل، ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية، ولا بهذه الأشكال التقليدية، التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها، والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام.

5 - ونريد بعد ذلك: أن نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي الذي فرقته السياسة الغربية، وأضاعت وحدته المطامع الأوروبية، ونحن لهذا لا نعترف بهذه التقسيمات السياسية، ولا نسلم بهذه الاتفاقات الدولية، التي تجعل من الوطن الإسلامي دويلات ضعيفة ممزقة، يسهل ابتلاعها على الغاصبين، ولا نسكت على هضم حرية هذه الشعوب واستبداد غيرها بها، فمصر وسوريا والعراق والحجاز واليمن وطرابلس «يعني: ليبيا» وتونس والجائر ومراكش «يعني: المغرب» وكل شبر أرض فيه مسلم

يقول: لا إله إلا الله، كل ذلك وطننا الكبير الذي نسعى لتحريره وإنقاذه وخلاصه، وضم أجزائه بعضها إلى بعض.

ولئن كان الرايخ الألماني يفرض نفسه حاميًا لكل من يجري في عروقه دم الألمان، فإن العقيدة الإسلامية توجب على كل مسلم أن يعتبر نفسه حاميًا لكل من تشربت نفسه تعاليم القرآن، فلا يجوز في عرف الإسلام أن يكون العامل العنصري أقوى في الرابطة من العامل الإيماني، والعقيدة هي كل شيء في الإسلام، وهل الإيمان إلا الحب والبعض؟

6 - نريد بعد ذلك: أن تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حينًا من الدهر، ودوى فيها صوت المؤذن بالتكبير والتهليل.

ويجب أن يعود البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين إسلاميتين، كما كانتا من قبل، ولئن كان السنيور موسوليني يرى من حقه أن يعيد الإمبراطورية الرومانية، وما تكونت هذه الإمبراطورية المزعومة قديمًا إلا على أساس المطامع والأهواء، فإن من حقنا أن نعيد مجد الإمبراطورية الإسلامية التي قامت على العدالة والإنصاف، ونشر النور والهداية بين الناس.

7 - نريد بعد ذلك ومعه: أن نعلن دعوتنا على العالم وأن تبلغ الناس جميعًا، وأن نعم بها آفاق الأرض، وأن نُخضع لها كل جبار، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم[40].

---

(40) من رسالة «إلى الشباب» (ص177، 178) من مجموع الرسائل.

الأهداف القريبة والأهداف البعيدة:

ويخشى المرشد المؤسس رحمه الله أن يظن بعض الناس أن الإخوان مجرد جمعية من جميعات النفع العام، أو خدمة المجتمع، وهي كذلك في بعض جوانبها، وجزء من نشاطها، ولكنه ينفي بقوة أن يكون ذلك هو لب فكرتها، وغاية سعيها، ومحور وجودها، ففرق في أكثر من مناسبة بين الأهداف والغايات القريبة التي يشترك فيها الإخوان مع غيرهم، والغايات البعيدة التي يتميزون بها عمن سواهم، في وضوح لا لبس فيه ولا غموض.

بين الأستاذ البنا أن الإخوان المسلمين يعملون لغايتين:

غاية قريبة، وتظهر ثمرتها لأول يوم ينضم فيه الفرد إلى الجماعة، أو تظهر الجماعة الإخوانية فيه في ميدان العمل العام.

وغاية بعيدة، لا بد فيها من ترقب الفرص، وانتظار الزمن، وحسن الإعداد، وسبق التكوين.

فأما الغاية الأولى فهي المساهمة في الخير العام أيا كان لونه ونوعه، والخدمة الاجتماعية كلما سمحت بها الظروف.

يتصل الأخ بالإخوان، فيكون مطالبًا بتطهير نفسه، وتقويم مسلكه، وإعداد روحه وعقله وجسمه للجهاد الطويل، الذي ينتظره في مستقبل الأيام، ثم هو مطالب بأن يشيع هذه الروح في أسرته وأصدقائه وبيئته، فلا يكون الأخ أخًا مسلمًا حقًا، حتى يطبق على نفسه أحكام الإسلام، ويقف عند حدود الأمر والنهي، التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا 7 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا 8 قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا}**

[الشمس: 7 - 10].

وتتكون الجماعة من جماعات الإخوان، فتتخذ دارًا وتعمل على تعلم الأميين، وتلقين الناس أحكام الدين، وتقوم بالوعظ والإرشاد والإصلاح بين المتخاصمين، والتصدق على المحتاجين، وإقامة المنشآت النافعة، من مدارس ومعاهد ومستوصفات ومساجد، × في حدود مقدرتها والظروف التي تحيط بهان وكثير من شعب الإخوان ينض بهذه الواجبات، ويؤديها على حالة مرضية من حسن الأداء.

فهل هذا هو ما يريده الإخوان المسلمون، ويجهزون أنفسهم له، ويأخذونها به؟ يجيب الإمام البنا عن ذلك بقوله:

«لا أيها الإخوان، ليس هذا كل ما نريد، هو بعض ما نريد ابتغاء مرضاة الله ... هو الهدف الأول القريب، هو صرف الوقت في طاعة وخير، حتى يجئ الظرف المناسب، وتحين ساعة العمل للإصلاح الشامل المنشود.

أما غاية الإخوان الأساسية ... أما هدف الإخوان الأسمى ... أما الإصلاح الذي يريده الإخوان، ويهيئون له أنفسهم ... فهو إصلاح شامل كامل، تتعاون عليه قوى الأمة جميعًا، وتتجه نحوه الأمة جميعًا، ويتناول كل الأوضاع القائمة بالتغيير والتبديل.

إن الإخوان المسلمين يهتفون بدعوة، ويؤمنون بمنهاج، ويناصرون عقيدة، ويعملون في سبيل إرشاد الناس إلى نظام اجتماعي، يتناول شئون الحياة جميعًا، اسمه «الإسلام» ... نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين، ليكون به من المنذرين بلسان عربي مبين ... ويريدون بعث الأمة

الإسـلامية النموذجيـة التـي تـدين بالإسـلام الحـق، فيكـون لهـا هاديًـا وإمامًـا، وتعرف في الناس بأنها دولة القرآن التي تصطبغ به، والتي تذود عنـه، والتـي تدعو إليه والتي تجاهد في سبيله، وتضحي في هذا السبيل بالنفوس والأموال.

لقد جاء الإسلام نظامًا وإمامًا، ودينًـا ودولـة، تشريعًا وتنفيذًا، فبقـى ا لنظـام وزال الإمام واستمر الـدين وضـاعت الدولـة، وازدهر التشريع وذوى التنفيذ، أليس هذا هو الواقع أيها الإخوان؟! وإلا فـأين الحكم بما أنـزل الله فـي الـدماء والأموال والأعراض؟ والله تتت يقول لنبيه صلى الله عليـه وسـلم : **{وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ 49 أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ}** [المائدة: 49، 50].

والإخوان المسلمون يعملـون ليتأيد النظـام بالحكـام، ولتحيـا مـن جديد دولـة الإسلام، ولتشمل بالنفاذ هذه الأحكام، ولتقوم في الناس حكومة مسلمة، تؤيـدها أمة مسلمة، تنظم حياتها شريعة مسلمة، أمر الله بها نبيـه صـلى الله عليـه وسـلم في كتابه حيث قـال: **{ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ 18 إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ}** [الجاثية: 18، 19][41].

أهداف عامة وأهداف خاصة:

وقد يقسم الأستاذ البنا أهداف الإخوان إلى أهداف عامـة، وأهداف خاصـة،

(41) رسالة المؤتمر السادس (ص205، 206) من مجموعة الرسائل.

فيقول تحت عنوان «أهدافنا العامة»:

ماذا نريد أيها الإخوان؟ أنريد جمع المال، وهو ظل زائل؟ أو سعة الجاه وهو عرض حائل؟ أم نريد الجبروت في الأرض؟

ونحن نقرأ قول الله تتت: **{تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}** [القصص: 83] شهد الله أننا لا نريد شيئًا من هذا، وما لهذا عملنا، ولا إليه دعونا، ولكن اذكروا أن لكم هدفين أساسيين:

1 - أن يتحرر الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي، وذلك حق طبيعي لكل إنسان، لا ينكره إلا ظالم جائر أو مستبد قاهر.

2 - أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة، تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق نظامه الاجتماعي، وتعلن مبادئه القويمة، وتبلغ دعوته الحكيمة للناس، وما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعًا آثمون مسئولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم عن إيجادها، ومن العقوق للإنسانية في هذه الظروف الحائرة أن تقوم فيها دول تهتف بالمبادئ الظالمة، وتنادي بالدعوات الغاشمة، ولا يكون في الناس من يعمل في الناس من يعمل لتقوم دولة الحق والعدالة والسلام.

نريد تحقيق هذين الهدفين في وادي النيل، وفي بلاد العروبة، وفي كل أرض أسعدها الله بعقيدة الإسلام: دين وجنسية وعقيدة توحد بين جميع المسلمين.

ولنا بعد هذين الهدفين «أهداف خاصة» لا يصير المجتمع إسلاميًا كاملًا إلا بتحقيقها، فاذكروا أيها الإخوان أن أكثر من 60% من المصريين يعيشون

أقل من معيشة الحيوان، ولا يحصلون على القوت إلا بشق النفس، وأن مصر مهددة بمجاعة قاتلة، ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية التي لا يعلم نتيجتها إلا الله، وأن مصر بها أكثر من (320) شركة أجنبية، تحتكر كل المرافق العامة، وكل المنافع العامة في جميع أنحاء البلاد، وأن دولاب التجارة والصناعة والمنشآت الاقتصادية كلها في أيدي الأجانب المرابين، وأن الثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدي الوطنيين إلى أيدي هؤلاء، وأن مصر أكثر بلاد العالم المتمدين أمراضًا وأوبئة وعاهات، وأن أكثر من 90% من الشعب المصري مهدد بضعف البنية، وفقد الحواس، ومختلف العلل والأمراض، وأن مصر لا زالت إلى الآن جاهلة لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخمس، بما في ذلك أكثر من مائة ألف شخص لا يتجاوز تعليمهم برامج مدارس الإلزام، وأن الجرائم تتضاعف في مصر وتتكاثر بدرجة هائلة، حتى أن السجون لتخرج أكثر مما تخرج المدارس: وأن مصر لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة في الجيش كاملة المعدات، وأن هذه المعاني والصور تتراءى في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي، فمن أهدافكم أن تعملوا لإصلاح التعليم، ومحاربة الجهل والفقر والمرض والجريمة، وتكوين مجتمع نموذجي يستحق أن ينتسب إلى الإسلام[42].

ومن هذا يتبين عناية الإخوان بعلاج أمراض المجتمع وآفاته بصورة مفصلة.

---

(42) من رسالة « بين الأمس واليوم» (ص105 - 108) من مجموع الرسائل.

هدف مجمل وأهداف مفصلة:

وفي مقام آخر يتحدث البنا رحمه الله عن أهداف الإخوان أو مهمتهم بين الإجمال والتفصيل، فيذكر المهمة الإجمالية أو الهدف الإجمالي، ويجسدها في: أن تقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارة المتع والشهوات، التي جرفت الشعوب الإسلامية، فأبعدتها عن زعامة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتوقن الدنيا كلها بتعاليم القرآن، وينتشر ظل الإسلام الوارف على الأرض وحينئذ يتحقق للمسلم ما ينشده فلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله **{لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ 4 بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمِ}** [الروم: 4، 5].

هذه مهمتنا نحن الإخوان المسلمين إجمالًا، فأما في بعض تفاصيلها فهي: أن يكون في مصر أولًا، بحكم أنها في المقدمة من دول الإسلام وشعوبه، ثم في غيرها كذلك:

- نظام داخلي للحكم يتحقق به قول الله تتت: **{وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ}** [المائدة: 49].

- ونظام للعلاقات الدولية يتحقق به قول القرآن الكريم: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [البقرة: 143].

- ونظام عملي للقضاء يستمد من الآية الكريمة: **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}** [النساء: 65].

- ونظام للدفاع والجندية يحقق مرمى النفير العام: **{ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا**

وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} [التوبة: 41].

- ونظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفراد أساسه قوله تعالى: {وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا} [النساء: 5].

- ونظام للثقافة والتعليم يقضي على الجهالة والظلام، ويطابق جلال الوحي في أول آية من كتاب الله: {ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1].

- ونظام للأسرة والبيت ينشئ ا لصبي المسلم والفتاة المسلمة والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ} [التحريم: 6].

- ونظام للفرد في سلوكه الخاص يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى: {قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا} [الشمس: 9].

- وروح عام يهيمن على كل فرد في الأمة من حاكم أو محكوم قوامه قول الله تعالى: {وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ} [القصص: 77]. اهـ[43].

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بدأ الأستاذ البنا نشاطًا هائلًا، بين الأخوان خاصة، وأبناء مصر عامة، وعقد الاجتماعات في دور الإخوان، ونظم المؤتمرات الوطنية ا لكبرى في عواصم المدن في أنحاء القطر المصري، وشرح فيها الأهداف القومية التي تنشدها مصر، وينشدها الوطن العربي، والوطن الإسلامي في آسيا وإفريقيا، ويتلخص في التحرر من كل

---

(43) «الإخوان تحت راية القرآن» (ص191، 192) من مجموع الرسائل.

سلطان أجنبي، وأن يقوم فيه حكم وطني مستقبل ينبثق من عقيدته، ويحتكم إلى شريعته، ولا يتسع المقام لما ذكره الأستاذ في ذلك، ونكتفي بإحالة القارئ الكريم إلى ما ذكره الأستاذ البنا في خطابه التاريخي «في اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد»[44] في 3 من شوال سنة 1364هـ - 1945/9/8م عن الحقوق الوطنية لمصر والعرب والعالم الإسلامي.

شمول الأهداف نابع من شمول الفكرة:

لقد كان شمول أهداف الإخوان، نابعًا من فكرتهم عن شمول الإسلام، فلم يكن الإسلام عندهم، هو العقيدة وحدها، أو العبادة معها، أو استقامة الأخلاق والسلوك فحسب، بل الإسلام عندهم أجمع من ذلك وأوسع نطاقًا، إنه عقيدة جوهرها التوحيد، وعبادة جوهرها الإخلاص، وأخلاق جوهرها الخير، وتقاليد جوهرها الاستقامة، وتشريع جوهره العدل، وأسرة جوهرها التكافل، ومجتمع جوهره الأخوة، وأمة جوهرها الوسطية، ودولة جوهرها الحق، وحضارة جوهرها التكامل.

وهذا الإسلام الشامل هو الذي ميز الإخوان، وهو الذي جعل الإمام البنا يسميه «إسلام الإخوان المسلمين» لا بمعنى أنهم جاءوا بإسلام جديد، غير الإسلام الذي عرفته الأمة خلال القرون، ولكن لأن الاستعمار الثقافي - الذي صحب الاستعمار السياسي - قلص الإسلام في أذهان المسلمين حتى انحصر في الصلاة والصيام وإقامة الشعائر التعبدية، بل إن الزكاة - وهي عبادة مالية اجتماعية - لم تعد صورتها واضحة في أنفس المسلمين، كما شرعها القرآن

---

(44) اقرأه في «مجموع الرسائل» (ص245 - 270).

والسنة، فقد شرعت نظامًا اجتماعيًا تقوم الدولة بجبايتها وتوزيعها بوساطة من سماهم القرآن «العاملين عليها» فهي تؤخذ من الأغنياء، لترد على الفقراء.

وكان لا بد من بذل جهد مع المسلمين حتى يعيدوا فهم الإسلام كما فهمه أسلافهم في خير القرون: عبادة وقيادة، وصلاة وجهادًا، وحقًا قوة، ودعوة ودولة، ومصحفًا وسيفًا.

وكان من فضل الإخوان في ذلك: أن جمعت على هذه الأهداف: المشايخ والأفندية، أو خريجي الأزهر، وخريجي المدارس الحديثة، وجمعت أهل المدن والقرى، وضمت الأغنياء والفقراء، كما ضمت كبار المتعلمين، والأميين البسطاء في الريف والأحياء الفقيرة، وبهذا تميزت دعوة الإخوان بشمولها لمختلف فئات المجتمع، وشتى طبقاته، كما تميزت بشمول وسائلها وأهدافها.

اتساع مجالات العمل لتحقيقها:

وإذا كانت أهداف الإخوان قد اتسعت حتى شملت كل جوانب الحياة، وامتدت حتى شملت العالم الإسلامي، فقد تجلى أثر ذلك في ميادين العمل التي يتطلبها نشاط الإخوان، فقد اتسعت كذلك سعة أهدافهم.

ومن قرأ ما ذكره البنا في «ركن العمل» من رسالة التعاليم، اتضح له ذلك المعنى بجلاء ناصع.

فقد عدد «المجالات» وإن شئت قلت: عدد «المراتب» التي يتطلبها العمل أو يمضي فيها، فكانت سبعة، بعدد الأهداف الكبيرة، التي ذكرناها من قبل،

كل منها يفتقر إلى جهد جهيد، وصبر مديد، وعزم أكيد.

يقول رحمه الله في شرح المراد بمفهوم العمل:

وأريد بالعمل: ثمرة العلم والإخلاص: **{وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [التوبة: 105].

ثم بين مراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق، على المستوى الفردي والأسري والاجتماعي والوطني والإسلامي والعالمي:

1 - فبدأ بالفرد، الذي يجب عليه إصلاح نفسه، حتى يكون سليم العقيدة، صحيح العبادة، متين الخلق، مثقف الفكر، قوي الجسم، قادرًا على الكسب، مجاهدًا لنفسه، حريصًا على وقته، منظمًا في شئونه، نافعًا لغيره، وذلك واجب كل أخ على حده.

2 - وتكوين بيت مسلم، بأن يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة المنزلية، وحسن اختيار الزوجة، وتوقيفها على حقها وواجبها، وحسن تربية الأولاد وتنشئتهم على مبادئ الإسلام، وذلك واجب كل أخ على حده كذلك.

3 - وإرشاد المجتمع، بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرذائل والمنكرات، وتشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائمًا، وذلك واجب كل أخ على حده، وواجب الجماعة كهيئة عامة.

4 - وتحرير الوطن بتخليصه من كل سلطان أجنبي - غير إسلامي - سياسي

أو اقتصادي أو روحي.

5 - وإصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة، وأجير عندها، وعامل على مصلحتها.

فإذا قصرت فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخلق.

6 - وإعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية، بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافاتها وجمع كلمتها، حتى يؤدي ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة، والوحدة المنشودة.

7 - وأستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه **{حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ}** [الأنفال: 39]، **{وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ}** [التوبة: 32].

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب على الجماعة متحدة، وعلى كل أخ باعتباره عضوًا في الجماعة، وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات، يراها الناس خيالًا ويراها الأخ المسلم حقيقة، ولن نيأس أبدًا، ولنا في الله أعظم الأمل **{وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [يوسف: 21][45].

* * *

(45) «من رسالة التعاليم» (ص359 - 361) من مجموع الرسائل.

6 - وضوح الوسائل

كما تميزت دعو ة الإخوان بوضوح الأهداف والمقاصد، تميزت كذلك بوضوح الوسائل والطرائق.

وكما أن أهدافها إسلامية صميمة من حيث مصادرها، ومن حيث منطلقاتها وبواعثها، ومن حيث وجهتها وموضوعها، فوسائلها إسلامية أيضًا لحمًا ودمًا، أصولًا وفروعًا.

كانت وسائل الإمام البنا لتحقيق غايته واضحة لا لبس فيها ولا ارتياب، وكانت تقوم على الركائز التالية:

1 - إشاعة الوعي العام في الأمة بالتقصير في تطبيق الإسلام، والبعد عن الإسلام الحقيق في نواحي الحياة كافة.

2 - الأشعار بوجوب العودة إلى الإسلام: دينيًا، بمقتضى عقد الإيمان، ودنيويًا بحكم العزة القومية، والاصالة الذاتية.

3 - شرح ما تجنيه الأمة من ثمار برجوعها إلى الإسلام الصحيح في حياتها ماديًا ومعنويًا، ثقافيًا وسياسيًا، اجتماعيًا واقتصاديًا.

4 - مخاطبة الحكام والمسئولين في ذلك وإقامة الحجة عليهم، ووضع المقترحات العملية للإصلاح والتغيير بين أيديهم.

5 - استخلاص العناصر الطيبة المستعدة للبذل، لتربيتهم تريبة متكاملة للقيام بهذا الواجب عند اللزوم، إذا لم يستجب المسئولون لدعاة الإصلاح، ولووا

رءوسهم، يصدون وهم مستكبرون.

6 - التدرج في الخطوات والمراحل، ابتداء بالتعريف، مرورًا بالتكوين وانتهاء إلى التنفيذ.

بيان التقصير في تطبيق الإسلام:

لقد وضح الأستاذ البنا ببيانه «السهل الممتنع» بلسانه وقلمه، بخطبه ومحاضراته، وبرسائله ومقالاته, وفي لقاءاته الخاصة، واجتماعاته العامة: تقصير الأمة في تطبيق الإسلام، وبعدها عن حقيقته، فقد أساءت فهمها للدين، وأساءت العمل به، ومن الكلمات المشرفة في ذلك ما قاله عليه رحمة الله في رسالة «تحت راية القرآن» موجهًا الحديث إلى الإخوان خاصة، وإلى الناس أجمعين قائلًا:

إن الله بعث لكم إمامًا، ووضع لكم نظامًا، وفصل أحكامًا، وأنزل كتابًا، وأحل حلالًا، وحرم حرامًا، وأرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم، وهداكم سواء السبيل؛ فهل اتبعتم إمامه، واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه، وقدستم كتابه، وأحللتم حلاله، وحرمتم حرامه؟

كونوا صرحاء في الجواب، وسترون ا لحقيقة واضحة أمامكم، كل النظم التي تسيرون عليها في شئونكم الحيوية نظم تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام، ولا تستمد مه ولا تعتمد عليه.

نظام الحكم الداخلي.

نظام العلاقات الدولية.

نظم القضاء.

نظام الدفاع والجندية.

نظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد.

نظام الثقافة والتعليم.

بل نظام الأسرة والبيت.

بل نظام الفرد في سلوكه الخاص.

الروح العام الذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين، ويشكل مظاهر الحياة على اختلافها، كل ذلك بعيد عن الإسلام وتعاليم الإسلام.

وماذا بقى بعد ذلك؟

هذه المساجد الشامخة القائمة التي يعمرها الفقراء والعاجزون، فيؤدون فيها ركعات خالية من معاني الروحانية والخشوع إلا من هدى الله؟

هذه الأيام التي تصام في العام فتكون موسمًا للتعطل والتبطل والطعام والشراب، وقلما تتجدد فيها نفس أو تزكوا بها روح.

{إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ} [ص: 24].

هذه المظاهر الخادعة من المسابح والملابس، واللحى والمراسم، والطقوس والألفاظ والكلمات.

أهذا هو الإسلام الذي أراده الله أن يكون رحمته العظمى، ومنته الكبرى على العالمين؟

أهذا هدي محمد صلى الله عليه وسلم الذي أراد به أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور؟

أهذا هو تشريع القرآن الذي عالج أدواء الأمم ومشكلات الشعوب، ووضع للإصلاح أدق القواعد وأرسخ الأصول؟

موجة التقليد الغربي وآثارها في حياة المسلمين:

أيها الإخوان المسلمون.

بل أيها الناس أجمعون.

من الحق أن نعترف بأن موجة قوية جارفة، وتيارًا شديدًا دفاقًا، قد طغى على العقول والأفكار في غفلة من الزمن، وفي غرور من أمم[46] الإسلام، وانغماس منهم في الترف والنعيم ... فقامت مبادئ ودعوات، وظهرت نظم وفلسفات، وتأسست حضارات ومدنيات، ونافست هذه كلها فكرة الإسلام في نفوس أبنائها، وغزت أممه في عقر دارها، وأحاطت بهم في كل مكان، ودخلت عليهم بلدانهم وبيوتهم ومخادعهم، بل احتلت قلوبهم وعقولهم ومشاعرهم، وتهيأ لها من أسباب الإغواء والإغراء والقوة والتمكن ما لم يتهيأ لغيرها من قبل، واجتاحت أممًا إسلامية بأسرها، وانخدعت بها دول كانت في الصميم والذؤابة من دول الإسلام، وتأثر ما بقي تأثرًا بالغًا ونشأ في كل الأمم الإسلامية جيل مخضرم، إلى غير الإسلام أقرب، تصدر في تصريف أمورها واحتل مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها،

(46) كان الأستاذ البنا يستخدم كلمة «أمم الإسلام» بمعنى شعوب الإسلام وهي أولى بالاستخدام؛ لأن المفروض أن للإسلام أمة واحدة لا أممًا.

فدفع بالشعوب مغافلة إلى ما يريد، بل إلى ما ألف، وهي لا تدري ما يراد بها ولا ما تصير إليه، وارتفعت أصوات الدعاة إلى الفكرة الطاغية: أن خلصونا مما بقي من الإسلام وآثار الإسلام، وتقبلوا معنا راضين لا كارهين مستلزمات هذه الحياة وتكاليفها وأفكارها ومظاهرها، واطرحوا بقية الفكرة البالية من رؤوسكم ونفوسكم، ولا تكونوا مخادعين منافقين معاندين، تعملون عمل الغربيين وتقولون قول المسلمين.

من الحق أن نعرف أننا بعدنا عن هدى الإسلام وأصوله وقواعده، والإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها، ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه، لنجري وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين.

حقًا لقد تقدم العلم، وتقدم الفن، وتقدم الفكر، وتزايد المال، وتبرجت الدنيا، وأخذت الأرض زخرفها وازينت، وأترف الناس ونعموا؛ ولكن هل جلب شيء من هذا السعادة لهم؟ وهل أمن لهم شيء من هذا الحياة، أو ساق إلى نفوسهم الهدوء والطمأنينة؟

هل اطمأنت الجنوب في المضاجع؟

هل جفت الجفون من المدامع؟

هل حوربت الجريمة، واستراح المجتمع من شرور المجرمين؟

هل استغنى الفقراء وأشبعت الملايين التي تفوق الحصر بطون الجائعين؟

هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن، التي ملأت الفضاء وسرت مسرى

الهواء، العزاء إلى المحزونين؟

هل تذوقت الشعوب طعم الراحة والهدوء، وأمنت عدوان المعتدين وظلم الظالمين؟

لا شيء من هذا أيها الناس، فما فضل هذه الحضارة إذن على غيرها من الحضارات؟ اهـ[47].

كان لا بد للأستاذ أن يبين للناس حقيقة بعدهم عن الإسلام، حتى لا يغرهم به الغرور، ولا يزين لهم شيطانهم أنه مسلمون حقًا، ما داموا يقيمون بعض الشعائر، وإن كانت فارغة من الروح والإخلاص والإتقان، وما داموا يحتفلون بالمناسبات، ويقيمون لها الزينات، فكانت الخطوة الأولى: أن يعرفوا حقيقة أنفسهم.

بيان نتائج فساد النظام الاجتماعي القائم في مصر:

كان الأستاذ البنا يرنو ببصره وبدعوته إلى آفاق العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، ويؤمن بعالمية الإسلام، ووحدة أمته، ووحدة «دار الإسلام» ولكنه كان واقعيًا، وكان بصيرًا بسنن الله في الكون والمجتمع وكان تركيزه على مصر والبدء بتحريرها وإصلاحها وإقامة لإسلام الكامل فيها باعتبارها وطن الدعوة أولًا، وبوصفها زعيمة شعوب العرب والإسلام بما لها من جهاد في رد الصليبيين والتتار، وبفضل أزهرها العتيد، الذي حافظ على الدين واللغة ألف عام، ولا غرو أن عني بأوضاع مصر بالتفصيل.

وها هو يبين آثار فساد النظام الاجتماعي الذي يحكم مصر، منذ عهد

---

(47) من رسالة «تحت راية القرآن» (ص188 - 190) من مجموع الرسائل.

الاحتلال، وبعد عهد الاستقلال، وقد كشف الأستاذ القناع عن هذا الفساد، أو عن بعض آثاره ونتائجه في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ليشعر الناس أن لا بديل لهذه النظم والأوضاع المستوردة إلى المنهج الأصيل، النابع من عقيدة الأمة، والمعبر عن روحها وضميرها، وهو: الإسلام الشامل، الذي يبدأ بإصلاح النفس البشرية، وينتهي بإصلاح الأمة والدولة.

لتستمع إلى هذا البيان، وإن كانت أرقامه وإحصاءاته قد تغيرت، ولكنه يرينا إلى أي حد كانت عناية الإخوان بمشكلات المجتمع، وبفئاته المختلفة، وبخاصة الفئات المستضعفة والمسحوقة فيه.

يقول البنا رحمه الله : إننا في أخصب بقاع الأرض وأعذبها ماء، وأعدلها هواء، وأيسرها رزقًا، وأكثرها خيرًا، وأوسطها دارًا، وأقدمها مدنية وحضارة وعلمًا ومعرفة، وأحفلها بآثار العمران الروحي والمادي والعلمي والفني، وفي بلدنا المواد الأولية والخامات والصناعية والخيرات الزراعية، وكل ما تحتاج إليه أمة قوية تريد أن تستغني بنفسها، وأن تسوق الخير إلى غيرها، وما من أجنبي هبط هذا البلد الأمين إلا صح بعد مرض، واعتنى بعد فاقة، وعز بعد ذلة وأترف بعد البؤس والشقاء ... فماذا أفاد المصريون أنفسهم من ذلك كله؟ لا شيء، وهل ينتشر الفقر والجهل والمرض والضعف في بلد متمدن، كما ينتشر في مصر الغنية مهد الحضارة والعلوم وزعيمة أقطار الشرق غير مدافعة؟!

إليكم أيها الإخوان بعض الأرقام[48] التي تنطق بما يهددنا من أخطار

---

(48) الأرقام الواردة في هذه الفقرة وما يليها حسب الإحصائيات الثابتة حين ألقي هذا

اجتماعية ما حقة ساحقة إن لم يتداركنا الله فيها برحمته فسيكون لها أفدح النتائج وأفظع الآثار:

1 - الفلاحون في مصر يبلغون ثمانية ملايين، والأرض المنزرعة نحو ستة ملايين من الأفدنة، وعلى هذا الاعتبار يخص الفرد الواحد نحو ثلثي فدان.

فإذا لاحظنا إلى جانب هذا أن الأرض المصرية تفقد خواصها لضعف المصارف وكثرة الإجهاد، وأنها لهذا السبب تأخذ من السماد الصناعي أضعاف غيرها من الأرض التي تقل عنها جودة وخصوبة، وأن عدد السكان يتكاثر تكاثرًا سريعًا، وأن التوزيع في هذه الأرض يجعل من هذا العدد أربعة ملايين لا يملكون شيئًا، ومليونين لا يزيد ملكهم عن نصف فدان ومعظم الباقي لا يزيد ملكه على خمسة أفدنة، علمنا مبلغ الفقر الذي يعانيه الفلاحون المصريون، ودرجة انحطاط مستوى المعيشة بينهم درجة ترعب وتخفيف.

مقارنة بين معيشة الإنسان ومعيشة الحمار:

ومن الطرائف: ما ذكره المرشد البنا رحمه الله من مقارنة بين معيشة الإنسان ومعيشة الحمار في مصر فيقول:

«إن أربعة ملايين من المصريين لا يحصل أحدهم ثمانين قرشًا في الشهر إلا بشق النفس، فإذا فرضنا أن له زوجة وثلاثة أولاد وهو متوسط ما يكون عليه الحال في الريف المصري بل في الأسر لمصرية عامة، كان متوسط ما يخص الفرد في العام جنيهين، وهو أقل بكثير مما يعيش به الحمار، فإن

الخطاب سنة (1941).

الحمار يتكلف على صاحبه «140 قرشا خمس فدان برسيم و30 قرشًا حملًا ونصف الحمل من التبن و150 قرشًا فول و20 قرشًا أربعة قراريط عفش ذرة ومجموعها 340 قرشًا» وهو ضعف ما يعيش به الفرد من هؤلاء الآدميين في مصر، وبذلك يكون أربعة ملايين مصري يعيشون أقل من عيشة الحيوان!!

ثم إذا نظرت إلطبقة الملاك الكبار وجدتهم مكبلين بالديون أذلاء للمحاكم والبنوك.

إن البنك العقاري وحده يحوز من الرهون قريبًا من نصف مليوم فدان، ويبلغ دينه على الملاك المصريين (17) مليونًا من الجنيهات إلى أكتوبر سنة 1936، وهذا بنك واحد.

وقد بلغ ثمن ما نزعت ملكيته للديون من الأرض والمنازل في سنة 1939 (256، 346) جنيهًا فعلى أي شيء تدل هذه الأرقام؟

2 - العمال في مصر يبلغون (5.718.127) أي نحوًا من ستة ملايين عامل، يشكو التعطل (119 و511) أي أكثر من نصف مليون لا يجدون شيئًا، وهناك الجيوش من حملة الشهادات العاطلين.

فكيف يشعر إنسان هذه حاله بكرامته الإنسانية أو يعرف معنى العاطفة القومية والوطنية وهو في بلد لا يستطيع أن يجد فيه القوت، ولقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الفقر، وقديمًا قيل: يكاد الفقر أن يكون كفرًا، فضلًا عن أن المشتغلين من العمال مهددون باستغلال أصحاب رأس لمال، وضعف الأجور، والإرهاق في العمل، ولم تصدر الحكومات بعد التشريع الكافي

لحماية هؤلاء البائسين، وقد ضاعفت حالة الحرب القائمة هذا العدد من المتعطلين، وزادت العاملين منهم بؤسًا على بؤسهم.

ثم يتحدث الأستاذ المرشد بلغة الأرقام التي لا تكذب عن «شركات الاحتكار» في مصر التي وضعت يدها على مرافق الحياة والمنافع العامة، فالنور ولمياه والملح والنقل ونحوها كلها في يد هذه الشركات التي لا ترقب في مصري إلا ولا ذمة، والتي تحقق أفحش الأرباح، وتضن حتى باستخدام المصريين في أعمالها.

وبعد حديث بالأرقام عن أرباح هذه الشركات بالتفصيل، وكلها من دم المصريين الذين لا يجد نصفهم القوت.

يقول الأستاذ: وهذه الشركات جميعًا تخالف نصوص العقود في كثير من التصرفات ثم لا يكون التصرف معها إلا متراخيًا ضعيفًا يفوت الفائدة على الحكومة والجمهور معًا.

ولعل من الطريف المبكي أن نقول: إن عدد الشركات المصرية إلى سنة (1938) بلغ إحدى عشرة شركة فقط مقابل (320) شركة أجنبية، تستغل جميع مرافق الحياة.

ويتحدث المرشد عن الجانب الصحي في مصر في ذلك العهد، فيقول:

لقد استقبلت العيادات الحكومية سنة 1934 (7.241.383) مريضًا، منهم مليون بالبلهارسيا، وأكثر من نصف مليون بالإنكلوستاما، ومليون ونصف بالرمد، وفي مصر (90) في المائة مريض بالرمد والطفيليات، وفيها (55.575) من فاقدي البصر، ويكشف لنا الكشف الطبي في المدارس وفي

المعاهد والجامعة - ومنها الكلية الحربية - حقائق عجيبة عن ضعف بنية الطلاب، وهم زهرة شباب الأمة، وكل ذلك فغي أمة علمها نبيها أن تسأل الله أن يعافيها في أبدانها وفي سمعها وفي بصرها.

ثم يتحدث عن الجانب التعليمي، وضعف مستواه، وغلبة الأمية، حديث العارف البصير، فيقول: إن مصر بعد هذا الجهاد الطويل لا زالت بها آلاف كثيرة ممن لا يخط الألف، ولا زال عدد المتعلمين فيها لا يجاوز الخمس (20 في المائة) من بينهم تلاميذ المدارس الإلزامية الذين لا يحسنون شيئًا، وكثير منهم لم يجاوز شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، حتى الذين تعلموا تعليمًا عاليًا لا تنقطع الشكوى من أن مؤهلات العلمية لا تمكنهم من النجاح الكامل في الحياة العملية، وتتردد هذه الشكوى على لسان وزراء المعارف ورؤساء دوائر الأعمال وغيرهم.

ثم ينتقل إلى الجانب الخلقي، والجانب الإيماني أو الروحي فيقول:

وقد انحط مستوى الخلق انحطاطًا عجيبًا، فقد بلغ عدد الذين حوكموا بجرائم تخالف القانون في سنة 1938 أكثر من مليون مصري ومصرية، دخل منهم السجن زهاء مائة ألف أو يزيدون، عدا من لم تصل إليهم يد القضاء ولم تعرف جرائمهم بعد.

هذا مع جرأة كثير من الشبان على المخالفات الدينية التي لا يؤاخذ عليها القانون الوضعي كشرب الخمر والإقبال على القمار واليانصيب والسباق ونحوها، والعبث وما إليه مما لا يحصيه العد، بدون خشية ولا حياء.

ومع أننا فقدنا مقومات الحياة المادية من العلم الدنيوي النافع ومن الثروة

والمال ومن القوة الصحية، فهل أبقينا على شيء من قوانا الروحية؟ كلا ... كلا.

كم من المصريين يؤمن بالله حق الإيمان، ويعتمد عليه حق الاعتماد؟ وكم منهم يعتز بكرامته القومية وعزته الإسلامية؟ وكم منهم يؤدي الصلوات؟ وكمن من هؤلاء المؤدين يقيمها على وجهها، ويتعرف أحكامها وأسرارها؟ وكم منهم يؤدي الزكاة ويتحرى بها مصارفها والغاية منها؟ وكم منهم يخشى الله ويتقيه عن المعصية ويجتنب كبائر الإثم والفواحش؟

يجيبنا الواقع المشاهد عن الأسئلة جميعًا بما يؤلم ويحزن، ويحز في نفس كل مؤمن غيور. اهـ(49).

بيان مزايا التوجه إلى الإسلام:

ومن الوسائل التي سلكها الأستاذ البنا: بيان مزايا وفوائد التوجه الإسلامي، حين خاطب المسئولين قائلًا: سترون أمامكم طريقين، كل منهما يهيب بكم أن توجوا الأمة وجهتها وتسلكوا بها سبيله، ولكل منهما خواصه ومميزاته وآثاره ونتائجه ودعاته ومروجوه، فأما الأول فطريق الإسلام وأصوله وقواعده وحضارته ومدنيته، وأما الثاني فطريق الغرب ومظاهر حياته ونظمها ومناهجها.

وعقيدتنا: أن الطريق الأول طريق الإسلام وقواعده وأصوله هو الطريق الوحيد الذي يجب أن يسلك وأن توجه إليه الأمة الحاضرة والمستقبلة.

وإننا إذا سلكنا بالأمة هذا المسلك استطعنا أن نحصل على فوائده كثيرة؛

---

(49) من رسالة المؤتمر السادس (ص207 - 210) من مجموع الرسائل.

منهـا أن المنهـاج الإسـلامي قـد جـرب مـن قبـل وشـهد التـاريخ بصـلاحيته، وأخرج للنـاس أمـة مـن أقوى الأمـم وأفضلها وأرحمهـا وأبرهـا وأبركهـا علـى الإنسانية جميعًا؛ وله مـن قدسيته واستقراره فـي نفوس النـاس مـا يسـهل علـى الجميع تناوله وفقهه والاستجابة له والسير عليه متـى وجهوا إليـه، فضـلًا عن الاعتـزاز بالقوميـة والإشـادة بـالوطنيـة الخالصـة، إذ أننـا نبنـي حياتنـا علـى قواعدنا وأصـولنا ولا نأخـذ عـن غيرنـا، وفـي ذلـك أفضـل معـاني الاسـتقلال الاجتماعي والحيوي بعد الاستقلال السياسي.

وفـي السـير علـى هـذا المنهـاج تقويـة للوحـدة العربيـة أولًا، ثـم للوحـدة الإسلامية ثانيًا، فيمدنا العالم الإسـلامي كلـه بروحـه وشـعوره وعطفـه وتأييده، ويرى فينا إخوة ينجدهم وينجدونه ويمدهم ويمدونه، وفي ذلك ربح أدبـي كبير لا يزهد فيه عاقل.

وهذا المنهاج تام شامل، كفيل بتقرير أفضل النظم للحيـاة العامـة فـي الأمـة عمليـة وروحيـة، وهـذه هـي الميـزة التـي يمتـاز بهـا الإسـلام، فهـو يضـع نظـم الحياة للأمم على أساسين مهمين: أخذ الصالح وتجنب الضار.

فإذا سلكنا هذا السبيل استطعنا أن نتجنب المشكلات الحيويـة التـي وقعت فيها الدول الأخرى، التـي لـم تعـرف هـذا الطريـق ولـم تسلكه، بـل اسـتطعنا أن نحل كثيرًا من المشكلات المعقدة التي عجزت عن حلها النظم الحالية.

وبعد ذلك كله، فإننا إذا سلكنا هذه السـبيل، كـان تأييد الله مـن ورائنـا، يقوينـا عنـد الـوهن، وينقذنـا فـي الشـدائد، ويهـون علينـا المشـاق، ويهـب بنـا دائمًـا إلـى الأمام:

{وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: 104][50].

مطالبات الحكومات بالإصلاح:

وكان من وسائل الإخوان: أن يطالبوا الحكومات والقيادات المسئولة في مصر، وفي غيرها بالإصلاحات الواجبة الضرورية في كل ناحية من نواحي الحياة، ثقافية وتربوية واجتماعية واقتصادية وسياسية وصحية وأخلاقية وسائر الجوانب المختلفة في مجتمعاتنا.

ولعل أوضح مواقف الإخوان في ذلك: الخطاب الجامع الذي أرسله الإمام البنا إلى الملك فاروق ملك مصر والسودان، وإلى رئيس حكومة مصر: مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد، وإلى ملوك وأمراء وحكام بلدان العالم الإسلام المختلفة، كما بعث به إلى عدد من كبار البارزين في هذه البلدان، من ذوي الصفات الدينية والدنيوية.

وقد بين لهم فيه أن الأمة على مفترق طريقين:

إما طريق التبعية والتقليد للحضارة الغربية، ونظم حياتها وما تستلزم من اتباع شرائعها وثقافتها وتقاليدها.

وإما طريق مجد الإسلام، وما يقتضيه من اتباع شريعته، والالتزام بقيمه وأخلاقه، ونهج حضارته.

وقد بين أن الطريق الواجب اتباعها هي طريق الإسلام، موضحًا مزايا

---

(50) «نحو النور» (ص274، 275) من مجموع الرسائل.

هذا التوجه وثماره الطيبة في الأنفس والحياة.

كما بين الخطر في الجري وراء المدنية الغربية، واتباع سننها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وما وراء ذلك من فقدان الشخصية، وضياع الدين، وخسارة الدنيا في النهاية.

كما بين أن الإسلام كفيل بإمداد الأمة بكل ما تحتاج إليه لنهضتها ورقيها، ماديًا ومعنويًا، فهو يمدها بالعزة القومية، ويشعرها بالذاتية والأصالة، ويوفر لها أسباب الصحة والقوة، كما ينشئ المناخ اللازم لازدهار العلم، وتكوين العقلية العلمية، وكذلك يوفر لها أسباب الاقتصاد القوي، وأيضًا يهيئ البيئة الصحية لتزكية النفس، وتكوين الخلق القويم، وإنما الأمم الأخلاق.

وكذلك بين عدالة النظم الإسلامية وكمالها ومتانة قواعدها، فيما يتعلق بتنظيم أحوال الفرد والأسرة والجماعة، والأمة، وأن الإسلام يحمي الأقليات، ويصون حقوق الأجانب، وأن إقامة نظام الإسلام لا يعكر صفو العلاقة بيننا وبين الغرب.

ولم ينس الأستاذ البنا أن يوضح للمسئولين: أن أصول النهضة في الشرق غير أصولها في الغرب، وأن ثورة الغرب على الدين لا تعني الثورة على الدين الحق، فرجال الدين غير الدين نفسه، ودعاهم أن يكونوا أول من يتقدم باسم رسول الله، بقارورة الدواء من طب القرآن، لاستنقاذ العالم المعذب المريض، إنها خطوة جرئية، ولكنها موفقة إن شاء الله.

ثم وضع الإمام الشهيد أمام هذه القيادات المصرية والعربية والإسلامية: بعض خطوات الإصلاح العملي، مفصلة بعض التفصيل:

1 - في الناحية السياسية والقضائية والإدارية.

2 - وفي الناحية الاجتماعية والعلمية، وقد فصل فيها أكثر من غيرها.

3 - وفي الناحية الاقتصادية.

ولا ضرورة لأن نثقل على القارئ بهذه التفصيلات، ويمكن أن تقرأها في رسالة «نحو النور» من رسائل الإمام الشهيد(51).

ولا يفوتني أن أذكر هنا: أن بعض الناس يعيبون على الإخوان هذا اللون من المطالبات الإصلاحية، من حكومات وملوك وأمراء يعلمون أنهم لن يستجيبوا لهم، وأنهم في ترفهم غارقون، وفي طغيانهم يعمهون، وفي غيهم سادرون **{سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ}** [البقرة: 6].

وأود أن أقول لهؤلاء: إن واجب الإخوان أن يسمعوا كمل الناس كلمتهم، وأن يبلغوهم رسالتهم، وأن يعذروا إلى الله تعالى بأداء واجب الدعوة إلى الجميع، والحكام ناس من الناس، ولعل في بعضهم بقايا إيمان، أو خير ينبض في عروقهم، فإن استجابوا لهذه الدعوة النيرة الخيرة، فبها ونعمت، وإن استجابوا لبعضها فشيء خير من لا شيء، وإن لم يستجيبوا بالمرة، فقد قامت عليهم الحجة، وحقت عليهم الكلمة، ونجا الإخوان من التبعة، والله تعالى يقول: **{وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ 164 فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ}** [الأعراف: 164].

---

(51) انظر: رسالة «نحو النور» (ص273 - 294) من مجموع الرسائل.

الوسائل العامة والوسائل الإضافية:

تحدث الأستاذ البنا في مناسبات شتى عن وسائله في تحقيق غايته، ونصرة دعوته، وقد قسمها إلى وسائل عامة، ووسائل إضافية.

وبين رحمه الله : أن الخطب والأقوال والمكاتبات والدروس والمحاضرات، وتشخيص الداء، ووصف الدواء، كل ذلك وحده لا يجدي نفعًا، ولا يحقق غاية ولا يصل بالداعين إلى هدف من الأهداف؛ ولكن للدعوات وسائل لا بد من الأخذ بها والعمل لها، والوسائل العامة، للدعوات لا تتغير ولا تتبدل ولا تعدو هذه الأمور الثلاثة:

1 - الإيمان العميق.

2 - التكوين الدقيق.

3 - العمل المتواصل.

وقد تكون إلى جانب هذه الوسائل العامة: وسائل إضافية لا بد من الأخذ بها وسلوك سبيلها، منها ا لسلبي ومنها الإيجابي، ومنها ما يتفق مع عرف الناس، ومنها ما يخرج على هذا العرف ويخالفه ويناقضه، منها ما فيه لين، ومنها ما فيه شدة، ولا بد أن نروض أنفسنا على تحمل ذلك كله، والإعداد لهذا كله، حتى نضمن النجاح، وقد يطلب إلينا أن نخالف عادات ومألوفات، وأن نخرج على نظم وأوضاع ألفها الناس، وتعارفوا عليها، وليست الدعوة في حقيقة أمرها إلا خروجًا على المألوفات، وتغييرًا للعادات والأوضاع، فهل أنتم مستعدون لذلك أيها الإخوان؟

وسيقول كثير من الناس: وماذا تعني هذه الوسائل؟ وما عساها أن تنفع في

بناء أمة، وترميم مجتمع، مع هذه المشكلات المزمنة، ومع استقرار الحال على هذه المفاسد المتعددة؟ وكيف تعالجون الاقتصاد على غير أساس الربا؟ وكيف تصنعون في قضية المرأة؟ وكيف تنالون حقكم بغير قوة؟ فاعلموا أيها الإخوان أنها وساوس الشيطان يلقيها في أمنية كل مصلح، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم.

وأذكرا لهؤلاء جميعًا أن التاريخ يقص علينا من نبأ الأمم الماضية والحاضرة مافيه عظة وعبرة. والأمة التي تصمم على الحياة لا يمكن أن تموت[52].

شرح المراد بالوسائل العامة:

ويعود إلى شرح المراد بالوسائل العامة مرة أخري، فيقول:

أما وسائلنا العامة:

فالإقناع ونشر الدعوة بكل وسائل النشر حتى يفقهها الرأي العام ويناصرها عن عقيدة وإيمان.

ثم استخلاص العناصر الطيبة لتكون هي الدعائم الثابتة لفكرة الإصلاح ...

ثم النضال الدستوري، حتى يرتفع صوت هذه الدعوة في الأندية الرسمية، وتناصرها وتنحاز إليها القوة التنفيذية، وعلى هذا الأساس سيتقدم مرشحو الإخوان المسلمين حين يجئ الوقت المناسب إلى الأمة لمثلوها في الهيئات النيابية، ونحن واثقون بعون الله من النجاح ما دمنا نبتغي بذلك وجه الله

---

(52) من رسالة «بين الأمس واليوم» (ص: 108) من «مجموع الرسائل».

{وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: 40] ا.هـ.

وبذلك انحاز الأستاذ البنا بجلاء ووضوح إلى النضال السلمي، والكفاح الدستوري، ليصل إلى مايريد ثم يقول: «أما ما سوى ذلك من الوسائل فلن نلجأ إليه إلا مكرهين، ولن نستخدمه إلا مضطرين، وسنكون حينئذ صرحاء شرفاء، لا نحجم عن إعلان موقفنا واضحا لا لبس فيه وغموض معه، ونحن على استعداد تام لتحمل نتائج عملنا أيا كانت، لا نلقي التبعة على غيرنا، ولا نتمسح بسوانا، ونحن نعلم أن ما عند الله خير وأبقى، وأن الفناء في الحق هو عين البقاء، وأنه لا دعوة بغير جهاد، ولا جهاد بغير اضطهاد، وعندئذ تدنو ساعة النصر ويحين وقت الفوز، ويتحقق قول الملك الحق المبين **{حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ}** [يوسف: 110].

لا يمكن أن يفهم من هذا الكلام: اللجوء إلى الاغتيال السياسي، أو تدمير المنشآت، أو القتل العشوائي، أو قتل المدنيين البرآء، كما تفعل - للأسف الشديد - بعض الجماعات التي ينسبونها إلى الإسلام. فالصراحة والشرف، وإعلامه الموقف بوضوح لاريب فيه: يتنافى مع طبيعة «العنف الوحشي» الذي تمارسه بعض الجماعات التي لا تراها تمت في عملها إلى الإسلام ولا إلى الإنسانية بنسب قريب أو بعيد.

وسائل الإخوان باعتبارهم جماعة خدمة عامة:

وقد فرق الأستاذ البنا بين وسائل الإخوان باعتبارهم جماعة خدمة، وجماعة دعوة وفكرة. فقال: لا شك أن جماعات الإخوان المسلمين جماعات

تقوم بالخدمة العامة من بناء المساجد وعمارتها، ومن فتح المدارس والمكاتب والإشراف عليها، ومن إنشاء الأندية والفرق وتوجيهها ورعايتها، ومن الاحتفال بالذكريات الإسلامية احتفالا يليق بجلالها وعظمتها، ومن الإصلاح بين الناس في القرى والبلدان إصلاحا يوفر عليهم كثيرا من الجهود والأموال، ومن التوسط بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع في المواسم والأعياد، لا شك أن الإخوان يقومون بهذا كله ولهم فيه والحمد لله أثر يذكر، وقد تضاعف نشاطهم في هذه النواحي مضاعفة ملموسة في هذا الدور من أدوار الدعوة بطبيعة التفات الناس إليها وإقبالهم عليها، ووسيلة الإخوان في هذه الميادين: التنظيم والتطوع والاستعانة بأهل الرأي والخبرة، وتدبير ماتحتاج إليه هذه المشروعات من أموال من المشتركين تارة، ومن المتبرعين أخرى إلى ما يدفع لمثل هذه المشروعات، ولسنا نقول: إن الإخوان قد اكتملت جهودهم في هذه الناحية، ولكنا نقول: إنهم يسيرون بخطوات واسعة نحو الكمال، والله الموفق والمستعان. هؤلاء هم الإخوان، وتلك هي دعوتهم كجماعة من جماعات الخدمة العامة.

وسائل الإخوان بعتبارهم دعوة وفكرة:

ولكن الإخوان كما علمت ليسوا كذلك فحسب، ولكن لب دعوتهم: فكرة وعقيدة يقذفون بها في نفوس الناس، ليتربى عليها الرأي العام، تؤمن بها القلوب، وتجتمع من حولها الأرواح: تلك هي العمل للإسلام، والعمل به في كل نواحي الحياة.

أما الوسيلة إلى تحقيق ذلك فليست المال، والتاريخ منذ عرف إلى الآن

يحدثنا أن الدعوات لا تقوم أول أمرها بالمال، ولا تنهض به بحال، فهي تحتاج إلى مال في بعض مراحل طريقها، ولكن محال أن يكون قوامها ودعامتها، فرجال الدعوات وأنصارهم دائما المقلون من هذا المال، وسل التاريخ ينبئك.

وليست الوسيلة القوة كذلك، فالدعوة الحقة إنما تخاطب الأرواح أولا، وتناجي القلوب، وتطرق مغاليق النفوس، ومحال أن تثبت بالعصا، أو أن تصل إليها على شبا الأسنة والسهام، ولكن الوسيلة في تركيز كل دعوة وثباتها معروفة معلومة، مقروءة لكل من له إلمام بتاريخ الجماعات. وخلاصة ذلك جملتان: إيمان وعمل، ومحبة وإخاء.

ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تركيز دعوته في نفوس الرعيل الأول من أصحابه، أكثر من أنه دعاهم إلى الإيمان والعمل، ثم جمع قلوبهم على الحب والإخاء، فاجتمعت قوة العقيدة إلى قوة الوحدة، وصارت جماعتهم هي الجماعة النموذجية التي لا بد أن تظهر كلمتها وتنتصر دعوتها، وإن ناوأها أهل الأرض جميعا، وماذا فعل الدعاة من قبل ومن بعد أكثر من هذا؟ ينادون بالفكرة ويوضحونها، ويدعون الناس إليها فيؤمنون بها. ويعملون لتحقيقها ويجتمعون عليها، ويزدادون عددا فتزداد الفكرة بهم ظهورا، حتى تبلغ مداها، وتبتلع ما سواها، وتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وليست دعوة الإخوان بدعا في الدعوات، فهي صدى من الدعوة الأولى يدوي في قلوب هؤلاء المؤمنين، ويتردد على ألسنتهم، ويحاولون أن يقذفوا به إيمانا في قلوب الفئة المسلمة، ليظهر عملا في تصرفاتها، ولتجتمع قلوبها

عليه، فإذا فعلوا ذلك أيدهم الله ونصرهم وهداهم سواء السبيل[53].

التدرج في الخطوات:

ومن خصائص الوسائل الإخوانية أنها تقوم على التدرج لا على القفز، والتدرج سنة من سنن الله الكونية، كما أنه سنة من سننه الشرعية، وقد وضحنا ذلك في كتبنا، فليرجع إليه[54].

يقول الأستاذ البنا: وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين، فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث: مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب، ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعويين، ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج. وكثيرا ما تسير هذه المراحل الثلاث جنبا إلى جنب نظرا لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعا، فالداعي يدعو، وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك.

ولكن لا شك في أن الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار، ومتانة التكوين.

في حدود هذه المراحل سارت دعوتنا ولا تزال تسير، فقد بدأنا بالدعوة فوجهناها إلى الأمة في دروس متتالية وفي رحلات متلاحقة وفي مطبوعات كثيرة وفي حفلات عامة وخاصة، وفي جريدة الإخوان المسلمين الأولى ثم

(53) من رسالة «دعوتنا في طور جديد» (ص: 240 - 241). من مجموع الرسائل.

(54) من ذلك: كتاب «الصحوة بين الجحود والتطرف» وكتاب «الحل الإسلامي».

في مجلة النذير الأسبوعية، ولا زلنا ندعو، وسنظل كذلك، حتى لا يكون هناك فرد واحد لم تصله دعوة الإخوان المسلمين على حقيقتها الناصعة، وعلى وجهها الصحيح.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره. وأظن أننا وصلنا في هذه المرحلة إلى درجة نطمئن عليها وعلى اطراد السير فيها، وصار من ألزم واجباتنا أن نخطو الخطوة الثانية خطوة الاختيار والتكوين والتعبئة.

خطونا الخطوة الثانية في صور ثلاث:

1 - الكتائب: ويراد بها تقوية الصف بالتعارف، وتمازج النفوس والأرواح ومقاومة العادات والمألوفات، والمران على حسن الصلة بالله تتت، واستمداد النصر منه، وهذا هو معهد التربية الروحية للإخوان المسلمين.

2 - الفرق للكشافة والجوالة والألعاب الرياضية: ويراد بها تقوية الصف بتنمية جسوم الإخوان، وتعويدهم الطاعة والنظام والأخلاق الرياضية الفاضلة، وإعدادهم للجندية الصحيحة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وهذا هو معهد التربية الجسمية للإخوان المسلمين.

3 - درس التعاليم في الكتائب أو في أندية الإخوان المسلمين: ويراد بها تقوية الصف بتنمية أفكار الإخوان وعقولهم بدراسة جامعة لأهم ما يلزم الأخ المسلم معرفته لدينه ودنياه وهذا هو معهد التربية العلمية والفكرية للإخوان المسلمين.

ذلك إلى مختلف نواحي النشاط الأخرى التي يدرب بها الإخوان على الواجب الذي ينتظرهم كجماعة تعد نفسها لقيادة أمة، بل لهداية العالمين.

بعد أن نطمئن على مواقفنا من هذه الخطوة نخطو إن شاء الله الخطوة الثالثة، وهي الخطوة العملية التي تظهر بعدها الثمار الكاملة الإخوان المسلمين. انتهى.

الوقوف في وجه المتعجلين:

وكان بين الإخوان أناس متحمسون مستعجلون، لا يحسنون التعامل مع سنن الله في خلقه، ولا يعرفون خلق الأناة والصبر، ولا قانون التدرج، ويريدون قطف الثمرة قبل أوانها، وقد عانى المرشد من هؤلاء ما عانى، وبعضهم فقد صبره تماما، فخرج من الجماعة، وبعضهم بقي ولكنه يشعر بالقلق، ويستطيل الطريق، وهؤلاء هم الذين خاطبهم الأستاذ في المؤتمر الخامس بقوة قائلا: أيها الإخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم: اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع: إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده. ولست مخالفا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقناع بأنها أسلم طريق للوصول، أجل قد تكون طريقا طويلة، ولكن ليس هناك غيرها. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقتطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات. ومن صبر معي حتى تنبت البذرة، وتنمو الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة.

ومن الكلمات البليغة التي خاطب بها الأستاذ المرشد الإخوان في هذا الموقف قوله:

أيها الأخوان المسلمون:

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة. ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها، وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هي منكم ببعيد.

أيها الإخوان المسلمون:

إنكم تبتغون وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه، وذلك مكفول لكم ما دمتم مخلصين. ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال، ولكن كلفكم صدق التوجه وحسن الاستعداد، ونحن بعد ذلك: إما مخطئون، فلنا أجر العاملين المجتهدين، وإما مصيبون، فلنا أجر الفائزين المصيبين. على أن التجارب في الماضي والحاضر قد أثبتت أنه لا خير إلا في طريقكم، ولا إنتاج إلا مع خطتكم، ولا صواب إلا فيما تعملون، فلا تغامروا بجهودكم، ولا تقامروا بثمار نجاحكم. واعملوا والله معكم، ولن يتركم اعمالكم، والفوز للعاملين **{وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ}** [البقرة: 143]. اهـ[55].

متى تكون الخطوة التنفيذية:

أيها الإخوان المسلمون: نحن هنا في مؤتمر أعتبره مؤتمرًا عائليًا يضم أسرة الإخوان المسلمين، وأريد أن أكون معكم صريحًا للغاية، فلم تعد تنفعنا

---

(55) من رسالة «المؤتمر الخامس» (ص125 - 127) من مجموع الرسائل.

إلا المصارحة.

إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، ميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ.

يسهل على كثيرين أن يتخيلوا، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالًا باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليلًا من هذا الكثير يثبت عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيع أن يعمل، ولكن قليلًا منهم يقدر على حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل المضني، وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله، وفي قصة طالوت بيان لما أقول، فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق وامتحنوها بالعمل، العمل القوي البغيض لديها الشارق عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها.

وفي الوقت الذي يكون فيه منكم - معشر الإخوان المسلمين - ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحيًا بالإيمان والعقيدة، وفكريا بالعلم والثقافة، وجسميًا بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء الله، وصدق رسول الله القائل: «**ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة**»[56]. إني أقدر لذلك وقتًا ليس طويلًا بعد توفيق الله واستمداد معونته،

---

(56) رواه عن ابن عباس أبو داود في الجهاد (2611)، والترمذي وحسنه في السير

وتقديم إذنه ومشيئته، وقد تستطيعون أنتم معشر نواب الإخوان ومندوبيهم: أن تقصروا هذا الأجل إذا بذلتم همتكم وضاعفتم جهودكم، وقد تهملون فيخطئ هذا الحساب، وتختلف النتائج المترتبة عليه، فأشعروا أنفسكم العبء، وألفوا الكتائب، وكونوا الفرق، وأقبلوا على الدروس، وسارعوا إلى التدريب، وانشروا دعوتكم في الجهات التي لم تصل إليها بعد، ولا تضيعوا دقيقة بغير عمل.

وقد يظن من يسمع هذا أن الإخوان المسلمين قليل عددهم أو ضعيف مجهودهم، وليست إلى هذا أقصد، وليس هذا هو مفهوم كلامي، فالإخوان المسلمون والحمد لله كثيرون، وإن جماعة يمثلها في هذا الاجتماع آلاف من أعضائها، كل منهم ينوب عن شعبة كاملة، لأكثر من أن يستقل عددها، أو ينسى مجهودها، أو يغمط حقها، ولكن أقصد إلى ما ذكرت أولًا من أن رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد والمنهج الحكيم، الذي يؤدي على أعظم الربح بأقل التضحيات[57].

* * *

(1555)، وابن ماجه في الجهاد (2738)، والدارمي في السير (2 / 215)، والحاكم في «المستدرك» (1 / 443)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وابن خزيمة (2538)، وابن حبان (4717)، وذكره الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (3278).

(57) رسالة المؤتمر الخامس (ص128، 129) من مجموع الرسائل.

7 - وضوح المواقف

وآخر المقومات السبعة لحركة الإخوان المسلمين هو: وضوح مواقفها إلى حد كبير - من القضايا الكبيرة، الدينية أو الفكرية أو السياسية، أو الاجتماعية، التي تشغل الناس، وتجعلهم يتساءلون عنها، وعن موقف الإخوان منها.

ولم يكن الأستاذ البنا رحمه الله ليهرب من هذه التساؤلات باللف والدوران، أو إرجاء الحديث عنها، أو تمييعه، بل تصدي للجواب بحكمة وشجاعة، مبينًا موقف دعوته من قضايا مهمة وحساسة يفر الكثيرون من تناولها، لما فيها مزالق وإحراجات.

وهذه الأجوبة أو المواقف قد تكون في بعض الأحيان مجملة غير مفصلة، أو ربما ينقصها التدليل الفقهي الموسع، أو التفصيل العلمي المشبع، ولكنها - في وقتها - كانت كافية لمن يريد أن يفهم، وفاتحة الطريق لمن يريد أن يتوسع، فهي مشاغل مضيئة، ومنارات هادية على الطريق، ولم يكن الأستاذ في موقف «الباحث» المتعمق، الذي يتتبع المصادر، بل في موقف «المصلح» الذي تكفيه الإشارة عن العبارة، والإجمال عن التفصيل، وقد يأتي يوم يتفرغ فيه لتفصيل ما أجمل، ولتفسير ما أبهم، وقد يقوم بذلك بعض إخوانه وتلاميذه في حياته أو من بعده، وكل ميسر لما خلق له.

ثم هناك أمر آخر كان يخشاه الأستاذ البنا، وهو: أن الدخول في التفاصيل، سيؤدي إلى اختلاف الآراء، وتعدد الاجتهادات، ومثل هذا ينبغي أن يؤجل حتى تنضج الجماعة، وتتهيأ لمثل هذا اللون من الخلاف الاجتهادي.

في رسائل الإمام البنا الأولى، مثل «رسالة المؤتمر الخامس» للإخوان، الذي عقد بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس الإخوان و«رسالة المؤتمر السادس» بعدها، وفي رسالة «نحو النور» التي وجهها إلى الملوك والرؤساء وقادة الأحزاب والجماعات والشخصيات البارزة في المجتمع المصري، وغيره من المجتمعات العربية والإسلامية وكان ذلك في رجب سنة 1366هـ أيام حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا، وفي رسالة «دعوتنا في طور جديد» وقد كتبت سنة 1942م. في هذه الرسائل نجد حسن البنا يوضح موقف الإخوان من عدد من القضايا الهامة، ولا يبخل بالجواب عمن سأل عن حقيقة موقف الجماعة منها، سواء كان ذلك داخل الإخوان، الذين يحبون أن يعرفوا موقف دعوتهم ويفهموه ويبلغوه للناس، أم كان من خارج الجماعة، ممن يحبونها ويوالونها ويودون أن يتعرفوا على مواقفها أو ممن يضمرون لها السوء، ويودون أن يشوشوا عليها.

وسنذكر هنا عددًا من القضايا التي بينها الإمام الشهيد عليه رحمة الله ورضوانه.

الإخوان واستخدام القوة:

في «رسالة المؤتمر الخامس» يرد الأستاذ البنا على تساؤل الكثير من الناس: هل في عزم الإخوان استخدام القوة للوصول إلى غايتهم وتحقيق أغراضهم؟ ويجيب الأستاذ عن ذلك بوضوح وجلاء، فيبين: أن القوة شعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادي في صراحة وجلاء: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ}** [الأنفال: 60]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**المؤمن القوي خير وأحب**

إلى الله من المؤمن الضعيف»[58].

ولكنه يذكر أن الإخوان أعمق فكرًا وأبعد نظرًا من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا إلى أعماقها ولا يزنوا نتائجها، وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعًا، وإنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح، وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام، أو ضعيفة خامدة الإيمان، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك.

هذه نظرة، ونظرة أخرى: هل أوصى الإسلام - والقوة شعاره - باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال؟ أم حدد لذلك حدودًا، واشترط شروطًا ووجه القوة توجيهًا محددًا؟

ونظرة ثالثة: هل تكون القوة أول العلاج أم إن آخر الدواء الكي؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج القوة النافعة ونتائجها الضارة، وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه، وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين: إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة

---

(58) رواه مسلم عن أبي هريرة في كتاب القدر (2664).

سيكونوا شرفاء صرحاء وسينذرون أولًا، وينتظرون بعد ذلك، ثم يقدمون في كرامة وعزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح. اهـ.

هذه القوة التي أشار إليها الإمام الشهيد، ليست هي الاغتيال السياسي، ولا قتل المدنيين، ولا تدمير المنشآت، فهذه لا يصارح بها، بل تتم في تكتم وسرية، ولعل المقصود هنا: أن تقوم القوات المسلحة بذلك، حين يقتنع رجالها بالفكرة الإسلامية، كما حدث أخيرًا في السودان، حيث قامت «ثورة ا لانقاذ» التي لم يرق فيها قطرة دم، ولعل البنا كان يريد أن يقوم بما قام به عبد الناصر من بعد.

ذلك أن الأستاذ يرفض «الثورة الشعبية» العامة، فهو يراها أعنف مظاهر القوة، ويرى عدم جدواها، ولهذا لا يفكر الإخوان فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ولم يفكر أولوا الأمر في إصلاح عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل، فسيؤدي ذلك حتمًا إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمام مرافق الإصلاح، وليست هذه المشاكل التي تتعقد بمرور الزمن ويستفحل أمرها بمضي الأيام إلا نذيرًا من هذه النذر، فليسرع المنقذون بالأعمال.

الإخوان المسلمون والحكم:

ويرد الأستاذ البنا على تساؤل فريق آخر من الناس: هل في منهاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة وأن يطالبوا بالحكم؟ وما وسيلتهم إلى

ذلك؟

ويرد الأستاذ بصراحة، لا يدع السائلين في حيرة، ولا يبخل عليهم بالجواب، ويبين في إجابته: إن الإخوان يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدي الإسلام الحنيف مكا فهموه، وهذا الإسلام يجعل الحكومة ركنًا من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد، وقديمًا قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الحكم عروة من عرى الإسلام[59]. والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع[60]، فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر، والمصلح الإسلامي إن رضي لنفسه أن يكون فقيهًا مرشدًا يقرر الأحكام، ويرتل التعاليم، ويسرد الفروع والأصول، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره، فإن النتجية الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة في واد ونفخة في رماد كما يقولون.

ثم يقول الأستاذ: قد يكون مفهومًا أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذًا

---

(59) يشير إلى حديث: **«لتنقض عرى الإسلام عروة عروة، فأولها نقضًا: الحكم، وآخرها: الصلاة»** رواه أحمد وابن حبان والحاكم، عن أبي أمامة، ذكره في «صحيح الجامع الصغير» (5070).

(60) لعله يقصد أنه يذكر في كتب العقائد في الحديث عن الإمامة ووجوبها وشروطها، وإن كانت أحكام الإمامة عند أهل السنة من الفروع كما يذكر الحكم والحاكم والحاكمية في مقدمات «أصول الفقه» عادة.

لأحكامه، وإيصالًا لآياته وأحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأما والحال كما نرى: التشريع الإسلامي في واد والتشريع الفعلي التنفيذي في واد آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف.

هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا، ولكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف، وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم، فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة، والحكم بمنهاج إسلامي قرآني، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله.

ثم يشير الأستاذ على قضية كبيرة ومهمة، وهي ضرورة تهيئة الشعب عقليًا ونفسيًا وأخلاقيًا لحكم الإسلام، فيقول:

«وعلى هذا فالإخوان أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم، ونفوس الأمة على هذا الحال، فلا بد من فترة تنتشر فيها مبادئ الإخوان وتسود، ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة». اهـ.

لا بد إذن من إعداد الشعب وتهيئة الأجواء، حتى يكون الحكم الإسلامي نابعًا من رغبات الناس واختيارهم، لا قرارًا فوقيًا مفروضًا عليهم.

وهذا يعبر عنه اليوم في مصر - ومنذ سنين عدة - بفكرة «التدرج» في تطبيق الشريعة، وهو ما أيدناه فيما كتبناه، فالتدرج سنة كونية، وسنة شرعية، بشرط أن لا يكون المقصود بكلمة التدرج: «تمويت القضية»، إنما التدرج

الحقيقي أن يحدد الهدف وتوضع الخطة لتنفيذه، على مراحل معينة، كل مرحلة تسلم إلى أخرى في مدة معلومة، أو قريبة من المعلومة.

فهذا هو التدرج المطلوب، لا أن يظل الناس في موقفهم «محلك سر» ولا يتقدمون خطوة إلى الأمام، ثم يقال: نحن نتدرج(61)!

ويختم البنا هذا الموضوع بهذه الكلمة:

«وكلمة لا بد أن نقولها في هذا الموقف هي أن الإخوان المسلمين لم يروا في حكومة من الحكومات التي عاصروها - لا الحكومة القائمة ولا الحكومة السابقة، ولا غيرهما من الحكومات الحزبية - من ينهض بهذا العبء، أو من يبدي الاستعداد الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلامية، فلتعلم الأمة ذلك، ولتطالب حكامها بحقوقها الإسلامية، وليعمل الإخوان المسلمون».

موقف الإخوان من الدستور:

وتعرض الأستاذ البنا في هذه الرسالة أيضًا إلى مواقف الإخوان من الدستور، وقال في ذلك: إن الباحث حيث ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها، وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة، وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب، ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال، وبيان حدود كل سلطة من السلطان، هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم.

ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم

---

(61) انظر: كتابنا «بينات الحل الإسلامي»، وكتابنا «السياسة الشرعية» فصل: فقه التغيير.

الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به نظامًا آخر.

بقي بعد ذلك أمران:

أولهما: النصوص التي تصاغ في قالبها هذه المبادئ.

ثانيهما: طريقة التطبيق التي تفسير بها عمليًا هذه النصوص.

إن المبدأ السليم القويم قد يوضع في نص مبهم غامض، فيدع مجالًا للعبث بسلامة المبدأ في ذاته، وإن النص الظاهر الواضح للمبدأ السليم القويم قد يطبق وينفذ بطريقة يمليها الهوى وتوحيها الشهوات، فيذهب هذا التطبيق بكل ما يرجى من فائدة.

وإذا تقرر هذا فإن من نصوص الدستور المصري ما يراه الإخوان المسلمون مبهمًا غامضًا يدع مجالًا واسعًا للتأويل والتفسير، الذي تمليه الغايات والأهواء، فهي في حاجة إلى وضوح وإلى تحديد وبيان، هذه واحدة، والثانية هي أن طريقة التنفيذ التي يطبق بها الدستور، ويتوصل بها إلى جني ثمرات الحكم الدستوري في مصر، طريقة أثبتت التجارب فشلها، وجنت الأمة منهما الأضرار لا المنافع، فهي في حاجة شديدة إلى تحوير وإلى تعديل يحقق المقصود ويفي بالغاية.

وأشار الأستاذ هنا إلى قانون الانتخاب، وما فيه من قصور يجب تلافيه، ثم قال: لهذا يعمل الإخوان المسلمون جهدهم حتى تحدد النصوص المبهمة في الدستور المصري، وتعدل الطريقة التي ينفذ بها هذا الدستور في البلاد، وأظن أن موقف الإخوان قد وضح بهذا البيان، وردت الأمور إلى نصابها الصحيح.

وقد عاد الأستاذ البنا إلى هذا الموضوع، وفصل فيه أكثر، حين تحدث عن «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» وخصوصًا عن «نظام الحكم» ومسئولية الوزراء، وغموض الدستور، ونقل عن الدكتور إبراهيم مدكور، والأستاذ مريت غالي بعض ما قالاه عن «الدستور وغموضه» ولا سيما حول سلطة الوزراء، وصلتهم بالشعب ممثلة في نوابه، وموقفهم من رئيس الدولة ... إلخ.

الإخوان المسلمون والقانون:

وإذا كان هذا موقف الإخوان من الدستور - وهو أبو القانون - فما موقفهم من القوانين نفسها؟

يقول الأستاذ البنا: إن الإسلام لم يجئ خلوا من القوانين، بل هو قد أوضح كثيرًا من أصول التشريع وجزئيات الأحكام، سواء أكانت مادية أم جنائية، تجارية أو دولية، والقرآن والأحاديث فياضة بهذه المعاني، وكتب الفقهاء غنية كل الغنى بكل هذه النواحي، وقد اعترف الأجانب أنفسهم بهذه الحقيقة، وأقرها مؤتمر لاهاي الدولي أمام ممثلي الأمم من رجال القانون في العالم كله.

فمنن غير المفهوم ولا المعقول أن يكون القانون في أمة إسلامية متناقضًا مع تعاليم دينها وأحكام قرآنها وسنة نبيها، مصطدمًا كل الاصطدام بما جاء عن الله ورسوله، وقد حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك من قبل، فقال تتت: **{وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ**

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ 49 أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمًا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ} [المائدة: 49، 50]، وذلك بعد قوله تعالى: **{وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ - ٱلظَّٰلِمُونَ - ٱلۡفَٰسِقُونَ}** [المائدة: 44، 45، 47]، × فكيف يكون موقف المسلم الذي يؤمن بالله وكلماته إذا سمع هذه الآيات البينات وغيرها من الأحاديث والأحكام، ثم رأى نفسه محكومًا بقانون يصطدم معها؟ فإذا طالب التعديل قيل له: إن الأجانب لا يرضون بهذا ولا يوافقون عليه، ثم يقال بعد هذا الحجر والتضييق: إن المصريين مستقلون وهم لم يملكوا بعد أن يتمتعوا بحرية الدين، وهي أقدس الحريات.

على أن هذه القوانين الوضعية كما تصطدم بالدين ونصوصه، تصطدم بالدستور الوضعي نفسه الذي يقرر أن دين الدولة هو الإسلام، فكيف نوفق بين هذين يا أولي الألباب؟

وأقول: وإذا كان الدستور القديم قد اكتفى بالنص على أن دين الدولة هو الإسلام، فإن الدستور الحالي يضيف مادة لها أهميتها البالغة، هي: أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للقوانين.

ثم يقول الأستاذ في غيرة وتحد: وإذا كان الله ورسوله قد حرم الزنى وحظر الربا، ومنع الخمور، وحارب الميسر، وجاء القانون يحمي الزانية والزاني، ويلزم بالربا، ويبيح الخمر، وينظم القمار، فكيف يكون موقف المسلم بينهما؟ أيطيع الله ورسوله ويعصي الحكومة وقانونها والله خير وأبقى؟ أم يعصي الله ورسوله ويطيع الحكومة فيشقى في الآخرة والأولى؟ نريد الجواب على هذا من رفعة رئيس الحكومة ومعالي وزير العدل ومن علمائنا الفضلاء الأجلاء.

أما الإخوان المسلمون فهم لا يوافقون على هذا القانون أبدًا، ولا يرضونه بحال، وسيعملون بكل سبيل على أن يحل مكانه التشريع الإسلامي العادل الفاصل في نواحي القانون».

الإخوان والأحزاب السياسية:

تحدث الأستاذ البنا عن الحزبية والأحزاب المصرية في أكثر من رسالة له، وهو يعارض الحزبية والأحزاب، لما رأى من سوء أثرها، وتفريقها لأبناء الوطن الواحدن ولهذا لا يفاضل بينها، ولا ينحاز لواحد منها.

ما تتفق فيه الأحزاب وما تختلف:

ولكن يعتقد أنها تتفق جميعًا في عدة أمور:

تتفق في أن كثيرًا من رجالها قد عملوا على خدمة القضية السياسية المصرية واشتركوا فعلًا في الجهاد في سبيلها، وفي الوصول إلى ما وصلت إليه مصر من ثمرات هذا الجهاد الضئيلة أو الجليلة، فنحن في هذه الناحية لا نبخص هؤلاء الرجال حقهم.

وتتفق كذلك في أن حزبًا منها لم يحدد بعد منهاجًا دقيقًا لما يريد من ضروب الإصلاح، ولم يضع هدفًا يرمى إليه، وهي لهذا لا تتفاوت في المناهج والأغراض والغايات.

وتتفق كذلك في أنها جميعًا لم تقتنع بعد بوجوب المناداة بالإصلاح الاجتماعي على قواعد الإسلام وتعاليم الإسلام، ولا زال أقطابها جميعًا يفهمون الإسلام على أنه ضروب من العبادات والروحانيات لا صلة لها بحياة الأمم والشعوب الاجتماعية والدنيوية.

وتتفق بعد ذلك في أنها تعاقبت على حكم هذا البلد فلم تأت بجديد، ولم يجد الناس في ظل حكمها ما كانوا يأملون من تقدم مادي أو أدبي، ولقد كان لهذا أثره العملي، فقامت في مصر الحكومات غير الحزبية في أحرج الظروف وأدق المواقف، ومنها الحكومة الحالية.

وإذن فلا خلاف بين الأحزاب المصرية إلا في مظاهر شكلية، وشئون شخصية، لا يهتم لها الإخوان المسلمون، ولهذا فهم ينظرون إلى هذه الأحزاب جميعًا نظرة واحدة، ويرفعون دعوتهم - وهي ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم - فوق هذا المستوى الحزبي كله، ويوجهونها واضحة مستنيرة إلى كل رجال هذه الأحزاب على السواء، ويودون أن لو أدرك حضراتهم هذه الحقيقة، وقدروا هذه الظروف الدقيقة، ونزلوا على حكم الوطنية الصحيحة، فتوحدت كلمتهم، واجتمعوا على منهاج واحد، تصلح به الأحوال وتتحقق الآمال، وليس أمامهم إلا منهاج الإخوان المسلمين، بل هدي رب العالمين **{صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ}** [الشورى: 53].

ومع هذا يقول الأستاذ البنا: ونحن لا نهاجم لأننا في حاجة إلى الجهد الذي يبذل في الخصومة والكفاح السلبي لننفقه في عمل نافع وكفاح إيجابي، وندع حسابهم للزمن معتقدين أن البقاء دائمًا للأصلح **{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ}** [الرعد: 17] اهـ[62].

وقد انتهى اجتهاد الإمام البنا إلى وجوب حل الأحزاب جميعًا، وإقامة

---

(62) من «رسالة المؤتمر السادس» (ص215) من مجموع الرسائل.

حزب واحد وجبهة واحدة، تقوم بعبء التحرير والإصلاح، بدل هذا التشرذم الذي لا يستفيد منه غير الأعداء.

ولا ريب أن رأي الإمام الشهيد - كان مؤسسًا على واقع الأحزاب في زمنه، وحاجة مصر إلى الوحدة، وتكتل القوى الوطنية كلها في مواجهة الاحتلال الإنجليزي الغاشم، فلا غرو أن ينتهي إلى وجوب حل الأحزاب كلها، وإقامة جبهة واحدة تضم الجميع.

ولا شك أن ثورة يوليو 1952 استفادت من هذا الكلام، وحلت الأحزاب كلها، واستثنت الإخوان أول الأمر، ثم ضمتهم بعد ذلك إلى القائمة، وأنشأ عبد الناصر «الاتحاد الاشتراكي» لضم «قوى الشعب العاملة»(63)، ولم يكن البنا يقصد إلى شيء من هذا قطعًا.

ومن هنا خالف اجتهادنا اجتهاد إمامنا الشهيد في هذه القضية، وقدمنا دراستنا عن مشروعية تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية(64)، وقلت في ذلك: إن تعدد الأحزاب أشبه بتعدد المذاهب في الفقه، فكل مذهب له أصوله ورؤيته الخاصة التي قد تختلف مع أصول الآخرين ورؤيتهم، وهذا الاختلاف له أثره في القضايا والمواقف العملية.

ومما قلته هنا: إن الأحزاب إنما هي مذاهب في السياسة، كما أن المذاهب إنما هي أحزاب في الفقه!

---

(63) في أول الأمر أنشأ «هيئة التحرير» لتكون حزب الحكومة، ثم غيرها إلى «الاتحاد القومي» وانتهى إلى «الاتحاد الاشتراكي».

(64) انظر في ذلك: كتابنا «فتاوى معاصرة» (ج2 / 652، 665)، وكتابنا «من فقه الدولة في الإسلام».

وأعتقد أني بخلافي هذا للإمام الشهيد، لم أخرج عن منهجه الكلي، ولا عن أصوله التي دعا إليها، فهو لم يدع أهل العلم إلى التقليد، وإنما دعاهم إلى النظر والبحث والاجتهاد، وأحمد الله تعالى أن جماعة الإخوان المسلمين، وتنظيمها العالمي، قد تبنت هذه الفكرة، ولم تجمد على رأي مؤسسها رضي الله عنه رغم ما تكن له - وما أكن له أنا شخصيًا - من حب وتقدير، ولكن الزمن تغير، فتغير الموقف، وتغيرت الفتوى، وأحسب لو رأى الإمام البنا ما رأيناه من طغيان «الحزب الواحد» على سائر قوى الشعب، وبطشه بمخالفيه، لغير رأيه واجتهاده، كما غيرناه.

الإخوان والهيئات الإسلامية:

ويبقى السؤال عن موقف الإخوان من الجماعات الدينية والهيئات الإسلامية الأخرى، وفي «رسالة مؤتمر السادس» يحدد البنا رحمه الله الموقف من الهيئات والجماعات الإسلامية المتعددة، فيقول:

وأما موقفنا من الهيئات الإسلامية جيمعًا على اختلاف نزعاتها، فموقف حب وإخاء وتعاون وولاء، نحبها ونهاونها، ونحاول جاهدين أن نقرب بين وجهات النظر، ونوفق بين مختلف الفكر، توفيقًا ينتصر به الحق في ظل التعاون والحب، لا يباعد بيننا وبينها رأي فقهي أو خلاف مذهبي، فدين الله يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، ولقد وفقنا الله إلى خطة مثلى، إذ نتحرى الحق في أسلوب لين، يستهوي القلوب، وتطمئن إليه العقول، ونعتقد أنه سيأتي اليوم الذي تزول فيه الأسماء والألقاب والفوارق الشكلية، والحواجز النظرية، وتحل محلها وحدة عملية تجمع صفوف الكتيبة المحمدية حيث لا يكون هناك إلا إخوان مسلمون، للدين عاملون، وفي سبيل الله مجاهدون:

{وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ} [المائدة: 56][65].

وأنا أقول: إن توحيد الجماعات الإسلامية في جماعة أو كتيبة محمدية واحدة أمنية عذبة حلوة المذاق، ولكنها - في عالم الواقع - بعيدة المنال.

ولهذا ذكرت في عدد من كتبي أنه لا مانع أن تتعدد الجماعات والهيئات العاملة للإسلام، على أن يكون تعددها تعدد تنوع وتخصص، لا تعدد صراع وتناقض، فميدان العمل رحب، وهو يستع لأكثر من جماعة وأكثر من حركة.

ولكن يجب على الجميع أن يتفاهموا ويتعانوا، وأن يكمل بعضهم بعضًا، لا أن تعمل كل فئة لهدم ما سواها، وعليهم أن يقفوا في القضايا المصيرية موقفًا واحدًا، وأن يتراصوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا، كما قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ} [الصف: 4].

ويجب الحرص على ما أشار إليه الأستاذ البنا من تحري الحق في أسلوب لين، يستهوي القلوب، وتطمئن إليه العقول، والتقريب بين وجهات النظر، ومختلف الفكر، في ظل التعاون والحب، ولا ينبغي أن يباعد بين العاملين للإسلام خلاف منهجي أو رأي فقهي فكليات الإسلام تسع الجميع.

قضية الخلافات الدينية:

وفي قضية الخلافات الدينية، بين الجمعيات والهيئات الإسلامية بعضها وبعض، سواء أكان ذلك في الفرعيات العقيدة، أم في الفرعيات الفقهية أم في الفرعيات السلوكية - نجد الأستاذ البنا قد عالج ذلك في أكثر من رسالة ولا

---

(65) رسالة المؤتمر السادس (ص216) من مجموع الرسائل.

سيما «رسالة التعاليم» ووضع لذلك «الأصول العشرين» الشهيرة التي صاغها رحمه الله بحكمة واعتدال، بحيث يجتمع عليها المختلفون إذا صلحت سرائهم، وصدقت نياتهم، ورغبوا في التعاون على نصرة الإسلام، والتصدي لأعدائهم الذين يختلفون فيما بينهم على أمور كثيرة، فإذا كان العدو هو الإسلام اتحدت كلمتهم كما قال تعالى: **{وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ}** [الجاثية: 19]، **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ}** [الأنفال: 73].

لم ترفض هذه الأصول: التصوف كله، كما تفعل بعض الطوائف، ولم تقبله بعجره وبجره، وسننه ومبتدعاته، كما تفعل طوائف أخرى، بل أخذ من التصوف وترك، أخذ السنة وترك البدعة، أخذ الحق ورفض الباطل، ولذا أنكر الشركيات والقبوريات وما اتصل بذلك، ورفض الابتداع في العبادة، وخصوصًا إذا كانت البدعة بدعة أصلية، وألان القول في البدع الإضافية والالتزام في العبادات، فقد ذكر أن فيه خلافًا، كما ذكر أن الدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه بالنبي أو بالصالحين وبالملائكة، ونحو ذلك: قد اختلف فيه، وهو خلاف في كيفية الدعاء أي في العمل، وليس من مسائل العقيدة، ما دام المدعو هو الله تعالى، ونحو هذا قاله الإمام محمد بن عبد الوهاب في بعض كتبه.

ومما قاله في الأصول:

وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقًا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنته أولى بالاتباع ـ ولكنا لا نعرض للأشخاص ـ فيما اختلف فيه ـ بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا.

ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية: أن يتبع إمامًا من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع، أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل، متى عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي - إن كان من أهل العلم - حتى يبلغ درجة النظر.

والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببًا للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف، في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والمتعصب.

وكل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعًا ... إلخ[66].

هذه مجموعة من الأصول العشرين، تنم عن حكمة بالغة، وعن فقه عميق في دين الله، وفهم دقيق لواقع الناس، ومن شأن العمل بهذه الأصول أن يضيق شقة الخلاف، وأن يحول الضروري منه إلى سعة ورحمة، وقد تبنى الأستاذ البنا قاعدة «المنار الذهبية» التي تقول: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»[67] حتى ظن بعض الإخوان أنها من كلمات المرشد رحمه الله .

دعوة تجمع ولا تفرق:

وفي رسالة «دعوتنا» تحدث الإمام البنا عن موقف الدعوة أمام الخلافات

---

(66) انظر: الأصول العشرين في «رسالة التعاليم» (ص357) من مجموع الرسائل.

(67) أقمنا في كتابنا «الفتاوى المعاصرة» (ج2) الدليل على صحة هذه القاعدة شرعًا.

الدينيـة والآراء المذهبيـة، فـألقى عليهـا ضـوءًا كاشـفًا، حـين بـين أن دعـوة الإخوان المسلمين دعوة عامة لا تنسب إلى طائفة خاصة، ولا تنحاز إلى رأي عرف عند الناس بلون خاص، ومستلزمات وتوابع خاصة، وهي تتوجه إلى صميم الدين ولبه، ونود أن تتوحد وجهة الأنظار والهمم حتى يكون العمل أجدى، والإنتاج أعظم وأكبر، وفدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون، وهي مع الحق أينما كان، تحب الإجماع وتكره الشذوذ، وإن أعظم ما مني به المسلمون الفرقة والخلاف، وأساس ما انتصروا به الحب والوحدة، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، هذه قاعدة أساسية وهدف معلوم لكل أخ مسلم، وعقيدة راسخة في نفوسنا، نصدر عنها وندعو إليها.

الخلاف ضروري لأسباب:

ثم بين أن الخلاف في فروع الدين أمر لا بد منه ضرورة[68]، ولا يمكن أن تتحد في هذه الفروع الآراء والمذاهب لأسباب عدة:

منها: اختلاف العقول في قوة الاستنباط أو ضعفه، وإدراك الدلائل والجهل بها، والغوص على أعماق المعاني، وارتباط الحقائق بعضها ببعض، والدين آيات وأحاديث، ونصوص يفسرها العقل والرأي في حدود اللغة وقوانينها، والناس في ذلك جد متفاوتين فلا بد من خلاف.

ومنها: سعة العلم وضيقه، وأن هذا بلغه ما لم يبلغ ذاك والآخر شأنه كذلك، قد قال مالك لأبي جعفر: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا

(68) في كتابنا «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» بينت أن الاختلاف في الفروع: ضرورة ورحمة وسعة، فهو ضرورة دينية، وضرورة لغوية، وضرورة بشرية، وضرورة كونية فليرجع إليه.

في الأمصار وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة.

ومنها: اختلاف البيئات حتى إن التطبيق ليختلف باختلاف كل بيئة، وإنك لترى الإمام الشافعي رضي الله عنه يفتي بالقديم في العراق ويفتي بالجديد في مصر، وهو في كليهما آخذ بما استبان له وما اتضح عنده، لا يعدو أن يتحرى الحق في كليهما.

ومنها: اختلاف الاطمئنان القلبي إلى الرواية عند التلقين بها، فبينا نجد هذا الراوي ثقة عند هذا الإمام تطمئن إليه نفسه وتطيب بالأخذ عنه، تراه مجروحًا عند غيره لما علم عن حاله.

ومنها: اختلاف تقدير الدلالات، فهذا يعتبر عمل الناس مقدمًا على خير الآحاد مثلًا وذاك لا يقوم معه به، وهكذا[69].

الإجماع على أمر فرعي متعذر:

ثم قال: هذه أسباب جعلتنا نعتقد أن الإجماع على أمر واحد في فروع الدين مطلب مستحيل، بل هو يتنافى مع طبيعة الدين، وإنما يريد الله لهذا الدين أن يبقى ويخلد ويساير العصور ويماشي الأزمان، وهو لهذا سهل مرن هين لين لا جمود فيه ولا تشديد.

نعتقد هذا فنلتمس العذر كل العذر لمن يخالفوننا في بعض الفرعيات،

(69) ألف الشيخ الدهلوي رسالة اختلاف الفقهاء، وعرض لها في كتابه «حجة الله البالغة» كما تعرض لها الشيخ شلتوت في القسم الأخير من كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة» وألف فيها الشيخ علي الحقب كتابًا كاملًا، ألقاه محاضرات في معهد الدراسات العربية العالمية.

ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبدًا حائلًا دون ارتباط القلوب وتبادل الحب، والتعاون على الخير، وأن يشملنا وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده، وأوسع مشتملاته، ألسنا مسلمين وهم كذلك؟ وألسنا نحب أن ننزل على حكم اطمئنان نفوسنا وهم يحبون ذلك؟ وألسنا مطالبين بأن نحب لإخواننا ما نحنب لأنفسنا؟ ففيم الخلاف إذن؟ ولماذا لا يكون رأينا مجالًا للنظر عندهم كرأيهم عندنا؟ ولماذا لا نتفاهم في جو الصفاء والحب إذا كان هناك ما يدعو إلى التفاهم؟

هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخالف بعضهم بعضًا في الإفتاء، فهل أوقع ذلك اختلافًا بينهم في القلوب؟ وهل فرق وحدتهم أو مزق رابطتهم؟ اللهم لا وما حديث صلاة العصر في بني قريظة ببعيد.

وإذا كان هؤلاء قد اختلفوا وهم أقرب الناس عهدًا بالنبوة وأعرافهم بقرائن الأحكام، فما بالنا نتناحر في خلافات تافهة لا خطر لها؟ وإذا كان الأئمة وهم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله قد اختلف بعضهم مع بعض وناظر بعضهم بعضًا، فلم لا يسعنا ما وسعهم؟ وإذا كان الخلاف قد وقع في أشهر المسائل الفرعية وأوضحها كالأذان الذي ينادى به خمس مرات في اليوم الواحد ووردت به النصوص والآثار، فما بالك في دقائق المسائل التي مرجعها إلى الرأي والاستنباط؟

وثم أمر جدير بالنظر: أن الناس كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى «الخليفة» وشرطه الإمامة، فيقضي بينهم ويرفع حكمه الخلاف، أما الآن فأين الخليفة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأولى بالمسلمين أن يبحثوا عن القاضي، ثم يعرضوا قضيتهم عليه، فإن اختلافهم من غير مرجع لا يردهم إلا إلى خلاف آخر.

يعلم الإخوان المسلمون كل هذه الحيثيات، فهم لهذا أوسع الناس صدرًا مع مخالفيهم، ويرون أن مع كل قوم علمًا، وفي كل دعوة حقًا وباطلًا، فهم يتحرون الحق ويأخذون به، ويحاولون في هوادة ورفق إقناع المخالفين بوجهة نظرهم، فإن اقتنعوا فذاك، وإن لم يقتنعوا فإخوان في الدين نسأل الله لنا ولهم الهداية.

ذلك منهاج الإخوان المسلمين أمام مخالفيهم في المسائل الفرعية في دين الله، يمكن أن أجمله لك في أن الإخوان يجيزون الخلاف ويكرهون التعصب للرأي ويحاولون الوصول إلى الحق ويحملون الناس على ذلك بألطف وسائل اللين والحب(70).

البعد عن مواطن الخلاف:

ويعود الأستاذ إلى ذلك في «رسالة المؤتمر الخامس» فيوضح أن من خصائص دعوة الإخوان البعد عن مواطن الخلاف الفقهي، لأنهم يعتقدون أن الخلاف في الفرعيات أمر لا بد منه، إذ أن أصول الإسلام: آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام، لهذا كان الخلاف واقعًا بين الصحابة أنفسهم، وما زال كذلك، وسيظل إلى يوم القيامة، وما أحكم الإمام مالكًا رضي الله عنه، حين قال لأبي جعفر، وقد أراد أن يحمل الناس على «الموطأ»: «إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار، وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة»، وليس العيب في الخلاف، ولكن العيب في التعصب للرأين والحجر على عقول

---

(70) من رسالة «دعوتنا» (ص25 - 27) من مجموع الرسائل.

الناس وآرائهم، هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلمًا، كما قال زيد رضي الله عنه، وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة تريد أن تنشر فكرة في بلد لم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدال ولا للخلاف فيها[71].

الموقف من الغربيين:

وقد رد الأستاذ البنا على من زعموا أن التمسك بالإسلام يعكر صفو العلائق بيننا وبين الغرب، ويجعلهم يخافوننا أو يسيئون الظن بنا، فقال رحمه الله :

«وقد يظن الناس كذلك أن نظم الإسلام في حياتنا الجديدة تباعد بيننا وبين الدول الغربية، وتعكر صفو العلائق السياسية بيننا وبينها بعد أن كادت تستقر، وهو أيضًا ظن عريق في الوهم، فإن هذه الدول إن كانت تسئ بنا الظنون فهي لا ترضى عنا سواء تبعنا الإسلام أم غيره، وإن كانت صادقتنا بإخلاص وتبودلت الثقة بينها وبيننا فقد صرح خطباؤها وساستها بأن كل دولة حرة في النظام الذي تسلكه في داخل أرضها، ما دام لا يمس حقوق الآخرين فعلى ساسة هذه الدول جميعًا أن يفهموا أن شرف الإسلام الدولي هو أقدس شرف عرفه التاريخ، وأن القواعد التي وضعها الإسلام الدولي لصيانة هذا الشرف وحفظه أرسخ القواعد وأثبتها.

فالإسلام الذي يقول في المحافظة على التعهدات وأداء الالتزامات:

---

(71) رسالة المؤتمر الخامس (ص124) من مجموع الرسائل.

{وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا} [الإسراء: 34]، ويقول: **{إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ}** [التوبة: 4]، ويقول: **{فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ}** [التوبة: 7]، ويقول في إكرام اللاجئين وحسن جوار المستجير: **{وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ}** [التوبة: 6].

وهذا بالمشركين فكيف بالكتابيين؟

فالإسلام الذي يضع هذه القواعد ويسلك بأتباعه هذه الأساليب يب أن يعتبره الغربيون ضمانة أخرى، تضمن لهم، بل يقول الأستاذ: إنه من خير أوروبا نفسها أن تسودها النظريات السديدة في معاملات دولها بعضها لبعض، فذلك خير لهم وأبقى. اهـ[72].

الموقف من الحضارة الغربية:

تعرض الأستاذ البنا للموقف من الحضارة الغربية في أكثر من رسالة له، وخصوصًا في معرض بيان الصراع الاجتماعي والثقافي بين الغرب والإسلام، ووضح الأستاذ البنا هنا:

أن الأمم الأوروبية التي اتصلت بالإسلام وشعوبه في الشرق بالحروب الصليبية، وفي الغرب بمجاورة عرب الأندلس وخالطتهم، ولم تستفد من هذا الاتصال مجرد الشعور القوي أو التجمع والتوحد السياسيين، ولكنها أفادت إلى جانب ذلك يقظة ذهنية وعقلية كبيرة، واكتسبت علومًا ومعارف جمة، وظهرت فيها نهضة أدبية وعلمية واسعة النطاق، وقامت الكنيسة تناهض

---

(72) من رسالة «نحو النور» (ص287) من مجموع الرسائل.

هذه الظاهرة الغريبة بكل ما أوتيت من قوة، وتذيق رجالها من الأدباء والعلماء مر العذاب، وتعتدي عليهم «محاكم التفتيش» وتثير ضدهم الدول والشعوب، ولكن ذلك كله لم يجدها نفعًا، ولم تثبت تعاليمها أمام حقائق العلم وكشوفه، وخروجت النهضة العلمية منتصرة كل الانتصار، وتنبهت الدولة بذلك، فصارعت الكنيسة هي الأخرى حتى صرعتها، وتخلص بذلك المجتمع الأوروبي تخلصًا تامًا من سلطانها، وطارد رجالها إلى المعابد والأديرة، ألزم البابا الإقامة في الفاتيكان، وحصر عمل رجال الدين في نطاق ضيق من شئون الحياة، لا يخرجون عنه، ولا يتطلعون إلى سواه، ولم تبق أوربا على المسيحية إلا كتراث تاريخي، وعمل من عوامل تهذيب البسطاء والأغرار من دهماء الشعوب، ووسيلة من وسائل التغلب والاستعمار وقضاء المآرب السياسية.

وامتد أمام الأوروبيين رواق العلم، وانفسح مجال الاختراع والكشف، وضاعفت الماكينة الإنتاج، ووجهت الحياة وجهة صنعية، وسار ذلك جنبًا إلى جنب مع نشأة الدولة القوية، وامتداد سلطانها إلى كثير من البلاد والأقطار، فأقبلت الدنيا على هذه الأمم الأوروبية وجبيت إليها ثمرات كل شيء، × وتدفقت عليها الأموال من كل مكان، فكان طبيعيًا بعد ذلك أن تقوم الحياة الأوروبية والحضارة الأوروبية على قاعدة إقصاء الدين عن مظاهر الحياة الاجتماعية، وبخاصة الدولة والمحكمة والمدرسة، وطغيان النظرة المادية وجعلها المقياس في كل شيء ... وتبعًا لذلك صارت مظاهر هذه الحضارة مظاهر مادية بحتة تهدم ما جاءت به الأديان السماوية، وتناقض كل تلك الأصول التي قررها الإسلام الحنيف، وجعلها أساسًا لحضارته، التي

جمعت بين الروحانية والمادية جميعها، ومن أهم الظواهر التي لازمت المدنية الأوروبية:

1 - الإلحاد والشك في الله وإنكار الروح ونسيان الجزاء الأخروي والوقوف عند حدود الكون المادي المحسوس: {**يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ**} [الروم: 7].

2 - الإباحية والتهافت على اللذة والتفنن في الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها، وإشباع شهوتي البطن والفرج، وتجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن والمغريات، والإغراق في الموبقات إغراقًا يحطم الأجسام والعقول ويقضي على نظام الأسر ويهدم سعادة البيوت: {**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**} [محمد: 12].

3 - الأثرة في الأفراد، فكل إنسان لا يريد إلا خير نفسه، وفي الطبقات، فكل طبقة تتعالى على من سواها وتود أن تحظى بالمغانم دونها، وفي الشعوب، فكل أمة تتعصب لجنسها وتنقص غيرها وتحاول أن تلتهم من هي أضعف منها.

4 - الربا والاعتراف بشرعيته واعتباره قاعدة التعامل، والتفنن في صوره وضروبه وتعميمه بين الدول والأفراد.

وقد أنتجت هذه المظاهر المادية البحتة في المجتمع الأوروبي فساد النفوس، وضعف الأخلاق، والتراخي في محاربة الجرائم، فكثرت المشكلات، وظهرت المبادئ الهدامة، واشتعلت الثورات المخربة المدمرة، واضطربت النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فلم تستقر على حال،

وتمزقت الدول بالطوائف والأحزاب، وتناحرت الشعوب على المطامع والأحقاد، وأثبتت هذه المدنية الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع الإنساني، وإقرار الطمأنينة والسلام فيه، وفشلت في إسعاد الناس، رغم ما فتح عليهم من حقائق العلم والمعرفة، وما وفرت لهم من أسباب الغنى والثراء، وما مكنت لدولها في الأرض من قوة وسلطان[73].

وفي مقام آخر بين الأستاذ البنا: أن مدنية الغرب تفلس الآن، فأصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات، وتهددها ملايين العاطلين، وأصولها الاجتماعية تقضي عليها المبادئ الشاذة، والثورات المندلعة في كل مكان، وقد حار القوم في علاج شأنها وضلوا السبيل، مؤتمراتهم تفشل، ومعاهداتهم تخرق، ومواثيقهم تمزق، وعصبة أممهم شبح لا روح فيه ولا نفوذ له، ويد العظيم فيهم توقع مع غيره ميثاق السلام والطمأنينة في ناحية، بينما تلطمه اليد الثانية في ناحية أخرى أقسى اللطمات، وهكذا أصبح العالم بفضل هذه السياسات الجائرة الطامعة كسفينة في وسط اليم، حار ربانها وهبت عليها العواصف من كل مكان، الإنسانية كلها معذبة شقية قلقة مضطربة وقد اكتوت بنيران المطامع والمادة، فهي في أشد الحاجة إلى عذب من سؤر الإسلام الحنيف يغسل عنها أو ضار الشقاء ويأخذ بها إلى السعادة.

لقد كانت قيادة الدنيا في وقت ما شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات الموسوية والعيسوية والمحمدية

---

(73) من رسالة «بين الأمس واليوم» (ص102 - 104) من مجموع الرسائل.

إلى الشرق مرة ثانية، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ونهض الغرب نهضته الحديثة، فكانت سنة الله التي لا تتخلف، وورث الغرب القيادة العالمية, وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم يبق إلا أن تمتد به «شرقية» قوية يظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوي المتين، فإذا بالدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم كلها هاتفة. **{ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ}** [الأعراف: 43].

ليس ذلك من الخيال في شيء بل هو حكم التاريخ الصادق، إن لم يتحقق بنا **{فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ}** [المائدة: 54].

بيد أننا نحرص على أن نكون ممن يحوزون هذه الفضيلة، ويكتبون في ديوان هذا الشرف **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ}** [القصص: 68]. اهـ[74].

ربما قال بعضهم: إن الأستاذ البنا كان قاسيًا في نقده للحضارة الغربية، وكأنه لم يعترف لها بحسنة ولا مزية، وعذره أنه كان في معرض المقاومة لموجات التغريب والتذويب للأمة الإسلامية، ورد الفعل يكون على مقدار الفعل في القوة، وإلا فإن أحدًا لا يجحد فضل الحضارة الغربية في الجانب العلمي والتكنولوجي والإداري والتنظيمي الدنيوي لشئون الحياة، وفي الأصول العشرين لحسن البنا: أن الإسلام يرحب بالصالح النافع في كل

(74) من رسالة «نحو النور» (275، 276) من مجموع الرسائل.

شيء، وأن الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها فهو أحق الناس بها[75].

وفي وصية قديمة للأستاذ البنا كتبها إلى أحد المبعوثين من وزارة المعارف إلى إنجلترا، أوصاه فيها بعدة أمور، كان سابعها: «كن مع القوم ناقدًا بصيرًا، ومنصفًا خبيرًا، لا تستهويك محاسنهم فتنسى مساوئهم، ولا تؤلمك مساوئهم فتنسى محاسنهم، بل ادرسهم دراسة الفاحص المدقق، وأحط بكل ما تستطيع من شئونهم علمًا، ثم انقد ذلك كله بعين البصيرة، فما كان حسنًا فأهده إلى أمتك وقومك، وعد به مظفرًا مؤيدًا، وما كان غير ذلك فألقه إليهم، لا تقم له وزنًا، ولا تأت إلا وقد نفضت منه يدك وفرغت خاطرك». اهـ[76].

ولعل هذه الفقرة التي كتبها البنا عفو الخاطر في رسالة وصية أدق في التعبير عن موقفه من حضارة الغرب، فهو يوصي بأخذ الخير والنافع منها، واجتناب الشر والضار فيها، وهذا هو الموقف العدل.

الإخوان والوحدات الثلاث: الوطنية والعربية والإسلامية:

وللإخوان موقفهم الواضح من الوحدات الثلاث، التي يتحدث عنها الناس، وهي الوحدة الوطنية، والوحدة العربية، والوحدة الإسلامية.

ويظن بعضهم أنها متناقضة، وأن العمل لإحداها يتعارض مع العمل للأخرى أو للأخريين.

---

(75) للمزيد من معرفة الموقف الإسلامي من الحضارة، انظر: كتابنا «الإسلام حضارة الغد» و «الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة».

(76) نشرت في جريدة «الإخوان المسلمون» الأسبوعية الصادرة في 23 رجب سنة 1353هـ نوفمبر 1934م.

والإخـوان لا يـرون أي تنـاقض فـي ذلـك، فـإن الخـاص لا ينـاقض العـام، والجزئـي لا ينـاقض الكلـي، فهـي تتكامل ولا تتعـارض، والمسلم مطالـب بـأن يعمل لها جميعًا إن أمكن ذلك، فإن لم يمكن بدأ العمل لوطنـه ووحدتـه وتقدمـه أولًا، ثم لقومه من العرب ثانيًا، ثم لأمته الإسلامية ثالثًا.

الإخوان والوطنية المصرية:

ومـن قـديم رد الأستاذ البنـا علـى الـذين يغمـزون الإخـوان فـي وطنيـتهم، بحسـبانهم أن العمـل للفكـرة الإسـلامية، والأمـة الإسـلامية، ينـافي الوطنيـة، والعمل لخدمة الوطن ورفعته.

وقد كان الأستاذ واضحًا في ذلك كل الوضوح، صادقًا كل الصدق، معبرًا أبلـغ التعبيـر حـين قـال فـي «تنظيـر» حـب الـوطن والتفـاني فـي خدمتـه، و «التأصيل الشرعي» لذلك، والتدليل عليه من الوجهة الإسلامية، فيقول رحمه الله : «إن الإسـلام قـد فرضـها فريضـة لازمـة لا منـاص منهـا: أن يعمـل كـل إنسان لخير بلده وأن يتفانى في خدمتـه، وأن يقدم أكثـر مـا يستطيع مـن الخيـر للأمـة التـي يعيش فيهـا، وأن يقدم فـي ذلـك الأقـرب فـالأقرب رحمًـا وجـوارًا، حتـى أنـه لـم يجـز أن تنقل الزكـوات أبعد مـن مسـافة القصـر - إلا لضـرورة - إيثارًا للأقربين بالمعروف، فكل مسلم مفروض عليـه أن يسد الثغرة التـي هـو عليهـا، وأن يخـدم الـوطن الـذي نشـأ فيـه، ومـن هنـا كـان المسلم أعمـق النـاس وطنيـة وأعظمهم نفعًـا لمواطنيـه، لأن ذلـك مفروض عليـه مـن رب العـالمين، وكان الإخوان المسلمون بالتالي أشد الناس حرصًـا علـى خيـر وطـنهم، وتفانيًـا في خدمة قومهم، وهم يتمنون لهذه البلاد العزيـزة المجيـدة، كل عـزة ومجـد، وكل تقدم ورقي، وكل فلاح ونجاح، وقد انتهت إليهـا رئاسـة الأمـم الإسـلامية،

بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم، وإن حب المدينة لم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحن إلى مكة وأن يقول لأصيل، وقد أخذ يصفها: «**يا أصيل دع القلوب تقر**»[77].

ويخطئ الأستاذ البنا - في رسالة أخرى - ومن يتهم الإخوان بالتفريق بين عنصري الوطن المصري: المسلمين والأقباط، مؤكدًا تعاليم الإسلام في ذلك، وفق القاعدة العتيدة: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا».

مصر قاعدة الانطلاق الإسلامي:

لقد اعتبر الأستاذ البنا مصر هي قاعدة الانطلاق الإسلامي، وركز جهد حركته وجماعته عليها، لأنها الوطن الأم للحركة أولًا، ولأنها قلعة الإسلام التي ذادت عنه الصليبيين والتتار تاريخيًا ثانيًا، ولأنها القبلة الثقافية للمسلمين ثالثًا باحتوائها الأزهر الشريف.

ولنقرأ هذه الفقرة المعبرة من رسالة «دعوتنا في طور جديد» يقول رحمه الله : «لقد ورثنا هذا الإسلام الحنيف واصطبغنا به صبغة ثابتة قوية، تغلغلت في الضمائر والمشاعر ولصقت بحنايا وشغاف القلوب، واندمجت مصر بكليتها في الإسلام بكليته: عقيدته ولغته وحضارته ودافعت عنه، وذادت عن حياضه، وردت عنه عادية المعتدين، وجاهدت في سبيله ما وسعها الجهاد بمالها ودم أبنائها، وأنقذته من براثن التتار وأنياب الصليبيين، وردت الجميع على أعقابهم خاسرين، واستقرت فيها علوم الإسلام ومعارفه، واحتوت

---

(77) انظر ذلك في ترجمة أصيل من «الإصابة» لابن حجر، ترجمة (215) (ج1 / 53، 54).

الأزهر أقدم جامعة تقوم على حياطته ورعايته وحراسته، وانتهت إليها زعامة شعوبه الأدبية والاجتماعية، وصارت مطمح أنظار الجميع ومعقد آمالهم.

هذا الإسلام، عقديته ونظمه ولغته وحضارته، ميراث عزيز غال على مصر ليس تفريطها فيه بالشيء الهين، ولا إبعادها عنه بالأمر المستطاع، مهما بذلت في سبيل ذلك الجهود الهدامة المدمرة، ومن هنا بدت مظاهر الإسلم قوية فياضة زاهرة دفاقة في كثير من جوانب الحياة المصرية، فأسماؤها إسلامية، ولغتنا عربية، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله، ويعلو منها نداء الحق صباح مساء، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالإسلام، كل ذلك حق، ولكن هذه الحضارة الغربية قد غزتنا غزوًا قويًا عنيفًا بالعلم والمال، وبالسياسة والترف، والمتعة واللهو، وركنا إليها، وأثر هذا الغزو فينا أبلغ الأثر، وانحسر ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية في كثير من شئونها الهامة، واندفعنا تغير أوضاعنا الحيوية، ونصبغ معظمها بالصبغة الأوربية، وحصرنا سلطان الإسلام في حياتنا على القلوب والمحاريب، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة».

وبين الأستاذ البنا تذبذب الحياة في مصر بين الأصيل والدخيل، بين الموروث والوافد، بين الإسلام والتغريب: ويشفق كل الإشفاق أن تكون نهاية هذا التأرجح أو التذبذب هي التحلل مما بقي من مظاهر الإسلام، والانغماس الكلي في الحياة الغربية بكل مظاهرها، «ولقد ارتفعت بذلك صيحات، وقامت

على قواعده دعوات، وسبقتنا إليه شعوب وحكومات».

كأنما يشير إلى صيحة طه حسين وسلامة موسى، وعلي عبد الرازق، وإلى دعوة لطفي السيد وحزب الأمة، وإلى حكومة أتاتورك، وتحللها من شريعة الإسلام.

ثم يصف الأستاذ العلاج وصف الطبيب النطاسي، فيقول:

«نحن نشفق من هذا المصير، وندعو إلى أن تعود مصر إلى تعاليم الإسلام وقواعده، تعتمد عليها وتستمد منها، وتبني على أساسها النهضة الجديدة، وتركز عليها الأوضاع الاجتماعية في المستقبل إن شاء الله.

وإذا كان الإسلام يدعو إلى أن نأخذ من كل شيء احسنه، وينادي بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، ولا يمنع من أن تقتبس الأمة الإسلامية الخير من أي مكان، فليس هناك ما يمنع من أن ننقل كل ما هو نافع مفيد عن غيرنا، ونطبقه وفق قواعد ديننا، ونظام حياتنا، وحاجات شعبنا.

أما أثر هذا التذبذب في مظاهر حياتنا العملية فكبير واضح، ولعله مصدر كثير من المشكلات في التعليم والقضاء، وفي حياة الأسرة، وفي منابع الثقافة العامة، وفي غير ذلك من الشئون العامة، هل هناك أمة غير مصر يسير التعليم فيها أول خطواته على هذين اللونين من ألوان التربية، فهناك التعليم الديني يتصل بنصف الأمة وينتهي إلى الأزهر ومعاهده وكلياته، وهناك التعليم المدني يتصل بالنصف الثاني ويتميز كل منهما بخواصه ومميزاته؟ وهل لذلك من سبب سوى أن السلسلة الأولى هي أثر الإسلام الباقي في

نفوس هذه الأمة وأن السلسلة الثانية هي نتائج مجاراة الغرب والأخذ عنه؟ فما الذي يمنع من توحيد التعليم في مراحله الأولى على أساس التربية القومية الإسلامية، ثم يكون بعد ذلك التخصص؟ وهل هناك أمة غير مصر ينقسم فيها القضاء إلى شرعي وغير شرعي كما ينقسم القضاء المصري؟ وهل لذلك من سبب سوى أن القضاء الأول أثر الإسلام في الحياة المصرية والثاني وليد النقل عن الغرب والأخذ عنه؟ وما الذي يمنع من أن تتوحد المحكمة على أساس اعتبار الشريعة الإسلامية هي شريعة البلاد ومصدر التقنين؟

وهذه البيوت المصرية، ألسنا نلمح فيها أثر هذه الحياة المذبذبة المتناقضة؟ فكثير من الأسر المصرية لا تزال شديدة المحافظة على ما ورث من تعاليم الإسلام وآدابه، في الوقت الذي انسلخ فيه الكثير عن هذه التعاليم وخرج على هذه الآداب، وغلبت عليه نزعة التقليد في كل شيء بل جاوز بعضنا ذلك الحد حتى صار غربيًا أكثر من الغربيين.

ولا بد من وضع حد لهذا التفاوت الغريب، حتى نظفر بالأمة الموحدة، فبدون الوحدة لا تتحقق نهضة، ولا تحيا أمة حياة الكمال.

لهذا يدعو الإخوان المسلمون إلى أن يكون الأساس الذي تعتمد عليه نهضتنا هو توحيد مظاهر الحياة العملية في الأمة على أساس الإسلام وقواعده، وبذلك تبني مصر نفسها، وتقدم للعالم كله أكمل نماذج الحياة الإنسانية الصحيحة[78] انتهى.

---

(78) انظر: «دعوتنا في طور جديد» (ص237 - 239) من مجموع الرسائل.

ومن هذا النقل الطويل، نرى مدى اهتمام مؤسس الإخوان ومرشدهم الأول بمصر، والتنويه بدورها ا لتاريخي في نصرة الإسلام، وموقعها الريادي اليوم في شعوب الإسلام، وضرورة النهوض بها في كل جوانب الحياة، لتتقدم الركب الإسلامي الناهض، وتتبوأ مكانها في صدر موكب الدعوة والجهاد لرفع راية الإسلام في الأرض.

ومن ذلك: إزالة مظاهر الإزدواج القائم في مصر، من تعليم ديني وتعليم مدني، وقضاء شرعي، وآخر أهلي، وحياة إسلامية، وأخرى إفرنجية متغربة، وبذلك تتحقق في مصر الوحدة الثقافية، والوحدة القضائية، والوحدة الاجتماعية، بجوار الوحدة الوطنية العامة.

هذا ولا يرى الأستاذ مانعًا من العناية بتاريخ مصر القديم، وبما سبق إليه قدماء المصريين من العلوم والمعارف، وهو يرحب بمصر القديمة كتاريخ فيه مجد، وفيه علم ومعرفة، ويرفض بكل قوة اعتبار ذلك منهاجًا يراد صبغ مصر به ودعوتها إليه، بعد أن هداها الله بالإسلام، وخلصها من أوضار الوثنية، وعادات الجاهلية.

الوحدة العربية:

ثم بين الموقف من الوحدة العربية فيقول: إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيًا ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين، وقد جاء في الأثر: «إذا ذل العرب ذل الإسلام» وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم

والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه.

وينبه الأستاذ البنا هنا على أمرم مهم، وهو أن العروبة ليست عروبة العرق والدم، وإنما هي عروبة الثقافة واللسان، وأن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة، كما عرفها النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان».

ومن هنا كانت وحدة العرب أمرًا لا بد منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها، وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية.

قال ذلك الأستاذ البنا سنة 1936، أي قبل أن تنشأ الجامعة العربية بسنوات، وأكده في أكثر من رسالة له، وأكثر من مقال وخطاب.

كما أكد رحمه الله أن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى طنجة ومراكش على المحيط الأطلسي، كلها عربية، تجمعها العقيدة، ويوجد بينها اللسان، وتؤلف بينها بعد ذلك: هذه الوضعية المتناسقة، في رقعة من الأرض واحدة متصلة متشابهة، لا يحول بين أجزائها حائل، ولا يفرق بين حدودها فارق، قال: ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة، نعمل للإسلامن ولخير العالم كله[79].

وبهذا لم ير الإخوان من قديم تعارضًا بين العمل للعروبة والعمل للإسلام،

---

(79) انظر: «دعوتنا في طور جديد» (ص231) من مجموع الرسائل.

إلا إذا خُلطت العروبة بمعان من غير طبيعتها تعارض الإسلام، أو خلط الإسلام بمعان من غير طبيعته تعارض العروبة؛ كأن تختلط العروبة بفكرة معادية للإسلام كالماركسية، أو يختلط الإسلام بشعوبية تكره العرب.

إن العروبة هي وعاء الإسلام، والعربية لسانه، وكتاب الإسلام عربي، ورسول الإسلام عربي، وصحابته الذين حملوا رسالته إلى العالم عرب، ومنطلق الإسلام الأول من أرض العرب، والمساجد الثلاثة المعظمة في أرض العرب، ولهذا يحب المسلمون الأعاجم العرب ويكرمونهم لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقومية العربية محورها اللسان والتاريخ، واللسان لسان القرآن والتاريخ تاريخ الإسلام.

فلا غرو أن رحب الإخوان في أقطار شتى بالتفاهم مع القوميين المعتدلين، وقد شاركت مع عدد من المفكرين الإسلاميين - ومنهم عدد غير قليل من الإخوان - في المؤتمر القويم الإسلامي الذي عقد في بيروت سنة 1994م، ولا زال ينعقد كل عدة سنوات وتصدر عنه توصيات وقرارات.

الوحدة الإسلامية:

ثم بين الأستاذ موقف الإخوان من الوحدة الإسلامية، ويؤكد أن الإسلام رابطة كما هو عقيدة، وأنه قضى على الفوارق النسبية بين الناس، فالله تتت يقول: **{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** [الحجرات: 10]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**المسلم أخو المسلم**»[80]، و «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم**

(80) متفق عليه عن ابن عمر «صحيح الجامع الصغير» (6707).

أدناهم وهم يد على سواهم»[81].

فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية، ولا يعتبر الفوارق ا لجنسية، ويعتبر المسلمين جميعًا أمة واحدة، ويعتبر الوطن الإسلامي وطنًا واحدًا مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده، وكذلك الإخوان المسلمون يقدسون هذه الوحدة ويؤمنون بهذه الجامعة، ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوة الإسلام، وينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وما أروع ما قال في هذا المعنى شاعر من شعراء الإخوان:

ولست أدري سوى الإسلام لي   الشام فيه ووادي النيل سيان
وكلما ذكر اسم الله في بلد   عددت أرجاءه من لب أوطاني

هذا ما قاله الأستاذ البنا، وأزيد على هذا فأقول: إن الإسلام حين اعتبر المسلمين أمة واحدة بمثل قوله تعالى: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ}** [آل عمران: 110]، **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** [البقرة: 143]، **{وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}** [المؤمنون: 52] أكد هذه الوحدة بأحكام أساسية ثلاثة:

1 - وحدة المرجعية العليا، وهي القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

2 - وحدة «دار الإسلام» وكل أوطان المسلمين «دار» واحدة.

3 - وحدة القيادة المركزية العامة للأمة، المتمثلة في الإمام الأعظم أو

---

(81) رواه أبود اود وابن ماجه عن ابن عمرو، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (6712).

الخليفة[82].

وبهذا اتضح لكل ذي عينين: أن الإخوان يحترمون وطنيتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود، ولا يرون بأسًا بأن يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه على سواه، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية، باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض، ثم هم يعملون لوحدة الأمة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام، بل هم بعد ذلك يريدون الخير للعالم كله، فهم ينادون بالوحدة العالمية لأن هذا هو مرمى الإسلامي وهدفه، ومعنى قول الله تتت: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ} [الأنبياء: 107].

وبهذا أكد الإمام البنا: أنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار، وبأن كلًا منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها، فإذا أراد أقوام أن يتخذوا من المناداة بالوطنية الخاصة سلاحًا يميت الشعور بما عداها، فالإخوان المسلمون ليسوا معهم، ولعل هذا هو الفارق بينهم وبين كثير من الناس.

الإخوان المسلمون والخلافة:

ومما يسأل عنه الكثيرون: موقف الإخوان من «الخلافة» ومدى اهتمامهم بها، وعملهم لإعادتها، وهذا ما عرض له الإمام البنا في رسائل عدة من رسائله، مثل رسالتي «المؤتمر الخامس» و «المؤتمر السادس» ورسالة «التعاليم».

ولعل من أوضح ما قاله الأستاذ ما جاء في «رسالة المؤتمر الخامس» وهي أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية، ومظهر

(82) انظر في ذلك: رسالتنا «الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم» نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

الارتباط بين أمم الإسلام[83]، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير في أمرها، والاهتمام بشأنها، والخليفة مناط كثير من الأحكام في دين الله[84]، ولهذا قدم الصحابة رضوان الله عليهم النظر في شأنها على النظر في تجهيز النبي صلى الله عليه وسلم ودفنه، حتى فرغوا من تلك المهمة واطمأنوا إلى انجازها.

والأحاديث التي وردت في جوب نصب الإمام، وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها، لا تدع مجالًا للشك في أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير في أمر خلافتهم منذ حورت عن مناهجها، ثم ألغيت بتاتًا إلى الآن.

والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم، وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لا بد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لا بد أن تسبقها خطوات.

لا بد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها، يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات، وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد. اهـ[85].

وبهذا وقف الأستاذ البنا من قضية الخلافة موقفًا يقوم على فقه الشرع،

---

(83) أوثر التعبير بـ «شعوب الإسلام» بدل «أمم الإسلام» باعتبار أن المسلمين أمة واحدة ذات شعوب متعددة. القرضاوي.

(84) مثل: وجوب البيعة للإمام، ووجوب وحدة الإمامة، وعدم جواز البيعة لإمامين في وقت واحد، ورفض بيعة الثاني منهما ... إلخ. القرضاوي.

(85) من رسالة «المؤتمر الخامس» (ص144) من مجموع الرسائل.

وفقه الواقع، فالخليفة ليس مجرد حاكم يحكم بالشريعة، إنما هو حاكم الأمة المسلمة على اتساع أقطارها، واختلاف ألسنتها وألوانها، وبعبارة أخرى: هو نائب رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين، وسياسة الدنيا به، كما عبر علماؤنا من قديم، وتحقيق هذا يفتقر إلى مقدمات وتمهيدات، لترميم ما خربه الاستعمار العسكري، والسياسي والثقافي والتشريعي في بنيان أمتنا، وإعدادها للرجوع إلى الوحدة الكبرى، تحت راية القرآن، وشريعة الإسلام.

فليست «الخلافة» كلها تلوكها الألسن، ويرددها المرددون بمناسبة وغير مناسبة، ويظنون أنها تقوم بمجرد إعلان عنها، كما يتوهم السطحيون في بعض الأحزاب الإسلامية، ولله في خلقه شئون!

نحو إنسانية عالمية:

ولا يقف حسن البنا عند مصر أو العروبة، أو أمة الإسلام، بل يرنو إلى أفق أوسع، وعالم أرحب، هو أفق الإنسانية العالمية، يقول:

أما العالمية أو الإنسانية، فهي هدفنا الأسمى، وغايتنا العظمى، وختام الحلقات في سلسلة الإصلاح، والدنيا صائرة إلى ذلك لا محالة فهذا التجمع في الأمم، والتكتل في الأجناس والشعوب، وتداخل الضعفاء بعضهم في بعض، ليكتسبوا بهذا التداخل قوة، وانضمام المفترقين ليجدوا في هذا الانضمام أنس الوحدة، كل ذلك ممهد لسيادة الفكرة العالمية، وحلولها محل الفكرة الشعوبية القومية التي آمن بها الناس من قبل، وكان لا بد أن يؤمنوا هذا الإيمان لتتجمع الخلايا الأصلية، ثم كان لا بد أن يتخلوا عنها لتتآلف المجموعات الكبيرة، ولتتحقق بهذا التآلف الوحدة الأخيرة، وهي خطوات إن

أبطأ بها الزمن فلا بد أن تكون، وحسبنا أن نتخذ منها هدفًا، وأن نضعها نصب أعيننا مثلًا، وأن نقيم في هذا البناء الإنساني لنبة وليس علينا أن يتم البناء، فلكل أجل كتاب.

وإذا كان في الدنيا الآن دعوات كثيرة، ونظم كثيرة، يقوم معظمها على أساس العصبية القومية، التي تستهوي قلوب الشعوب، وتحرك عواطف الأمم، فإن هذه الدروس التي يتلقاها العالم من آثار هذه القوة الطاغية: كفيلة بأن يفئ الناس إلى الرشد، ويعودوا إلى التعاون والإخاء. اهـ[86].

* * *

الباب الثاني
الإخوان المسلمون
خصائص ومميزات

النظرة الشمولية للإسلام.

الاتجاه إلى التجميع والتوفيق.

العناية بالتكوين المتكامل.

* * *

---

(86) من رسالة «دعوتنا في طور جديد» (ص231، 232) من مجموع الرسائل.

من خصائص حركة الإخوان المسلمين

حركة الإخوان المسلمين - كما ذكرنا - حركة إسلامية تجديدية إصلاحية، مهمتها الأولى: تجديد الإسلام في حياة الأمة المسلمة.

ولكن هذه الحركة لها خصائص، تميزها عن غيرها مما سبقها، وما عاصرها من الحركات والدعوات الإصلاحية والتجديدية الإسلامية.

لعل أبرز هذه الخصائص ثلاث، نركز عليها الحديث هنا:

1 - الأولى: النظرة الشمولية للإسلام.

2 - الثانية: الاتجاه إلى التجميع والتوفيق، لا التنفير والتفريق.

3 - الثالثة: العناية بالتكوين والنباء التربوي المتكامل.

ولكل واحد من هذه الخصائص أو الركائز الثلاث: حديث يخصه ويبرزه في الصحائف التالية.

ولنبدأ بالخصيصة الأولى، وهي النظرة الشمولية للإسلام.

* * *

1 - النظرة الشمولية للإسلام

كان من أظهر الخصائص التي تميزت بها حركة الإخوان المسلمين: «نظرتها الشمولية» للإسلام، فلم تفهم الإسلام كما فهمه كثيرون، خصوصًا في عصور التخلف الحضاري، والجمود الفكري، بوصفه عقائد وعبادات شعائرية، ولا صلة له بقضايا المجتمع، وشئون الدولة، ومسارات السياسة والاقتصاد، وتيارات الثقافة والفكر.

وبارك الاستعمار الغربي - الذي احتل أكثر ديار المسلمين، وهيمن على مقدرات حياتهم - هذا التوجه الذي يحصر الدين في حنايا الضمير، فإن أجيز له الخروج منه، فلا يتعدى جدران المسجد.

لقد رفض الإخوان هذه النظرة الجزئية القاصرة المقتصرة للإسلام، ورأوا أن الإسلام يتميز بشموله الزماني والمكاني والإنساني، الذي عبر عنه حسن البنا في مقاله «من وحي حراء»، فأبلغ في التعبير، وقال: إنه الرسالة التي امتدت طولًا حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقًا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة.

لقد حذف الناس من الإسلام ما هو من صميمه وصلبه.

حذفوا منه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو فريضة إسلامية، وسبب خيرية هذه الأمة، ومن أجل أوصاف المؤمنين والمؤمنات، كما في قوله تعالى: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران: 110]، فقدم الأمر والنهي على الإيمان، إيذانًا

بأهميته، وقال سبحانه: **{وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ...}** [التوبة: 71] فقدم الأمر والنهي على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقد يعبر عن هذه الفريضة بـ «التواصي بالحق» كما في سورة العصر.

وقد يعبر عنها بـ «النصيحة في الدين» كما في حديث تميم الداري في «صحيح مسلم»: «**الدين النصيحة**» قالوا: لمن يا رسول الله قال: «**لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

وحذفوا منه: الجهاد في سبيل الله، وهو ذروة سنام الإسلام، وخصوصًا إذا اعتدى عدو على أوطان المسلمين وحرماتهم، كما صنع الاستعمار الذي احتل ديارهم، وكما فعلت الصهيونية التي اغتصبت القبلة الأولى للمسلمين، وأرض الإسراء والمعراج، والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وكما صنعت الشيوعية التي احتلت أرض الإسلام في آسيا، وأوزبكستان وطاجيكستان وكزاخستان وأذربيجان وغيرها.

والفقهاء مجمعون على أن الكفار إذا دخلوا بلدًا مسلمًا، ففرض عين على أهلها مقاومتهم وطردهم، وفرض على المسلمين كافة أن يعينوهم بالمال والرجال والسلاح، وكل ما يحتاجون إليه، فالمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.

وحذفوا منه: الحكم بما أنزل الله، وهو فريضة مؤكدة، فإن الله تعالى لم ينزل كتابه ليتلى على الأموات، ولكن ليحكم الأحياء، وقد قال تعالى: **{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ}** [المائدة: 44]، **{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ**

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} [المائدة: 45]، **{وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ}** [المائدة: 47].

صحيح أن هذه الآيات نزلت في شأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وفي تحكيم التوراة والإنجيل، ولكنها جاءت بلفظ عام يشمل كل ما أنزل الله وكل من لم يحكم به، ولا يعقل أن يكون القرآن الخالد المعجز الشامل، الذي أنزله الله على المسلمين، دون ما أنزل الله على اليهود والنصارى، كما لا يتصور أن يوصفوا بالكفر أو الظلم أو الفسوق، أو بها جميعًا، إذا تركوا ما أنزل الله عليهم، ولا يوصف المسلمون بشيء من ذلك إذا أعرضوا عن كتابهم، فأين عدل الله؟!

وحذفوا من الإسلام: وحدة الأمة المسلمة التي ذكرها ا لله في كتابه، وجعل المسلمين «أمة وسطا» كما جعلهم «خير أمة» وقال لهم: **{إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً}** [الأنبياء: 92].

وأكد الإسلام هذه الوحدة بأحكام أساسية ثلاثة:

1 - وحدة المرجعية العليا، وهي للشريعة المتمثلة في الوحي الإلهي: القرآن والسنة.

2 - وحدة دار الإسلام، فكل أوطان المسلمين - وإن تباعدت - دار واحدة.

3 - وحدة القيادة المركزية، التي تتمثل في «الإمام الأعظم» أو الخليفة الذي يجسد وحدة الأمة، ويقود مسيرتها[87].

---

(87) انظر في ذلك: كتابنا «الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم» نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

وقد صح الحديث النبوي بوجوب البيعة للإمام «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**» رواه مسلم عن ابن عمر.

فهذا التفرق والتجزئة والتمزق بين أمة الإسلام، يرفضه دينهم، ويدعوهم أن يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا، ولا يرجعوا كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض.

وحذفوا من الإسلام كذلك: موالاة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله، ونسوا قول الله تعالى: **{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}** [المائدة: 51].

وحذفوا من الإسلام: ضرورة التربية الإسلامية، والثقافة الإسلامية، التي يجب أن يتعاون عليها البيت والمدرسة، والجامع والجماعة، حتى تنشأ أجيال مسلمة العقل والعاطفة والسلوك.

وحذفوا من الإسلام كثيرًا من الأحكام القطعية التي تتعلق بالتشريع المدني، كحرمة الربا، والاحتكار والقمار، وبالتشريع الجنائي مثل إقامة الحدود على السرقة والزنا والقذف وشرب الخمر وغيرها.

فهل يسع مسلمًا السكوت على حذف ما حذف من الإسلام؟ فيحل ما حرمه الله، ويحرم ما أحله الله، ويسقط ما فرضه الله؟

وهل يقبل مسلم رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وبالقرآن إمامًا ومنهاجًا: أن يسجن الإسلم في ركن ضيق، ويفسح المجال للفلسفات الوافدة، والتشريعات الوضعية، والنظم الأجنبية، والتقاليد الغربية، تفرض نفسها وحكمها على الحياة الإسلامية التي هي دخيلة عليه، وغريبة عنها؟

لقد كان المسلمون - أو كثير منهم - في الأزمنة الماضية، مولعين بالزيادة

في الإسلام، بإضافة طقوس وعبادات وأذكار إليه، وهي ليست منه، ولكن العلماء الراسخين الملتزمين بالكتاب والسنة، ردوها على أصحابها، الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، متمسكين بالحديث النبوي الصحيح: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[88].

أم مسلمو العصر الحديث، فهم مولعون بالحذف من الإسلام - كما رأينا - فهم يريدونه عقيدة بلا شريعة، أو إيمانًا بلا عمل، أو عبادة بلا أخلاق، أو أخلاقًا بلا جهاد، أو زواجًا بلا طلاق، أو دعوة بلا دولة، أو حقًا بلا قوة، أو مصحفًا بلا سيف[89].

لهذا قام حسن البنا من أول يوم يجاهد في استرداد ما انتقص من أطراف الإسلام وينادي بشموله، حتى يستوعب كل شئون الحياة، روحية ومادية، فردية واجتماعية، اقتصادية وسياسية، أخلاقية وثقافية، محلية ودولية.

علمت دعوة الإخوان الناس أن الإسلام ذو شعب خمس:

1 - شعبة تتجه إلى النفس، فتصلحها بالعقيدة والعبادة والأخلاق.

2 - وشعبة تتجه إلى المجتمع، فتصلحه بالتنمية والعدالة والتكافل الشامل.

3 - وشعبة تتجه إلى الدولة، فتصلحها بالشورى والعدل والنصيحة.

4 - وشعبة تتجه إلى الأمة الكبرى، فتصلحها بالوحدة والتلاحم.

5 - وشعبة تتجه إلى الكون، فتصلحه بالعمارة والقيام بحق الاستخلاف في

---

(88) متفق عليه عن عائشة.

(89) انظر في ذلك: محاضرتنا «الإسلام الذي ندعو إليه» ضمن سلسلة «محاضرات د. القرضاوي» نشر دار الوفاء بالمنصورة، والرسالة ببيروت.

الأرض[90].

والحق أن تاريخ الفكر الإسلامي خلال عصوره المختلفة، لم يعرف أحدًا من رجاله، من أي طائفة كانت، من المتكلمين أو الفقهاء أو الأثريين أو المتصوفة، أو حتى من الفلاسفة، نادى بفصل العقيدة عن الشريعة، أو الدين عن الدولة، أو الرسالة عن الحكم.

وأول من نادى بذلك هو أحد أبناء العصر، الشيخ علي عبد الرازق، في كتيبه الشهير «الإسلام وأصول الحكم» الذي رحب به المبشرون والمستشرقون وعبيد الفكر الغربي.

وقد أحدث الكتاب ضجة في الأمة، وبخاصة أن مؤلفه أزهري، وانبرى الكثيرون للرد عليه، منهم الشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ محمد الخضر حسين، وكلاهما كان علامة زمانه.

كما اجتمعت هيئة كبار العلماء في الأزهر، وقررت سحب شهادة العالمية من المؤلف، وإخراجه من زمرة العلماء، وتحريم الوظائف المدنية والدينية عليه.

وقد روي عن المؤلف أنه رجع عما قاله في هذا الكتاب من أفكار تخالف إجماع المسلمين، وأن قوله بأن الإسلام رسالة روحية فحسب! كلمة أجراها الشيطان على لسانه، وقد نقل ذلك الدكتور محمد عمارة في بعض كتبه ووثقه.

---

(90) انظر: شرح هذه الشعب في كتابنا «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي».

حسن البنا والسياسة:

لقد لقى حسن البنا من العنت والكنود والأذى ما يعلم الله به، من أجل أن يُفهم الناس أن الإسلام يهتم بسياسة المجتمع والأمة والدولة، كما يهتم بالعبادة، وأنه لا يجوز للمسلم أن يُشغل بصلاته وصيامه فقط، ولا يهمه أمر أمته في مشارق الأرض ومغاربها، فالمؤمنون إخوة، والمسلمون أمة واحدة، وأن المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم.

وحاول خصوم الإخوان أن يشوشوا عليهم بقولهم: خلطوا الدين بالسياسة، وأطلق بعض الماكرين من خصوم الفكرة الإسلامية على الإسلام الشامل، الذي لم يعرف المسلمون غيره طوال القرون، إسلام القرآن والسنة، إسلام الصحابة والتابعين، إسلام الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين والمتصوفة، وجميع المسلمين - أطلق عليه اسم: «الإسلام السياسي»! كأن هناك إسلامات متعددة، فهناك الإسلام الروحي والكهنوتي، وهناك الإسلام الأخلاقي، وهناك الإسلام الاجتماعي، وهناك الإسلام السياسي.

والإسلام - كما شرعه الله، وكما بلغه رسوله - لا بد أن يكون سياسيًا؛ لأن شريعته شريعة شاملة، والفقه الإسلامي تناول الحياة كلها من أدب قضاء الحاجة إلى بناء الدولة، واختيار الخليفة.

ولقد قال حسن البنا مستنكرًا: إذا كان الإسلام شيئًا غير السياسة، وغير الاجتماع، وغير الاقتصاد، وغير الثقافة، فما هو إذن؟ أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر؟ أم هو هذه الألفاظ التي هي - كما تقول رابعة العدوية - استغفار يحتاج إلى استغفار؟ ألهذا نزل القرآن نظامًا محكمًا

مفصلًا: {تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ} [النحل: 89][91].

نظرة في وضع مصر عند ظهور الإخوان:

لقد نشأت دعوة الإخوان، بعد سقوط الخلافة بأربع سنوات أو خمس، وبعد ظهور كتاب «الإسلام وأصول الحكم» وبعد افتتان كثير من المثقفين بالحضارة الغربية، ومذاهبها وفلسفاتها، وبعد إلحاح هؤلاء على تثبيت فكرة: أن الدين شيء، والسياسة شيء آخر، وأن الغرب لم يتقدم إلا عندما فصل الدين عن الدولة، أو الدولة عن الدين، وأننا لن نخطو إلى الأمام إلا إذا نسجنا على منواله، ونهجنا نهجه، حذو القذة بالقذة.

وكان سلوك كثير من الجماعات الدينية في مصر يكاد يؤكد هذه الفكرة الغربية عن محيط الثقافة الإسلامية، وكثيرًا ما نصو في لوائحهم وأنظمتهم الأساسية: أنهم جماعات دينية ولا صلة لها بالسياسة.

وأسوأ من ذلك كله: أن هذه الجماعات - على ما كان لها من فضل ومن جهد مشكور في النواحي الدينية - لم يكن بين بعضها وبعض من الوئام والتفاهم، ما يجعل منها جبهة واحدة متراصة في مقاومة النزعات التغريبية والعلمانية الغازية، والمسلحة بسلاح المكر والدهاء، والتي تلبس لبوس «العلمية» و«العصرية» و«التجديدة» وغير ذلك من العناوين البراقة، التي يحسبها الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

لا نعجب إذا رأينا في مصر مثلًا: جماعات «أنصار السنة المحمدية» و «الجمعية الشرعية» و «شباب سيدنا محمد» و «جميعة الشبان المسلمين»

---

(91) انظر: فقرة «الإسلام والسياسة» من كتابنا «شمول الإسلام» (ص66 - 73).

وجماعات «الطرق الصوفية» وغير ذلك، وليس بينهم جميعًا إلا التراشق بالتهم، وادعاء كل منهم أنه على الحق وحده، وأن غيره على الباطل، بل ربما امتد هذا التراشق إلى حد تكفير بعضهم بعضًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

موقف التجمعات الدينية في مصر عند ظهور دعوة البنا:

وقد بينت موقف هذه الجماعات في شرح الأصل الأول من الأصول العشرين، وكان مما قلته[92]: «وكان بين هذه الجماعات كلها عيب مشترك، هو اهتمام كل واحدة منها بناحية معينة من رسالة الإسلام، والتركيز عليها، وإهمال النواحي الأخرى، أو إسقاطها من الحساب، وربما عابت الذين يشتغلون بها ويوجهون عنايتهم إليها.

فجماعة «أنصار السنة المحمدية» تهتم بأمر «العقيدة» وتصفيتها من شوائب الشرك الأكبر والأصغر، ومحاربة المبتدعة الذين يسمونهم «القبوريين» ممن يقدسون «الأولياء» ويطوفون بـ «الأضرحة» وشن الغارة على الذين يؤولون آيات الصفات وأحاديث الصفات، كالجمعية الشرعية وغيرها. وأكبر عدو لأنصار السنة هو «المتصوفة» المحدثون منهم والأقدمون، المعتدلون والمتطرفون، النظريون والعمليون.

و «الجعية الشرعية» تُعنى بالعبادة وبخاصة الصلاة علمًا وعملًا، وتهتم بأدائها على ما جاءت به السنة، وتحارب الابتداع وتبذل في ذلك وسعها، وتنشئ مساجد خاصة بها، ولكنها تتبنى - مثل معظم علماء الأزهر - مذهب

---

(92) انظر: «شمول الإسلام» (ص38 - 50) ط. مؤسسة الرسالة بيروت.

الأشاعرة في تأويل آيات الصفات وأحاديثها، ولهذا شبت الحرب بينها وبين أنصار السنة، وكان لها لهيب واستعار دام سنوات طوالًا.

و «جمعية الشبان المسلمين» معينة بالجانب الثقافي، فهي تدعو لإلقاء المحاضرات، وعقد الندوات، كما تهتم بالنشاط الرياضي، الذي جذب إليها بعض الشباب.

و «شباب سيدنا محمد» عنوا بموضوع السفور والاختلاط، وما يتعلق بالمرأة المسلمة، وجعلوا ذلك شغلهم الشاغل، ووقفوا ضد تيارات التحلل والإباحية، وتبنوا أكثر الأقوال تشددًا في كل ما يتعلق بالمرأة والأسرة، ولا سيما ما يتعلق بلقاء الرجل والمرأة، وموضوع اللباس والزينة، وأنكروا على كل من قال بإباحة كشف الوجه والكفين ... وكان النشاط في هذا الميدان هو أكبر همهم وغاية سعيهم.

وأما «الطرق الصوفية» فبعض رجالها مخلصون صادقون، وبعض منهم مقلدون جاهلون، وآخرون دجالون مرتزقون ... وحتى المخلصون الصادقون مهم عاشوا في زاوية ضيقة من زوايا الصرح الإسلامي الكبير ... وكل ما يهمهم هو الجانب الروحي التعبدي الفردي أو الاجتماعي المحدود بحدود الطريقة، وإن لم يخل ذلك كله - عند كثير منهم - من الابتداع في العبادات، والانحراف في العقيدة، والسلبية في الأخلاق.

هذا هو موقف الجماعات الدينية، وهذا ما كان يشغلها من قضايا جزئية، عند ظهور دعوة الأستاذ البنا.

أما أمر الإسلام باعتباره شريعة ونظام حياة، وأمر المسلمين باعتبارهم

أمة واحدة.

أما غلبة القوانين الوضعية على شريعة الإسلام، وغلبة الأفكار الأجنبية على فكرة الإسلام، وغلبة الإباحية الغربية على تقاليد الإسلام، وغلبة الاستعمار الصليبي على ديار الإسلام وأمة الإسلام.

أما الشريعة التي أهملت، والحدود التي عطلت، والأمة التي مُزقت، والخلافة التي حُطمت، والدين الذي عزل عن توجيه الحياة وقيادة المجتمع ... أما هذا كله، فلم تشغل هذه الجماعات أنفسها به - على خطورته وأهميته - إلا بصورة ضئيلة، وفي أحيان ومناسبات نادرة نتيجة لوجود بعض الأشخاص الأيقاظ الواعين الذين لم تكون تخلو من عدد منهم جماعة من هذه الجماعات.

كانت جُل هذه الجماعات الدينية - برغم نياتها الطيبة، وجهودها المشكورة - مع الإسلام أشبه بالعميان في القصة الهندية الشهيرة، الذين صادفوا فيلًا، فأمسك كل واحد منهم بجزء منه ظنه هو الفيل، فلما سئلوا عن وصف الفيل، قال أحدهم: إنه عظيم مدبب أملس، لأنه لم يمسك إلا بنابه، وقال الثاني: بل هو جسم ضخم مفرطح، لأنه قد أمسك ببطنه، وقال ثالث: بل هو عمود أسطواني قائم، لأنه كان قد أمسك برجله، وقال رابع قولًا آخر، لأنه أمسك بذيله، وقال خامس غير ما قاله الأربعة، لأنه أمسك بخرطومه ... وكل واحد من هؤلاء لم يصف الفيل، وإن قال حقًا في نفسه، لأنه وصف ما عرفه منه فحسب، ولو عرف الفيل كله كما خلقه الله، وكما يعرفه أهل البصر لغير رأيه، وعدل قوله ووصفه.

وكذلك كان هؤلاء، ظن بعضهم أن الإسلام في العقيدة وحدها ... وآخر

في العبادة أولًا ... وثالث في الحشمة والعفاف قبل كل شيء ... ورابع في طهارة القلب ... وكل واحد من هذه الأمور صحيح، ولكنه ليس كل الإسلام، وإنما هو جانب واحد منه.

ولا مانع شرعًا ولا عقلًا من أن تهتم جماعة من الجماعات الإسلامية بجانب واحد من الإسلام، تتخصص فيه، وتركز عليه نشاطها وجهودها، ويكون الاختلاف بين بعضها وبعض اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد[93]. إنما الممنوع أن تنكر النظرة الشاملة للإسلام، وأن تعتقد وتشيع أن الجانب الذي تعني به هو الإسلام وحده، وأن تنكر على الآخرين جهودهم في الميادين الأخرى، وألا نتعاون معهم في القضايا الكبرى.

موقف الأحزاب السياسية:

وإلى جوار هذه الجماعات والفرق الدينية، كان هناك جماعات من نوع آخر: جماعات سياسية هي التي تسمى «الأحزاب» كان يغلب على هذه الأحزاب - بصفة عامة - «الوطنية العلمانية»، فقد سبقت «الوطنية» ظهور «القومية» وخصوصًا في مصر، وإن لم تخل هذه الأحزاب من رجال متدينين في خاصة أنفسهم وسلوكهم الشخصي، إذ لم تكن هذه الأحزاب عقائدية بالمعنى الذي عرف به بعد ذلك في بلاد عربية أخرى غير مصر.

وكان معظم قادة الأحزاب من الرجال الذين تثقفوا ثقافة أجنبية عن طريق البعثات إلى أوروبا، أو عن طريق المدارس الأجنبية والتبشيرية في أوطانهم

---

(93) عرضت لتوضيح فكرة «اختلاف التنوع والتخصص» بين الجماعات الإسلامية في أكثر من كتاب لي، وخصوصًا: «أين الخلل؟» و «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم».

نفسها، أو عن طريق المنهج المسموم الذي وضعه «دنلوب» وأمثاله من المبشرين وأعوان المستعمرين المسيطرين على أزمة التعليم والتوجيه ... وكانت فكرة هؤلاء عن الإسلام صورة مطابقة من فكرة الأوروبيين عن المسيحية، فهو مجرد علاقة بين المرء وربه، أي هو دين «لاهوتي» محض، لا علاقة له بنظام الدولة ولا بشئون الحياة والسياسة والحكم، فهذه تخضع لتطور الزمن، وتجارب الفكر الإنساني، الذي يضيف كل يوم جديدًا إلى تراث الحضارة وحياة الإنسان.

كما أن الفكرة السائدة لدى جمهور المثقفين بالثقافة الحديثة: أن الدين والعلم طريقان متقابلان لا يلتقيان، وأن الأمة الناهضة التي تريد التقدم بحق هي التي تسلك سبيل العلم، وتنشئ عليه أبناءها، وتقيم بناءها، وتدع الدين في ركن قصي من حياتها[94].

مقاومة التجزئة المصطنعة لرسالة الإسلام:

هذا هو الإطار الذي وضع فيه الإسلام، وهذا هو الفهم السائد له حين ظهور دعوة الإخوان المسلمين، وكان على مؤسس الدعوة رحمه الله - أن يواجه هذا الفهم القاصر لرسالة الإسلام، وأن يبرز الجانب الثقافي والتشريعي والاجتماعي والسياسي والجهادي منه.

وأن يقاوم هذه التجزئية المصطنعة لدعوته الشاملة، هذه التجزئة التي تريد أن تجعل الإسلام «نصرانية» أخرى تتخذ اسم الإسلام، وهو منها براء.

---

(94) رددنا على هذا الفهم الخاطئ ردًا علميًا في كتابنا «بينات الحل الإسلامي» فصل «الدين في عصر العلم» فليرجع إليه، نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة ببيروت، وفي كتابنا «الإسلام والعلمانية» وكتابنا «العقل والعلم في القرآن الكريم».

لهذا أكد الإمام هذا المعنى وكرره في رسائله ومقالاته وأحاديثه ومحاضراته: معنى «شمول الإسلام» كما شرعه الله ورسوله، وتميز بذلك عن سائر الجماعات الأخرى حتى سمي ذلك «إسلام الإخوان المسلمين» كما في رسالة «المؤتمر الخامس».

ولا غرو أن كان الأصل الأول من الأصول العشرين في رسالة «التعاليم» - التي وضعها حسن البنا ليوضح فيها أركان الدعوة - يقرر ذلك بجلاء ووضوح فيقول: «الإسلام نظام شامل، يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء».

اهتمت دعوة الإخوان المسلمين بالتركيز على الجوانب الإسلامية التي أغفلت عمدًا أو جهلًا من رسالة الإسلام مثل: الدولة والأمة والجهاد والاقتصاد والثقافة والتربية والفكر والقانون ... وما إلى ذلك، بعد أن بذل الاستعمار جهوده الجبارة وأنفق ملايين طائلة، وربى تلاميذ مخلصين لأفكاره، يعملون بكل ما أوتوا لتجريد الإسلام من معنى «الحكم والدولة» كما فعل على عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، وكما طبق ذلك كمال أتاتورك في تركيا ... وتجريده من معنى «الجهاد والقوة» كما دعا إلى ذلك غلام أحمد القادياني في الهند، ومن تبعه من صنائع الإنجليز، فقد كان أكبرهم «القادياني» أن يثبت دعوتين كبيرتين:

إحداهما: طاعة ولي الأمر، ولو كان كافرًا.

والثانية: إبطال الجهاد في سبيل الله.

ولا يستفيد من هاتين الدعوتين أحد غير الاستعمار المتسلط على ديار المسلمين، المتحكم في رقابهم، والمستلب لخيراتهم.

لماذا تبنى الإمام البنا فكرة الشمول؟

ولم يكن للإمام البنا وجماعته خيار في تبني هذا الشمول لمعنى الإسلام لأسباب ثلاثة:

شمول تعاليم الإسلام:

الأول: أن الإسلام الذي شرعه الله لم يدع جانبًا من الحياة دون آخر، فهو - بطبيعته - شامل لكل نواحي الحياة، مادية وروحية، فردية واجتماعية، حتى إن أطول آية في كتاب الله أنزلت في شأن من شئون الدنيا هو كتابة «الديون».

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ ...} [البقرة: 282].

والقرآن الذي يقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ...}** [البقرة: 183]، هو نفسه الذي يقول في نفس السورة: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ}** [البقرة: 178]، وهو الذي يقول فيها: **{كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ}** [البقرة: 180]، ويقول في ذات السورة: **{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ...}** [البقرة: 216] عبر القرآن عن فرضية هذه الأمور كلها بعبارة

واحدة: {**كُتِبَ عَلَيۡكُمُ**}.

فهذه الأمور كلها مما كتبه الله على المؤمنين، أي فرضه عليهم: الصيام في الأمور التعبدية، والقصاص في القوانين الجنائية، والوصية فيما يسمى «الأحوال الشخصية»، والقتال في العلاقات الدولية.

وكلها تكاليف شرعية يتعبد بتنفيذها المؤمنون، ويتقربون بها إلى الله، فلا يتصور من مسلم قبول فرضية الصيام، ورفض فرضية القصاص أو الوصية أو القتال.

إن الشريعة الإسلامية حاكمة على جميع أفعال المكلفين، فلا يخلو فعل ولا واقعة من الوقائع إلا ولها فيها حكم من الأحكام الشرعية الخمسة، كما قرر ذلك الأصولون والفقهاء من كل الطوائف والمذاهب المنتسبة إلى الملة.

وقد دل على هذا الشمول: القرآن والسنة، فقد قال تعالى مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وسلم : {**وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ**} [النحل: 89].

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترك أمرًا يقربنا من الله إلا وأمرنا به، ولا ترك أمرًا يبعدنا عن الله إلا نهانا عنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء: «**ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»[95].

فالإسلام هو رسالة الحياة كلها، ورسالة الإنسان كله، كما أنه رسالة العالم

---

(95) من حديث رواه ابن ماجه (43)، وأحمد في «مسنده»، والحاكم من طريقه عن العرباض بن سارية، «المستدرك» (1 / 96، 97)، وابن أبي عاصم في «السنة» بإسناد حسن كما قال المنذري.

كله، ورسالة الزمن كله(96).

الإسلام يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه:

الثاني: أن الإسلام نفسه يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه وأخذ بعضها دون بعض.

وقد اشتد القرآن في إنكار هذا المسلك على بني إسرائيل، فقال تعالى في خطابهم: **{أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ}** [البقرة: 85].

ولما أحب بعض اليهود أن يدخلوا في الإسلام بشرط أن يحتفظوا ببعض الشرائع اليهودية، مثل تحريم يوم السبت، أبى الرسول عليهم ذلك إلا أن يدخلوا في شرائع الإسلام كافة.

وفي ذلك نزل قوله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ}** [البقرة: 208](97).

وخاطب الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: **{وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم**

---

(96) انظر في ذلك: خصيصة «الشمول» من كتابنا «الخصائص العامة في الإسلام»، وكذلك: «الفهم الشمولي للإسلام والتحذير من تجزئة الإسلام» من كتابنا: «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» (ص68 - 98).

(97) يقول ابن كثير في تفسير الآية: «يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله، أن يأخذوا جميع عرا الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك» «تفسير ابن كثير» (ج1 / 247) ط. دار إحياء التراث العربي ببروت.

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ}
[المائدة: 49].

فهنا يحذر الله رسوله من غير المؤمنين أن يصرفوه عن بعض أحكام الإسلام، وهو خطاب لكل من يقوم بأمر الأمة من بعده.

والحقيقة أن تعاليم الإسلام وأحكامه في العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات لا تؤتي أكلها إلا إذا أخذت متكاملة، فإن بعضها لازم لبعض، وهي أشبه «بوصفة طبية» كاملة مكونة من غذاء متكامل، ودواء متنوع، وحمية وامتناع من بعض الأشياء، وممارسة لبعض التمرينات ... فلكي تحقق هذه الوصفة هدفها، لا بد من تنفيذها جميعًا، فإن ترك جزء منها قد يؤثر في النتيجة كلها.

الحياة وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم:

الثالث: أن الحياة نفسها وحدة لا تنقسم، وكل لا يتجزأ.

ولا يمكن أن تصلح الحياة إذا تولى الإسلام جزءًا منها كالمساجد والزوايا يحكمها ويوجهها، وتركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضعية، وأفكار بشرية، وفلسفات أرضية، توجهها وتقودها.

لا يمكن أن يكون للإسلام المسجد وحده، ويكون للعلمانية المدرسة والجامعة والمحكمة والتلفاز والإذاعة والصحافة والكتاب والمسرح والسينما، والسوق والشارع، والبرلمان والوزراة، والجيش والشرطة، وبعبارة أخرى: الحياة كلها!

كما لا يمكن أن يصلح الإنسان إذا كان توجيه الجانب الروحي له من

اختصاص جهة كالدين، والجانب المادي والعقلي له من اختصاص جهة أخرى كالدولة اللادينية.

فالواقع أن لا مثنوية في الإنسان ولا في الحياة، فليس فيه ولا فيها انقسام ولا انفصال.

إنه هو الإنسان بروحه ومادته، وبعقله ووجدانه وبدنه، فلا فصل ولا تفريق، وكما يؤيد ذلك العلم الحديث نفسه، وكذلك الحياة.

إن الإنسان لا ينقسم، والحياة أيضًا لا تنقسم.

وكل الفلسفات والمذاهب الثورية أو «الإيديولوجيات» الانقلابية في التاريخ وفي عصرنا: ذات طابع كلي شمولي، ولهذا ترفض تجزئة الحياة، وتأبى أن تسيطر على جزء منها دون جزء، بل لا بد أن تقودها كلها، وتوجهها جميعًا وفقًا لفلسفتها، ونظرتها الكلية للوجود وللمعرفة وللقيم، ولله والإنسان والتاريخ.

يقول أحد الاشتراكيين العرب المعروفين[98] في تبرير هذا الاتجاه:

«إن فهم الاشتراكية على أنها نظام اقتصادي فحسب، هو فهم خاطئ؛ فالاشتراكية تقدم حلولًا اقتصادية لمسائل كثيرة، ولكن هذه الحلول جميعًا ليست إلا ناحية واحدة من نواحي الاشتراكية، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق، ولا يتعرف إلى الأسس التي تقوم

---

(98) هو الدكتور منيف الرزاز - الذي انتخب زمنًا ما أمينًا عامًا لحزب البعث الاشتراكي العربي في كتابه «دراسات في الاشتراكية» الذي صدر عام 1960، ويحمل مقالات لعدد من قادة «البعث».

عليها الاشتراكية، ولا يتطلع إلى الآمال البعيدة التي تذهب إليها الاشتراكية»، « ... فالاشتراكية مذهب للحياة، لا مذهب للاقتصاد، مذهب يمتد إلى الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والاجتماع والصحة والأخلاق والأدب والعلم والتاريخ، وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها.

وأن تكون اشتراكيًا يعني: أن يكون لك فهم اشتراكي لكل هذا الذي ذكرت، وأن يكون لك كفاح اشتراكي يضم كل هذا الذي ذكرت».

ثم يؤكد الكاتب أن هذه النشرة الشاملة ليست مقصورة على الاشتراكية، وإنما هي الأساس في المذاهب الاجتماعية الأخرى.

ولقد برز الكاتب شمول المذاهب الاجتماعية، واتساع نطاقها بحيث تتسع إلى كل المجالات، وأن تضع الحلول لكل المشكلات بأن: « ... سبب هذه النظرة الشاملة أن الحياة نفسها شيء واحد ... تيار واحد لا يعرف هذا التقسيم الذي يخترعه عقلنا، لكي يسهل على نفسه إدراك حقائق الحياة، ثم ينسى أنه هو نفسه الذي قام بهذا التقسيم، ويظن أن الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الأزل.

فالحياة لا تعرف شيئًا اسمه الاقتصاد، منفصلًا عن شيء اسمه الاجتماع، وشيء آخر اسمه السياسة.

الحياة شيء متكامل متصل، ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس، لن يتمكن من القيام بهذا التحليل والدرس، إذا واجه الحياة ككل قائم بذاته، فهو مضطر إلى أن يقسم الحياة إلى أوجه، وإلى ألوان، وإلى أنواع من العلاقات، فيسمي بعضها اقتصادًا، ويسمي بعضها الآخر سياسة، وبعضها اجتماعًا، وأخلاقًا، ودينًا، وتاريخًا، وأدبًا، وعلمًا ... إلى آخر هذه السلسلة إن كان لها

آخر.

الحياة ... كالنهر، شسيء واحد متصل مستمر ... وكذلك حياة أي مجتمع، كبير أو صغير - أمة أو أسرة، حكومة أو حزب.

فموقف أي مجتمع إزاء الحريات السياسية يقرر موقفه من الاقتصاد، وموقفه من النظم الاقتصادية يقرر موقفه من الحريات السياسية، وكذلك من الاستعمار ومن الأخلاق ومن التعليم ومن الأدب ومن التاريخ ... إلى آخر هذه السلسلة التي لا تنتهي».

ويخلص الكاتب من ذلك إلى تأكيد الصفة الشاملة للاشتراكية فيقول: « ... بهذا المعنى، تصبح كلمة الاشتراكية إذن كلمة لا تقتصر على التعبير عن حالة اقتصادية معينة فحسب، بل هي تعبير عن نوع من الحياة بأكملها بجميع وجوهها». اهـ.

هذه هي طبيعة العقائديات والأيديولوجيات الانقلابية كلها، فلماذا يراد للإسلام وحده - وهو بطبيعته رسالة شاملة: عقيدة وشريعة وأخلاقًا وحضارة - أن يقصر رسالته على المساجد والمحاكم الشرعية؟!

ولعله لو رضي بذلك، ما تركوه يستقل بهذه المساجد يوجهها كما يريد، ولا بتلك المحاكم يقضي فيها بما يشاء[99].

---

(99) في عدد من بلاد المسلمين اعتدت الحكومات العلمانية على الجزء الباقي لهم من التشريع وهو المتعلق بالأسرة أو ما سمي «الأحوال الشخصية» كما في تركيا وتونس، كما أن المسجد لم يعد حرًا في أن يقول كلمة الإسلام كما يشاء، بل كما تشاء السلطة!! وفي تونس: تعتبر صلاة الجماعة في المسجد تهمة تلاحق صاحبها وتعرضه للمسائلة، ولا سيما إذا كان من الشباب ومدارس تحفيظ القرآن في تركيا للأطفال: تعتبر مخالفة

إن المسيحية التي يقول إنجيلها: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» حين وجدت ا لفرصة والقوة، لم يسعها أن تدع شيئًا لقيصر، ولم تستطع إلا أن تسود، وتوجه الحياة كلها الوجهة التي تؤمن بها، مثل كل الأيديولوجيات الدينية والعلمانية قديمًا وحديثًا، وكان البابوات هم الذين يتوجون «القيصر» ويراقبونه ويوجهونه ويلزمونه بما يريدون وما لا يريدون.

فإذا كان هذا شأن المسيحية، فكيف بالإسلام الذي يأبى أن يقسم الإنسان بين مادة وروح منفصلتين، أو يقسم الحياة بين الله وقيصر، وإنما يجعل قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد؟!

{أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ} [الأنعام: 114].

{أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: 50].

شمول الحركة بعد شمول الفكرة:

ولم يقف الإخوان بالشمول الإسلامي عند حدود النظر والفكرة، بل وصلوا بهذا الشمول إلى مستوى العمل والحركة.

ورأينا الأستاذ البنا يعلن في «رسالة المؤتمر الخامس» أن حركة الإخوان تضم كل المعاني الإصلاحية، وكل النواحي الإيجابية التي تفتقر إليها الأمة، وتمثلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر، واجتمع في رحابها ما تفرق لدى جماعات شتى.

وأصبح كل مصلح مخلص غيور يجد فيها أمنيته، والتقت عندها آمال

للدستور!!

محبي الإصلاح الذين عرفوها وفهموا مراميها، وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك، إن الإخوان المسلمين:

1 - دعوة سلفية: لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله.

2 - وطريقة سنية: لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا.

3 - وحقيقة صوفية: لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير.

4 - وهيئة سياسية: لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعد حد.

5 - وجماعة رياضية: لأنهم يعنون بجسومهم، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن لبدنك عليك حقًا**»[100] وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدى كاملة صحيحة إلا بالجسم القوي، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لا بد لها من جسم يحتمل أعباء الكسب والعمل والكفاح في طلب الرزق، ولأنهم تبعًا لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفرقهم الرياضية عناية تضارع وربما فاقت كثيرًا من الأندية المتخصصة بالرياضة البدنية وحدها.

---

(100) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو.

6 - ورابطة علمية ثقافية: لأن الإسلام يجعل طلب العلم فرضة على كل مسلم ومسلمة، ولأن أندية الإخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف، ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح.

7 - وشركة اقتصادية: لأن الإسلام يعني بتدبير المال وكسبه من وجهه هو الذي يقول نبيه صلى الله عليه وسلم : «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»(101)، ويقول: «**من أمسى كالًا من عمل يده أمسى مغفورًا له**»(102)، «**إن الله يحب المؤمن المحترف**»(103).

8 - وفكرة اجتماعية: لأنه يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها.

وهكذا نرى أن شمول معنى الإسلام قد أكسب فكرتنا كل مناحي الإصلاح، ووجه نشاط الإخوان إلى كل هذه النواحي، وهم في الوقت الذي يتجه فيه غيرهم إلى ناحية واحدة دون غيرها يتجهون إليها جميعًا، ويعلمون أن الإسلام يطالبهم بها جميعًا.

ومن هنا كان كثير من مظاهر أعمال الإخوان يبدو أمام الناس متناقضًا وما هو بمتناقض.

فقد يرى الناس الأخ لمسلم في المحراب خاشعًا متبتلًا يبكي ويتذلل، وبعد

---

(101) رواه أحمد عن عمرو بن العاص (4 / 197) و (202)، والحاكم (2 / 2)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(102) الحديثان ذكرهما السيوطي في «الجامع الصغير»، وسندهما ضعيف. ولذا ذكرهما الألباني في «ضعيف الجامع الصغير».

(103) من رسالة المؤتمر الخامس (ص121 - 123) من مجموع الرسائل.

قليل يكون هو بعينه واعظًا مدرسًا يقرع الآذان بزواجر الوعظ، وبعد قليل تراه نفسه رياضيًا أنيقًا يرمي بالكرة أو يدرب على العدو أو يمارس السباحة، وبعد فترة يكون هو بعينه في متجره أو معمله يزاول صناعته في أمانة وفي أمانة وفي إخلاص، هذه مظاهر قد يراها الناس متنافرة لا يلتئم بعضها ببعض، ولو علموا أنها جميعًا يجمعها الإسلام، ويأمر بها الإسلام، ويحض عليها الإسلام، لتحققوا فيها مظاهر الالتئام، ومعاني الانسجام، ومع هذا الشمول فقد اجتنب الإخوان كل ما يؤخذ على هذه النواحي من مآخذ، ومواطن النقد والتقصير(104).

* * *

(104) من رسالة المؤتمر الخامس (ص121 - 123) من مجموع الرسائل.

2 - الاتجاه إلى التجميع والتوفيق لا إلى التنفير والتفريق

ومما لا يخطئه الدارس لحركة الإخوان المسلمين: أنها منذ بداية انطلاقها تحرص كل الحرص على التقريب بين المتباعدين، وعلى التجميع بين المتفرقين، وعلى التوفيق بين المتخاصمين، في إطار العاملين للإسلام، من الجماعات والأفراد والمؤسسات.

وأعلن الأستاذ البنا من قديم: أن دعوته تبني ولا تهدم، وتجمع ولا تفرق، وهذا ما جعل الإخوان منذ نشأتهم، يهتمون بأمور أربعة ضرورية:

الأول: هو الاعتدال في النظر إلى الأمور، وتبنى الوسطية المتوازنة في الحكم على الأشياء والمواقف، والأشخاص والهيئات والأعمال، دون غلو ولا تقصير.

الثاني: وهو ثمرة للموقف الأول، وهو التسامح في معاملة المخالفين، أو التعمل «مع الآخرين» كما يعبرون اليوم، وبهذا نقول ما روي عن الإمام الشافعي رحمه الله : رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، ونجد الإمام الشهيد هنا قد تبنى قاعدة المنار الذهبية، التي وضعها العلامة المجدد محمد رشيد رضا رحمه الله ، وهي التي تقول: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفا فيه».

وقد ظن كثير من الإخوان أن هذه العبارة من كلام الأستاذ البنا لإيرادها في بعض رسائله، وقد كان يتعامل مع الآخرين بالفعل على أساسها.

الثالث: هو الرفق في التعامل مع المخالفين، فإن الله يحب الرفق في الأمر

كله، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه، وأولى الناس بالرفق هم رجال الدعوة، الذي ينبغي أن تتسع صدورهم للجميع، ولا يضيقوا ذرعًا بأحد، وإن بلغ في خصومته ما بلغ.

وأعظم أسوة لنا في ذلك هو رسولنا صلى الله عليه وسلم ، الذي خاطبه الله تتت بقوله {**فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ**} [آل عمران: 159]

وقال عز وجل : {**لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ**} [التوبة: 128]

الرابع: تبني المنهج النبوي في التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، كما أوصى الرسول الكريم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل، حين أرسلهما إلى اليمن، فقال: «**يسرا ولا تعسروا، وبشرا ولا تنفروا، وتطاوعا**» «أي ولا تختلفا»[105].

وروى عنه أنس قوله: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»[106].

ومنهج التيسير والتبشير دائما يجمع ولايفرق، ويقرب ولا يباعد، ويحبب ولا يبغض.

الأصول العشرون واتجاهها إلى التجميع:

وفي ضوء هذا المعنى الكبير الاتجاه إلى التجميع والتوفيق. لا إلى المباعدة والتفريق ـ كتب حسن البنا «أصوله العشرين» الشهيرة في رسالة

(105) متفق عليه عن أبي موسى «اللؤلؤ والمرجان» (1130).
(106) مبفق عليه عن أنس «اللؤلؤ والمرجان» (1131).

«التعاليم» التي جعلها أساسا لوحدة الفهم بين الأخوان المجاهدين الصادقين من جماعة الإخوان المسلمين.

وهي الأصول التي عنى الكثيرون بشرحها والتعليق عليها ما بين مختصر ومطول.

وقد كنت شرحتها من قديم شرحا سجل في عدد من الأشرطة، لقى قبولا لدى المهتمين بالجانب الفكري، من الإخوان، ومن غيرهم في بعض الأحيان. ثم أخذت في شرحها كتابة شرحا مفصلا في سلسلة «نحو وحدة فكرية للعالمين للإسلام» صدر منها أربعة أجزاء.

ولا بأس أن أقتبس بعض ما كتبته عن هذه الأصول وطبيعتها ومزاياها، ومن المخاطبون بها، وذلك في شرح الأصول الأول المتعلق بـ «شمول الإسلام».

من المخاطبون بهذه الأصول؟

وهنا نجيب عن السؤال المهم في هذا الموضع، وهو: من الذين خاطبهم حسن البنا بهذه الأصول العشرين؟

ومن الواضح أنه خاطب بهذه الأصول صنفين من الناس:

الأول: يتحدد في الإخوان العاملين أو المجاهدين من جماعة «الإخوان المسلمين».

فمن المعلوم أن «الإخوان» هيئة عامة، قامت لتجديد الإسلام في عقول المسلمين ونفوسهم وحياتهم: اعتقادا وفكرا وخلقا وسلوكا. وقد ضمنت في

صفوفها ألوانا مختلفة من الناس، منهم السلفي، ومنهم الصوفي، منهم المتمسك بمذهبه، ومنهم من لا يرى التمذهب، منهم المحافظ الميال إلى القديم، ومنهم المتحرر الميال إلى الجديد. منهم المثقف بالثقافة الشرعية، ومنهم المثقف المدنية ... إلخ.

وهذه الأمزجة والاتجاهات المختلفة تحتاج إلى «قواسم مشتركة» في الفكر، تجمع بينها، على اختلاف نزعتها، وتوحد مفاهيمها الأساسية في القضايا الكلية، والمسائل الدينية الكبرى، وإن بقي الاختلاف في الفرعيات والتفصيلات التي يتعذر أن يتفق الناس عليها.

الصنف الثاني: يتمثل في الجماعات والفئات الدينية المختلفة، التي كانت تضمها الساحة المصرية، يوم كتب الإمام البنا هذه الأصول، وهي شبيهة إلى حد كبير بما نحن عليه اليوم، وقديما قال الشاعر العربي: ما أشبه الليلة بالبارحة! وقال من قال من الغربيين: التاريخ يعيد نفسه!

ومهما اختلف الناس في صدق هذه المقولة، فإن مما لا يجحد أن كثيرا من المواقف والأوضاع قد تتكرر أو تتشابه إلى حد بعيد.

أجل ... كانت عين البنا رضي الله عنه - وهو يكتب هذه الأصول العشرين - مركزة على الجماعات الدينية المختلف بعضها مع بعض، التي تتبادل التجريح والآتهام، إلى حد التفسيق بل التكفير.

وقد رأى ذلك بعيني رأسه، ولمس آثاره براحتيه، فمنذ بزغ فجر دعوته بمدينة الإسماعيلية، حيث الجماعات الدينية ذات الاتجاه السلفي أو السني تمثل اتجاها، وهي فيما بينها تتقاذف التهم، ثم الجماعات الصوفية بطريقها

ومشايخها وأتباعها وشاراتها، تمثل اتجاها آخر، معاديا ومناقضا للاتجاه الأول، وبينهما الحرب جدلية لا يخمد أوراها.

ثم هناك العلماء والوعاظ والخطباء الذين لا ينتمون لأحد من المعسكرين، والذين لا يعجبون أولئك ولا هؤلاء ولا يعجبهم أيضا أولئك ولا هؤلاء.

كان هذا ما رآه ولمسه حسن البا في الإسماعيلية، ثم ما رآه بعد ذلك في القاهرة بصورة أكبر - بين الاتجاهات الدينية المختلفة.

ولما كان الرجل مشعول الفكر والقلب بتوحيد الأمة المسلمة، التي فرقتها الخلافات من كل جانب، حتى قاتل بعضها بعضا في أيام الحرب العالمية الأولى، وقد سقطت آخر راية كانت تجمع أمة الإسلام تحت ظل العقيدة، وهي راية الخلافة سنة 1924، وبرزت النزعات القومية والوطنية، بديلا للوحدة الإسلامية، والقومية الإسلامية.

لهذا كان من المهم - بل من الضروري - توحيد الجبهة الداخلية الإسلامية بكل وسيلة ممكنة: جبهة الداعين إلى الإسلام، والرافعين لشعاراته المتنوعة، والعمل على تضييق دائرة الخلافات الدينية والفكرية بينهم، وجمعهم على «الحد الأدنى» من الأصول والمفاهيم الإسلامية التي توحد ولا تفرق، وتقرب ولا تباعد.

وحين أنشئ اتحاد للجماعات الدينية في مصر، تقدم الشهيد بهذه الأصول المركزة، لتكون محورا تلتقي عليه الجماعات المختلفة.

من مزايا هذه الأصول:

ومن هنا نلاحظ في هذه الأصول عدة أمور:

أولا: أنها تتجه غالبا إلى المسائل التي تختلف فيها وجهات النظر، بين المدارس الدينية قديما وحديثا، كالخلاف بين السلف والخلف من المتكلمين والخلاف بين الاتجاه الصوفي والاتجاه السلفي، والخلاف بين أنصار التقليد المذهبي و «اللامذهبين».

ثانيا: أنها مصوغة بحكمة واعتدال، لأنها تتجه إلى التجميع والتوفيق، لا إلى الإثارة والتفريق، بين أتباع هذه المدارس، إذا توافر القدر الضروري من الفهم والإخلاص والتسامح.

ثالثا: أنه قصد فيها إلى التركيز والإيجاز، لا إلى الشرح والتفصيل، لأن التوسع والتفصيل في هذه الأمور، يتيح فرصة أكبر للخلاف، وتعدد الآراء وتضاربها، وهو عكس المقصود.

رابعا: أنها لم تعن كثيرا بالتوجه إلى العلمانين والمثقفين ثقافة غربية، ولو كان ذلك من قصدها واهتمامها، لأضافت إلى هذه الأصول أصولا أخرى.

ولهذه حين أردت أن أقدم معالم الإسلام لهؤلاء في كتابي «الإسلام والعلمانية وجها لوجه» ذكرت عشرين أصلا أخرى، ذات مضمون آخر، ووجهة أخرى[107]، وأعتقد أنه لو كان الإمام الشهيد مكاني لفعل مثل ما فعلت، ولكل مقام مقال.

اتجاه التجميع والتوفيق:

ولا ريب أن الاتجاه التوحيدي والتوفيقي، في هذه الأصول واضح كل الوضوح، وحينما بدأت أكتب في شرح هذه الأصول، وعلى الأصح أنشر

---

(107) انظر كتابنا: «الإسلام والعلمانية وجها لوجه» (ص: 36 - 47). نشر مكتبة وهبة.

بعض ما كان عندي من شرحها، عندما بدأت مجلة «الدعوة» في الظهور في أوائل السبعينات بإشراف المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله ، جعلت لها عنوانا أساسيا ثابتا هو «نحو وحدة فكرية إسلامية».

ومن توفيق الله لنا أن وجدت شيخنا الغزالي - رحمه الله وأجزل مثوبته - لحظ هذا الملحظ نفسه بعد ذلك، فسمى كتابه الذي شرح فيه هذه الأصول العشرين «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين».

وقد كان التكوين العقلي والنفسي لحسن البنا يتجه أبدا إلى البنا لا الهدم، وإلى الجمع لا التفريق.

وهذا هو السر في أن حسن البنا لم يحسم الرأي في بعض الأمور، وتركها لكل فريق يرى رأيه، حسبما يلوح له من الأدلة، كما في موضوع «التوسل» بالنبي أو بالصالحين.

فبعد أن أكد ضروة أن يكون المدعو والمتوسل إليه هو الله تثتت ذكر أن قضية التوسل «بجاه النبي ونحوه» تدخل في مسائل «الفروع العملية» التي يبحث فيها علم «الفقه» وليست من «الأصول العقائدية» التي يبحث فيها علم «التوحيد» لأنها تتعلق بالخلاف في كيفية الدعاء، فتخرج بذلك من العقيدة إلى العمل.

وبعض المتحمسين لوجهة معينة يعيبون على الشيخ رحمه الله أنه لم يحسم في هذا الأمر، برأي قاطع، وذلك لأنهم ينظرون من زاوية غير زاويته، ويسعون إلى هدف غير هدفه، ويسلكون سبلا غير سبيله.

فالرجل يرى أن يجمع الأمة على الأهداف الكبرى، وأن يحشد صفوفها -

على اختلاف وجهاتها - في مقابلة القوى المعادية للإسلام جهرا، والمتربصة به سرا ويحرص على أن تتناسى الخلافات الجزئية فيما بينها لتقف أمام أعدائها صفا كأنهم بنيان مرصوص.

وليس معنى ذلك أن يتنازل عن أساسيات الإسلام، فهذا غير وارد في هذا المقام بحال من الأحوال.

ولهذا أنكر ادعاء الكشف الإلهام والرؤى، واعتبارها مصدرا للأحكام والسلوك، وأنكر الخرافات والشركيات المتعلقة بالتمائم والرقى والكهانة وزيارة القبور والغلو في الأولياء والكرامات ونحوها.

كما أنكر الابتداع في الدين، وشرع ما لم يأذن به الله ... إلخ ... ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة، والرجوع إليهما في معرفة أحكام الإسلام. فالتجميع والتوفيق الذي حرص عليه الإمام البنا إنما هو في الأمور التي تتعدد فيها الاجتهادات، وتختلف فيها وجهات النظر، فلا بأس من تركها دون حسم.

وهذا هو شأن الراسخين من أهل العلم، الذين كثيرا ما يسألون فيقولون: لا ندري، أو يذكرون أقوال أهل العلم قبلهم واختلافهم فيها، ولا يرجحون قولا على قول.

وقد روي هذا عن الإمام الشافعي رضي الله عنه في عدد من المسائل، وعقب على ذلك الإمام الرازي في «المحصول» فقال: هذا يدل على كمال منصبه في العلم والدين.

أما العلم فلأن كل من كان أغوص نظرا، وأدق فكرا، وأكثر إحاطة بالأصول والفروع، وأتم وقوفا على شرائط الأدلة: كانت الإشكالات عنده

أكثر.

أما المصر على الوجه الواحد طول عمره - في المباحث الظنية - بحيث لا يتردد فيه: فذلك لا يكون إلا من جمود الطبع، وقلة الفطنة، وكلالا القريحة، وعدم الوقوف على شرائط الأدلة والاعتراضات.

وأما الدين فمن وجهين:

الأول: أنه لما لم يظهر له فيه وجه الرجحان: لم يستح من الاعتراف بعدم العلم، ولم يشتغل بالترويج والمداهنة، بل صرح بعجزه عما هو عاجز فيه. وذلك لا يصدر إلا عن الدين المتين.

كيف - وقد نقل عن عمر - رضي الله عنه اعترافه بعدم العلم، في كثير من المسائل[108] وجميع المسلمين عدوا ذلك من مناقبه وفضائله، فكيف جعلوه عيبا ههنا؟!

والثاني: وهو أنه لم يقل ابتداء: «إني لا أعرف هذه المسألة» بل وجد المسألة واقعة بين أصلين، فذكر وجه وقوعها بينهما، وكيفية اشتباهها بهما. فلما لم يظهر له الرجحان تركها على تلك الحالة، ليكون ذلك بعثا له على الفكر بعد ذلك، وحثا لغيره من المجتهدين على طلب الترجيح.

«وهذا هو اللائق بالدين المتين، والعقل الرصين والعلم الكامل ... بل من أنصف واعترف بالحق، علم أن ذلك مما يدل عل رجحان حاله، على حال

---

(108) نحو هذا روى عن سيدنا عمر في مواضع كثيرة، منها ما يتعلق بميراث الجد والإخوة، وميراث الكلالة وبعض أبواب الربا، وقد أخرج عنه البخاري ومسلم وغيرهما. وانظر «سنن البيهقي» (6 / 254)، و «فتح القريب» (1 / 39).

سائر المجتهدين: في العلم والدين»[109].

وما لاحظه الإمام البنا منذ نحو نصف قرن - من الحاجة إلى التجميع والتوفيق - لا زلنا نلاحظه إلى اليوم.

ففي البلاد التي زرتها داخل العالم الإسلامي، وفي الجاليات والتجمعات الإسلامية التي التقيت بها خارج العالم الإسلامي، وفي المؤتمرات والندوات التي شاركت فيها في أقطار شتى في المشرق والمغرب - كان هناك سؤال مشترك يتكرر ويلح ويضغط علينا. نحن الداعين للإسلام، والمنتمين إلى الجماعات والحركات الإسلامية.

هذا السؤال يقول: لماذا يطل الخلاف قائما بين الجماعات الإسلامية؟ ولماذا لا تتوحد كلها في جماعة أو حركة إسلامية عالمية كبرى، بدل هذه الجماعات المتفرقة المتناثرة؟! إن الاتحاد يقوي القلة والاختلاف يضعف الكثرة؟! فلماذا الاختلاف بينها؟ أليست كلها تعمل لنصرة الإسلام، وإقامة دولة الإسلام؟! أو ليس الإسلام هدف الجميع، ومنطق الجميع؟ فلماذا يتفرقون ولا يجتمعون؟ ولماذا يختلفون ولا يتوحدون؟

وكم تمنى دعاة مخلصون أن تقوم في عصرنا حركة إسلامية عالمية واحدة، تضم كل الحركات، وتستوعب كل الطاقات، فتكون أقدر على التصدي لتكتلات القوى المعادية، ومؤامرات الصهيونية، والصليبية، والشيوعية والوثنية، التي قد تختلف بينها وتتفق علينا.

---

(109) «المحصول في علم أصول الفقه» للإمام فخر الدين الرازي تحقيق د.طه جابر العلواني (جـ2 قسم 2، ص: 525 - 528).

ومما لا يخفى على دارس أن هناك عقبات جمة تقف في سبيل هذه الوحدة المرغوبة.

فالوحدة تقتضي الاتفاق على عدة أمور:

1 - تتفق أولا على الاهداف، وعلى ترتيبها.

2 - ثم تتفق ثانيا على المنهاج والوسائل التي تتخذ لتحقيق الأهداف المنشودة.

3 - ثم تتفق ثالثا على القيادة والثقة بإخلاصها وكفايتها، وقدرتها على استخدام تلك الوسائل لتحقيق تلك الأهداف.

وهذا ليس من اليسير أن يتوافر إلا داخل الجماعة الواحدة.

ولهذا أرى أن الحلم بالحركة التي تستوعب كل الحركات، أو الجماعة التي تضم كل الجماعات: حلم جميل، ولكنه - بمنطق الواقع - بعيد التحقيق.

واعتقادي الذي سجلته في أكثر من كتاب: أنه ليس من الضروري توحيد الجماعات الإسلامية، وصبها في قالب واحد. بل يكفي التقريب بينها، وإزالة أسباب التنافر والتناكر بين بعضها وبعض، والعمل على أن يكون بينها قدر من التنسيق والتفاهم والتعاون. بحيث يكمل بعضها بعضا، وبحيث تقف في القضايا الكبيرة جبهة واحدة، كالبنيان المرصوص.

وبهذا يكون اختلافها اختلاف تنوع وثراء، لا اختلاف تناقض وصراع. ومما يعين على هذا التقارب والتفاهم والتعاون: ما ذكرناه من ضرورة توفير «حد أدنى» من «المفاهيم المشتركة» التي تجمع بين المتفرقين، وتقارب بين المتباعدين، وتوثق الصلة بين المتقاربين. وهذا ما يمكن أن تؤديه هذه

الأصول إلى حد كبير[110].

* * *

(110) انظـر: كتابنـا «شـمول الإسـلام» (ص: 27 - 34) نشـر مكتبـة وهبـة - القـاهرة، ومؤسسة الرسالة - بيروت.

3 - العناية بالتكوين المتكامل

من الخصائص التي تميزت بها دعوة الإخوان المسلمين عما سبقها وما عاصرها من دعوات الإصلاح: العناية بالتكوين: تكوين الطلائع أو الحراس الذين يجسدون جيل النصر المنشود.

وذلك أن الحركة تعمل على توعية الجماهير الغفيرة ودعوتهم العامة إلى الإسلام، ثم تستخلص الجندية في سبيل الله، وهؤلاء هم الذين يوجه إليهم التكوين المتكامل.

أهم عناصر هذا التكوين ثلاثة أساسية، وهي:

1 - التثقيف العقلي.

2 - الإيقاظ الروحي.

3 - الترابط الأخوي.

وقد عبر الإمام عن هذه العناصر الثلاثة يوما، فسماها:

1 - الفهم الدقيق.

2 - والإيمان العميق.

3 - والحب الوثيق.

وعبر عنها الداعية المعروف الدكتور سعيد رمضان في مقال قديم له عن «أواصر الجماعة المؤمنة» فاعتبرها: العاطفة، والفكرة، والتنظيم.

المهم هنا: أن هذا التكوين بعناصره الثلاثة مما تميزت بـه دعوة الإخوان، فلم تكن دعوة: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، أو دعوة عبد الرحمن الكواكبي، وأمثالهم من المصلحين الإسلاميين وتعنى بجانب التكوين أو التربية أو البناء، إنما تعني بالتوعية والإيقاظ والتنوير العام.

أما حسن البنا فقد رأى أن التوعية العامة لا تكفي وحدها لإصلاح الأمة وتغير ما بأنفسها، حتى يغير الله ما بها، وأنه لا بدليل عن التجنيد والتربية والبناء لتحقيق الغاية المنشودة.

وكان حسن البنا يرى أن يتبع المنهاج النبوي في ذلك. وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل أكبر همه طوال العهد المكي هو تكوين الجيل الرباني، والرعيل القرآني الأول، من خلال تعهد دائم، وصحبة مباركة، ومراقبة إيجابية، وكانت «دار الأرقم» في مكة هي أشهر دار للتربية الأساسية التي خرجت أول أجيال الإسلام وأفضلها، الذين وصفوا بأنهم «رهبان الليل ةفرسان النهار». وأنهم «يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع».

وأعظم ما وصفوا به: ماجاء في كتاب الله: **{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ}** [الفتح: 29].

1 - التثقيف العقلي:

العنصر الأول في التكوين هو: ما يتعلق بتثقيف الفكر، وتنوير العقل،

فالإسلام دين ينشئ «العقلية العلمية»[111] ويرفض «العقلية الخرافية» أو «العامية» التي تعتمد على الظن في موضع اليقين، أو تعتمد على الهوى والعواطف في مقام لا يغني فيه إلا الحقائق الموضوعية. وهو ما يرفضه القرآن الكريم الذي يذم المشركين بقوله: **{وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا}** [النجم: 28]، ويقول في نفس السورة: **{إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ}** [النجم: 23] ، وفي سورة أخرى يقول: **{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ}** [محمد: 16].

والعقلية العلمية هي التي ترفض التقليد الأعمى، سواء كان للأجداد والآباء، وفي ذلك يقول القرآن: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ}** [البقرة: 170] أم كان للسادة والكبراء كما قال تعالى: **{وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا 67 رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}** [الأحزاب: 67، 68] وقد تكرر هذا المعنى في جملة سور من القرآن الكريم[112].

والعقلية العلمية التي ينشئها الإسلام هي: التي تؤمن بوجوب النظر والتفكير في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ فالكون كله مسرح للفكر والتأمل، وكذلك التاريخ ومصاير الأمم. وكذلك الإنسان بكل آفاقه الروحية والمادية. يقول تعالى: **{أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ}** [الأعراف: 185] ، **{قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ**

---

(111) انظر في ذلك: كتابنا «العقل والعلم في القرآن الكريم».

(112) منها: سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة سبأ، وغيرها.

بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ} [العنكبوت: 20] ، **{قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ}** [الأنعام: 11] ، **{وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ 20 وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ}** [الذاريات: 20، 21].

ولا تقبل العقلية الإسلامية دعوى بلا بينة، فهي تعتمد البرهان في العقليات، والتوثيق في النقليات، والتجربة في الحسيات. يقول القرآن لأصحاب العقائد: **{قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ}** [البقرة: 111والنمل: 64] ، وفي مقام النقل: **{ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ}** [الأحقاف: 4] ، وفي مقام آخر يقول: **{نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ}** [الأنعام: 143] .

ومن ثم كان بدء الوحي القرآني بهذه الآيات: **{ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ 1 خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ 2 ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ 3 ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ 4 عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ}** [العلق: 1 - 5] والقراءة باب العلم ومفتاحه.

ولذا حرص الإمام البنا على أن تكون «الثقافة» أو «العلم» أو «الفهم» من مقومات شخصية المسلم.

فمن تكوين الفرد المسلم كما في رسالة التعاليم: أن يكون مثقف الفكر، كما يكون سليم العقيدة، صحيح العبادة، متين الخلق، قوي الجسد.

وفي رسالة «دعوتنا في طور جديد» يتحدث عن الفرد المسلم المنشود، فيذكر أن الإسلام يريد فيه إدراكا صحيحا يتصور الصواب والخطأ، كما يريد فيه وجدانا شاعرا يتذوق الجمال والقبح، وإرادة حازمة لا تضعف ولا تلين أمام الحق. كما تحدث فيها عن العقلية الغيبية، والعقلية المادية الحسية، والعقلية التي تؤمن بالغيب في مجاله، والحس في مجاله، وهي عقلية المسلم

المتوازنة.

وقد تحدث الإمام عن أركان «البيعة» وهي تعبير عن التعهد للعمل بصدق وإخلاص لتحقيق أهداف الجماعة، والجهاد والتضحية في سبيلها، والثبات عليها. فجعل أول هذه الأركان. «الفهم» وهي كلمة أدق وأعمق من مجرد كلمة «العلم».

وأراد «الفهم» أن يوقن الأخ المسلم: أن فكرته «إسلامية صميمة» وأن يفهم الإسلام كما يفهمه الإخوان، سعيا إلى «وحدة الفهم والعقل المشترك» وأن يفهم الإسلام في حدود «الأصول العشيرين» الموجزة كل الإيجاز.

وهذه الأصول العشرين: خلاصة لقراءات واسعة ومطولة في المصادر الإسلامية، وقد قصد بها أن تكون إشارات ومعالم تهدي الأخ المسلم في مفارق الطرقات، وتنير له الدرب في المشتبهات. بحيث ينهج النهج الوسط، فلا يتنطع مع المتنطعين، ولا يتسيب مع المتسيبين. ولا يتخذ المواقف المتشنجة من القضايا ذات الوجهين أو الأوجه.

فهو يأخذ من التصوف خير ما فيه، ولكن يرفض ما فيه من بدع، على أن يفرق بين البدعة الأصلية والبدعة الفرعية، وبين البدعة الفعلية والبدعة التركية، وبين المتفق عليه والمختلف فيه.

كما يرفض الشركيات التي قبلها بعض المتصوفة من التمسح بالقبور والطواف حولها والاستعانة بأهلها، وهم لا يملكون لأنفسهم - فما بالك بغيرهم - ضرا ولا نفعا. قال الأستاذ: ولا نتأول لهذه الأعمال، سدا للذريعة.

وكذلك رأيناه يقف من المذاهب والمتمذهبين موقفا عدلا، فلم يوجب التقليد

للمذاهب، كما قال بعضهم، ولم يحرم التقليد لها بإطلاق، كما قال بعض آخر، بل قال: «لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الشرعية: أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به أن يتعرف على أدلة إمامه ما استطاع، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر» وهذا من أعدل ما قيل، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ما يؤيد هذا.

وهو قد رفض القبوريات والشركيات الصريحة، ولكنه لم يحسم القول في قضية التوسل، وقال إنه خلاف في كيفية الدعاء، ما دام المدعو المتسول إليه هو الله وحده، فهو إذن من مسائل العمل، لا من مسائل الاعتقاد.

وهذا فقه صحيح، وقد قال بمثله الإمام محمد بن عبد الوهاب في بعض كتبه. وسنذكره بالتفصيل في الباب الأخير من هذا الكتاب، عندما نتحدث عن «الإخوان والعقيدة».

وفي الأصل الثامن عشر قال: والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شئ، و «**الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها**»[113].

وفي الأصل التاسع عشر نبه على أمر مهم مكمل للأصل السابق، فيقول: «وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الأخر، ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة، بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين،

---

(113) حديث رواه الترمذي وابن ماجه، وسنده ضعيف، ولكن معناه صحيح.

فالنظر الشرعي أولى بالاتباع، حتى يثبت العقلي أو ينهار»[114].

ومن قديم أثبت الإمام ابن تيمية أن صحيح المنقول لا يتعارض أبدا مع صريح المعقول، وألف في ذلك كتابه الكبير «درء تعارض العقل والنقل» الذي صدر في عشرة أجزاء.

ولم يقم عندنا نحن المسلمين صراع بين العقل والوحي، أو بين العلم والدين، كما حدث في أوروبا في عصورها الوسطى، وقد بينت في عدد من كتبي أن الدين عندنا علم، والعلم عندنا دين، وهما متكاملان لا متناقضان.

وكان الأستاذ البنا حريصا على تثقيف إخوانه بالرسائل والمقالات، كما رصد لذلك: حديث الثلاثاء من كل أسبوع، يتناول فيه غالبا حلقة في سلسلة، مثل نظرات في كتاب الله، نظرات في السنة أو في السيرة، أو في التزكية وإصلاح القلوب، أو غيرها. ويجيب عن أسئلة السائلين، بما يزيح الشبهات، ويصحح المفاهيم.

كما كانت مجلة الإخوان الأسبوعية، ثم الجريدة اليومية بعد ذلك، تحمل زادا أوليا للتثقيف المطلوب. وفي المنهاج التربوي للإخوان: حد أدنى، يجب تحصيله، ثم يجب على كل أخ أن يثقف ذاته ما استطاع وأن ينهل من العلم بقدر ما يتسع له واديه.

وفي الفترة الأخيرة من حياة الإمام الشهيد شعر بأن الإخوان يحتاجون إلى ثقافة أكثر تركيزا وعمقا، مما تعرضه الجريدة اليومية أو المجلة الأسبوعية،

---

(114) انظر: الأصول العشرين من «رسالة التعاليم» (ص: 358، 359) من مجموع الرسائل.

أو الرسائل الإخوانية، فعمل على إنشاء «مجلة الشهاب» لتسد هذا الفراغ، وبالفعل كانت مجلة علمية رصينة، وكان يرجو لها أن تخلف «مجلة المنار» الشهيرة، التي كان يصدرها العلامة رشيد رضا رحمه الله .

وكان الأستاذ البنا يحرر معظم أبوابها، فكان يكتب في التفسير، وفي العقائد «الله» وفي «أصول الإسلام كنظام اجتماعي» وفي «الرواية والإسناد» في أصول الحديث ومصطلحه وفي التاريخ الإسلامي.

وكان يكتب فيها كبار العلماء والمتخصصين، أمثال الشهيد عبد القادر عودة، والأستاذ مصطفى الزرقا، وغيرهما.

وللأسف لم يصدر منها غير خمسة أعداد، ثم كان قدر الله، بحل الإخوان، واستشهاد الأستاذ رحمه الله .

وأحسب أن لو قدر الله تعالى وامتد به العمر وواتاه التوفيق، لترك للإخوان ميراثا كبيرا في جوانب الثقافة الإسلامية، يشرح الفكرة، ويوحد المفاهيم الأساسية، ولكنه ترك - على كل حال - من المناهج والمشاعل ما يضئ لهم الطريق، ومن إخوانه وتلاميذه من يكمل المسيرة على بصيرة بإذن الله.

والمكتبة الإسلامية اليوم التي ساهم فيها الإخوان وأنصار فكرتهم: حافلة بما يفيد ويغني ويشبع في جوانب شتى من الثقافة الإسلامية، وكلها ملك لمن يريد أن يزداد فهما ومعرفة بدينه ورسالته وحضارته وأمته.

2 - الإيقاظ الروحي:

والعنصر الثاني في «التكوين الإخواني» هو «الإيقاظ الروحي» الذي

يعني بتجديد الإيمان بالله تعالى، واليقين بالآخرة، وتقوية المعاني الربانية في القلب، من التوكل على الله، والإنابة إليه، والإخلاص له، والمحبة له ولأوليائه، والأنس بذكره، والرجاء في رحمته، والخشية من عذابه، والاعتزاز بالانتماء إليه، والثقة بنصره وتأييده، والحياء معه، والشعور برقابته، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه والرضا بقضائه، وحسن الأدب منه، واستشعار تقواه في كل عمل وكل حال. إلى آخر ما يعني به رجال التصوف الصادقون.

والوصول إلى هذا ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى رياضة مستمرة، ومجاهدة طويلة، لهذه النفس الأمارة بالسوء، وتصميم على تزكية النفس بالتخلية والتحلية: التخلية من رذائل الشرك والنفاق والجاهلية، والتحلية بفضائل التوحيد والإيمان والإسلام والإحسان. وهذا هو أساس الفلاح في الأولى والآخرة {**وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا 7 فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا 8 قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**} [الشمس: 7 - 10].

ولا يتم هذا إلا في مناخ يساعد عليه، يجد فيه المرء المرشد الموجه إلى الله، والبيئة النظيفة المعينة على الخير، كما يجد الأخ الصالح، الرفيق في الدرب، حامل مسك الهدى، الذي يدل على الله منطقه، ويذكر بالآخرة حاله، ويرغب في الخير سلوكه.

وهذا ما حرص عليه الإمام البنا رضي الله عنه، قولا وفعلا، ونظرا وتطبيقا. فقد أعلن أن الإخوان إلى جوار أنها دعوة سلفية، وطريقة سنية، وهيئة سياسية ... إلخ هي حقيقة صوفية.

وفي مقام آخر يجيب الأستاذ من يسأل من الناس: ما أنتم أيها الإخوان؟ وما حقيقتكم؟ فإنا لم نعرفكم بعد، فضعوا لأنفسكم عنوانا نعرفكم به.

يقول رحمه الله : نحن أيها الناس دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة: طريقة صوفية؛ لإصلاح النفوس، وتطهير الأرواح، وجمع القلوب على الله العلي الكبير.

وجمعية خيرية نافعة ... ومؤسسة اجتماعية قائمة ... وحزب سياسي نظيف. فانظر: كيف بهذا المعنى الرباني الكبير، وقدمه على العمل الاجتماعي والخيري، والعمل الوطني والسياسي؛ لأنه الأساس الأول للبناء، والشرط الأول للفلاح.

وهو لم يكتف بالقول والإشادة بهذا الجانب الخطير في حياة الجماعة. بل أنشأ المؤسسات التربوية التي تعين على هذا التكوين المنشود، مثل «الأسرة» وهي حلقة صغيرة لها نقيب والتعاون. و «الكتيبة» وهي عبارة عن «ليلة» تقام في سبيل الله، يتعبد فيها الإخوان بتلاوة القرآن وذكر الله وقيام الليل، ودرس العشاء ودرس الفجر، وقراءة الأدعية المأثورات، وأداء التمرينات الرياضية الصباحية، مع قليل من النوم، وتناوب في الحراسة في الليل، ثم الانصراف في الصباح كل إلى عمله أو منزله. ومثل ذلك: «المخيم» يتم فيه مثل ذلك. مع المحاضرات والمناقشات والأناشيد الإسلامية ـ لعدة أيام[115].

---

(115) انظر في التربية الربانية لدى الإخوان: كتابنا «التربية الإسلامية ومدرسة البنا» مكتبة وهبة.

أهمية الجانب النفسي «الروحي» والخلقي:

عرف الأستاذ البنا تاريخ الأمم والنهضات وتاريخ الدعوات والرسالات، وعرف من قراءته للتاريخ: أن نهضات الأمم ورسالات الأنبياء ودعوات المصلحين، لا تنجح ولا تنتصر إلا بالرجال المؤمنين الأقوياء، الذين يعتبرون بمثابة البناة والحراس. كما قال تعالي لرسوله: **{هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ}** [الأنفال: 62]

وعرف الأستاذ البنا أن بناء هؤلاء الرجال هو أهم ما يبغي أن يعني به المصلحون، وأن له الأولوية على ما سواه.

ومن قرأ للأستاذ البنا أو استمع إلى محاضراته ودروسه، وجده هذه المعاني ويكررها، ويعرض لها بأكثر من ألوب في أكثر من مناسبة، دلالة على وضحوحها في ذهنه، وعمقها في نفسه، وأهميتها في نفسه، وأهميتها عنده.

وكل من قاد الإخوان بعد البنا مضي في هذا الطريق، وأكد هذه المعاني. وحسبي أن أذكر هنا قول المرشد الثاني حسن الهضيبي: «أقيموا دولة الإسلام في صدوركم، تقم على أرضكم». وما أبلغها من كلمة.

من أين نبدأ؟

يقول حسن البنا في رسالة «إلى أي شئ ندعو الناس» تحت عنوان «من أين نبدأ»: «إن تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، ومناصرة المبادئ: تحتاج من الأمة التي تحاول هذا أو الفئة التي تدعو إاله على الأقل، إلى «قوة نفسية عظيمة» تتمثل في عدة أمور: إرادة قوية لا يتطرق إليها

ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه، والخديعة بغيره. على هذه الأركان الأولية التي هي من خصوص النفس وحدها، وعلى هذه القوة الروحية الهائلة، تبنى المبادئ وتتربى الأمم الناهضة، وتتكون الشعوب الفتية، وتجدد الحياة فيمن حرموا الحياة زمنا طويلا.

وكل شعب فقد هذه الصفات الأربعة، أو على الأقل فقدها قواده ودعاة الإصلاح فيه، فهو شعب عابث مسكين، لا يصل إلى الخير، ولا يحقق أملا، وحسبه أن يعيش في جو من الأحلام والظنون والأوهام **{إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيًۡٔا}** [يونس: 36].

هذا هو قانون الله تنتت وسنته في خلقه ولت تجد لسنة الله تبديلا.

{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ} [الرعد: 11] .

وهو أيضا القانون الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذي رواه أبو داود[116]: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**».

أو لست تراه صلى الله عليه وسلم قد بين أن سبب ضعف الأمم وذلة

---

(116) ورواه أحمد أيضا كلاهما عن ثوبان. وذكره في «صحيح الجامع الصغير» (8183).

الشعوب وهن نفوسها، وضعف قلوبها، وخلاء أفئدتها من الأخلاق الفاضلة، وصفات الرجولة الصحيحة، وإن كثر عددها، وزادت خيراتها وثمراتها.

وإن الأمة إذا رتعت في النعيم، وأنست بالترف، وغرقت في أعراض المادة، وافتتنت بزهرة الحياة الدنيا، ونسيت احتمال الشدائد، × ومقارعة الخطوب، والمجاهدة في سبيل الحق، فقل: على عزتها وآمالها العفاء.

يظن كثير من الناس أن الشرق تعوزه القوة المادية، من المال والعتاد وآلات الحرب والكفاح، لينهض ويسابق الأمم التي سلبت حقه، وهضمت أهله، ذلك صحيح ومهم، ولكن أهم منه وألزم: القوة الروحية، من الخلق الفاضل، والنفس النبيلة، والإيمان بالحقوق ومعرفتها، والإرادة الماضية والتضحية في سبيل الواجب، والوفاء الذي تنبني عليه الثقة والوحدة، وعنهما تكون القوة.

لو آمن الشرق بحقه، وغير من نفسه، واعتنى بقوة الروح، وعني بتقويم الأخلاق، لأتته وسائل القوة المادية من كل جانب، وعند صحائف التاريخ الخبر اليقين.

يعتقد الإخوان المسلمون هذا تمام الاعتقاد، وهم لهذا دائبون في تطهير أرواحهم، وتقوية نفوسهم، وتقويم أخلاقهم، وهم لهذا يجاهدون بدعوتهم، ويريدون الناس على مبادئهم، ويطالبون الأمة بإصلاح النفوس وتقويم الأخلاق.

وهم لم يبتدعوا ذلك ابتداعًا شأنهم في كل ما يقولون، ولكنهم يستمدون من القاموس الأعظم، والبحر الخضم، والدستور المحكم، والمرجع الأعلى، ذلك

هو كتاب الله تتت، وقد سمعت من قبل تلك المادة الخالدة من ذلك القانون: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ}** [الرعد: 11].

ولقد كشف القرآن عن هذا المعنى في كثير من آياته، بل إنه ضرب لنا مثلًا تطبيقيًا خالدًا، واضحًا كل الوضوح، صادقًا كل الصدق، في قصة بني إسرائيل، تلك القصة الرائعة التي ترسم لكل أمة يائسة طريق التكوين.

يقظة الروح: الإيمان والعزة والأمل:

ويعود إلى ذلك المعنى الكبير لشرحه ويؤكده في رسالة «دعوتنا في طور جديد» فيقول: «وينظر الناس في الدعوات إلى مظاهرها العملية وألوانها الشكلية، ويهملون كثيرًا النظر إلى الدوافع النفسية والإلهامات الروحية، التي هي في الحقيقة مدد الدعوات وغذاؤها، وعليها يتوقف انتصارها ونماؤها، وتلك حقيقة لا يجادل فيها إلا البعيد عن دراسة الدعوات وتعرف أسرارها. إن من وراء المظاهر جميعًا في كل دعوة روحًا دافعة، وقوة باطنة، تسيرها وتهيمن عليها وتدفع إليها، ومحال أن تنهض أمة بغير هذه اليقظة الحقيقية في النفوس والأرواح والمشاعر: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ}** [الرعد: 11].

ولهذا أستطيع أن أقول: أن أول ما نهتم له في دعوتنا: وأهم ما نعول عليه في نمائها وظهورها وانتشارها: هذه اليقظة الروحية المرتجاة، فنحن نريد أول ما نريد يقظة الروح، حياة القلوب، صحوة حقيقة في الوجدان والمشاعر، وليس يعنينا أن نتكلم عما نريد بهذه الدعوة من فروع الإصلاح في النواحي العملية المختلفة بقدر ما يعنينا أن نركز في النفوس هذه الفكرة، ثم يقول: نحن

نريد نفوسًا حية قوية ... قلوبًا جديدة خفاقة ... مشاعر غيورة ملهبة ... أرواحًا طموحة متطلعة مقرنين، تتمثل مثلًا عليًا، وأهدافًا سامية لتسمو نحوها، وتتطلع إليها، ثم يصل البهاء.

ويستشهد الإمام البنا لصحة فكرته هذه، بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما ربي عليه أصحابه، وما قذف في قلوبهم من معان ومشاعر، ميزتهم عن الناس، وحلقت بهم في آفاق عليا، فهو يتحرى بدعوته نهج الدعوة الأولى، وأن تكون هذه الدعوة الجديدة، صدى حقيقيًا لتلك الدعوة السابقة، التي هتف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بطحاء مكة قبل ألف ومئات من السنين، فهو يريد أن يقف بين يدي الأستاذ الأول، سيد المربين، ليتلقى عنده دروس الإصلاح من جديد.

ماذا صنع النبي الكريم مع أصحابه الغر الميامين؟

لقد قذف في قلوبهم أول ما قذف ـ أن ما جاء به هو الحق، وأن ما عداه هو الباطل، وأن رسالته خير الرسالات، وأن نهجه أفضل المناهج، وأن شريعته تتضمن أعدل الأحكام وأكمل النظم التي تتحقق بها سعادة الناس، وتلا عليهم من كتاب الله ما يزيد هذا المعنى ثباتًا في النفس، وتمكنا في القلب ... فآمنوا بهذا واعتقدوه، وصدروا عنه.

وقذف في قلوبهم: أنهم ما داموا أهل الحق وما داموا حملة رسالة النور وغيرهم يتخبط في الظلال، وما دام بأيديهم هدي السماء لإرشاد الأرض، فهم إذن يجب أن يكونوا أساتذة الناس، وأن يقعدوا من غيرهم مقعد الأستاذ من تلميذه، يحنو عليه ويرشده ويقومه ويسدده، ويقوده إلى الخير، ويهديه سواء

السبيل.

وقذف في قلوبهم: أنهم ما داموا كذلك مؤمنين بهذا الحق معتزين بانتسابهم إليه، فإن الله معهم، يعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيدهم، ويمدهم إذا تخلى عنهم الناس، ويدافع عنهم إذا أعوزهم النصير، وهو معهم أينما كانوا، وإذا لم ينهض معهم جند الأرض تنزل عليهم المدد من جند السماء، وأخذوا يقرأون هذه المعاني واضحة في كتاب الله.

وبهذه المشاعر الثلاثة: الإيمان بعظمة الرسالة ... والاعتزاز باعتناقها ... والأمل في تأييد الله إياها: أحياها الراعي الأول في قلوب المؤمنين من صحابته بإذن الله، وحدد لهم أهدافهم في هذه الحياة، فاندفعوا يحملون رسالتهم ... معتدين بتكريم الله إياهم، واثقين بنصره وتأييده، فدانت لهم الأرض ... وفرضوا على الدنيا حضارة الأخلاق، وبدلوا فيها سيئات المادية الجامدة، إلى حسنات الربانية الخالدة، **{وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ}** [التوبة: 32].

أثر اليقظة الروحية في التغيير:

كان حسن البنا شديد الإيمان بأن التغيير النفسي والروحي هو أساس كل تغيير وإصلاح، وأن على الدعاة والمصلحين أن يبذلوا جهدهم الفكري والدعوي والعملي، لإيقاظ الأرواح، وإحياء القلوب، وتنبيه الضمائر، وتحريك المشاعر، وتجديد الإيمان، وأن ذلك سيعمل عمله، ويؤتي أكله حسب سنة الله في الخلق، فهذه اليقظة الروحية هي «المفتاح» لقفل البشرية.

يوضح حسن البنا ذلك بعباراته البليغة السلسة البينة، فيقول:

1 - ستعمل هذه اليقظة عملها في الفرد، فإذا به نموذج قائم لما يريده الإسلام

في الأفراد ... إن الإسلام يريد في الفرد وجدانا شاعرًا يتذوق الجمال والقبح، وإدراكًا صحيحًا يتصور الصواب والخطأ، وإرادة حازمة لا تضعف ولا تلين أمام الحق، وجسمًا سليمًا يقوم بأعباء الواجبات الإنسانية حق القيام، ويصبح أداة صالحة لتحقيق الإرادة الصالحة وينصر الحق والخير.

وقد وضع الإسلام تكاليفه الشخصية على القواعد التي توصل إلى هذه النتائج كلها، ففي العبادات الإسلامية أفضل ما يصل القلب بالله، ويربي الوجدان الشاعر والإحساس الدقيق، وفي النظر الإسلامي ما يرقى بالعقول والألباب ويدفعها إلى كشف ستائر الكون ومعرفة دقائق الوجود.

وفي الخلق الإسلامي ما يربي الأرادة الحازمة، والعزيمة الماضية الصارمة، وفي النظام الإسلامي في الطعام والشراب والمنام وتوابع ذلك من شئون الحياة ما لو اتبعه الفرد لحفظ جسمه من مهلكات لا دواء لها، ولظل في وقاية من فواتك الأمراض.

ولهذا نوجب على الأخ المسلم أن يتعبد بما أمره الله به ليرقى وجدانه، وأن يتعلم ما وسعه ليتسع إدراكه، وأن يتخلق بأخلاق الإسلام لتقوى إرادته، وأن يلتزم نظام الإسلام في الطعام والشراب والنوم ليحفظ الله عليه بدنه من غوائل الأمراض والأسقام، والإسلام حين يضع هذه القواعد لا يضعها للرجال ويدع النساء، ولكن الصنفين في هذه الناحية الفردية في الإسلام سواء، فعلى الأخت المسلمة أن تكون كالأخ المسلم في رقة وجدانها وسمو إدراكها، ومتانة خلقها، وسلامة بدنها.

2 - وسيكون لهذا الإصلاح الفردي أثره في الأسرة، ذلك أن الأسرة مجموعة أفراد، فإذا صلح الرجل وصلحت المرأة - وهما عماد الأسرة - استطاعا أن يكونا بيتًا نموذجيًا وفق القواعد التي وضعها الإسلام، وقد وضع الإسلام قواعد البيت فأحكم وضعها، فأرشد إلى حسن الاختيار، وبين أفضل الطرائق للارتباط، × وحدد الحقوق والواجبات، وأوجب على الطرفين رعاية ثمرات هذا الزواج حتى تينع وتنضج في غير عبث ولا إهمال، وعالج ما يعترض هذه الحياة الزوجية من المشكلات أدق علاج، واختط في كل نظراته طريقًا وسطًا لا تفريط فيه ولا إفراط.

3 - وإذا صلحت الأسرة فقد صلحت الأمة، وإنما الأمة مجموعة هذه الأسر، وإنما الأسرة أمة مصغرة والأمة أسرة مكبرة، وقد وضع الإسلام للأمة قواعد الحياة الاجتماعية السعيدة، فعقد بين بنيها آصرة الأخوة وجعلها قرينة الإيمان، ورفع مستوى هذه الصلة إلى المحبة بل إلى الإيثار، وقضى على كل ما من شأنه أن يمزق هذه الروابط أو يضعف هذه الوشائج، وحدد الحقوق والواجبات والصلات، فللأبوة حقها وعليها واجبها، وللبنوة مثل ذلك، ولذوي القربى حقوقهم وعليهم واجباتهم، وفصل مهمة الحاكم والمحكوم أدق تفصيل، وبين للمعاملات بين الناس أحكامها بأفصح بيان، ولم يجعل لأحد على أحد فضلًا إلا بالتقوى فلا سيد ولا مسود ولا أمراء ولا عبيد، ولكن الناس في ذوات الله سواسية كأسنان المشط، إنما يتفاوتون بعمل الصالحات، وكذلك حدد صلات الأمم بعضها ببعض، وبين حقوق كل صنف فيها وواجباته، ولم يدع من ذلك صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها[117].

3 - الترابط الأخوي:

والعنصر الثالث من عناصر «التكوين» الأساسية لدى الإخوان هو: الترابط الأخوي.

فقد عني حسن البنا بهذا العنصر منذ تأسيس الجماعة، بل إن الاسم الذي اختاره لهذه الجماعة، يتضمن هذا المعنى بوضوح، فهو يضم معنيين كبيرين: الإسلام والأخوة «الإخوان المسلمون».

وكان البنا يركز على معنى الأخوة، وربطها بالجانب الرباني، بحيث تكون إخوة في الله، ومحبة في الله، فأوثق عرا الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله، وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟

وكان في أحاديث الثلاثاء في المركز العام للإخوان بالقاهرة، يبدأها عادة بإشعال لهب هذه العاطفة الإيمانية الجياشة: عاطفة الحب في الله، ويذكر من الآيات والأحاديث ما يبقى عليها حية دافئة.

مثل قوله تعالى: **{ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ}** [الزخرف: 67].

وقوله صلى الله عليه وسلم : «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يقذف في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**» متفق عليه عن

---

(117) من رسالة «دعوتنا في طور جديد» (ص233 - 236) من مجموع الرسائل.

أنس[118].

وقوله: «**سبعة يظلم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ وذكر منهم ـ ورجلان تحابا في الله عز وجل ، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه**» متفق عليه عن أبي هريرة[119].

وسمعته في أكثر من مناسبة يردد هذا الحديث: «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي**» رواه مسلم عن أبي هريرة[120].

كان حسن البنا حريصًا كل الحرص على أن ترتبط أعضاء جماعته، برباط وثيق لا تنفصم عراه، وليس ذلك أفضل من رابطة «الأخوة الإسلامية».

فإن كان الناس تربطهم في هذه الدنيا روابط شتى، رابطة الدم والنسب، أو رابطة الطين والأرض، أو رابطة اللغة واللسان، أو رابطة المصلحة المشتركة، أو غير ذلك من الروابط المادية والدنيوية الزائلة، أو المعرضة دومًا للزوال، فإن رابطة الأخوة الإيمانية هي الأخلد والأبقى، وهي الأعز والأقوى، لأنها رابطة قامت لله وفي الله، وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

لقد كان حسن البنا مؤمنًا بضروة العمل الجماعي لنصرة الدعوة

---

(118) روياه في كتاب الإيمان: البخاري برقم (16)، مسلم (43).

(119) انظر: «اللؤلؤ والمرجان» (610).

(120) مسلم (2566).

الإسلامية، وتحرير الأرض الإسلامية، وتوحيد الأمة الإسلامية، وتحقيق آمالها الكبرى في النهوض والنباء والترقي، وأداء دورها الرباني في هداية العالم إلى نور الله.

بل كان حسن البنا هو الواضع الأول لأسس العمل الجماعي الإسلامي، وأن العمل الفردي - مهما تكن نية أصحابه وإخلاصهم وتفانيهم - لا يمكنه أن يحقق أهداف الإسلام الكبيرة والبعيدة.

ولهذا كانت الأوامر والتوجيهات القرآنية والنبوية محرضة على التوحيد والتعاضد والتعاون والتضامن، فإن اليد وحدها لا تصفق، ويد الله مع الجماعة، والشيطان مع الواحد، وهو من الإثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا.

يؤكد هذا: أن القوى المعادية للإسلام وأمته، لا تعمل بصورة فردية، أو بقوى متناثرة أو مبعثرة، بل تعمل في صورة جماعات وتكتلات منظمة، حددت غاياتها، وعينت طرائقها، واختير رجالها وقادتها، ورصدت لها مصادر التمويل الدائمة والطارئة.

فلا يجوز أن نقابل هذه القوى المتجمعة بأعمال فردية متفرقة، تعجز أن تنصر صديقًا أو تقهر عدوًا.

وما دامت الجماعة - على حد تعبيرنا - فريضة وضرورة: فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، فلا بد لهذه الجماعة من رابط قوي يربط بين أفرادها، أشبه بما نسميه «المونة» أو «الإسمنت» الذي يربط «لبنات البناء» بعضها ببعض، حتى يكون كما جاء في الحديث: «**يشد بعضه**

بعضًا» أو كما قال الله تعالى: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوص}** [الصف: 4].

وهذا الرباط هو الأخوة الصادقة، التي هي صنو الإيمان ودليله، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ}** [الحجرات: 10]. وكما في الحديث الصحيح: **«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسمله «أي لا يتخلى عنه» ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»**(121).

ولا تكون الأخوة صادقة إلا إذا تجردت عن أعراض الدنيا، وتمحضت للدين، وخلصت لوجه الله تعالى، وهذا هو الحب في الله، الذي كثرت في فضله الأحاديث.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إن من عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء! قيل: من هم لعلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا بنور الله، من غير أرحام ولا أنساب «أي لا تجمعهم قرابة ولا نسب» وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»**، ثم قرأ: **{أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ}** [يونس: 62](122).

وقال رجل لمعاذ بن جبل: والله إني لأحبك لله! فقال: آلله؟ قال الرجل: قلت: لله، فأخذ بحبوة ردائي، فجذبني إليه، وقال: أبشر، فإني سمعت رسول

---

(121) متفق عليه عن ابن عمر «صحيح الجامع الصغير» (6707).

(122) قال المنذري في «الترغيب»: رواه النسائي وابن حبان في «صحيحه»، وهو في «الإحسان» (573)، وقال محققه: إسناده صحيح.

الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**قال الله تت: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ**»(123).

وقد شاعت هذه الأحاديث وأمثالها في جو الإخوان، وحفظوها وتناقلوها، ونبتت في ظلها عواطف فياضة، ومشاعر دفاقة، من مشاعر الحب في الله، والارتباط على دينه، كونت رابطة لا تعدلها ولا تقاربها رابطة، وكما قال الأستاذ سعيد رمضان رحمه الله : لا رباط أقوى من العقيدة، ولا عقيدة أقوى من الإسلام.

وكان الإمام البنا رحمه الله يعتبر هذا الرباط الأخوي هو المظهر الثاني للقوة المنشودة، بعد قوة العقيدة، وهو قوة الأخوة والوحدة والارتباط، وتأتي بعدها قوة الساعد والسلاح، وكان أخشى ما يخشاه على الإخوان: أن تتفرق كلمتهم، وينفرط عقد أخوتهم، وقال لهم مرة: أنا لا أخشى عليكم الإنجليز ولا الأمريكان ولا الروس، ولا غيرهم من طغاة الغرب أو الشرق ولكني أخشى عليكم حقًا من أمرين اثنين:

أولهما: أن تعصوا الله تعالى وتفرطوا في جنبه، فيتخلى عنكم، ويكلكم إلى أنفسكم.

والثاني: أن تتفرقوا فلا تجتمعوا إلا بعد فوات الفريصة، كما قال تعالى: **{وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ}** [الأنفال: 46].

---

(123) رواه مالك في «الموطأ» (2 / 953، 954)، وأحمد (5 / 235)، وابن حبان في «الإحسان» (575)، والحاكم (4 / 169، 170)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وفي رسالة التعاليم جعل «الأخوة» أحد أركان البيعة، وقال في شرحها: وأريد بالأخوة: أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأغلاها، والأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر، وأول القوة: قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حب، وأقل الحب: سلامة الصدر «أي من الحسد والبغضاء والأحقاد» وأعلاه: مرتبة الإيثار **{وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ}** [الحشر: 9].

والأخ الصادق يرى إخوانه أولى بنفسه من نفسه، لأنه إن لم يكن بهم، فلن يكون بغيرهم، وهم إن لم يكونوا به - كانوا بغيره، «**وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»، «**والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا**»، **{وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ}** [التوبة: 71]. وهكذا يجب أن نكون. اهـ.

وهي كلمات مركزة، تتضمن معاني كبيرة.

ولم يكتف الأستاذ البنا رحمة الله عليه بهذا البيان والتأكيد، فقد كان من مزايا الرجل: أنه يربط العلم بالعمل، والفكر بالحركة، والنظر بالتطبيق.

ومن أجل ذلك أسس «نظام الأسر» وهو نظام فذ، ابتكره الأستاذ، مستفيدًا من تجربته الصوفية، ومن قراءاته العلمية، ومن ممارسته العملية، وهدفه أن يرفع مستوى الأخوة لدى الإخوان من الكلام والنظريات إلى الأفعال والعمليات.

وجعل الأستاذ لهذا النظام أركانًا ثلاثة:

1 - التعارف: ويعني به: التعارف والتحاب بين الإخوان بروح الله تعالى، واستشعار معنى الأخوة الصحيحة الكاملة فيما بينهم، والاجتهاد ألا يعكر

صفو علاقتهم شيء، وهذا يقتضي أن يتكاشف أعضاء الأسرة فيما بينهم، وأن يعرف كل منهم ظروف أخيه وحاجاته ومشكلاته، وقدراته وإمكاناته.

2 - والتفاهم ويعني به: الاستقامة على منهج الحق، وتنفيذ ما أمر الله به، واقصاء ما نهى الله عنه، وحساب النفس حسابًا وقتيًا على الطاعة والمعصية، ولينصح كل أخ أخاه متى رأى فيه عيبًا، و ليتقبل الأخ نصح أخيه بسرور وفرح، وليشكر له ذلك. وليحذر الأخ الناصح أن يتغير قلبه على أخيه المنصوح قيد شعرة ... وليحذر المنصوح من العناد والتصلب وتغير القلب على أخيه الناصح له ولو بمقدار شعرة، فإن مرتبة الحب في الله هي أعلى المراتب، والنصيحة ركن الدين.

3 - والتكافل، هو الركن الثالث، يعني به: أن يحمل الإخوان بعضهم عبء بعض، ويتعهد بعضهم بعضًا بالسؤال والبر، والييادر إلى مساعدته ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

وأوصى الأستاذ كل أسرة أن يكون لها لقاء أو اجتماع أسبوعي، ورسم لهم ما يشغلون به وقتهم خلال الاجتماع.

أ - من تدارس شئونهم الخاصة، وما يعرض لهم من مشكلات شخصية أو دعوية، والتذاكر حول حلولها، في جو من صدق المودة، وإخلاص التوجه إلى الله، وفي ذلك توطيد للثقة وتوثيق للرابطة «**والمؤمن مرآة لأخيه**»[124]، وبذلك يتحقق التصوير النبوي للمؤمنين أنهم كالجسد

---

(124) روى البخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود عن أبي هريرة مرفوعًا: «**المؤمن**

الواحد.

ب - ومن ذلك: التذاكر حول شئون الإسلام، وتلاوة الرسائل والتوجيهات الواردة من القيامة، ولا محل في الأسرة للجدل أو الخصومة أو الحدة ورفع الصوت، قال الأستاذ «فذلك حرام في فقه الأسرة» ولكن بيان واستيضاح في حدود الأدب والتقدير المتداول من الجميع.

ج - المدارسة النافعة في كتاب من الكتب القيمة، أو أكثر من كتاب.

ثم رسم الأستاذ بعد ذلك مناهج عملية من الرحلات الثقافية والرياضية، والجبلية وصيام يوم في الأسبوع، وصلاة الفجر جماعة، على الأقل مرة في يوم معين كل أسبوع.

وقد طور الإخوان نظام الأسرة ووضعوا مناهج تربوية متكاملة، لا تزال تتطور وتتجدد.

وقد كان لهذه الروح، وهذه المفاهيم، وهذه الأنظمة أثرها في الإخوان، حتى ضرب بهم المثل في قوة التآلف والترابط، حتى قال أحد الصحفيين يومًا في مصر[125]: هذه الجماعة التي إذا عطس أحدهم في الإسكندرية قال له من في أسوان: يرحمك الله!!

* * *

مرآة المؤمن» ذكره السيوط في «الجامع الصغير»، والمناوي في «الفيض» (6 / 252)، قال الزين العراقي: إسناده حسن.

(125) هو الأستاذ إحسان عبد القدوس رحمه الله في مقال أو تحقيق صحفي قديم نشره في مجلة «آخر ساعة» بالقاهرة.

الباب الثالث
الإخوان المسلمون
ثمار وآثار

من ثمار الحركة وآثارها.

الإخوان والمحن.

* * *

من ثمار الحركة وآثارها

استطاعت الحركة الإسلامية من خلال جهادها في هذا القرن أن تحقق عدة مكاسب في ميدان الفكر، وفي ميدان الشعور، وفي ميدان العمل.

أ - في المجال الفكري:

ففي الميدان الفكري استطاعت الحركة أن تقاوم الغزو الثقافي الوافد، وتهزمه هزيمة ساحقة في عدة معارك، وتعيد إلى جماهير غفيرة من المسلمين الثقة بالإسلام ورسالته وحضارته.

فقد مر زمن غير قصير، كان الفكر الغربي فيه هو القائد المسيطر، وكانت كلمته هي العليا، وكان تياره يفرد بالتأثير والتوجيه، وامتلاك زمام التربية والثقافة والإعلام.

وكان التيار الإسلامي يناوشه برفق، أو يخاطبه بلغة الدفاع، ويحاوره بأسلوب الاعتذار.

واليوم يتجاوز الفكر الإسلامي هذا الموقف، وينتقل من الدفاع إلى الهجوم، ومن الاعتذار إلى المواجهة، ومن الانبهار بالحضارة الغربية إلى الكشف عن خوائها وقصورها ومظاهر إفلاسها.

وأصبح الذين كانوا يدعون من قبل إلى تقليد الحضارة الغربية، بخيرها وشرها وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، في حاجة إلى الدفاع عن أنفسهم، بل البراءة من دعواهم، وعدد منهم انتقل إلى الخط المخالف، وانضم إلى قافلة الدعاة إلى الإسلام.

لقد أصبحت «الهوية الإسلامية» حقيقة واقعة، بعد أن كانت مثار جدل، وموضع خصام من التيارات المخالفة، وأضحى «الانتماء إلى الإسلام» محل اعتزاز ومباهاة، بعد أن وجد من أراد أن ينتسب إلى البحر المتوسط، أو ينتسب إلى الغرب، أو يربط نسبه بالجاهليات القديمة، التي حرر الله المسلمين منها ومن ضلالاتها بنعمة العقيدة، ونور الإسلام.

لم تعد مشكلة الهوية والانتماء قائمة، كما كانت أمام سطوة الاستعمار الثقافي، والغزو الفكري، وغدونا نقول: نحن عرب مسلمون، وهنود مسلمون، وأندونسيون مسلمون، وماليزيون مسلمون، وفرس مسلمون، وإفريقيون مسلمون، بل أمسى الكثيرون يقولن: نحن مسلمون قبل كل شيء.

وكسب الهوية الإسلامية عقولًا وأقلامًا كانت في الصف المناوئ للإسلام فترة من الزمن، فغدت في كتيبته المدافعة عنه، الذائدة عن حياضه، كما رأينا في أمثال: إسماعيل مظهر صاحب الفكر الدارويني، ود. مصطفى محمود، الذي ارتحل من الشك إلى الإيمان، وخالد محمد خالد، الذي أصابته فترة انقلب فيها على الإسلام وشموله في كتبه «من هنا نبدأ» و «الديمقراطية أبدًا» و «لكيلا تحرثوا في البحر» وغيرها، وسرعان ما عاد إلى خطه الأصلي، وأصدر كتابه «الدولة في الإسلام» وما بعده.

وطاردت الحركة الإسلامية، الفكرة العلمانية المستوردة التي تعزل الدين عن المجتمع وعن الدولة وسياستها، وتحصره في نطاق العبادة والشعائر، والتدين الفردي السلبي، وخاضت معركة طويلة لإثبات شمول الإسلام، وربطه بالحياة والمجتمع، وأصبحت القاعدة العريضة من المسلمين - بفضل جهود الحركة الإسلامية وأنصارها ومؤيديها - تؤمن بأن الإسلام دعوة

ودولة، عبادة وقيادة، صلاة وجهاد، روحانية وعمل، مصحف وسيف، وتستدل لذلك بالنصوص المحكمة من القرآن والسنة، وبالمواقف العملية الثابتة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، وصحابته الأكرمين، وبالتاريخ المديد للأمة الإسلامية، التي لم تعرف قط هذا الفصام النكد، والازدواج المشئوم، الذي قسم الحياة وشطر الإنسان بين الله وقيصر، حسب النظرة الكنسية المتوارثة، فللَّه المعبد، ولقيصر الحياة كلها بعد ذلك، فيجب أن يترك ما لقيصر لقيصر، وما لله لله! على حين تقوم فكرة الإسلام على أن الحياة لا تتجزأ، وأن الإنسان لا ينشطر، وأن قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ومن في السماوات ومن في الأرض، وله الخلق والأمر.

واستطاع الفكر الإسلامي في مجال القانون والاقتصاد أن يثبت جدارة التشريع الإسلامي وتفوقه على القوانين الوضعية، وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان، وسبقه كثيرًا من المبادئ والنظريات التي لم يصل إليها القانون الغربي إلا منذ وقت قريب، ولم يبلغ فيها شأو التشريع الإسلامي.

ولم يثبت هذا عند حد القانون المدني فقط، بل تعداه إلى القانوني الجنائي والدولي والدستوري والمالي وغيرها.

وكسب الفكر الإسلامي كثيرًا من رجال القانون الوضعي نفسه، مثل كثير من رجال الاقتصاد الوضعي، فغدوا من أكبر الدعاة إلى تشريع الإسلام، وبيان مزاياه.

وحسبنا أن نذكر منهم أمثال حسن الهضيبي - المرشد الثاني للإخوان،

والشهيد عبد القادر عودة، ومحمد عبد الله العربي، وعيسى عبده، ومحمود أبو السعود، وأحمد النجار وغيرهم رحمه الله ت، وأجيالًا أخرى من بعدهم، قد لا تقل عنهم فضلًا.

وقدمت عشرات ومئات الأطروحات للماجستير والدكتوراه في الجامعات العربية والإسلامية حول موضوعات شتى في جوانب الدراسات الإسلامية: في القانون والاقتصاد والتربية والسياسة والاجتماع والفلسفة والتاريخ وغيرها.

وأصبحت المكتبة الإسلامية حافلة بآلاف الكتب في شتى ميادين الثقافة الإسلامية(126)، بعضها يعتبر موسوعات، وبعضها متوسط، وبعضها قصير.

وغدا الكتاب الإسلامي هو الكتاب الأول في سوق التوزيع، وخصوصًا بين الشباب المثقف، كما شهدت بذلك «الأرقام» التي لا تكذب، في معارض الكتب التي تقام في مختلف بلاد العرب والإسلام.

ب - في المجال الشعوري:

وفي مجال الشعور والعاطفة، استطاعت الحركة الإسلامية أن تعبئ مشاعر الجماهير الإسلامية، على امتداد أرض الإسلام - شرقًا وغربًا - اهتمامًا بأمر الإسلام والمسلمين في كل مكان، وأن توقد شعلة الحماس في صدر الإنسان المسلم لمعاضدة أخيه المسلم، ونصرة قضايا تحرير الأرض

---

(126) قدم الدكتور محمد نجاة الله الصديقي في المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة 1976 قائمة ببليوجرافية حول الدراسات الاقتصادية والإسلامية في اللغات العربية والأوردية والإنجليزية، فكانت عدة مئات والآن تضاعفت مرات ومرات، وفي كل المجالات الأخرى نجد مثل ذلك.

الإسلامية من أندونيسيا شرقًا إلى مراكش غربًا - وعلى رأسها جميعًا أرض النبوات المقدسة: فلسطين والمسجد الأقصى، وقضايا الأقليات الإسلامية المضطهدة هنا وهناك، وقضايا الدعوة والجهاد في سبيل الإسلام.

واستطاعت الحركة الإسلامية في كثير من القضايا أن تنتقل بالمسلمين من مرحلة الوطنية الضيقة والقومية المحدودة إلى آفاق الإسلامية الواسعة، فينظروا إلى أنفسهم - على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وتباعد أوطانهم - باعتبارهم «أمة واحدة» كما أمرهم الله، لا أممًا متفرقة، كما أراد لهم الاستعمار.

ولقد سمعت الأستاذ حسن البنا، يتحدث في مؤتمر «المطالب الوطنية المصرية» في مدينة طنطا، وكان يتحدث حول محاور ثلاثة حددها رحمه الله بهذه الكلمات: قضيتنا ... وسيلتنا ... دعوتنا.

وكان من حديثه عن المحور الأول «قضيتنا»: أنها تشمل قضية الوطن الصغير، وقضية الوطن الكبير، وقضية الوطن الأكبر.

أما الوطن الصغير: فهو «وادي النيل» شماله وجنوبه، لا بد أن يجلو الإنجليز عن كل شبر فيه، وتتحرر أرضه، ويتوحد الوادي كله تحت راية واحدة.

وكان يقول: إن مصر هي السودان الشمالي، وأن السودان هي مصر الجنوبية.

أما الوطن الكبير، فهو «الوطن العربي» من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي، وهذه كانت التسمية المتوارثة له، وهو - في الحقيقة - فارسي من

جهة، وعربي من جهة أخرى، ولذا أطلق عليه بعد ذلك «الخليج العربي».

وكان المركز العام للإخوان ملاذًا للمطرودين من أوطانهم والمجاهدين في سبيل تحريرها من الشرق العربي ومغربه.

وتحدث هنا عن قضية فلسطين ومحوريتها وأهميتها، وضرورة التركيز عليها، والتنبيه لما يجري في أرضها، وفرضية التصدي لمكر الصهيونية، وتوعية الأمة بأهدافها وأطماعها في الأرض المقدسة، والقدس الشريف والمسجد الأقصى.

وكان حسن البنا من أوائل من وعوا خطر الصهيونية على فلسطين، وعلى العرب والمسلمين، وله في ذلك مواقف وجهود تذكر فتشكر، وله هنا اتصال وثيق وقديم بمفتي فلسطين ومجاهدها الأكبر الحاج أمين الحسيني.

وأما الوطن الأكبر فهو «الوطن الإسلامي» من جاكرتا إلى مراكش[127]، أو من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، فكل أرض دنسها الاستعمار في هذا الوطن يجب أن تحرر، ويجب على أهلها أن يجاهدوا العدو الغاصب حتى يجلو عنها مذؤومًا مدحورًا، ويجب على المسلمين في أنحاء العالم أن يأخذوا بأيديهم ويساعدوهم بالمال وبالرجال، حتى يخلصوا بلدهم من نير الاستعمار.

وذكر هنا ما قررته كتب الفقه: لو أن امرأة سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها، وعبر عن ذلك أدب الحركة وشعرها بمثل هذه الأبيات:

---

(127) كانت كلمة «مراكش» في أدبيات ذلك العصر تعبيرًا عن دولة «المغرب» الحديثة.

وليست أرضى سوى الإسلام لي الشام فيه ووادي النيل سيان

وحيثما ذكر اسم الله في بلد عددت أرجاءه من لب أوطاني

وطني الإسلام لا أبغي سواه وبنوه حيث كانوا إخوتي

مصر والشام ونجد ورباه مع بغداد جميعًا أمتي

يا أخي في الهند أو في المغرب أنا منك، أنت مني، أنت بي

لا تسل عن عنصر أو نسبي إنه الإسلام أمي وأبي

وكان من ثمرات ذلك وقوف شعوب الإسلام مع قضية فلسطين من موريتانيا إلى جاكرتا، وكان بغض النظر عن مواقف حكوماتهم، حتى الأقليات الإسلامية - رغم سوء ظروفها وحرج مواقفها - لم تنس أنها من أمة الإسلام الكبرى.

ومما يذكر هنا أن من الأسباب المباشرة التي أدت إلى محنة المسلمين في الفلبين: موقفهم ضد سفارة إسرائيل في مانيلا، فقد ثاروا عليها وتظاهروا ضدها، رغم بعد الشقة بين فلسطين والفلبين.

جـ - في المجال العملي والتربوي:

وفي مجال العمل، كان أهم وأعظم ما نجحت فيه الحركة: تربية أجيال مسلمة، كانت ضائعة - أو على وشك الضياع - بين تيارات الجاهلية الغربية الوافدة، ومكر الصليبية الحاقدة، وتضليل الشيوعية الجاحدة، ورواسب عصور التخلف الجامدة.

جعلت الحركة أكبر همها تكوين جيل مسلم يحسن الفهم للإسلام بشموله وتوازنه، ويحسن الإيمان به، بحيث يجسد إيمانه في العمل به، والغيرة عليه،

والدعوة إليه، وبذلك النفس والنفيس في سبيله.

وأن يتوحد هذا الجيل: فكريًا بوحدة الأهداف والمفاهيم والأصول الجامعة، وعاطفيًا بتعميق معاني الأخوة والحب في الله، وعمليًا بالالتحام في تنظيم واحد، يقوم على الطاعة المبصرة لقيادة مؤمنة، ويحترم الشورى والتواصي بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى.

وقد وضعت الحركة لذلك المناهج، وحددت الوسائل، ورسمت الطريق، من الأسرة والكتيبة والمخيم ومن العبادة، والقراءة، والرياضة وخدمة المجتمع، إلى غير ذلك.

حرصت الحركة على أن تقوم هذه التربية على أساس من الشمول والتكامل، فتشمل الجسم بالرياضية، والعقل بالثقافة، والروح بالعبادة، والخلق بالفضيلة وتعد الفرد للدين والدنيا، حتى يكون نافعًا لنفسه ولأمته، صالحًا في نفسه، مصلحًا لغيره، لا يقتصر على التدين الشخصي بالصلاة والصيام والذكر، بل يضم إلى ذلك تدينًا إيجابيًا بالدعوة إلى الخير والغيرة على الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل الجماعي لنصرة الإسلام، والعودة به إلى قيادة الحياة من جديد.

كان حسن البنا يقول: نريد جيلًا يحمل الإسلام، وليس يحمله الإسلام!

وهذا كلام صحيح، فهناك أناس من المسلمين يحملهم الإسلام عبئًا على ظهره، كذلك الصنف الذي ذمه القرآن بقوله: **{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ...}** [النحل: 76].

فهؤلاء لا يقدمون للإسلام شيئًا، ولا ينفعون فكرته ولا أمته بنقير ولا قطمير.

في مقابل هؤلاء: من يحملون الإسلام فكرة واضحة في رؤوسهم، وعقيدة راسخة في نفوسهم، وأخلاقًا موجهة لسلوكهم، وتواصيًا بالحق والصبر لمن حولهم، ودعوة للعالم كله إلى صراط الإسلام المستقيم، للمسلمين ليحتكموا إلى شرعه، ويتحدوا على فهمه، ولغير المسلمين ليهتدوا بنوره، ويخرجوا من شركهم إلى توحيده، ومن إباحيتهم إلى طهارته، ومن رذائلهم إلى فضائله، ومن غلوهم وتفريطهم إلى وسطيته، هؤلاء هم حملة المشاعل الربانية، فهم ورثة الأنبياء، وهمزة الوصل بين الأرض والسماء، وهذا هو الجيل الذي عاش حسن البنا ليكونه في ظل الإسلام، وتحت راية القرآن.

وقد مثل هذا الجيل كل الشرائح الاجتماعية، على اختلاف منازلها وتفاوت ثقافاتها ومداركها، من مثقفين «أطباء ومهندسين ومحاسبين وعلميين ومعلمين ... إلخ» وطلبة وعلماء دين وتجار وموظفين وعمال وفلاحين، ووجهاء، وضباط وجنود، ورجال ونساء، من مختلف الأعمار.

وقد كان أول ما لفت المرشد الثاني الأستاذ حسن الهضيبي - جزاه الله عن الإسلام خيرًا - إلى دعوة الإخوة: أنه لاحظ عند بعض أقاربه من القرويين والفلاحين وعيًا غير معتاد لأمثالهم في أمر الدين والحياة والمسائل العامة، فسأل عن مصدر هذا الوعي، وعرف أنه ينتمون إلى جماعة الإخوان.

وقد فصلت بعض القول في التربية الإخوانية وخصائصها وآثارها في كتيب مستقل نشرته من قبل تحت عنوان «التربية الإسلامية ومدرسة حسن

البنا» فليرجع إليه.

وحسبنا هنا أن المعارك الحربية التي خاضها الإخوان اختيارًا، والمحن المتلاحقة التي ألقوا في أتونها اضطرارًا، قد أثبتت كلتاهما أصالة هذه التربية وتفوقها، وأنها أثمرت حقًا جيلًا ربانيًا فريدًا، مسلم الفكر والعاطفة والروح والسلوك، جديرًا بشرف الانتماء إلى «حزب الله» و «عباد الرحمن» وكتائب الإيمان، وأن يوصف بما وصف به أسلافه من قبل، أنهم «رهبان الليل وفرسان النهار»، جيلًا أشبه بما وصف به الأنصار رضي الله عنهت: أنهم يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع، لا تزلزله الشدائد، ولا تسحقه الانتصارات، لا يغريه وعد، ولا يثنيه وعيد، بل تزيده المحن والأهوال ثباتًا في دينه، ويقينًا على يقينه، كالذين قال الله فيهم: **{وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا}** [الأحزاب: 22].

كما أثبتت هذه التربية صدق الأخوة، وقوة الترابط - القائم على الحب في الله - بين أبناء الجماعة، وقد ظهر أثر ذلك أيام المحن فلم يخذل بعضهم بعضًا، ولم يتخل بعضهم عن بعض، بل كانوا كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا، ودخل كثير منهم السجون لمساعدته أسر إخوانه المعتقلين ... وذلك من حقوق الإخوة، كما قال القائل:

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك!

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك!

د - في الجهاد:

عملت الحركة الإسلامية على إحياء معنى «الجهاد الإسلامي» ولم تقف به عند جهاد النفس والشيطان، وإن كان ذلك جزءًا أصيلًا من مناهجها التربوية، ولكنها ارتفعت به، ليشمل جهاد قوى الاستعمار في الخارج، وقوى الطغيان في الداخل، وجعلت الحركة جهادها حول محورين: تحقيق الفكرة الإسلامية وتحرير الأرض الإسلامية.

وتحقيق الفكرة الإسلامية يعني: تحقيق حياة إسلامية متكاملة، حياة توجهها العقيدة، وتحرسها العبادة، وتحكمها الشريعة، وتضبطها الأخلاق، وتجملها الآداب والتقاليد، حياة يعيش بها الفرد المسلم في مجتمع مسلم يأخذ بيده بدل أن يعوقه، ويساعده على الالتزام بدل أن يقهره على التفلت، ويمارس إسلامه حرًا بلا ضغط ولا تنازلات، ولا يشعر فيها بتناقض بين ضميره وواقعه، أو بين عقيدته ومجتمعه.

وتحرير الأرض الإسلامية يعني: أن كل أرض دخلها الإسلام، وقام بها حكمه، وارتفعت فيها مآذنه، يجب أن تحرر من كل سلطان أجنبي كافر، وكل حكم طاغوتي فاجر، وهذا فرض عين على أهلها، ثم من حولهم الأقرب فالأقرب، حسب حاجة الجهاد وأعبائه ومطالبه، حتى يشمل المسلمين كافة.

وعلى المسلمين في أنحاء الأرض أن يساعدوهم بما يستطيعون من مال ورجال وعتاد حتى ينتصروا، فالمسلمون - حيثما كانوا - أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، أي: لا يتركه لعدوه يتحكم فيه وهو يتفرج.

ولهذا وقف أبناء الحركة - ومسقط رأسها مصر - وراء كل القضايا الإسلامية، بدءًا بقضية الوطن الخاص وادي النيل، شماله وجنوبه، ومرورًا بقضايا الوطن العربي في مشرقه وعلى رأسها: قضية فلسطين أرض المقدسات والنبوات، وسوريا ولبنان، وفي مغربه مثل قضايا تونس والجزائر ومراكش، وانتهاء بقضايا الوطن الإسلامي الأكبر، مثل قضايا أندونيسيا وباكستان وكشمير، وغيرها من قضايا المسلمين في آسيا وإفريقيا، وقضايا الأقليات الإسلامية المهضومة المضطهدة في أنحاء كثيسرة من العالم، بل قضايا الأكثريات الإسلامية المضيعة والمسحوقة، كما في ارتيريا والحبشة والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي، فهذه الجمهوريات قد عدت في عقود من السنين في حساب الأقليات المسلمة وهي في حقيقتها أوطان إسلامية أصيلة، ضمت قسرًا إلى الاتحاد السوفيتي، ووضعت قهرًا تحت الستار الحديدي.

وكان في المركز العام للإخوان قسم أساسي يسمى «قسم الاتصال بالعالم الإسلامي» مهمته الاهتمام بالمسلمين في أنحاء العالم، وجمع المعلومات منهم، واستقبالهم إذا وفدوا، والاتصال بهم، ونصرة قضاياهم.

جعلت الحركة شعارها وعلمها مصحفًا يحوطه سيفان، كتب تحت عبارة «وأعدوا» إشارة إلى الآية الكريمة: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ}** [الأنفال: 60].

كما جعلت أحد هتافاتها الرئيسية «الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

ولقد طبقت الحركة عملًا ما نادت به هتافًا وشعارًا، وخاضت معارك جهادية فعلية، ضد الصهيونيين في فلسطين، وضد الإنجليز في مصر، وقدمت الحركة من خيرة أبنائها للفداء، ممن **﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾** [الأحزاب: 23]. واحتفظ سجل الشهداء بقائمة مشرفة من أبناء الدعوة الأبرار، عبروا عن إيمانهم بدمائهم الزكية، وتركوا الآخرين من دعاة الوطنية والقومية العلمانية يعبرون بالكلمات الجوفاء، تلوكها ألسنة ثرثارة، أو تسود بها صحف تقول في الصباح ما يكذبه المساء!

لا يتسع لمجال للحديث عن جهاد الإخوان في فلسطين ضد اليهود، وما تجلى فيه من روائع الفداء والإيثار، وآيات التضحية والبطولة، التي أعادت للناس صورًا مضيئة من عهود الصحابة وتابعيهم بإحسان، ومثل ذلك جهاد الإخوان في القناة ضد الإنجليز - وقد أتيح لي أن أتشرف بالمشاركة في جزء منه - وما ضربه شباب الإخوان من مثل، وقد كتبت في ذلك كتب كتبها شهود عيان، مثل: «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» و «الإخوان المسلمون والمقاومة السرية في قناة السويس» كلاهما للأستاذ كامل الشريف، و «كفاح الشباب الجامعي في قناة السويس» للأستاذ حسن دوح.

ولا يزال للحركة أبناء صادقون، أخلصهم الله لدينهم، وأخلصوا دينهم لله، نذروا أنفسهم للجهاد في أرض فلسطين، لتحرير أرض النبوات من رجس الصهيونية، وتحرير القدس الشريف والمسجد الأقصى المبارك، أولئكم هم أبناء حركة المقاومة الإسلامية «حماس».

هؤلاء الذين أقضوا مضاجع الصهاينة الطغاة المستكبرين في الأرض،

ونغصوا عليهم عيشهم، وهم يبذلون جهودهم الجبارة للتخلص منهم، وتحريض السلطة الفلسطينية عليهم، وها هي واشنطن تقول لهم: حماس عدوكم وعدونا معًا، فعلينا أن نتعاون للقضاء عليها.

وهم يسمون جماعة «حماس» وإخوانهم في «الجهاد» جماعات «الإرهاب»، والإرهاب الحقيقي يكمن في إسرائيل، إنها الإرهابي الأكبر، الذي يسفك الدماء، ويقتل الأبرياء، ويغتصب الديار، ويشرد الأحرار، ولا يبالي في سبيل تحقيق أهدافه بإيمان ولا قيم ولا أخلاق.

هـ - في ميدان الاقتصاد:

وكان من ثمار الحركة الإسلامية: تعبئة الشعور الشعبي ضد «الربا» الذي آذن الله مرتكبيه بحرب من الله ورسوله، واعتبره الرسول صلى الله عليه وسلم من الموبقات السبع، ولعن آكله ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، وظهرت عشرات بل مئات من الكتب للكشف عن مزايا «الاقتصاد الإسلامي» والتحرر من الاقتصاد الرأسمالي والاشتراكي، وعقدت المؤتمرات والندوات، واختفت تلك الأفكار «الانهزامية» التي كانت تحاول تسويغ الربا، وتفريخ الفتاوى لإباحته، واكتسحها تيار «الصحوة الإسلامية» الجارف، وقامت حملة بل حملات، تنادي بضرورة إيجاد «بنوك إسلامية» خالية من الفوائد الربوية، وتحقق الحلم، وبطلت مقولة الذين كانوا يقولون: الاقتصاد عصب الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد، والفوائد عصب البنوك، فلا تحلموا ببنوك بلا فائدة!!

وقامت عشرات البنوك الإسلامية، وهي تزداد وتتسع وتنمو يومًا بعد يوم،

حتى أنشأ كثير من البنوك الربوية العريقة «فروعًا» للمعاملات الإسلامية، بل فعل ذلك بعض البنوك العالمية الشهيرة.

كما قامت شركات ومؤسسات إسلامية، تقوم على أساس التعامل وفق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء، مثل: «شركات التأمين» الإسلامية، التي تقوم على أساس التعاون والتكافل، لا على أساس الاسترباح من التأمين.

وقد أدى ذلك إلى إحياء «فقه المعاملات» الذى كان مهجورًا، وإلى صدور دراسات اقتصادية ومحاسبية وإدارية في ضوء الشريعة، يصعب حصرها.

وأنشئت «مراكز أبحاث» للاقتصاد الإسلامي، و «أقسام علمية» في بعض الجامعات للاقتصاد الإسلامي.

وتخصص أساتذة مرموقون في الاقتصاد الإسلامي، وصلوا إلى مرتبة الأستاذية بالجامعة.

وأسست «مجلات» متخصصة في خدمة الاقتصاد الإسلامي، وأمسى «الاقتصاد الإسلامي» معترفًا به في مجال الدراسات الأكاديمية في داخل العلم الإسلامي وخارجه.

و - في ميدان خدمة المجتمع:

وكان للحركة الإسلامية دورها البارز في خدمة المجتمع، وقد أنشأ الأستاذ البنا رحمه الله في داخل جماعة الإخوان: أقسام البر والخدمة الاجتماعية.

وأراد بذلك أن تؤدي الجماعة واجبها في خدمة المجتمع من حولها،

والنهوض به في شتى ميادينه، بحسب قدرة الجماعة وإمكاناتها المادية والبشرية، ولا سيما العانية بالمستضعفين في الأرض من الناس، من الفقراء واليتامى والأرامل والمرضى، وغيرهم من الفئات المسحوقة التي تكدح ولا تجد من ثمرات كدحها ما يكفيها ومن تعول تمام الكفاية.

والحديث الشريف يقول: «**هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم**»[128]، يشير الحديث إلى أن هؤلاء الضعفاء المسحوقين هم عدة الإنتاج في السلم، وعدة النصر في الحرب، فلا بد من وجوب العناية بهم، وبحقوقهم ومطالبهم.

أنشأ الإخوان المستوصفات والعيادات لعلاج المرضى، والدور لرعاية اليتامى، ونظموا أمر الزكوات لمساعدة الفقراء والمساكين والأرامل والعجزة.

وأسسوا لجانًا لإصلاح ذات البين، وحتى لا تتفاقم الخلافات بين الناس، وتتحول شرارتها غلنار تأكل الأخضر واليابس.

وأسسوا المدراس لتلعيم أبناء المسلمين، والحضانات لتلعيم أطفالهم، وظهرت آثار ذلك في «المجتمع المصري» وفي كل مجتمع وجد فيه ا لإخوان.

وألف الأستاذ محمد شوقي زكي كتابه «الإخوان والمجتمع المصري» وهي رسالة جامعية بينت آثار الإخوان في هذا المجال، وهي واضحة لكل ذي عينين.

---

(128) رواه البخاري عن سعد.

وأذكر أني حين زرت ا لأردن سنة 1952م وأنا طالب بكلية أصول الدين، مبعوثًا من الأستاذ الهضيبي المرشد العام للإخوان، دارت بيني وبين أعضاء «حزب التحرير» في مدينة الخليل مناقشة حادة حول مشروعية «العمل الخير» الذي يقوم به الإخوان في مراكزهم وشعبهم.

كان من رأي حزب التحرير أن هذا العمل معطل للدعوة، ومخدر للشعب، وأن هذا ليس من عمل الأفراد، ولا الجماعات، وإنما هو من مهمة «الدولة المسلمة»، وكل عمل من هذا النوع يعوق إقامة ا لدولة، ويصرف طاقات الجماعة في سبيل غير سبيل الدعوة التي يجب أن تستأثر بكل الجهود.

وقلت لهؤلاء الإخوة الذين جادلوني: تعالوا نتحاور بالحجة وها هي حجتي:

أولًا: إن المسلم مأمور بفعل الخير، كما هو مأمور بالعبادة والجهاد، كما قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ 77 وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ**﴾ [الحج: 77، 78].

فعلاقة المؤمن بربه: العبادة والركوع والسجود، وعلاقته بمجتمعه فعل الخير، وعلاقته بأعدائه الجهاد حق الجهاد.

ولا يسع المؤمن إلا أن يستجيب لأمر ربه، ولا يمكنه أن يقول إذا رأى جائعًا يستطيع أن يطعمه، أو عريانًا يمكنه أن يسكوه، أو مريضًا يستطيع أن يعالجه، أو مشردًا يستطيع أن يؤويه: سادعك حتى تقوم الدولة الإسلامية!! فهذه واجبات فورية لا يجوز إرجاؤها بحال.

ثانيًا: إن الدعوة ليست بالكلام وحده ـ شفهيًا كان أم مكتوبًا ـ فالدعوة

بالعمل وخدمة الناس وحل مشكلاتهم، وتقديم الخير لهم، تفتح قلوبهم للدعوة، ربما بأكثر مما تفتحها المحاضرات والكتب.

وهذا ما يفعله «المنصرون» في العالم وفي ديارنا، يتحببون إلى الناس بخدمتهم، وعلاج مرضاهم، ومساعدة فقرائهم، وتعليم جهالهم.

ثالثًا: إن في الجماعات أصنافًا من الناس، بعضها لا يصلح للجانب الدعوي النظري، ولا يقدر عليه، ولكنه يملك قدرة عملية، وطاقة تنفيذية، فبدل أن يبقى هذا الصنف عاطلًا بلا عمل ولا إنتاج، يكلف بتوظيف طاقته في عمل الخير، فيستفيد ويفيد، ولن يضيع عند الله مثقال ذرة من عمل الخير.

رابعًا: إن هناك هدفًا بعيدًا، وأهدافًا قريبة، ولا تناقض بين الانشغال بالأهداف القريبة الميسورة، حتى تتاح الفرصة لتحقيق الهدف البعيد المنشود.

فالهدف البعيد هو «إقامة الدولة الإسلامية» التي تعلي كلمة الله في الأرض وتمكن لدينه، وتحقق مقاصده، وهذا ليس في أيدينا، إنما هو في يد القدر الأعلى، وفق أسباب نعلم بعضها، ونجهل بعضها.

فلا نستطيع أن نظل قاعدين مهمتنا انتظار إقامة الدولة، أشبه بالذين لا يعملون شيئًا، حتى يظهر «المهدي المنتظر» فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت ظلمًا وجورًا.

وهذا ما رفضه آية الله الخميني، ولم ينتظر حتى يخرج المهدي من مغارته، بل دعا إلى «ولاية الفقيه» الذي يقوم مقام المهدي في غيابه.

لهذا كان عملنا في خدمة مجتمعاتنا، والإسهام في كشف الغمة عنها، وتفريج كرباتها، عملًا مشروعًا حتى يهيئ الله الفرصة للهدف الكبير.

وقد شبهت هذا بمن يزرع النخيل، وأشجار الزيتون في حديقته، فإن هذه الأشجار لا تؤتي ثمرتها إلا بعد عدة سنوات، وهنا يشتغل المزارع الناجح هذه الفترة من الزمن في زراعة الأرض محصولات مفيدة سريعة الإنتاج مثل الخضراوات من الخيار والطعماطم والفلفل ونحوها، وأحسب أن عمل هذا الفلاح أو البستاني عمل مقبول، لا يلومه عاقل عليه، لأنه انتفع بالأرض وبالوقت وبالطاقة فيما يفيد، ورحم الله امرءًا بذل ما يستطيع، وأجل ما لا يستطيع.

* * *

الإخوان والمحن

ولا يستطيع كاتب أو مؤرخ أو مراقب يتحدث عن الحركة إلا أن يخص بالذكر ما أصابها من محن متلاحقة، غدت أبرز معالم تاريخها، فلم يكن تاريخ الحركة يومًا مفروشًا بالورود والرياحين، بل محفوفًا بالمكاره، مليئًا بالأشواك، مضرجًا بالدماء، سنة الله في حملة الهداية الربانية من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلًا {**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ**} [البقرة: 214] إنها البأساء في الأموال، والضراء في الأبدان، والزلزلة في النفوس.

ولا عجب فإن الحركة قد دعت إلى نظام حياة جديد، تقوم فلسفته كلها على الإسلام، ويستمد أصوله من أحكامه ووصاياه، وهو نظام يخالف في كثير من النواحي ما ألفه الناس واعتادوه في شئون الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتشريع والثقافة والفنون، ويصطدم بمفاهيم الكثيرين وبمصالحهم وشهوات أنفسهم، كما أن كثيرًا من غير المسلمين يتوجسون خيفة من هذا النظام، ويخشون أن يكون فيه جور على حقوقهم، وبعضهم يضمر له الكراهية جهلًا أو عصبية.

وكما يزعج كثيرًا من غير المسلمين في الداخل، يخيف أكثر منهم في الخارج، ويزداد خوفهم إذا لمسوا نجاح الدعوة، وأحسوا بالاستجابة لها من فئات الشعب، وأنها تقترب - إذا سارت الأمور بطبيعتها - من تحقيق أهدافها الكبيرة، ولو مرحلة مرحلة، مع جهل شديد بحقائق الإسلام، وخوف غامض

من انتصاره، ساعد على ذلك عوامل تاريخية قديمة، محورها الأحقاد، وعوامل استعمارية جديدة، محورها الأطماع.

هنا تتجمع شتى القوى المعادية، الحاقدة والخائفة والطامعة، والكارهة والرافضة والعميلة والمضللة للوقوف في وجه هذه القوة النامية.

لقد اجتمع سفراء بريطانيا وأمريكا وفرنسا في «فايد» - معسكر القوات البريطانية - بمنطقة قناة السويس، وأجمعوا على ضرورة حل «الإخوان المسلمين» وضغطوا على الحكومة المصرية برئاسة محمود فهمي النقراشي باشا، فاستجابت لهم، ونفذت ما أرادوا.

ولم يعد هذا سرًا، فقد انكشف الغطاء، وغدت الوثائق السرية بمرور الزمن في الإمكان الاطلاع عليها.

وكان هذا لخدمة «الوليد الجديد» إسرائيل، التي أعلن هؤلاء الكبار أنها خلقت لتبقى وأن بقاء التيار الإسلامي يعتبر خطرًا قويًا يهددها في وجودها، وفي استمرارها، وفي نموها، وأحلامها في التوسع والامتداد، حتى يكون ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل!

المحنة الأولى للإخوان في عهد فاروق:

فكان «الحل الأول» للإخوان في عهد الملك فاروق وفي عهد حكومة النقراشي في الثامن ديسمبر سنة 1948 (1948/12/8)، وفتحت المعتقلات في الطور وهايكستب لتضم الآلاف من رجال الإخوان المسلمين، إلا رجلًا واحدًا لم يعتقل، بل ترك حرًا طليقًا وهو حسن البنا، مرشد الجماعة ومؤسسها.

وكـان الجميـع يعجبـون، كيـف يعتقـل الجنـود ويتـرك القائـد؟ ولكـن عـرف السبب، فبطـل العجـب، لقد تـرك المرشـد لأمـر بيتـوه لـه بليل، ونفذوه جهـرة، وفي شارع من أكبر شوارع القاهرة والرجل خارج من دار الشبان المسلمين، وأمـام مبناهـا، قبيـل غـروب الشـمس، وبعـد أن تلقـى اسـتدعاء مجهـولًا إلـى المركز العام للجمعية، وقد كان إسعافه ممكنًا، لـولا أن الطبيـب المعـالج رفـض أن يـزوده بالـدم المطلـوب، خضـوعًا للأوامـر العليـا(129)! اغتـالوا الرجـل القرآنـي، والمعلـم الربـاني، والمصـلح الإسـلامي، برصاصـات آثمـة، أطلقهـا عملاء فاروق، هدية له في عيد ميلاده (11 فبراير 1949)(130).

وقـد أثبتـت ذلـك التحقيقـات التـي أجريـت بعـد قيـام الثـورة، وحـوكم الـذي اشتركوا بالتدبير أو التنفيذ، وقضـى بالسجن مددًا متفاوتة.

ولقد استطاع الإخوان أن يحولوا معتقلهم في الطـور وهايكسـتب إلـى جـامع للعبادة، وجامعة للعلم، ونـاد للرياضـة، ونـدوة لـلأدب والثقافة، ومعهد للتربيـة والتكوين، وبرلمان للتشاور والتفاهم.

مـن اطلـع علـى نظـام الحيـاة اليـومي فـي المعتقـل رأى هـذا بوضـوح، فقبـل الفجر بأكثر من سـاعة، يبدأ المعتقلـون فـي الاسـتيقاظ للتهجـد وقيـام الليـل، ولا زلـت أذكر ذلك الأخ الذي كان يمر فـي جنح الليـل بـين عنـابر المعتقلـين، وهـو ينشد بصوت ندي:

يـا نائمًـا مسـتغرقًا فـي المنـام قـم فـاذكر الحـي الـذي لا ينـام

(129) انظر: «الإخوان المسلمون» لميتشل (ص164) وما بعدها.

(130) ميلاد فاروق في 11 فبراير والاغتيال كان في 12 فبراير.

مــولاك يــدعوك إلــى ذكــره وأنــت مشــغول بطيــب المنــام

وسرعان ما نجد عنابر المعتقل تدوي بتلاوة القرآن كدوي النحل، حتى إذا أذن المؤمن لصلاة الفجر، هرع الجميع إلى المسجد للصلاة خلف إماتمهم خاشعين.

وكان المسجد قطعة من أرض المعتقل حددت معالمها ببعض الحجارة والطوب، وكان إمام مسجدنا الشيخ محمد الغزالي، الذي كان في بداية الثلاثينيات من عمره، وكان يتوقد ذكاء وحماسًا وغيرة، وقد وكل إليه الإخوة قيادة المعتقلين، فطالب بحقوقوهم في الطعام وغيره، والذي نهبته القيادة العسكرية للمعتقل، واتفق على أن يسلم المعتقلون أنصبتهم جافة وهم يتولون طهيها وإعدادها.

وبعد صلاة الفجر يكون ختام الصلاة، وقراءة الأدعية والأذكار المأثورة، ثم تبدأ حلقات شرعية، مع الشيخ سيد سابق، أو مع الشيخ الغزالي، أو مع غيرهما.

ثم تبدأ التمرينات الرياضية يقوم بها الأخ محمد المهدي عاكف، فإذا ما فرغ منها حان وقت الإفطار، وبعده فترة حرة للراحة والتنظيف والتزاور.

ثم تبدأ محاضرات عامة، تعقبها مناقشات في قضايا إسلامية وثقافية متنوعة، حتى يحين وقت الظهر، فيستعد الجميع للصلاة ثم لتناول الغداء فالراحة حتى صلاة العصر، وبعدها تبدأ جولة أخرى من المحاضرات والندوات والمناقشات إلى المغرب، وبعد صلاة المغرب تأتي فترة تناول العشاء ثم صلاة العشاء، وبعدها فترة حرة قصيرة ثم ينام الجميع، حتى من لم

يرد أن ينام؛ لأن العنبر يسع نحو أربعين شخصًا، فلا يمكن أحدهم أن يضئ النور ليقرأ ويوقظ الآخرين.

فهكذا كان يتوزع النشاط اليومي بين العبادة والثقافة والرياضة والتزاور والعمل في خدمة الجميع، ولهذا قلنا عن هذا المعتقل بلغة المزح: معتقل الطور هو المخيم الدائم للإخوان المسلمين لسنة 1949، السفر والمصاريف، والإقامة والتكاليف، على حساب الحكومة المصرية!

وهو ما سجلته في قصيدة لي[131] حينما قلت:

قالوا: إلى السجن، قلنا: شعبة ... ليجمعونا بها في الله إخوانًا

قالوا: إلى الطور، قلنا: الطور ... فيه نقر ما يخشاه أعدانا!

فهو المصلى نزكي فيه أنفسنا ... وهو المصيف نقوي فيه أبدانا

معسكر صاغنا جندًا لمعركة ... ومعهد زادنا بالحق عرفانا

من حرموا الجمع منا فوق أربعة ... ضموا الألوف بغاب الطور

راموه منفي وتضييقًا، فكان لنا ... بنعمة الحب والإيمان بستانًا!

هذا هو الطور شاءوا أن نذوب ... وشاء ربك أن نزداد إيمانًا

المحنة الثانية في عهد الثورة (يناير 1954م):

وكان الحل الثاني للإخوان في عهد الثورة، التي آزرها الإخوان، قبل أن تقوم، وبعد أن قامت، وكانوا حماة ظهرها، والمدافعين الأول عنها يوم لم يكن لها من يناصرها ويدافع عنها، ويحرس المنشآت الأجنبية والوطنية من

---

(131) من قصيدة في ديواني «نفحات ولفحات» وقد ألقيت في ميدان السيدة زينب بالقاهرة بعد خروجنا من المعتقل.

تخريب المخربين.

كـان هـذا الحـل فـي 1954/1/13، وذلـك حـين اصـطدم طـلاب الإخـوان بجامعـة القـاهرة مـع أنصـار الحكومـة، وكـان فـي هـذا الاجتمـاع الـزعيم نـواب صنوي زعيم حركة فدائيات إسلام في إيران، وكنـت حاضـرًا فـي هـذا التجمـع الكبير، ممثلًا لجامعة الأزهر، وقد أحرقت سيارة جيب لهيئة التحرير «حـزب الحكومة»، واشتعل الموقف، واجتمع مجلس الثـورة فـي المسـاء، وقـرر «حـل الإخـوان» واعتقـالهم، أو اعتقـال قيـاداتهم والمـؤثرين فـيهم، فـزج بعضـهم فـي السـجن الحربـي، وبعضـهم فـي معتقـل العامريـة، بجـوار الإسـكندرية، وكنـت ممن اقتيد إلى هذا المعتقل أولًا، ثم نقلت مع مجموعة من الإخوان إلـى السـجن الحربي، ولا ندري: لماذا نقلنا[132]؟

علـى أيـة حـال، لقد سـاءت علاقـة الإخـوان بـالثورة، ولـم يقبلـوا أن يسـاقوا كالقطيع لتنفيذ ما يريـد عبـد الناصـر الـذي أراد أن يـؤدبهم بالسـجن والاعتقـال، حتى تلين قناتهم وتنحنـي رؤوسـهم، ولكـن الأمـور جـرت علـى غيـر مـا يريـد، وحدثت تحركـات فـي الجـيش، انتصـارًا لمحمـد نجيـب القـائد الرسـمي للثـورة، ومظـاهرات مـن الشـعب أشـهرها مظـاهرة «عابـدين» التـي قادهـا الشـهيد عبـد القادر عودة، وكانت النتيجة الإفراج عن الإخـوان فـي أواخـر مـارس 1954، وزار عبد الناصر الأستاذ حسن الهضيبي مرشد الإخوان فـي منزلـه، واعتـذر لـه عما أصاب الإخوان، واعتبر هذا مصالحة للإخوان، ولكن عبد الناصـر قـد

---

(132) كنا ستة نودي علينا، ثم أخذنا، وكـان الـبعض يظنونـه إفراجًـا عنـا، فـإذا هـو نقـل إلـى السجن الحربي، أما الستة فهم: محمـود عبـده، عـز الـدين إبـراهيم، محمـود حطيبـة، محمـود نفيس حمدي، أحمد العسال، يوسف القرضـاوي.

بيت لهم أمرًا في نفسه حين يخرج من المأزق وينتصر في الأزمة.

المحنة الثالثة (أكتوبر 1954):

وكانت المحنة الثالثة للإخوان بعد أشهر قليلة من هذه المصالحة، حين اشتدت قبضة عبد الناصر على زمام الأمور وتخلص من محمد نجيب، وبدأ يتفرغ للإخوان باعتقالات فردية شتى، والقيام بتعذيب هؤلاء المعتقلين تعذيبًا شديدًا، دون إعلان، كما فعل مع محمد المهدي عاكف وآخرين، وظلت الأمة تشتد، والموجة تعلو وتعلو، حتى كانت حادثة المنشية في أكتوبر 1954، التي تعرض فيها ناصر للاغتيال، وقد أثيرت شكوك وشبهات كثيرة حول هذه الحادثة، حتى من بعض رجال الثورة أنفسهم، ولكنها كانت سببًا مباشرًا لإعلان الحرب جهرة وبصورة شاملة على الإخوان، واعتقال الألوف منهم، الذين سيقوا إلى السجون الحربية وغيرها، وجرت عليهم ألوان من التعذيب لم تعرفها مصر قبل ذلك، لقد أكلت السياط اللحوم، وارتوت بالدماء، وسحقت الآلات الجهنمية العظام، وسلطت الكلاب على البشر، وعلق الرجال في الزنازين، وسهر عليهم زبانية العذاب ليالي طوالًا، ومات من مات تحت أدوات التعذيب، وكنت شاهد عيان في هذه المحنة كما كنت شاهدًا فيما قبلها من محن، إلا أن هذه المحنة فاقت كل تصور، وجاوزت كل حد، في سحق كرامة الإنسان وإهانته وإذلاله وإيلامه حسيًا ومعنويًا.

ولقد رأيت بعيني رأسي بعض الذين ماتوا تحت العذاب، ثم لفوا في «بطانية» ليدفنوا بعد ذلك في صحراء العباسية «مدينة نصر» الآن.

المحنة الرابعة (1965م):

وهذه المحنة الثالثة - على قسوتها وهولها - كانت أخف وطأة من «المحنة الرابعة» التي حدثت سنة 1965 وأعلن عنها ناصر من «موسكو» وأنه سيضرب بيد من حديد ولن يرحم، وصدرت الأوامر باعتقال عشرات الألوف من الإخوان، من المدن والقرى ومن كل الفئات والأعمار، وزادات هذه المحنة على سابقتها باعتقال بعض النساء، مثل الحاجة زينب الغزالي، ومن استخدام أساليب أفظع من أساليب 1954، بعضها يستحي الإنسان من ذكره، وقد عافاني الله من تلك المحنة، فقد كنت في قطر، ولم أنزل في ذلك الصيف إلى مصر، لأمر أراده الله، وعافية الله أوسع لنا.

ولا شك أن هذه المحن العاتية - في ظاهر أمرها - عوقت الحركة وصدت عن سبيلها، وأخافت الكثيرين ممن يود الانتماء إليها، وحرمت البلاد من كفايات مخلصة غابت عن الساحة رغمًا عنها، إما إلى الأبد بالاستشهاد، أو مددًا بلغت أحيانًا عشرين سنة كاملة تحت أقبية السجون، كما أثرت جسميًا ونفسيًا في ألوف من المعتلقين، وعطلت كثيرًا من الطلاب عن جامعاتهم، وغيبت نشاط الإخوان العلني عن الساحة سنين غير قليلة، وكان في ذلك خسارة لا شك فيها على الشعب المصري - بل الوطن العربي والإسلامي في مجموعه.

منح وراء المحن:

ولك نهذه المحن كانت في جوهرها وعاقبتها منحًا، كما قال الإمام الشهيد: ورب ضارة نافعة.

لقد كان فيها تمييز وتصفية، وتطهير للصف من الخبيث والدخيل، وصدق الله إذ يقول: **{مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ}** [آل عمران: 179]. ولا حاجة بالحركة إلى الذين يعبدون الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولا إلى من يقول: آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

ورحم الله الشاعر الذي قال:

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوي من صديقي

وكان فيها «تمحيص وتربية»، فالإنسان في الشدائد يكون أقرب إلى الله وأبعد عن الدخن، وألصق بالفطرة، فالمحنة تصقل معدنه، وتنفي خبثه، كما ينفي الكير خبث الحديد.

وكما قال تعالى معقبًا على محنة المسلمين في «أحد» بعد أن أصابهم ما أصابهم: **{وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ}** [آل عمران: 154].

وكان فيها «تجميع وتقوية»، وكما يقول جمال الدين الأفغاني: «بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة»، فقد قوت هذه المحن الصلة بين الإخوان بعضهم وبعض، وازدادوا تعارفًا وتآلفًا، وحمل القوي منهم الضعيف، وتكافلوا فيما بينهم، ودخل منهم من دخل السجون، لمساعدة أسر إخوانه من المعتقلين.

ولقد أثبتت تلك المحن الكبار في حياة الحركة: أصالتها وثباتها وقدرتها

على البقاء، واستعصاءها على التذويب والإفناء.

إنها تكمن ولكنها لا تزول، وتنكمش ولكنها لا تموت!

وسر قوتها يرجع إلى قوة الحق الذي تؤمن به وتدعو إليه، وهو الإسلام الخالد، وإلى رصيده الثابت في فطرة الشعوب المسلمة، وفي أعماق قلوبها، وعلى رأسها الشعب المصري الذي لا يحركه شيء، كما تحركه كلمة الإيمان، وإلى التربية الإسلامية المتكاملة الطويلة المدى، العميقة الجذور، لجنود الحركة، الذين أعدهم صيام النهار، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وممارسة الذكر والفكر، والتفقه في الدين، وصفاء الأخوة في الله، ومعاناة الخشونة، والتشوق للجهاد، واعتياد البذل والتضحية في سبيل الله، لتحمل كل ما يصيبهم في ذات الله، متمثلين قوم ذلك الصحاب الذي وضعه المشركون على خشبة الصلت ليقتل:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله
وذلك في ذات الإله، وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو

وكما قال صاحب «النونية»[133] يخاطب طاغوت مصر في محنة 1954م، 1956م:

أظننت دعوتنا تموت بضربة؟ ... خابت ظنونك فهي شر ظنون
إنا لعمري إن صمتنا برهة ... فالنار في البركان ذات كمون
بليت سياطك، والعزائم لم تزل ... منا كحد الصارم المسنون
تالله ما الطغيان يهزم دعوة ... يومًا، وفي التاريخ بر يميني

---

(133) من قصيدتنا «ملحمة الابتلاء» في ديواننا «نفحات ولفحات».

ضـع فـي يـدي القيـد، ألهـب بالسـوط، ضـع عنقـي علـى
لـن تسـتطيع حصـار فكـري أو نـزع إيمـاني ونـور يقينـي
فالنور في قلبي، وقلبي في يدي ربـي، وربـي ناصـري ومعينـي
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي وأمـوت مبتسـمًا ليحيـا دينـي!

* * *

الباب الرابع
الإخوان المسلمون:
ردود على تساؤلات واتهامات

الاتهامات الظالمة.

الإخوان وتسييس الدين.

الإخوان وخط المدرسة الإصلاحية.

الإخوان والأقليات الدينية.

الإخوان والعنف.

الإخوان وإقامة الدولة المسلمة.

الإخوان والمشروع الحضاري.

الإخوان والعقيدة.

الإخوان والتصوف.

خاتمة، لماذا يعادون الإخوان؟

* * *

الاتهامات الظالمة

لا أعرف في التاريخ الحديث جماعة ظُلمت، وكيلت لهم التهم جزافًا، كما ظُلمت جماعة الإخوان، لقد ظلمت - كما يقول المثل - ظلم الحسين رضي الله عنه.

وأعجب شيء يلحظه الدارس المراقب أنها تتهم بالشيء ونقيضه في آن واحد، فيتهمها قوم بشيء ويتهمها آخرون بضده تمامًا، وهذا بدوره يسقط هذه التهم كلها، ولا يجعل لها اعتبارًا.

فهناك من يسمون «التقدميين» الذين يرمون الجماعة بالرجعية والجمود، والرجوع بالأمة إلى الوراء، والمحافظة على القديم، بل من الكاتبين في الفكر الإسلامي من يتهمهم بأنهم انتكسوا بحركة التجديد بعد الأفغاني ومحمد عبده، ومالوا بها إلى المحافظة والتزمت!

على حين نجد من المتدينين وأتباع بعض الجمعيات والاتجاهات الدينية: من يرمي الجماعة بالتحرر الزائد، والترخص في الدين، والمسايرة للتطور، ومن ينكر عليهم فتح باب الاجتهاد، والخروج عن تقليد المذاهب المتبوعة، وتبني بعض الآراء الجديدة.

وهناك من المتصوفة من يعد الجماعة من «الوهابيين» وتلامذة مدرسة الإمامين «ابن تيمية وابن القيم» ويحسبهم على «السلفيين» ويعتبرهم خصومًا لدًا للتصوف وأهله!

في حين نجد من السلفيين من يصنف الإخوان مع «الطرق الصوفية»

ويحشرهم في زمرة «القبوريين» لمجرد أن حسن البنا نشأ صوفيًا، وأنه اعتبر «التوسل» من المسائل الخلافية، وأنه خلاف في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة!

والإخوان في نظر الأحزاب السياسية والهيئات العلمانية: جماعة دينية غمست يدها في السياسة والسعي إلى الحكم، وما ينبغي لها أن تلوث نفسها بأوحال السياسة، ولا أن تدخل مع الأحزاب في الصراع من أجل الحكم.

وهي في نظر آخرين من الإسلاميين قد قصرت في خوض غمار السياسة، ولم تستغل قوتها وشعبيتها كما ينبغي في السعي إلى الحكم، وانتزاعه بالقوة أو بالقانون من أيدي الطغاة والمنحرفين الذن أفسدوا البلاد، وأذلوا العباد.

وهي في نظر الملك فاروق وحاشيته وحكوماته المتعاقبة، وعند الإقطاع والإقطاعيين: جماعة شعبية ثورية متطرفة، تعادي الملك والملكية والطبقات الارستقراطية والإقطاعية والرأسمالية المتسلطة، وتحرض الفئات الشعبية المستضعفة من الفلاحين والعمال على السادة الإقطاعيين والرأسماليين، وتعمل على قلب نظام الحكم بالقوة، وكم للإخوان من قضايا وتحقيقات سجلت ضدهم تحت هذه الدعوى.

أما في نظر الشيوعيين واليساريين وأشباههم، فهي «جماعة يمينية» محافظة، موالية للملك والإقطاع والطبقات الحاكمة المتجبرة، ولم يشفع للإخوان عند «جماعة اليسار» ما قاسوه من محن وتعذيب على يد هذه الطبقات، وما قدموه من ضحايا وشهداء على رأسهم إمام الجماعة مؤسسها

عليه رحمة الله.

والإخوان في نظر بعض الشباب الملتزمين بالعمل الإسلامي، والمنتمين لبعض الجماعات الإسلامية: متساهلون، بل مفرطون في التساهل في أمور الدين، فكثير منهم يلبسون «البدلة» ولا يقصرون الثياب، ويستعملون «الفرشاة» بدل السواك، ويحلقون لحاهم، أو يهذبونها ويأخذونها منها إن هم أطلقوها.

هذا مع أن آخرين في الصف المقابل: بعضهم من المسلمين، وبعضهم من غير المسلمين: يرمون الإخوان بالتشدد في الدين، والتصلب فيه، وأنهم لا يجارون العصر، و لا يلينون لمقتضيات التطور!

وقد اتهمت الجماعة على ألسنة أجهزة الإعلام الحكومية في عهد الملكية وعهد الثورة بالدموية والإرهاب واستعمال العنف، واستخدمت لذلك النكت والكاريكاتير، مستغلين بعض حوادث قام بها أفراد من الجماعة، بعضها كان ضد مصالح يهودية أو بريطانية في مصر، وبعضها كان تصرفًا خاصًا من بعض أفراد الجماعة مثل قتل الخازندار.

وفي مقابل هؤلاء نجد آخرين من الجماعات المنتسبة إلى الإسلام، مثل جماعة صالح سرية، وجماعة شكري مصطفى، التي أطلقوا عليها جماعة التكفير والهجرة - واسمها عند مؤسسيها: «جماعة المسلمين» - ومثلها: «جماعة الجهاد» و«الجماعة الإسلامية» في صعيد مصر: تتهم الإخوان بالضعف والاسترخاء، وخيانة مبدأ «الجهاد» الذي قامت عليه من قبل وجعلت منه شعاراتها: «الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا»

فأصبحت تؤثر المسالمة مع قوى الجاهلية، كما اتهموها بالتهاون والتفريط في حق الأعضاء، وتسليمهم لكلاب الصيد، وسلطات التعذيب بلا مقاومة ولا صدام.

ومنذ مدة قرأت كتابًا لواحد من رجال «جماعة المسلمين» أو جماعة «التكفير» هذه ينقل عن صاحبه وأميره «شكري» أنه قال في صدد حديث له عن «الإخوان»: إني أتهم بالخيانة العظمى أولئك الرجال من قادة الحركة الإسلامية، الذين قادوا رجالهم إلى التهلكة وفرطوا في أعناقهم، وأوردوهم قيعان السجون، وأسلموهم لجلاديهم وللمشانق ... إلخ، فانظر كيف يتهم الإخوان بالخيانة العظمى، لأنهم لم يقاتلوا الشرطة الذين قبضوا عليهم، وأسلموهم إلى المشانق أو السجون!

وهذا شأن الأمة الوسط أو الجماعة الوسط، والفكرة الوسط: أنها دائمًا ملومة من الطرفين المتقابلين، طرفي الإفراط والتفريط.

اتهامات الغربيين للإخوان:

وليس هذا شأن الإخوان مع الجماعات الدينية والسياسية داخل بلادنا فحسب، بل هذا شأنها مع الآخرين من الغربيين والشرقيين، واليمينيين واليساريين، والرأسماليين والشيوعيين.

يقول د. محمود أبو السعود، في مقدمة ترجمته لكتاب د. ريتشارد. ب. ميتشل عن الإخوان.

«وهل الغرب، سواء من اهتم منهم بالفكرة الدينية «المستشرقون» أم من اشتغل بالفكر السياسي: ينظرون إلى حركة الإخوان من زاوية عاطفتهم

المسيحية أو اليهودية أو الصابئة، أو من خلال مصالح الغرب الاستعمارية، وفي الحالتين نجد منهم ذلك الخوف من قيام «الدولة الإسلامية» التي دوخت الغرب قرونًا طويلة، وتدفعهم الرهبة من انتشار الدعوة الإسلامية الإخوانية، التي تؤلب عليهم ذكريات التفوق الإسلامي، ولا ينهض بهم علمهم ولا أمانتهم العلمية، حتى يسموا فوق التحيز في الحكم، أو حتى يروا الأمور على حقيقتها.

والمتصفح لكتابات هؤلاء وأمثالهم عن الإخوان يخرج بحصيلة تدعوا إلى العجب، بل كثيرًا ما تبعث في النفس الرثاء إن لم تكون السخرية، فبينما يعتبرهم اليساريون من الرجعيين الذين رفعوا شعار «العودة إلى الماضي» نرى الرأسماليين يرمونهم باليسارية والثورية، وبينما يرى فريق من كتاب الغرب أنهم فئة تقدمية خطرة على المذاهب الغربية، نجد فريقًا آخر يرميهم بالتزمت والعنف والتنظيم العسكري «أو الفاشي» ... وهكذا دواليك.

فالإخوان في نظر الشيوعيين: انتهازيون عملاء للإنجليز المستعمرين.

والإخوان في نظر المنحازين للديمقراطية الرأسمالية: اشتراكيون مقنعون أو فاشيون إرهابيون.

والإخوان في نظر الأوروبيين: دعاة إلى عودة الإمبراطورية الإسلامية البغيضة، التي تحاول أن تكره الناس حتى يكونوا مسلمين مؤمنين.

وأغرب ما سمعت في هذا الصدد: ما ذكره لي شخصيًا أحد كبار موظفي القصر في عهد الملك فاروق، إذ أبلغني أن فاروق كان يعتقد أن الإخوان

يحصلون على مدد مالي سخي ... من اليابان[134]!!

كل هذا هراء وافتراء، ولن يثبت أبدًا في التاريخ، إذ لن يسجل التاريخ مثل هذه المزاعم الباطلة، مهملًا ما تركته الدعوة الإخوانية من حركة تجاوبت أصداؤها مع قلوب ملايين من البشر، فدفعتهم إلى المطالبة بضرورة الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما زالت هذه الدعوة حية قوية تحتل الأفكار والقلوب، وتنطلق بها الألسن، وإن صدر قرار بحل هيئتها الرسمية، وصودرت أموالها، وقتل من قادتها من قتل، وعذب وشرد واضطهد منهم العدد الغفير[135].

وسنعرض في الصحائف التالية للاتهامات التي وجهت إلى الإخوان من خصومهم - على اختلاف ألوانهم من ملاحدة وعلمانيين ودينيين - ونرد عليها بالبينات التي تأتي عليها من القواعد، والله تعالى يقول: **{وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا}** [الإسراء: 81]، ويقول: **{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ}** [الرعد: 17].

* * *

(134) هو اللواء الطيار حسين عاكف، وللرجل تاريخ بطولي في حرب فلسطين وإن غاب عن الكثيرين م. أبو السعود.

(135) انظر (ص18، 19) من مقدمة أبو السعود لكتاب ميتشل. الترجمة العربية.

1 - الإخوان و«تسييس الدين»

ومن ا لتهم القديمة الجديدة التي وجهت إلى الإخوان: «سيسوا الدين» أو خلطوا الدين بالسياسة، أو أدخلوا الدين في السياسة والسياسة في الدين.

وقد قال أحد الحكام يومًا: لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين!!

وشاعت على الألسنة والأقلام في السنوات الأخيرة هذه العبارة «الإسلام السياسي» يريدون به: الإسلام الذي يدعوا إلى الحكم بما أنزل الله، وإلى تحكيم شرعه فيمن آمن به، وإلى تحرير أرض الإسلام، ومقاومة كل معتد عليها، والعمل على توحيد الأمة العربية والإسلامية - أو على الأقل - التقريب بينها، بدل أن يجافي بعضها بعضًا، أو يضرب بعضها وجوه بعض.

وحين يشرح هؤلاء - من خصوم الإخوان - مضمون «الإسلام السياسي» لا يكتفون بما ذكرنا، بل يضمونه معنى العنف والقتل العشوائي، وإرهاب الآمنين، والتعصب ضد الآخرين، والانغلاق على الماضي، والانقطاع عن الحاضر، وإغفال المستقبل.

فإذا اعترفت بأن السياسة جزء من الإسلام إذا استمدت منه، وسارت في ضوئه: ألزموك بما لم تلتزم به، وحكموا عليك بأنك من أنصار العنف والإرهاب والدموية.

وأحب أن أقول هنا: إن الإخوان ليسوا هم الذين «سيسوا الدين» بل شارع هذا الدين - وهو الله جل جلاله - هو الذي «سيسه» حين شرع فيه من الأحكام ما يتعلق بالسياسة.

وأخبرني بربك: في أي باب نحسب هاتين الآيتين من كتاب الله إذا لم نحسبهما في السياسة: **{إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا 58 يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ}** [النساء: 58، 59].

إن الإمام ابن تيمية جعل هاتين الآيتين محور لكتابه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية».

وبعده جاءت جملة آيات توجب الاحتكام إلى الله تعالى ورسوله، ختمت بقوله تعالى: **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا}** [النساء: 65].

ومثلها في سورة النور، حيث يقول تعالى: **{وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...}** إلى أن يقول: **{إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ}** [النور: 51].

أوليست هذه الآيات وأمثالها في صميم السياسة، بل أصول السياسة، لأنها تتعلق بتحديد «المرجعية» العليا للأمة والدولة.

وماذا يقول هؤلاء الذين «يلتون ويعجنون» عن تسيس الدين في هذه الآيات من سورة المائدة: **{وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ... وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ... وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ}** [الآيات: 44، 45، 47].

سيقولون: إنها نزلت في أهل الكتاب، في شأن تحكيم التوراة والإنجيل، ونقول لهم: نعم هي كذلك، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم هل ما أنزل الله على المسلمين دون ما أنزل على أهل الكتاب، حتى إذا تركوا الحكم بما أنزل عليهم كانوا كافرين أو ظالمين أو فاسقين، وإذا ترك المسلمون الحكم بما أنزل عليهم من القرآن، لم يوصفوا بكفر ولا ظلم ولا فسوق؟

أو: هل يكيل الله سبحانه بكيلين، فإذا ترك أهل التوراة والإنجيل كتابهم حكم عليهم بما ذكر، وإذا ترك المسلمون قرآنهم لم يحكم عليهم بما حكم على من قبلهم، فاين عدل الله على الناس؟!

وقد رددنا على ذلك في كتبنا الأخرى بما يقطع كل شك[136].

من قرأ القرآن وجد فيه كثيرًا من الآيات التي تتعلق بالسياسة الداخلية، والسياسة الخارجية، والعلاقة بالآخرين في حالة الحرب، وفي حالة السلم، وهذا لا يخفى على من له أدنى إلمام بالقرآن الكريم، وقد رأينا القرآن المكي يربط المسلمين - وهم قلة مستضعفة في مكة - بالصراع السياسي والعسكري العالمي من حولهم، صراع الدولتين الكبريين اللتين تتنازعان السيادة على العالم: دولة الفرس في الشرق، ودولة الروم البيزنطية في الغرب، ويتدخل في الجدل الذي دار بين المشركين والمسلمين حول المستقبل، ولمن يكون النصر في النهاية، فقد كان المسلمون ينتصرون للروم، ويؤمنون بأن الغلبة لهم باعتبارهم نصارى أهل كتاب، فهم أقرب إليهم، وكان المشركون

---

(136) نظر كتابنا «من فقه الدولة في الإسلام» (ج2 / 697 - 714).

ينتصرون للفرس، لأنهم مجوس يعبدون النار، فهم أقرب إلى عبدة الأوثان.

ونزل القرآن يؤيد المسلمين في الآيات الأولى من سورة الروم: **{الٓمٓ 1 غُلِبَتِ ٱلرُّومُ 2 فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ 3 فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ 4 بِنَصۡرِ ٱللَّهِ}** [الروم: 1 - 5].

ومن قرأن السنة النبوية وجد فيها ذلك بتفصيل أكثر، كما وجد ذلك واضحًا في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام العملية، فقد كان هو الإمام الأعظم، كما كان القاضي الأحكم، والمفتي الأعلم، على حد تعبير الإمام القرافي رحمه الله .

و «الإمام الأعظم» يعني الرئيس الأعلى للدولة، وقد كان هو ذلك بلا نزاع، فلم يكن بجوار ملك أو أمير يدير أمور السياسة، على حين يتفرغ هو لشئون الدين والدعوة، بل كانت الدعوة والدولة في يديه، كان هو الذي يؤم الناس في الصلاة، ويقودهم في الحرب وفي السلم، ويعقد المعاهدات ويلقى الوفود، ويعين الولاة والقضاة والمعلمين، ويبعثهم إلى البلاد التي دخلت في الإسلام.

ومن المعروف في فقه السياسة الشرعية: أن هناك نوعًا من التصرفات النبوية يطلق عليها الفقهاء أنها «تصرف بمقتضى الإمامة» أي بمقتضى الرئاسة العليا للدولة.

وهذه ليست مثل التصرفات التي تكون بمقتضى التبليغ عن الله تعالى، وهذه كما قالوا في حديث: «**من أحيا أرضًا ميتة فهي له**»(137) إذ قال أبو

---

(137) رواه الترمذي عن جابر، وأحمد وأبو داود والترمذي والضياء عن سعيد بن زيد،

حنيفة ومن وافقه: هذا قاله بمقتضى إمامته، فلا يملك أحد أرضًا أحياها إلا بإذن الإمام(138).

وقرر الفقهاء في جميع المذاهب أن الشريعة حاكمة على جميع أفعال المكلفين، لا يخرج فعل منها - في أي مجال كان - عن دائرة الشريعة، إذ لا بد أن تعطيه حكمًا من الأحكام الشرعية الخمسة المعروفة.

والقرآن يؤكد هذه الشمولية حين يقول خطابًا للرسول: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ}** [النحل: 89].

ويقول في ختام سورة يوسف: **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** [يوسف: 111].

حتى قال ابن عباس ترجمان القرآن: لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله!

فإذا كان الإنجيل يقول: «دع ما لقيصر وما لله لله» فإن القرآن يجعل قيصرًا وما لقيصر لله الواحد الأحد **{قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ}** [آل عمران: 154] فللَّه ما في السموات وما في الأرض، ومن في السماوات ومن في الأرض، وهو الحاكم الأعلى لخلقه، هو وحده الذي من حقه أن يأمرهم وينهاهم، ويحل لهم ويحرم عليهم، ومن واجبهم أن يطيعوه طاعة مطلقة تمثل عبوديتهم له،

وذكره الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (5975، 5976).

(138) انظر: بحثنا عن «الجانب التشريعي في السنة» في كتابنا «السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة» نشر دار الشرق بالقاهرة.

وانقيادهم لأمره.

ولقد قرر الأصوليون: أن «الدين» هو إحدى الضروريات الخمس أو الست، التي قام عليها بنيان التكاليف الشرعية وهي: الدين والنفس والنسل والعقل والمال ... وزاد بعضهم: العرض.

فالذين يريدون أن يحصروا الإسلام في «الدين» وحده ينسون هذه الحقيقة التي أجمع عليها الأصوليون.

إن «شمولية الإسلام» ليست من ابتداع الإخوان، بل هي ما قرره القرآن والسنة وأجمعت عليه الأمة، وتأسست عليها ثقافة وحضارة، وامتد به تاريخ وتراث.

وكل المصلحين الكبار الذين سطعت نجومهم في آفاق الأمة، وحاولوا النهوض بها في العصر الحديث، كلهم أدخلوا السياسة في الدين والدين في السياسة: محمد عبد الوهاب، والسنوسي، والمهدي، والأمير عبد القادر، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وابن باديس، وغيرهم، كلهم نظروا إلى الإسلام تلك النظرة الشاملة التي لا تفرق بين دين وسياسة، فهم جميعًا مشتركون في «تسييس الدين».

فليس حسن البنا بدعًا في المصلحين، ولا دعوته بدعًا في دعوات الإصلاح والتجديد.

والحاكم الذي أعلن أن لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة، كثيرًا ما رأيناه، وسمعناه، يتحدث باسم الدين، تأييدًا لسياسته، ويطلب من علماء الدين إصدار الفتاوى تبريرًا لموقفه.

والمتزمون بالإسلام شأنهم شأن سائر المواطنين، من حقهم أن يمارسوا السياسة وفق معتقداتهم ومفاهيمهم، ولا يجوز أن يحرموا منها لمجرد أنهم متدينون.

إن المسلم يستطيع أن يدخل في أعماق السياسة وهو مستغرق في عبادته لربه، وهذا ما نشاهده فيما يسمى «قنوت النوازل» فيجوز للمسلم أن يدعو في صلاته على الصهاينة المعتدين على فلسطين، وعلى الصرب المعتدين على البوسنة والهرسك أو كوسوفا، أو على غيرهم ممن يعتدي على حرمات المسلمين.

كما أن المسلم يمكنه أن يقرأ من القرآن ما يشتمل على آيات في ميادين الحياة المختلفة كالجهاد وإقامة العدل، والحكم بما أنزل الله، وغيرها، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه في قليل أو كثير.

وبهذا تسقط تهمة «تسييس الدين» عن الإخوان كما تسقط غيرها من التهم **{قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا}** [الإسراء: 81].

* * *

2 - الإخوان وخط المدرسة الإصلاحية

ومن التهم العجيبة التي وجهت إلى الإخوان من بعض المشتغلين بالفكر: أنهم خرجوا عن خط مدرسة الإصلاح والتجديد الإسلامية، التي مثلها جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وكانت تمثل العقلانية الإسلامية المتفتحة على العصر، التي لا تقف عند حرفية النصوص، ولكن تعمل فيها التأويل، فتوازن بين النص والمصلحة، أو بين النقل والعقل، أو بين الشريعة والحكمة كما عبر ابن رشد.

والحق أن الإخوان لن يخرجوا عن خط هذه المدرسة، في الإصلاح والتجديد، والتوفيق بين صحيح المنقول وصريح المعقول، والموازنة بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية للشريعة، مستفيدين من كل قديم نافع، ومرحبين بكل جديد صالح.

ولكن ينبغي أن نلاحظ: أن هذه المدرسة الإصلاحية قد تطورت في تفكيرها ومفاهيمها وتوجهاتها، فكانت في أول أمرها تدعو إلى فلسفة عامة تتلخص في الثورة على الاستعمار وأعوانه من طغاة الحكام، وعلى تفرق الكلمة التي مزق الأمة الواحدة، ولهذا كان عنوان هذه المدرسة أو شعارها في مرحلتها الأولى «الجامعة الإسلامية».

وكان هذا مناسبًا للرجل الأول في هذه المدرسة، وهو جمال الدين الأفغاني الذي كان أقرب إلى الفيلسوف أو رجل الحكم والسياسة منه إلى عالم الشريعة.

فلما كان تلميذه الشيخ الإمام محمد عبده - العالم الأزهري المتمكن - بدأت المدرسة تتضح معالمها الشرعية أكثر، وتستبين سماتها وملامحها، بثقافة الشيخ محمد عبده الشرعية المستنيرة، التي تنزع نزعة عقلية، وكأنها تجمع بين محافظة الأشاعرة وتحرير المعتزلة، وكان الشيخ المصري أميل من أستاذه الأفغاني إلى التنوير العقلي، منه إلى التغيير السياسي.

ثم جاء تلميذ الشيخ عبده: العلامة الإمام محمد رشيد رضا، فضم إلى علم شيخه علوم أهل الأثر، ولا سيما علم الإمامين المجددين: ابن تيمية وابن القيم، وتبحر الشيخ في علوم السنة، وفقه السلف، ومعارف العصر، وبهذا أخذت مدرسة الإصلاح في «الانضباط» أكثر وأكثر، وأصبحت ترجع إلى الأدلة الشرعية في كل قضية، وتوازن بينها في غير تعصب ولا جمود، وتنتهي إلى الرأي الذي يجمع بين السلفية والتحديد حقًا.

والشيخ حسن البنا مشى على نهج الشيخ رشيد، واقتفى أثره، وإن بدا في بعض الأحيان أقر إلى التشدد، كما في قضايا المرأة والشورى والتعددية ونحوها. ولا ننسى أن «المدرسة العقلية» التي يمثلها الشيخ جمال الدين، والشيخ محمد عبده ممتهمة عند جمهور أهل العلم من المسلمين بالنبهار بالحضارة الغربية إلى حد الإسراف في تأويل النصوص القطعية، مسايرة للفكر الغربي.

والمنصف يرى ذلك بينًا في كلام الشيخ محمد عبده عن قصة آدم وعن الملائكة في سورة البقرة، وعن الطير ا لأبابيل في سورة الفيل، وهو تأويل غير سائغ، حتى إن الدكتور طه حسين أنكر تأويل الطير الأبابيل بميكروبات مرض الجدري وما شابه ذلك، لبعده عن النسق القرآن، والأسلوب العربي.

ومن العدل أن نقول: إن الشيخ رشيد - وإن نقل ذلك عن شيخه - لم يتبنه ولم يدافع عنه أو يؤيده.

وربما رأى بعض أهل الفكر أن الشيخ جمال الدين كان أكثر تحررًا من الشيخ محمد عبده، وأن الشيخ محمد عبده كان أكثر تحررًا من الشيخ رشيد، وأن الشيخ رشيد كان أكثر تحررًا من الشيخ البنا.

وقد يكون هذا صحيحًا، وربما عبر عن هذا بتعبير آخر، وهي أن الشيخ محمد عبده كان أقرب إلى الانضباط بأصول الشرع من شيخه الأفغاني، وكذلك كان الشيخ رشيد رضا بالنسبة لشيخه محمد عبده، وكذلك الشيخ البنا بالسنبة لشيخه رضا.

وهذه أمور نسبية قد تختلف من شيخ إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، ومن عصر إلى آخر، ولكن المهم أن روح هذه المدرسة قائم، وهو الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، وبين النقل الصحيح والعقل الصريح، وبين النص الجزئي والمقصد الكلي للشريعة، وأنها تستلهم الماضي، وتعايش الحاضر، وتستشرف المستقبل.

كما أن دعوة البنا لم تكون مقصورة على «النخبة» بل كان من مزاياها أنها تخاطب كل الشعب بكل فئاته، ومن ا لخاصة والعامة، والنخب والجماهير، وربما كانت الجماهير فيها أوضح، كما بين ذلك د. إسحاق الحسيني في دراسته عن الإخوان.

ولا ننسى أن الأستاذ البنا قد توفي، وهو ابن الثالثة والأربعين، وكان عقله مرنًا متفتحًا، قابلًا للتجدد والتطور، ولم يكن رحمه الله جامدًا ولا منغلقًا، كما

يبدو من تراثه ومن مواقفه المختلفة، ولقد بدأ صوفيًا، وانتهى أقر إلى السلفية، أو انتهى إلى «صوفية متسلفة» أو «سلفية متصوفة».

وكذلك بدأ بالعموميات، ثم بدأ في أواخر حياته بالخوض في بعض التفصيلات، كما في كتابه «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» ففيه عرض لنظام الحكم ونظام الاقتصاد وغيرهما.

وأستطيع أن أقول: إن روح مدرسة البنا هي الوسطية التي تقوم على التكامل والتوازن والاعتدال، دون غلو ولا تفريط، ولا طغيان ولا إخسار، كما في قول الله تعالى: **{أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ 8 وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ}** [الرحمن: 8، 9].

إن الإمام حسن البنا أنشأ هذه المدرسة الفكرية الحركية ا لدعوية، ولكنه لم يجمدها، ولم يحنطها، ولم يحجر على أحد من أبنائها أن يجتهد، وأن يبدع، وإن خالفه في اجتهاده، فلم يدع هو لآرائه وأفكاره القداسة أو العصمة، بل قال في الأصل السادس من أصوله العشرين التي جعلها أساسًا لوحدة الفهم عند العاملين لخدمة الإسلام: «كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم، موافقًا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص ـ فيما اختلف فيه ـ بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا»[139].

فإذا كان يسعنا أن نخالف السلف على فضلهم، فخلافنا للخلف مقبول

---

(139) رسالة «التعاليم» (ص257) من مجموع الرسائل.

وللمحدثين والمعاصرين أولى.

ومدرسة حسن البنا تسع ا لمختلفين من أهل الفكر، وإن كان بعضهم أقرب من بعض إلى الخط الأصلي للحركة، وبعضهم أبعد.

فلا عجب أن وجدنا في مصر وفي غيرها من الأقطار العربية مفكرين متفاوتين فيما بينهم في التوسعة والتضييق، وفي المرونة والتشديد، مثل محمد الغزالي وسيد قطب في مصر، ومصطفى السباعي وسعيد حوى في سوريا، وحسن الترابي ومعارضيه في السودان، وراشد الغنوشي ومعارضيه في تونس، وغيرهم وغيرهم.

وأنا شخصيًا قد اجتهد في قضايا لم ألتزم فيها تمامًا برأي الإمام البنا، وأنا أعلم أنه ستقر عينيه بذلك، فقد كان يسره أن يرى أتباعه أحرارًا يفكرون ويجدون، لا أسارى أو عبيدًا يقلدون.

وعلى هذا الأساس اجتهدت في قضايا الديمقراطية والتعددية وترشيح المرأة للمجالس النيابية، والتعامل مع غير المسلمين، وغيرها: اجتهادات قد تخالف اجتهاد إمامنا الشهيد، وأحسب - والعلم عند الله - أنه لو امتد به العمر، وعايش ما عايشنا لغير اجتهاده في كثير من القضايا، كما قال أصحاب أبي حنيفة في بعض ما خالفوا فيه إمامهم: لو عاش حتى رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا، لقال بمثل ما قلنا! وأحمد الله تعالى أن جماعة الإخوان قد تبنت في سنواتها الأخيرة كثيرًا من المفاهيم والآراء التي اجتهدت فيها، وناديت بها، مثل قضية التعددية والمرأة، وصدر عن مكتب الإرشاد للإخوان بيانان أو قراران واضحان في ذلك، يمكن مراجعتها في ملاحق هذا الكتاب.

وقد قال ذلك الأستاذ البنا في الأصل الخامس من أصوله العشرين حول العمل برأي الإمام «ولي الأمر» ومجالاته وشروطه، وأكد أنه قد يتغير بتغير الظروف والأوضاع، شأن كل رأي أو اجتهاد بشري، لا بد أن يتأثر بالزمان وبالمكان ومجال الإنسان، حتى قالت مجلة الأحكالم العدلية في إحدى موادها: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان(140).

وقد تحدث الأستاذ البنا في بعض رسائله عن سعة التشريع الإسلامي، وإن الإسلام وضع من القواعد الكلية، ما يترك للمسلم بابًا واسعًا في الانتفاع بكل تشريع نافع مفيد، ولا يتعارض مع أصول الإسلام ومقاصده، وأثاب على الاجتهاد بشروطه، وقرر قاعدة المصالح المرسلة، واعتبر العرف، واحترم رأي الإمام(141).

بل نقرأ في رسائل الإمام البنا هذه الكلمات الرائعة، المعبرة عن فقه عميق لرسالة الإسلام، يتجاوز مؤثرات الزمان والمكان، ولا يحصر الإسلام في فهم عصر معين أو بيئة معينة، فنحجر بذلك ما وسع الله، ونعسر ما يسر الدين.

يقول رحمه الله في «رسالة المؤتمر الخامس»(142) الشهيرة:

---

(140) انظر: كتابنا «السياسة الشرعية» حول أسس ومرتكزات السياسة الشرعية، فصل: «فقه الواقع» نشر مكتبة وهبة.

(141) من رسالة «في مؤتمر طلبة الإخوان» (ص165) من مجموع الرسائل، وانظر: كتابنا «السياسة الشرعية» حول المصلحة المرسلة، واعتبار رأي الإمام وتغيره بتغير الظروف.

(142) (ص120، 121) من مجموع الرسائل.

«يعتقد الإخوان المسلمون: أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو: كتاب الله تتت، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، اللذان إن تمسكت بهما الأمة، فلن تضل أبدًا، وأن كثيرًا من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام، وتلونت بلونه: تحمل لون العصور التي أوجدتها، والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن نستقي النظم الإسلامية، التي تُحمل عليها الأمة، من هذا المعين الصافي، معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية، حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا الله به، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جميعًا». اهـ.

هذه فقرة تعبر أبلغ التعبير وأصدقه عن توجه حسن البنا، وسعة أفقه، وعمق فهمه لدينه، وأن النظم الإسلامية التي تحمل عليها الأمة في عصرنا، يجب ألا نستقيها من فقه عصر معين أو بلد معين، أو مذهب معين، أو كتاب معين، أو مدرسة معينة من مدارس الفقه أو الفكر، بل استقاؤها من «معين السهولة الأولى» على حد تعبير الأستاذ: أي من نصوص القرآن والسنة، كما كان يفهمها الصحابة والتابعون، وقد كانوا أفقه الناس لمقاصد الشريعة وروح الإسلام، وأكثر الناس تيسيرًا على عباد الله، وأبعدهم عن التشديد والتعقيد والتعسير، مع وجوب الاستفادة من فقه كل العصور، وكل البلدان، وكل المذاهب والمدارس، دون تعصب، ولا التزام بما لم يلزمنا الله به.

اعتراف ونقد ذاتي:

ولا أنكر أن في حركة الإخوان في بعض الأحيان، وفي بعض الأقطار، ولدى بعض الأفراد والقيادات أحيانًا: ميلًا إلى التشدد، تأثرًا بالمدارس

الأخرى التي لها وجود في الساحة الإسلامية، ويظهر هذا في الإبقاء على القديم، ومقاومة التجديد، أو الميل إلى الآراء المتشددة، التي تنظر إلى النصوص الجزئية، وتغفل المقاصد الكلية، أو التي تأخذ دائمًا بالأحوط، ولا تأخذ بالأيسر، رغم حاجة الناس إليه، ولكن هؤلاء لا يمثلون - اليوم - التيار الغالب في الحركة.

وهذا ما دعاني في بعض كتبي[143]: أن أتحدث عن ضرورة التجديد، وشرعيته، حتى يحق الحق، ويزهق الباطل.

ولا بأس أن أقتبس بعض ما كتبته هنا، لما فيه من دلالة على وجود التجدد والنقد الذاتي في مسيرة الإخوان، وقبول الفكر العام في جماعة الإخوان لهذا النقد البناء، ولا ريب أن ذلك يعتبر ظاهرة صحية[144].

الإسلام أقر شرعية التجديد:

لا يقال هنا: إن الحركة إسلامية المصدر والوجهة والأهداف والمبادئ، والإسلام واحد لا يتعدد، ثابت لا يتجدد.

لأننا نقول أولا: إن الإسلام نفسه قد أقر شرعية التجديد بما جاء في الحديث الذي رواه أبوداود والحاكم وغيره وصححه الأئمة الثقات: «**إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**».

---

(143) انظر: كتابنا «أولويات الحركة الإسلامية» (ص101 - 106) نشر مكتبة وهبة.

(144) يؤكد ذلك: أن الإخوان قرروا دراسة هذا الكتاب في مناهجهم التربوية والثقافية على جميع المستويات، كما أخبرني الثقات. انظر كتابنا «من أجل صحوة راشدة» طبع دار الوفاء بمصر، والمكتب الإسلامي ببيروت.

فالتجديد مشروع ثابت وواقع بالنص، وليس بعد بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان، فلا ينبغي أن نخاف من كلمة التجديد في الدين، بعد أن صح بها الحديث، إنما الذي ينبغي هنا أن نحدد معنى «التجديد» حتى لا يتلاعب المتلاعبون بالدين وحقائقه باسم تجديدهم المزعوم، وما هم من التجديد في كثير ولا قليل.

وقد بينت في دراسة لي حول هذا الحديث الشريف: المراد بـ «التجديد» وجوانبه ومن يقوم به.

وخلاصة القول فيه: أن تجديد شيء ما لا يعني إزالته، واستحداث شيء آخر مكانه، بل تجديده يعني إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى يوم ظهر لأول مرة، والمحافظة كل المحافظة على جوهره وخصائصه ومعالمه، وعدم المساس بها.

وهذا ينطبق على الماديات والمعنويات، فتجديد بناء أثري، قصر أو معبد أو مسجد، لا يعني هدمه وبناء آخر مكانه على أحدث طراز، بل إبقاءه والحرص على إرجاعه إلى صورته الأولى ما أمكن ذلك، فهذا هو التجديد الحقيقي.

وتجديد الدين يشمل تجديد الفهم والفقه فيه، وهذا تجديد فكري، كما يشمل تجديد الإيمان به، وهذا تجديد روحي، وتجديد العمل له والدعوة إليه، وهذا تجديد عملي.

وكل عصر يحتاج إلى تجديد يناسبه، ليجبر القصور، ويستكمل النواقص ويعالج الأدواء.

على أن هناك منطقة لا يدخلها تجديد بحال، وهي منطقة «القطعيات» التي قال فيها الإسلام كلمته البينة الحاسمة، سواء في مجال العقائد أم العبادات، أم الأخلاق، أم التشريع، وهي تمثل «الثوابت» التي تجسد الوحدة العقدية والفكرية والشعورية والسلوكية للأمة المسلمة.

وقد شرحت ذلك في كتب أخرى فليرجع إليها[145].

ضرورة التجديد في الوسائل:

ونقول ثانيًا: إن الحركة - وإن كانت إسلامية المصدر والوجهة والأهداف والمبادئ - تتخذ من المناهج والوسائل والأنظمة الاجتهادية ما تراه أصلح لخدمة دينها والتمكين له في الأرض، حسبما يقتضيه الزمان والمكان والحال.

فهذه المناهج والوسائل والأنظمة ليست خالدة خلود الإسلام نفسه، وليس لها ثبات ا لمبادئ والأصول الإسلامية، بل هي أدوات أثمرها الاجتهاد البشري لإحياء الإسلام وتجديده في ا لأنفس والحياة، وهي قابلة للتطعيم والاقتباس من خير ما عند الآخرين، كما هي قابلة للتطور والتغير.

والإمام حسن البنا الذي وضع القواعد الأولى للعمل الحركي المنظم لتجديد الإسلام، لم يدع العصمة لنفسه ولا الخلود لوسائله التي ألهمه الله

---

(145) انظر على سبيل المثال: فصل «معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قويم» من كتابنا «الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط»، وفصل «الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة» وهو حوار أجراه مع المؤلف حسن علي دبا، ونشر في مجلة «الأمة» العدد (45) تم ضمه مع حوار: كتاب «الأمة» فقه الدعوة ... ملامح وآفاق (ج2 / 147 - 188) للأستاذ عمر عبيد حسنة، وكتابنا «الفتوى بين الانضباط والتسيب».

الاهتداء إليها، وهي وسائل بالغة الروعة والقوة، وحق للشهيد سيد قطب أن يسميها «عبقرة البناء»، وحق للمرشد الموفق الأستاذ عمر التلمساني أن يسميه «القائد الملهم الموهوب»، وحق لشيخنا الغزالي أن يصفه بأنه «مجدد القرن الرابع عشر الهجري»، ومع هذا يجب أن تخضع هذه الوسائل والأنظمة للتقويم ما بين الحين والحين، كما يفعل رجال التربية في مناهجهم التي يقررونها، ويؤلفون الكتب في ضوئها، ثم لا تمر سنوات حتى يعيدوا النظر فيها، بالإضافة أو الحذف أو التحوير والتعديل، وهذا أمر لازم لكل عمل بشري مهما بلغ من الدقة والإتقان.

حسن البنا لم يكن جامدًا:

وحسن البنا نفسه لم يكن جامدًا، بل كان دائم التجديد والتطوير للوسائل والأساليب في أبنية الحركة ومؤسساتها وأنظمتها.

ولن يضيق الشهيد حسن البنا في قبره إذا خالفه بعض أبنائه وأتباعه في قضية من القضايا التي كان له فيها رأي من قبل، مثل ما ذكرته من اجتهادات، قد لا يوافق ظاهرها ما ذهب إليه رحمه الله .

وكذلك إذا أضاف إلى أصوله ما يرى أنه مكمل لها، كما فعل الشيخ الغزالي في شرحه للأصول العشرين في كتابه الذي سماه «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين».

ولا يوجد مانع شرعي ولا عرفي ولا عقلي من إعادة البحث في الوسائل والأنظمة التربوية داخل الجماعة، مثل نظام الأسرة والكتيبة، وما يمكن أن يطعم به، أو يضاف إليه، أو يحذف منه.

وكذلك البحث في الوسائل السياسية في ضوء المستجدات والمتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية، وما تقضي به من دخول في جبهات أو مخالفات، أو مهادنات أو مشاركات، حسبما توجبه المصلحة العليا للإسلام، وللأمة وللحركة، وفي ظل الظروف الآنية والموضعية الحاكمة، فلكل قطر ظروفه، ولكل مرحلة حكمها، ولكل مجموعة قدراتها وضروراتها وملابساتها، التي هي أدرى بها من غيرها.

والحركة هنا - مثلها كمثل الفقه وغيره من علوم الشريعة - لا تحيا وتنمو وتزدهر إلا بفكر المجتهدين، ولا تذوي وتنكمش وتعقم إلا بفكر المقلدين الجامدين، إن صح أن ما عندهم يسمى «فكرًا».

الجمود آفة خطرة:

إن الجمود آفة من آفات الفكر الحركي «المؤطر» وهو عائق من العوائق الداخلية في الحركة الإسلامية، كما بينت ذلك في كتابي «الحل الإسلامي فريضة وضرورة»[146] كما أكدت ذلك في رسالتي «أين الخلل؟».

الجمود على شكل معين في التنظيم، وعلى وسائل معينة في التربية، وعلى صورة معينة في الدعوة، وعلى مراحل معينة في الوصول إلى الهدف، وعلى أفكار معينة في السياسة ... ومن حاول أن يغير من هذا الشكل أو تلك الوسيلة، أو هذه الصورة أو تلك المراحل، أو تلك الأفكار، أو يعدل فيها بالزيادة والنقص، قوبل بالرفض الشديد، أو الاتهام والتنديد.

---

(146) انظر: «الحل الإسلامي» (ص249 - 251) نشر مكتبة وهبة بمصر ومؤسسة الرسالة في بيروت.

ولا زلت أؤكد أن التجديد الذي نريده لا يعني إلغاء القديم، بل تطويره وتحسينه وتحديثه والإضافة إليه، وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والأدوات والكيفيات، فهي أمور مرنة قابلة للتطوير والتحويل، والاستفادة من إمكانات العصر، ومما عند الآخرين، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، ولا يعني هذا أن نفتعل التجديد، ونحن في غير حاجة إليه، إلا التظاهر الزائف بأننا من أنصار التجديد!!

ما أخشاه على الحركة الإسلامية:

ولقد قلت في هذا المقام معبرًا عن خشيتي على الحركة من الجمود:

إن أخشى ما أخشاه على الحركة الإسلامية أن تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها وأن تغلق النوافذ في وجه التجديد والاجتهاد، وتقف عند لون واحد من التفكير لا يقبل وجهة نظر أخرى، تحمل رأيًا مخالفًا في ترتيب الأهداف، أو في تحديد الوسائل، أو في تعيين المراحل، أو في تقويم الأحداث والمواقف، أو في تقدير الرجال والأشخاص، أو في غير ذلك، مما يدخل في دائرة الاجتهاد البشري، الذي من شأنه أن يتطور ويتغير بتغير العوامل والمؤثرات، وقديمًا قال فقهاؤنا: يجب أن تتغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد.

وعندئذ تتسرب الكفايات العقلية القادرة على التجديد والابتكار، من بين صفوف الحركة، كما يتسرب الماء من بين الأصابع، ولا يبقى في النهاية إلا المحافظون المقلدون الذين يحبون أن يبقى كل قديم على قدمه، وأن ما نعرفه خير مما لا نعرفه، وما جربناه أفضل مما لم نجربه.

ونتيجة هذا: أن تحرم الحركة من ثمرات العقول الكبيرة من أبنائها، وأن تصاب في النهاية بالجمود، أو العقم الذي أصاب الفقه والأدب في عصور التقليد، وأن يتقوقع هؤلاء على ذواتهم يأسًا من أي عمل مثمر للإسلام، أو يعملون فرادى نافضين أيديهم من جدوى أي عمل جماعي، أو يحاولون مع آخرين خوض تجربة جماعية أخرى لا تدري عواقبها.

إن من أهم ما أضر بالعقل المسلم قديمًا، وأضر به حديثًا، شيوع تلك المقولة التي تقول: ما ترك الأول للآخر شيئًا! وليس في الإمكان أبدع مما كان!

ولا ينفع العقل المسلم شيء مثل شيوع الفكرة المضادة التي تقول أبدًا: كم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع مما كان[147] **{وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [النحل: 8].

تطور محمود:

ولقد رأيت الإخوان في السنوات الأخيرة، يعقدون حلقات، ويقيمون ندوات فيما بينهم، لتقويم أداء الجماعة، ومراجعة مسيرتها، والاجتهاد في معرفة نقاط الضعف في ذلك للعمل على تلافيها، وعلاج أسبابها، ومعرفة نقاط القوة، للاستزادة منها، وهو لون إيجابي من النقد الذاتي أو محاسبة النفس، التي أمر بها الإسلام.

كما أنشأوا مراكز للبحوث والدراسات، يقوم عليها شباب متطلع طموح، نرجو لها غدًا مشرقًا بإذن الله.

---

(147) انظر: كتابنا «أولويات الحركة الإسلامية» (ص101 - 106).

وهذا بلا ريب تطور محمود، وهو ما يؤمل من جماعة كبيرة مثل الإخوان، لها امتداد في أكثر من سبعين بلدًا في العالم.

ولقد رأينا قيادة الإخوان تصدر قرارات متميزة، تعبر عن هذا التطور، وتبتعد عن الحرفية والجمود على القديم، وخصوصًا ما يتعلق بالمرأة، وبالتعددية السياسية، خلافًا لما يظن أنه خلاف رأي الإمام البنا عليه رحمة الله.

* * *

3 - الإخوان والأقليات الدينية

ومن التهم التي قد يشوش بها مشوشون: دعوى أن الإخوان متعصبون ضد الأقليات الدينية، وأنهم لا يعطونهم حق المواطنة كالمسلمين، مع أنهم من أهل البلاد الأصليين، وأنهم يطالبونهم بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون، ولا يبدأونهم بالسلام، وإذا لقوهم في الطريق اضطروهم إلى أضيقه، وأنهم يمنعونهم من وظائف الدولة، ولا سيما من الوظائف العسكرية في الجيش أو في الشرطة ... إلخ.

ونقول لهؤلاء: لا ريب أن الإسلام قد أقر تعدد الأديان، وجعل ذلك واقعًا بمشيئة الله تعالى، ولو شاء لجمع الناس على الهدى، كما أن حساب الضالين على ضلالهم إنما موعده يوم القيامة، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كونوا فيه يختلفون.

ومع هذا جعل الإسلام لليهود والنصارى منزلة خاصة، وسماهما «أهل الكتاب» أي التوراة والإنجيل، وإن حرفا وبدلا، ولكن يظل هؤلاء أهل دين سماوي في الأصل، يؤمنون - بالجملة - بالله، ويؤمنون برسله، ويؤمنون بالآخرة، ويتعبدون لله، ويعترفون بالقيم الأخلاقية.

فلا غرو أن أباح الإسلام مؤاكلتهم ومصارهتهم حين قال القرآن: **{وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ}** [المائدة: 5].

وبهذا ارتقى الإسلام إلى أفق في التسامح لم يسمُ إليه أحد من قبل، وأجاز

للمسلم أن تكون زوجته وربة بيته، وشريكة حياته، وأم أولاده: كتابية، ومعنى هذا: أن يكون أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم وأولادهم كتابيين، ولهم حقوق أولي القربى وصلة الرحم.

واعتبر النصارى أقرب مودة للمسلمين من اليهود الذين وقفوا ـ للأسف ـ موقف العداوة والمحاربة للدعوة الإسلامية ولنبيها عليه الصلاة والسلام.

ولذا دخلت بلاد مسيحية كاملة في الإسلام ولم يدخل إلا أفراد قلائل من اليهود في الإسلام.

ثم إن أهل الذمة من أهل الكتاب هلم حقوق أخص وأعمق من غيرهم، بوصفهم من «أهل دار الإسلام».

ثم كانت الوصية بالأقباط أكثر من غيرهم في عدة أحاديث صحيحة ... منها حديث أم سلمة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته فقال: **«الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله»**[148].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر مرفوعًا: «**إنكم ستفتحون مصر، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما**»، وفي رواية: «**ذمة وصهرا**» قال العلماء: الرحم: أن هاجر أم إسماعيل منهم، والصهر: أن مارية أم إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم منهم.

وكان الأستاذ البنا يعي تعاليم الإسلام جيدًا في ذلك، ويتعامل مع الأقباط

(148) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (10 / 62) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

بروح التسامح الإسلامي الأصيل، الذي يصدر عن العقيدة لا عن النفاق السياسي، الذي يظهر غير ما يبطن.

ولقد كان في اللجنة السياسية للإخوان بعض الأقباط المعروفين من رجال السياسة المحنكين.

ولا زلت أذكر حينما حضر الإمام البنا إلى مدينة طنطا لعقد المؤتمر الوطني الكبير «بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية» لشرح الأهداف والمطالب القومية، وقد عقد مثل هذا المؤتمر في عواصم المديريات «المحافظات» في مصر، كان يصطحب معه أحد الأقباط المتخصصين، ليتحدث في قضية «قناة السويس» واسمه ناصف ميخائيل، وذلك ليؤكد معنى التضامن الوطني بين الأغلبية المسلمة والأقلية القبطية، وأن مصر لهم جميعًا.

ولقد سئل حسن البنا عن مسألة الجزية، فقال: إن مسألة الجزية أصبحت اليوم غير ذات موضوع ما دام كل المواطنين ينخرطون في الخدمة العسكرية، ويدافعون عن الوطن، سواء بسواء، وقد كان المسلمون قديمًا هم الذين يدفعون ضريبة الدم، فعلى الآخرين أن يدفعوا ضريبة المال.

يريد الأستاذ أن يقول ما قاله بعض الفقهاء من قديم: أن أهل الذمة إذا اشتركوا مع المسلمين في القتال ضد أعدائهم، سقطت عنهم الجزية.

وكان الأستاذ البنا يفسر دفع الجزية بأنه «بدل خدمة عسكرية»، وقد كان غير المسلمين سعداء، بدفع هذا البدل في الزمن الماضي، بل كان كثير من موسري المسلمين يدفعون هذا البدل لإعفاء أبنائهم من الجندية، قبل عصر التجنيد الإجباري.

وكان حفظة القرآن الكريم يعفون من هذه الخدمة، فلم يكن الناس ينظرون إلى الجندية نظرتنا إليها اليوم.

موقف حسن البنا:

يقول الدكتور حسان حتحوت في مقالة له نشرتها مجلة الأمة القطرية (عدد 55 - رجب 1405) تحت عنوان «تهمة التعصب»:

«فماذا عن قنا؟ البداية حفل كبير زاخر، على رأسه علماء المسلمين وقسس الأقباط ... وعلى ذكر قسس الأقباط فإن كثيرين يحاولون أن يلصقوا بالرجل ودعوته تهمة التعصب ضد النصارى، أو التفرقة بين عنصري الأمة، ويشهد الله ومن حضر من الصادقين أن العكس هو الصحيح، فلم يكن الرجل داعية بغض ولا تفرقة، وكان يبرهن أن الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تكون مصدر إزعاج للأقباط، لأنها ستطبق علينا وعليهم على السواء، وأنها لا تصادر نصرانية النصراني ...

وقد وجدت دعوة الرجل صداها وتصديقها لدى ذوي الفهم من المسلمين والأقباط ...

ويكفي أن أذكر بأن الأستاذ «لويس فانوس» من زعماء الأقباط كان من الزبائن المستديمين لدرس الثلاثاء الذي يلقيه حسن البنا، وكانت بينهما صداقة وطيدة.

وأن حسن البنا عندما تقدم مرشحًا لانتخابات البرلمان كان وكيله الذي يمثله في مقر إحدى اللجان الانتخابية رجلًا قبطيًا.

وأن البنا لما اغتيل ومنعت الحكومة أن يشيع في جنازة، لم يمش وراء

نعشه إلا رجلان هما والده ومكرم عبيد السياسي النصراني.

وأذكر أننا كنا ونحن طلاب نزور جميعات الشبان المسيحية لنتحدث عن موقف الإسلام من النصرانية، فنخرج وقد شعرنا أنهم أقر الناس مودة.

وشهادة ثانية:

شكل مكتب إرشاد الجماعة لجنة سياسية عليا برئاسة وكيل الجماعة وعضوية سكرتير الجماعة وعضو من أعضاء مكتب الإرشاد، و (9) أعضاء آخرون منهم ثلاثة من كبار الأقباط هم الأستاذ وهيب بك دوس المحامي، والأستاذ لويس فانوس عضو مجلس النواب، والأستاذ كريم ثابت الصحفي الكبير.

وثالثة:

أرسل الإمام حسن النبا رسالة تهنئة إلى توفيق دوس بمناسبة انتخابه عضوًا في مجلس الشيوخ المصري، رد عليها دوس بتهنئة بمناسبة صدور جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية وتأكيده على نزعة الإخوان القومية.

ورابعة:

رد توفيق غالي من أقابط مصرى على مقالات لسلامة موسى في عهد الإمام حسن البنا، اتهم فيها موسى الإخوان بأنهم يثيرون الفتن الطائفية.

وقد أكد توفيق غالي في رده: «إني أعترف بأنهم «الإخوان المسلمين» أشرف الجماعات مقصدًا، وأنبلهم خلقًا، ولن أقدم دليلًا إلا أن شعبتهم يجاورها المسيحيون من كل جانب، ومع ذلك لم نر منهم إلا كل أدب وتقدير لإخوانهم المسيحيين، وأن شعبتهم بقسم الصيادين الزقازيق تجاور الكنيسة

ولا ينظرون إليها إلا بكل احترام».

حسن الهضيبي:

ولم تتوقف هذه السياسة بعد استشهاد الإمام حسن البنا، بل التزم بها الإخوان المسلمون دينًا وأصلًا، فكان مرشدوه الأمناء: حسن الهضيبي وعمر التلمساني ومحمد حامد أبو النصر على نفس السياسة ونفس المنوال ...

ففي كتاب «حسن الهضيبي الإمام الممتحن» ذكر الأستاذ جابر رزق رحمه الله تحت عنوان «من خلطائه المسيحيين»:

«وكانت باكورة ولايته القضاء في مدينة جرجا من صعيد مصر، حيث تعلو في الطبقة المثقفة نسبة المسيحيين الذين تهئ لهم مراكزهم وثقافتهم الاختلاط بقاضي المدينة ونظرائه من كبار الموظفين ...

فإذا بهم يلتفون حوله، ويحيطونه بفيض من مشاعر الحب والتقدير، ويعلنون أنهم يحسدون عليه إخوانهم المسلمين، ويتمنون لو كان في طائفتهم مثله.

عمر التلمساني:

وقد نشرت مجلة «الدعوة» في عددها الرابع عشر الصادر في شعبان 1397هـ تحت عنوان: «وأين نصيبنا من هذا الحب» السطور التالية لمرشدنا الراحل عمر التلمساني رحمه الله :

«إن القول بأن الإخوان يقوم: تشكيلهم على أساس ديني يسبب الفرقة، قول يرده الواقع، ويدحضه الكثير من الحجج والبراهين:

أولًا: الأمة المصرية تتكون من ديانتين أساسيتين، الإسلام والمسيحية، وبلغ التسامح الديني بالأغلبية المسلمة أن كان من رؤسائها ووزرائها مسيحيون، وكان يرأس مجلس النواب مسيحي ...».

ثانيًا: قامت جماعة الإخوان في عام 1928م، فلم يثبت في تاريخها يومًا من الأيام أنها دعت إلى فرقة، أو هتفت بعنصرية دينية، أو نادت بحرمان غير المسلمين مما يستمتع به المسلمون، بل كان القسس يحضرون احتفالاتها، ويلقون فيها كلماتهم من وجهة نظرهم لا من وجهة نظر الإخوان المسلمين، ولم يعترض عليهم أو يقاطعهم أحد.

ثالثًا: كيف يكون التشكيل الرسمي للإخوان مدعاة إلى التفريق بين أفراد الأمة وهم لا يحرمون على مسيحي أن يبتني كنيسة، أو أن يشتغل بوظيفة، أو أن يؤدي شعائره الدينية آمنًا مطمئنًا، إذا طالب المسيحيون بحزب مسيحي، فما الخوف من ذلك؟ أليس هذا واقع الأمة فعلًا: مسلمون ومسيحيون، وكل ينادي بصلاحية دينه وإصلاح المجتمع؟

محمد حامد أبو النصر:

س ـ العلاقة مع الأقباط تشغل بال كثيرين لدرجة أن عددًا من أحزاب المعارضة بدأ يتسابق للحصول على أصواتهم، هل تتصورون تعاونًا بين الإخوان والأقباط في الانتخابات؟

ج ـ علاقتنا بالأقباط كانت وما زالت طيبة، على مدى السنوات السبعين الماضية، منذ نشأة الجماعة، لم يقع حادث يعكر صفوها، وكان للإمام حسن البنا مستشارون من الأقباط، وكان عدد من الأقباط يحرص على حضور

محافل الجماعة، وحين أبعد الإمام البنا إلى قنا كتب القساوسة هناك مذكرات إلى الحكومة تنصفه.

س - هل توافقون على إنشاء الأقباط حربًا سياسيًا خاصًا بهم؟

ج - الحزب السياسي أهم أهدافه الوصول إلى السلطة والحكم بمقتضى منهج، فهل تعتقد أن الأقباط وهم نحو خمسة في المائة من أبناء مصر يسعون إلى ذلك؟ إن مثل هذه الادعاءات ظهرت في الفترة الأخيرة لتبرير محاربة الجماعة والواقع يكذب هذه الادعاءات، فمع حرية إنشاء الأحزاب لم يفكر الأقباط في إنشاء حزب في الأربعينات حين كانت الجماعة منتشرة في كل أنحاء مصر، ومع ذلك نرحب بحزب للأقباط إذا شاءوا (الحياة: 4 سبتمبر 1995).

مصطفى مشهور:

س - إذ وافقت لكم الحكومة بحزب إسلامي سيطالب الأقباط بحزب مما يرشح لوقوع فتنة طائفية؟

ج - الفتنة الطائفية تعبير أطلقه الرئيس الراحل أنور السادات من خياله، فليس في الوقع أي توتر طائفي بين المسلمين والأقباط، وأتذكر أن الشيخ حسن البنا ذهب ذات مرة إلى الصعيد، وألقى سلسلة محاضرات، وبعد أن عاد إلى القاهرة علمنا أن عددًا من القساوسة في محافظة قنا رفعوا مذكرة إلى رئيس الوزراء يطلبون فيها تطبيق الشريعة الإسلامية، لأن محاضرات الشيخ البنا أوضحت لهم الحقوق الكاملة التي يتحصل عليها القبطي في مجتمع إسلامي، من هنا أقول أنه لا توجد فتنة طائفية ونحن أحرص الناس

على حقوق المواطن القبطي في مصر.

الأقباط والشيوعيون:

س - نفترض جدلًا أن الأقباط طالبوا بحزب، فما هو رأيكم؟

ج - نحن نؤيد ذلك، هنا ثلاثة عشر حزبًا في مصر، فما المانع أن يكون هناك خمسة عشر أو حتى عشرون حزبًا، وأن نعطي الرأي العام فرصة اختيار الحزب إلى يميل إليه، أليست هذه هي الديمقراطية التي تتحدث عنها الحكومة؟ (جريدة المستقلة 1995/10/23).

في حديث إلى جريدة الحياة:

العلاقة بين «الإخوان» والأقباط طيبة جدًا منذ أيام البنا، وكانت هناك لجنة سياسية في عهد المرشد الأول ممثل فيها أقباط، ولم تحدث طوال تاريخ الجماعة خلافات بيننا وبينهم، والمصريون ما زالوا يذكرون دور «الإخوان» في احتواء الفتنة الطائفة التي تفجرت في حي الزاوية الحمراء قبل مقتل السادات. (الحياة 24 يناير 1996).

وفي حديث آخر:

هل معنى ذلك أن الحكومة لو وافقت للجماعة على إنشاء حزب فإنه سينضم في تنظيمه أقباط؟

إذا كان هناك أقباط يوافقون على برنامج الإخوان الإسلامي، ويتقبلون مبدأ الإسلام هو الحل، فلم لا نقبلهم معنا؟! (الشرق الأوسط 1996/7/16).

كلامٌ حُرف عن موقف الإخوان من الأقباط:

ولقد نشرت الصحف كلامًا نسب إلى المرشد الحالي للإخوان الأستاذ مصطفى مشهور حول الأقباط والجزية، أنكره هو، وقال: إنه حُرف، وهذا يكفينا منه، وهو المتفق مع تراث الجماعة، ومواقف مؤسسها وتصريحاته، وكتابات علمائها لمدة سبعين عامًا، وخصوصًا ما كتبه المرشد الثاني الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله .

موقفنا من الأقليات:

هذا، وقد عرضنا لموقف الإسلام من الإقليات في أكثر من كتاب، منها «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» ورسالة «الأقليات الدينية والحل الإسلامي» وكتاب «أولويات الحركة الإسلامية» وبعض الفتاوى والبحوث في كتابنا «فتاوى معاصرة» الجزء الثاني، وكتابنا «من فقه الدولة في الإسلام» كما بينا ذلك في محاضرات شتى في أكثر من بلد.

وأعتقد أن اجتهادنا في هذه القضية الكبيرة قد استبانت معالمه، واتضحت صورته في ضوء الأدلة الشرعية، ولقى القبول من جمهرة الإخوان.

كيف تحل مشكلة الأقليات الدينية؟

ويمكن أن أقتبس بعض ما كتبته هنا، لايضاح موقف الاجتهاد الإسلامي المعاصر من هذه القضية الخطيرة، التي يشتعلها أعداء الأمة بين الحين والحين، لأغراض في أنفسهم، لإثارة الفتنة الطائفية، حتى إنهم في أمريكا اليوم - بتأثير اللوبي الصهيوني - يزعمون أن الأقباط مضطهدون دينيًا في مصر، وهو زعم لا أساس له، ويتخلص موقفنا فيما يلي:

1 - لا وجه لدعوى بعض الناس وجلهم من العلمانيين الذين لا يوالون الإسلام ولا المسيحية: أن الاتجاه إلى الحل الإسلام والشرع الإسلامي ينافي مبدأ الحرية لغير المسلمين، وهو مبدأ مقرر دوليًا وإسلاميًا، فقد نسوا أو تناسوا أمرًا أهم وأخطر، وهو أن الإعراض عن الشرع الإسلامي والحل الإسلامي من أجل غير المسلمين - وهم أقلية - ينافي مبدأ الحرية للمسلمين في العمل بما يوجبه عليهم دينهم، وهم أكثرية.

وإذا تعارض حق الأقلية وحق الأكثرية، فأيهما نقدم؟

إن منطق الديمقراطية - التي يؤمنون بها ويدعون إليها - أن تقدم حق الأكثرية على حق الأقلية.

هذا هو السائد في كل أقطار الدنيا، فليس هناك نظام يرضى عنه كل الناس، فالناس خلقوا متفاوتين مختلفين، وإنما بحسب نظام ما أن ينال قبول الأكثرية ورضاهم، بشرط ألا يحيف على الأقلين، ويظلمهم ويعتدى على حرماتهم، وليس على المسيحيين ولا غيرهم بأس ولا حرج أن يتنازلوا عن حقهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم، وينفذوا شريعة ربهم حتى يرضى الله عنهم.

ولو لم تفعل الأقلية الدينية ذلك، وتمسكت بأن تنبذ الأكثرية ما تعتقده دينًا يعاقب الله على تركه بالنار، لكان معنى هذا أن تفرض الأقلية ديكتاتورية على الأكثرية، وأن يتحكم مثلًا ثلاثة ملايين أو أقل، في أربعين مليونًا أو أكثر، وهذا ما لا يقبله منطق ديني ولا علماني.

2 - وهذا على تسليمنا بأن هنا تعارضًا بين حق الأكثرية المسلمة وحق

الأقلية غير المسلمة.

والواقع أنه لا تعارض بينهما، فالمسيحي الذي يقبل أن يحكم حكمًا علمانيًا لا دينيًا، لا يضيره أن يحكم حكمًا إسلاميًا، بل المسيحي الذي يفهم دينه ويحرص عليه حقيقة، ينبغي أن يرحب بحكم الإسلام، لأنه حكم يقوم على الإيمان بالله ورسالات السماء، والجزاء في الآخرة، كما تقوم على تثبيت القيم الإيمانية، والمثل الأخلاقية، التي دعا إليها الأنبياء جميعًا، ثم هو يحترم المسيح وأمه والإنجيل، وينظر إلى أهل الكتاب نظرة خاصة، فكيف يكون هذا الحكم - بطابعه الرباني الأخلاقي الإنساني - مصدر خوف وإزعاج لصاحب دين يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر؟ على حين لا يزعجه حكم لا ديني علماني يحتقر الأديان جميعًا، ولا يسمح بوجودها - إن سمح - إلا في ركن ضيق من أركان الحياة؟!

من الخير للمسيحي المخلص أن يقبل حكم الإسلام، ونظامه للحياة، فيأخذه على أنه نظام وقانون ككل القوانين والأنظمة، ويأخذه المسلم على أنه دين يرضى به ربه، ويتقرب به إليه.

ومن الخير للمسيحي - كما قال الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله - أن يأخذه المسلمون على أنه دين، لأن هذه الفكرة تعصمهم منالزلل في تنفيذه، وعين الله الساهرة ترقبهم، لا رهبة الحاكم التي يمكن التخلص منها في كثير من الأحيان[149].

---

(149) من رسالة «دستورنا» للأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام السابق للإخوان المسلمين.

ومن هنا رحب العقلاء الواسعو الأفق من المسيحيين بالنظام الإسلامي بوصفه السد المنيع في وجه المادية الملحدة التي تهدد الديانات كلها على يد الشيوعية العالمية، كما نقلنا ذلك من كلام العلامة فارس الخوري(150).

وأود أن أصحح هنا خطأ يقع فيه كثيرون، وهو الظن بأن القوانين الوضعية المستوردة من الغرب المسيحي قوانين لها رحم موصولة بالمسيحية، فهذا خطأ مؤكد، والدارسون لأصول القوانين ومصادرها التاريخية يعرفون ذلك جيدًا، بل الثابت بلا مراء أن الفقه الإسلامي أقرب إلى المسيحية والمسيحيين في أوطاننا من تلك القوانين، لأصوله الدينية من ناحية، ولتأثره بالبيئة المحيطة التي هم جزء منها.

3 - والإدعاء بأن سيادة النظام الإسلامي فيه إرغام لغير المسلمين على ما يخالف دينهم، إدعاء غير صحيح.

فالإسلام ذو شعب أربع: عقيدة، وعبادة، وأخلاق، وشريعة. فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضهما الإسلام على أحد، وفي ذلك نزلت آيتان صريحتان حاسمتان من كتاب الله: إحداهما مكية والأخرى مدنية، في الأولى يقول تعالى مخاطبًا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : **{أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ}** [يونس: 99]، وفي الثانية يقول سبحانه وتعالى في أسلوب جازم: **{لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ}** [البقرة: 256].

وجاء عن الصحابة في أهل الذمة: «اتركوهم وما يدينون».

---

(150) انظر: كلامه في كتابنا «بينات الحل الإسلامي» (ص258 - 261)، ورسالتنا «الأقليات الدينية والحل الإسلامي».

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين، واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم ويقيمون شعائرهم، في حرية وأمان، كما هو منصوص عليه في العهود التي كُتبت في عهد أبي بكر وعمر، ومثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء «القدس».

ومن شدة حساسية الإسلام أنه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين، لما لهما من صبغة دينية، باعتبارهما من عبادات الإسلام الكبرى - مع أن الزكاة ضريبة مالية، والجهاد خدمة عسكرية - وكلفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على الرؤوس، أعفى بمنها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين، وهي ما يسمى «الجزية».

ولئن كان بعض الناس يأنف من إطلاق هذا الاسم، فليسموه ما يشاءون، فإن نصارى بني تغلب من العرب طلبوا من عمر أن يدفعوا مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولا يدفعوا هذه الجزية، وقبل منهم عمر، وعقد معهم صلحًا على ذلك، وقال في ذلك: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم[151]!

أما شبعة الأخلاق فهي - في أصولها - لا تختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض.

بقيت شعبة الشريعة بالمعنى الخاص: معنى القانون الذين ينظم علائق الناس بعضهم ببعض: علاقة الفرد بأمته، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالدولة، وعلاقة الدولة بالرعية، وبالدول الأخرى.

---

(151) انظر: «المغني» لابن قدامة (ج9 م 335، 336). ط. مطبعة العاصمة، شارع الفلكي بالقاهرة.

فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك، فهم مخيرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا، ولا يجبرون على شرع الإسلام.

فمن اختار منهم نظام الإسلام في المواريث مثلًا - كما في بعض البلاد العربية - فله ذلك، ومن لم يرد فهو وما يختار.

وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم في ذلك كشأنهم في أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق، وترتضيها الأغلبية.

وبعض المذاهب الإسلامية لا تلزم أهل الذمة أو غير المسلمين بالتشريع الجنائي مثل إقامة الحدود والعقوبات الشرعية، كقطع يد السارق، وجلد الزاني أو القاذف، ونحو ذلك، وإنما فيها التعزيز.

وتستطيع الدولة الإسلامية الأخذ بهذا المذهب إذا وجدت فيه تحقيق مصلحة، أو درء مفسدة، كما فعلت ذلك جمهورية السودان الإسلامية، بالنسبة للمناطق التي تسكنها أغلبية غير إسلامية.

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها إن شاءوا، وإلا لجأوا إلى القضاء الإسلامي، كما سجل ذلك التاريخ.

وبهذا نرى أن الإسلام لم جبرهم على ترك أمر يرونه في دينهم واجبًا، ولا على فعل أمر يرونه عندهم حرامًا، ولا على اعتناق أمر ديني لا يرون اعتقاده بمحض اختيارهم.

كل ما في الأمر أن هناك أشياء يحرمها الإسلام مثل الخمر والخنزير،

وهم يرونها حلالًا، والأمر الحلال للإنسان سعة في تركه، فللمسيحي أن يدع شرب الخمر ولا حرج عليه في دينه، بل لا أظن دينًا يشجع شرب الخمور، ويبارك حياة السكر والعربدة، وكل ما في كتبهم: أن قليلًا من الخمر يصلح المعدة[152]، ولهذا اختلف المسيحيون أنفسهم في موقفهم من الخمر والسكر.

وكذلك بوسع المسيحي أن يعيش عمره كله ولا يأكل لحم الخنزير، فأكله ليس شعيرة في الدين، ولا سنة من سنن النبيين، بل هو محرم في اليهودية قبل الإسلام، ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الإسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أن يأكلوا الخنزير، ويشربوا الخمر، ويتاجروا فيهما فيما بينهم، وفي القرى التي تخصهم، على ألا يظهروا ذلك في البيئات الإسلامية، ولا يتحدوا مشاعر المسلمين، وهذه قمة في التسامح لا مثيل لها[153].

سؤال. د. جورج إسحاق:

ومنذ عدة سنوات دعيت من قبل نقابة الأطباء في مصر لندوة حول «المشروع الحضاري الإسلامي» في «دار الحكمة» بالقاهرة، وكان المفروض أن يشاركني أحد الأساتذة المعروفين[154]، ولكنه اعتذر، فانفردت بإلقاء الموضوع، وبيان مقومات مشروعنا الحضاري الإسلامي والذي يعمل على إصلاح الفرد، وإسعاد الأسرة، وترقية المجتمع، وبناء الأمة الفاضلة،

---

(152) هو من أقوال بولس، وليس من قول المسيح عليه السلام .

(153) انظر: فصل «الأقليات الدينية والحل الإسلامي» من كتابنا «بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربيين»، وقد نشرت في رسالة مستقلة من «رسائل ترشيد الصحوة»، وانظر أيضًا: كتابنا «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي».

(154) وهو الأستاذ الدكتور إسماعيل صبري عبد الله وزير التخطيط في عهد عبد الناصر، ومن ممثلي الفكر اليساري في مصر.

وإقامة الدولة العادلة، وإنشاء عالم متعارف وعلاقات إنسانية سوية.

وبعد ذلك كانت أسئلة ونقاشات وتعليقات، وكان من أبرز هذه الأسئلة: سؤال من الأخ الدكتور جورج إسحاق الذي سأل بصراحة: أين موقعنا، يا دكتور قرضاوي - نحن الأقباط - في هذا المشروع؟ هل نظل أهل ذمة؟ أو نحن مواطنون؟ هل ستطالبنا بدفع الجزية أو ندفع ما يدفع المسلمون؟ هل نحرم من وظائف الوطن أو يأخذها من يستحقها منا بأهليته؟ ... إلخ. هذا النوع من الأسئلة.

وقلت للدكتور إسحاق: إن المشروع الحضاري هو لأهل دار الإسلام جميعًا، المسلمين منهم وغير المسلمين، وفقهاء المسلمين متفقون على أن أهل الذمة من «أهل الدار» أي دار الإسلام وإن لم يكونوا من «أهل الملة» ومعنى أنهم من أهل الدار أنهم مواطنون، ينتمون إلى الوطن الإسلامي، فهم مسلمون بحكم انتمائهم إلى الدار أو الثقافة والحضارة، وهذا ما عبر عنه الزعيم المصري القبطي المعروف مكرم عبيد حين قال: أنا نصراني دينًا، مسلم وطنًا! وهذا ما قلته للدكتور لويس عوض حين زارنا في الدوحة مشاركًا في إحدى الندوات، وطلب مني أن أعقب على الندوة، فقلت له: أنا مسلم بمقتضى العقيدة والملة، وأنت مسلم بمقتضى الثقافة والحضارة.

وكلمة «الذمة» كثيرًا ما تفهم خطأ، ويظن بعض الناس أنها كلمة ذم أو انتقاص، مع أن معناها: العهد والضمان أي أنهم في عهد الله ورسوله وجماعة المسلمين وفي ضمانهم، لا يجوز أن ينتقض عهدهم أوتخفر ذمتهم من أحد.

وإذا كانت كلمة «أهل الذمة» تؤذي الأقباط وأمثالهم، فإن الله لم يتعبدنا بها، وقد حذف الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ما هو أهم منها، «كما ذكرنا من قبل» وهي كلمة «الجزية» المذكورة في القرآن، حين طلب بنو تغلب ذلك، وقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن عرب، ونأنف من كلمة «جزية» ونريد أن تأخذ منا ما تأخذ باسم الزكاة أو الصدقة، كما تأخذ من المسلمين، فقبل منهم ذلك، ونظر إلى أصحابه وقال: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم[155].

وفي عصرنا يتأذى إخواننا من المسيحيين وغيرهم من هذه التسمية، فلا مبرر للإصرار على بقائها، والعبرة للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني.

ولقد ذهبت من قديم في كتابي «فقه الزكاة»[156] إلى أن ولي الأمر المسلم يجوز له أن يأخذ من غير المسلمين في الدولة الإسلامية ضريبة تساوي فريضة الزكاة، ولنسمها «ضريبة التكافل» توحيدًا للميزانية والإجراءات بين أبناء الوطن الواحد والدار الواحدة، وأيدت ذلك بأدلة شرعية من داخل الفقه الإسلامي، وهذا ما أخذت به جمهورية السودان منذ عهد نميري.

وقد ذكرت في «فقه الزكاة»[157] أن فقهاء المسلمين عددًا أجازوا دفع الزكاة لغير المسلمين، وقد نقل ذلك عن عمر رضي الله عنه.

ومما يذكره التاريخ أن عناصر من أهل الكتاب أسهمت في بناء الحضارة

---

(155) انظر: كتابنا «السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها» (ص216) نشر مكتبة وهبة.

(156) (ج1 / 112 - 117) طبعة وهبة الحادية والعشرون.

(157) (ج2 / 712 - 714).

الإسلامية أيام ازدهارها، لا تزال أسماء بعضهم معروفة مشهورة.

ولقد وصل بعضهم إلى منصب الوزراة، وهو ما قرره القاضي الماوردي وغيره من فقهاء السياسة الشرعية.

والعامل المهم هنا هو: وجود الثقة المتبادلة بين الفريقين وألا يتطلع غير المسلمين إلى المناصب التي لها طبيعة دينية، كما لا يجوز للمسلمين أن يتدخلوا في الشئون الدينية لغير المسلمين، أو يضيقوا عليهم فيها بغير حق.

والأصل العام في التعامل هو هذه القاعدة التي يتناقلها المسلمون خاصتهم وعامتهم: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

وهذا، فيما عدا ما اقتضاه الاختلاف أو التميز الديني بطبيعة الحال لكل من الطرفين، فهم غير مطالبين بالصلاة ولا بالصيام ولا بزكاة الفطر ولا بالكفارات، ولا بالحج وغيرها من فرائض الإسلام.

ومن المهم جدًا أن يكون من حق الأكثرية المسلمة أن تحتكم إلى شريعة ربها، وتطبقها في شئونها، على ألا تحيف على حقوق الأقلية ويجب على الأقلية ألا تضيق صدرًا بذلك، وهو ما كان عليه الأقباط طوال العصور الماضية الحديثة، قبل كيد الاستعمار ومكره، ولم نرهم يتبرمون بالنص على أن دين الدولة الإسلام، بل رأيت كثيرًا من عقلاء المسيحيين في مصر وفي غيرها طالبوا مخلصين بوجوب تطبيق الشريعة وأحكامها وحدودها، ورأوا في ذلك العلاج الناجع للجرائم والرذائل في مجتمعاتنا.

وكما أن الأقلية رضيت بالقوانين ا لمستوردة من الخارج، ولم تجد في ذلك حرجًا، فأولى بها أن ترضى بشريعة الإسلام، فهي قطعًا أقرب إلى المثل

العليا التي جاءت بها المسيحية من القوانين الأجنبية، ثم هي قوانين «الدار» التي تعيش فيها الأقلية وتتعامل معها، فالمسلم يتقبل الشريعة على أنها دين وانقياد لله، وغير المسلم يتقبلها على أنها قانون ونظام، شأنه شأن سائر الأنظمة والقوانين.

قلت هذا الكلام أو نحوه في الإجابة عن سؤال د. جورج إسحاق، وصفق الحاضرون إعجابًا وقبولًا، وبعد انتهاء الندوة، جاء الدكتور إسحاق يشد على يدي، ويقول لي: ليتك يا دكتور قرضاوي تأتي إلى الكنيسة لتقول هذا للأقباط في عقر دارهم، فإن عندهم هواجس ومخاوف كثيرة من تطبيق شريعة الإسلام، وربما ساهم في هذا الخوف بعض المتشددين من المسلمين.

وقلت للدكتور: أنا لا أمتنع عن هذا إذا دعيت، والواجب علينا البيان والبلاغ حتى لا تلتبس الأمور، وتفهم الحقائق على غير وجوهها، ويستغل أعداء الأمة ذلك، ليوقدوا نار الفتنة، ويضربوا أبناء الأمة والواحدة بعضهم ببعض، وهم المستفيدون أولًا وآخرًا.

الآراء الفقهية المتشددة مرهونة بظروفها:

أما الآراء المتشددة والمضيقة، والتي تتمسك بحرفة ما جاء في بعض الكتب التي كتبت في زمن غير زمننا، ولمجتمع غير مجتمعنا، وفي ظروف غير ظروفنا، فهي لا تلزمنا، وقد قرر المحققون من علمائنا: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، وقد تغير كل شيء في حياتنا كمًا وكيفًا، عما كان عليه أيام هؤلاء الفقهاء.

وأما حديث: «**لا تبدأوهم بالسلام، واضطروهم إلى أضيق الطريق**» فهذا

مقيد بأيام الصراع والحرب، لا بأيام الاستقرار والسلام، وقد كان بعض الصحابة يقرأ السلام على كل من لقيه من مسلم وغير مسلم، عملًا بالأمر بإفشاء السلام.

وهل من المعقول أن يبيح الإسلام الزواج بالمسيحية ولا يبح له أن يسلم عليها؟ وهل يمنع الولد أن يسلم على أمه أو على خاله أو خالته أو جده أو جدته؟ وقد أمره الله بصلة الرحم، وإيتاء ذي القربى؟

وحسبنا هذا النص القرآني العام المحكم: **{لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ}** [الممتحنة: 8] فالقسط هو العدل، والبر هو الإحسان، وهو شيء فوق العدل، والعدل: أن تعطي الحق، والبر أن تعطي فوق الحق، العدل: أن تأخذ ما لك من حق، والبر: أن تتنازل عن بعض حقك أو عن حقك كله، وهذا ما رغب فيه القرآن في التعامل مع المسالمين من غير المسلمين.

* * *

4 - الإخوان والعنف

ومن التهم التي ألصقت بالإخوان - ولا زالت - تهمة استخدام العنف أو الإرهاب، وحين تذكر جماعات العنف المسلح في عصرنا، يسارع ذوو الغرض والهوى لإدخال جماعة الإخوان فيهم.

وهذا لعمري، من الاعتساف والتحريف، والظلم ا لمبين ا لذي لا يخفى على دارس منصف، فالإخوان - من الناحية النظرية - لم يجيزوا استخدام القوة المادية إلا في مجالات معينة، وبشروط واضحة، بينها الإمام البنا في رسائله بوضوح، كما في رسالة المؤتمر الخامس وغيرها، ومن هذه المجالات: مقاومة الاحتلال الإنجليزي لمصر، والاحتلال الصهيوني الاستيطاني في فلسطين.

وقد اشترك الإخوان بالفعل في قتال الصهاينة سنة 1948م في حرب فلسطين، وكان لكتائبهم دور مشهور، وبطولات قارعة رائعة، وشهداء أطهار أبرار، شهد لهم بها رجال كبار من قادة الجيش المصري، وإن كان جزاؤهم بعد ذلك أنهم أخذوا من الميدان إلى المعتقلات.

كما كان لهم دور معروف غير منكور في معارك القناة، حيث شارك شبابهم في الجامعات والأزهر وغيرها، وكان لهم شهداء معروفون، وكان لاستخدام العنف في غير الميدان دور محدود، قُصد به ضرب المصالح اليهودية والبريطانية، ردًا على المجازر الهائلة التي وقعت في فلسطين على أيدي العصابات المسلحة التي استباحت كل المحرمات.

ولو جمع كل ما فعل الإخوان لضرب تلك المصالح، لم يبلغ عشر معشار ما كانت تقوم به الجماعات المسلحة اليوم في مصر أو في الجزائر في ويوم واحد.

فما عرف عن الإخوان أنهم قتلوا سائحًا أو اعتدوا على قبطي، أو قتلوا امرأة، أو طفلًا صغيرًا، أو شيخًا كبيرًا، كما شاهدنا ما يفعله هؤلاء الوحوش الذين يذبحون الناس بأبشع الآلات وأشنع صور القتل، ولا يتورعون عن قتل النساء والولدان، والزراع والرهبان، وممن لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل، ولا نعجة ولا جمل! فمن غير المقبول والمعقول أن يلحق الإخوان بهؤلاء المفترسين.

وهناك حوادث معروفة من أعمال العنف منسوبة إلى الإخوان، لها ظروفها وملابساتها: ومن العدل أن توضع في إطارها الزمني، فقد كان الاغتيال السياسي معروفًا عند الوطنيين منذ اغتيال بطرس باشا غالي، وأمين عثمان، وغيرهما، وكان الرئيس السادات ممن اتهم في مقتل أمين عثمان.

فمن ذلك: حادثة قتل القاضي الخازندار في ظروف معروفة زينت لبعض الشباب المتحمس أن يقتلوا هذا القاضي، ولم يكن ذلك بأمر الأستاذ البنا ولا بإذنه أو علمه، وقد استنكر وقوع هذا الحادث ومن الإنصاف أن يوضع الحدث في ظرفه الزمني، مقرونًا بالباعث عليه، حتى لا يأخذ أكبر من حجمه، ولم يتكرر هذا من الإخوان قط، ولم يفكروا في أخذ ثأرهم، حتى من القضاة العسكريين الذين حكموا عليهم أحكامًا لا يشك إنسان موضوعي أنها قاسية ظالمة.

وبعد ذلك كان قتل النقراشي رئيس الوزراء والحاكم العسكري الذي يحمل تبعة «حل الإخوان» واقتيادهم إلى المعتقلات بالآلاف، وتعريضهم للتعذيب والفصل والتشريد والتجويع، حتى الذين كانوا يقاتلون الصهاينة في فلسطين نقلوا من الميدان إلى الاعتقال، فقام شاب من الإخوان بمساعدة بعض زملائه في «النظام الخاص» بقتله، وهو ما حاول الأستاذ حسن البنا الحيلولة دون وقوعه، ولقى بعض الرجال المسئولين، وحذرهم من أن يتهور بعض شباب الإخوان ويحدث ما لا تحمد عقباه، فقالوا له بعبارة صريحة: ماذا يفعلون؟ سيقتلون رئيس الوزراء، ليكن إن ذهب عير «أي حمار» فعير في الرباط!

وقد استدعى الأستاذ البنا بعد مقتل النقراشي، وحقق معه، ثم أفرج عنه، إذ لم تثبت أية صلة له بالحادث.

والحادثة الثالثة: محاولة نسف محكمة الاستئناف التي كانت تضم أوراق قضايا الإخوان، وهو الحارث الذي أغضب الأستاذ البنا كثيرًا، وجعله يسارع بإصدار بيانه الشهير الذي نشرته الصحف، وفيه يقول: هؤلاء ليسوا إخوانًا، وليسوا مسلمين!

والواقع أن الجماعة بعد حلها ليست مسئولة عن مثل هذه الحوادث؛ لأنها ليست موجودة حتى تساءل، ولم يحدث بعد ذلك أي حادث عنف إلا ما كان من محاولة اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية في أكتوبر سنة 1954م، وهو حادث تكتنفه الشبهات من كل جانب، وقد شكك فيه بعض رجال الثورة أنفسهم مثل حسن التهامي.

ولو أخذنا الأمور على ظواهرها، فليست الجماعة مسئولة عنه، ولم يثبت

فـي التحقيـق أنهـا هـي التـي دبرتـه، وإنمـا هـو مـن تـدبير هنـداوي دويـر ومجموعته.

على كل حال، هذا تـاريخ قـديم، ولـم يثبـت بعـد ذلـك أن الإخـوان استخدموا العنف من سنة 1954م حتى اليوم، رغم ما وقع عليه من عسف وظلم، وقتـل علنـي لقـادتهم، بحكم القضـاء العسـكري، والتعليـق علـى أعـود المشـانق، مثـل الشهداء: عبد القادر عودة - محمد فرغلـي - يوسـف طلعـت - إبـراهيم الطيـب، أو لشـبابهم بحكـم التحـرش المثيـر داخـل السـجن، كمـا فـي حـادث سـجن طـرة الشهير، الـذي قتـل فيـه السـجانون مسـجونيهم علانيـة، وسـقط ثلاثـة وعشـرون شابًا من خيرة الشباب شـهداء في سبيل الله، لم يصـنعوا جرمًا إلا أنـهم طـالبوهم بتحسين أحوالهم، والسماح لذويهم أن يزوروهم، ك بقية سجناء الدنيا.

وقـد أعـدم بعـد ذلـك: سـيد قطـب، وعبـد الفتـاح إسـماعيل، ومحمـد يوسـف هواش، ولم يريقوا قطـرة دم واحـدة، إلا مـا قيل: إنـهم كـانوا ينـوون كذا وكـذا، واقتيد الإخوان بعشرات الألوف إلـى السـجون والمعتقلات، وعذبوا تعذيبًا لـم يسـبق لـه مثيـل، ورغـم توسـط الكثيـرين واحتجـاج الكثيـرين علـى إعدام سيد قطب، لم يستجب عبد الناصر لهم، وأصر على قتله.

وهنـاك أفـراد قتلـوا تحـت سياط التعذيب فـي السـجن الحربـي بعـد أن سـهر علـيهم الجنـود القسـاة يتعـاورون علـيهم واحـدًا بعـد الآخـر، كلمـا تعـب هـذا مـن الجلد والإيذاء، أخذ عنه صـاحبه، فمن هـؤلاء المعذبين مـن تحمـل جسـده، وإن بقي طوال عمره يعـاني مـن آثـار العـذاب مـا يعـاني، ومـنهم مـن نفـدت طـاقتـه، وعجز عن الاحتمال، فخر قتيلًا بين أيدي هؤلاء الوحوش، وهم لا يبالون.

أعرف من هؤلاء صديقنا الشخ محمد الصوابي الديب، خريج كلية الشريعة، وزميلنا في بعث الأزهر للجهاد في القناة، الذي احتيل عليه فجيء به من جدة، بعد أن بقى فترة في القاهرة، مختبئًا في بيت العلامة الشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية عليه رحمة الله، ولما سئل أخونا: أين قضى تلك الفترة قبل سفره إلى جدة، رفض أن يبوح باسم الشيخ حتى لا يؤذى في شيخوخته، وصبر على العذاب حتى لقى ربه.

وقد كان كثيرون يطالبون الإخوان أن يأخذوا بثأرهم من الضباط الذين اشتهروا بتعذيبهم مثل حمزة البسيوني قائد السجون الحربية، الذي كان يقول في صلف وغرور: لا قانون هنا: أنا وحدي القانون! بل تطاول بجرأة ووقاحة على مقام الألوهية، حين كان الإخوان يقولون تحت وطأة التعذيب: يا رب، يا رب، فيقول متبجحًا: أين ربكم هذا؟ هاتوه لي، وأنا أحطه في زنزانة!!

هذا الطاغية تركه الإخوان ومن عاونه لقدر الله الأعلى، فسخر منه القدر، حيث تحطمت سيارته في طريق الإسكندرية القاهرة، وقطع جسمه أشلاء، وقد عرف أهل القرية التي قتل أمامها ومزق شر ممزق من هو صاحب السيارة، فكانوا يقولون: أخزاه الله، لقى جزاء ما قدمت يداه.

المهم أن الإخوان لم يفكروا في الانتقام من ظالميهم، وتركوا الأمر لربهم ينتقم لهم، إنه عزيز ذو انتقام، وهو سبحانه يمهل ولا يهمل.

فسبحان الله، جماعة بهذه الروح المستامحة مع أقسى ظالميها، كيف تتهم بالعنف أو بالإرهاب، وهي منهما براء؟!!

مسئولية الإخوان عن جماعات العنف:

ومن التهم التي توجه إلى الإخوان باستمرار، وتلوكها الألسنة والأقام: أن «جماعات العنف» ظهرت من تحت عباءتهم، مثل جماعات «الجهاد» و«الجماعة الإسلامية» و«جماعة التكفير» وغيرها من الجماعات التي نشأت في مصر، واتخذت العنف نهجًا لها، وسبيلًا لتحقيق أهدافها.

والحق الذي لا ريب فيه: أن بعض هذه الجماعات مثل جماعة «التكفير» تعتبر «انشقاقًا» على الإخوان، وليس «امتدادًا» للإخوان.

وقد بدأت بذور هذه الجماعة في السجن الحربي، كما بينا كيف تسلسل تفكيرهم في كتابنا «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» وانتهى بهم الأمر إلى «تكفير الناس بالجملة» ابتداء بالذين يتولون تعذيبهم بلا رحمة، ثم من يأمرهم بهذا التعذيب من الحكام، ثم من يسكت على هؤلاء الحكام من الشعوب.

وقد اعتزلت هذه الفئة الإخوان في السجون، وكانوا لا يصلون معهم، وقام بينهم وبين الإخوان جدل طويل، ورد عليهم مرشد الجماعة الثاني الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله في مقولات سجلها ونشرها بعد ذلك في كتابه «دعاة لا قضاة».

وقد نقلت فيما سبق أن شكري مصطفى أمير جماعة التكفير ومؤسسها اتهم قادة الإخوان بالخيانة العظمى، لأنهم لم يقاوموا رجال الأمن والشرطة وسلموا جلود إخوانهم للسياط، ورقابهم للمشانق.

فكيف يعتبر الإخوان مسئولين عن هؤلاء الذين انشقوا عنهم، واتهموهم

بأبشع التهم؟

إن هذا أشبه بمن يحمل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه وزر جماعة «الخوارج» الذين كانوا جنودًا في جيشه، ثم انشقوا عنه وخرجوا عليه، ورموه بالكفر، وتحكيم الرجال في دين الله، ثم تآمروا عليه وقتلوه غيلة رضي الله عنه؟

هل يقبل عاقل هذا المنطق الأعوج؟ أن يحمل المرء تبعة من يخرج عنه, ويتمرد عليه، وينصب له الحرب والعداء؟

هذا ما تتبناه للأسف الشديد - أجهزة الإعلام المصرية والعربية وتردده ولا تمله، وما يكرره كتاب علمانيون أو ماركسيون يعادون الإخوان، بل يعادون رسالة الإسلام.

وأما جماعة «الجهاد» و«الجماعة الإسلامية» في مصر فليست انشقاقًا من الإخوان، بل هي جماعات نشأت من أول يوم، احتجاجًا على الإخوان، وإنكارًا عليهم أنهم خانوا «مبدأ الجهاد» الذي أعلنوه طريقًا لهم، وشعارًا يتغنون به «الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

ويفسرون الجهاد باستخدام العنف في مقاومة الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله، باعتبار أن هذا كفر بواح عندهم فيه من الله برهان.

والإخوان لم يخونوا مبدأ الجهاد كما زعم هؤلاء، ولكن «الجهاد» ليس معناه «القتال» بل الجهاد مراتب وأنواع أوصلها الإمام ابن القيم في كتابه الشهير «زاد المعاد» إلى ثلاة عشرة مرتبة، واحدة منها فقط هي: قتال الكفار بالسيف، وهذا له دوافعه وشروطه، كما في جهاد إخواننا الأفغان ضد الغزو

السوفيتي وإخواننا في البوسنة والهرسك ضد التوحش الصربي، وكذلك إخواننا في كوسوفو الآن، وغيرهم من المسلمين الذين يعانون من الاضطهاد الديني والعنصري في إنحاء الأرض، وأعظم هذا الجهاد: هو جهاد إخواننا في فلسطين ضد العدوان الإسرائيلي المغتصب، والإخوان - حيثما كانوا - يؤيدون هذا اللون من الجهاد بأنفسهم وأموالهم وألسنتهم، وبكل ما يستطيعون، فالمسلمون أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، والمسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، أي لا يتخلى عنه، ويمثل الإخوان في الجهاد الفلسطيني حركة المقاومة الإسلامية «حماس» التي يؤيدها كل حر شريف، مسلمًا كان أو غير مسلم.

أما فيما عدا هذا الجهاد العسكري، الذي يوجه فيه السلاح إلى أعداء الأمة، فعندهم أنواع أخرى من الجهاد الذي تحتاج إليه الأمة، ولا يرتاب أحد في أنه فريضة وضرورة.

فالجهاد بالدعوة وتبليغ الرسالة وإقامة الحجة إحدى هذه المراتب، وهي المذكورة في سورة الفرقان المكية **{فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا}** [الفرقان: 52].

وهذا الجهاد متاح اليوم بصورة لم تعهد من قبل: عن طريق الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية، وعن طريق الإذاعات الموجهة، والقنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت وغيرها من الوسائل والآليات التي تحتاج إلى طاقات بشرية هائلة، وإلى أموال طائلة، وإلى جهود مكثفة لم نقم بواحد في الألف منها! مع أن هذا - كما قلت وأقول دائمًا - هو جهاد العصر.

والجهاد بتحمل المتاعب والمحن والشدائد في سبيل الدعوة والصبر عليها، إحدى هذه المراتب، وهي مذكورة في سورة العنكبوت المكية **{أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ 2 وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ 3 أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ 4 مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ 5 وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ}** [العنكبوت: 2 - 6].

وجهاد الظلمة والفجرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف في وجه الباطل، وقول «لا» للمسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون: إحدى هذه المراتب، وهو ما جاء في حديث ابن مسعود الذي رواه مسلم في «صحيحه»: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمرهم، ثم إنها يخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».**

وجهاد الحكام الظلمة باليد - أي بالقوة العسكرية - إنما هو لمن يستطيعه، ومن لم تكن معه هذه القوة انقلب فرضه إلى المجاهدة باللسان، فمن عجز انتقل فرضه إلى الجهاد بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

والإسلام يشدد في استخدام القوة المادية، حتى لا تؤدي محاولة إزالة المنكر إلى منكر أكبر منه، وهو ما سجله التاريخ والواقع.

وفي عصرنا لا يملك الجهاد باليد إلا «القوات المسلحة» وهي في يد

الحكومة، لأنها جزء من أجهزتها.

والذي يفكرون أن يقاوموا القوات لمسلحة ببعض فئات من الشعب: مخطئون يقينًا، مخطئون عسكريًا، لأنهم لم يفهموا إمكانات الجيوش الحديثة وقدراتها، ومخطئون دينيًا؛ لأنه يلقون بأيديهم إلى التهلكة، ويعرضون أنفسهم لمخاطر لا قبل لهم بها، والحديث الشريف يقول: «**لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه**»، قيل: وكيف يذلك نفسه يا رسول الله؟ قال: «**يعرضها من البلاء لما لا تطيق**»(158). كما أنهم هنا قد يقتلون من لا يجوز قتله، والأصل في الدماء الحظر والتشديد.

وجماعات الجهاد في مصر وفي الجزائر وفي غيرها ترى - بإمكاناتها المحدودة - أن تقاتل القوات المسلحة، وتنسى الفارق الهائل في القدرة المادية عند الطرفين، كما تنسى أن الجندي في القوات المسلحة إنما هو آلة في ترس، لا يملك أن يعصي أمرًا لمن فوقه، فعلام يقتل؟

ومن ناحية أخرى، لا يبالي هؤلاء من يقتل من الأبرياء، من الرجال، والنساء، والولدان، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، وقد نهى الرسول الكريم عن قتل النساء والصبيان في الحرب «الرسمية» بين المسلمين وأعدائهم، حين تلتقي الجيوش وجهًا لوجه، فلا يقتل إلا من يقاتل.

المهم أن فقه الإخوان في «الجهاد» يخالف فقه هذه الجماعات الجديدة.

---

(158) رواه الترمذي في الفتن عن حذيفة (2255) وقال: حسن غريب ونسبه في «صحيح الجامع الصغير» إلى أحمد والنسائي أيضًا (7797)، ورواه البزار والطبراني عن ابن عمر، وإسناد الطبراني جيد، كما في «المجمع» (7 / 247).

كما أن فقه الإخوان في «التغيير» يخالف فقهها، فالإخوان يرون أن التغيير لا بد أن يتم أولًا داخل النفس الإنسانية، فالإنسان يقاد من داخله لا من خارجه، من ضميره لا من يده، وهذا ما قرره القرآن من صورة قانون اجتماعي عام **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ}** [الرعد: 11].

وهذا طريق طويل، ولكن لا طريق غيره يوصل إلى الغاية.

وقد رددت على فقه هذه الجماعات في استخدام العنف في محاضرات وخطب وحلقات تلفزيونية في الفضائيات المعروفة، مثل برنامج «الشريعة والحياة» في قطر، وبرنامج «المنتدى» في تليفزيون أبو ظبي، وفي «دار الرعاية» في لندن، وغيرها.

وبينت أن حسن النية والرغبة في نصرة الدين عند هذه الجماعات لا يبرر لها ما تفعل، فقد كان الخوارج صوامًا قوامًا عبادًا، ولم يغن عنهم ذلك من الله شيئًا، وأمر الرسول بقتالهم وقتلهم، لخطرهم على المجتمع، وصحت الأحاديث في ذمهم من عشرة أوجه، كما قال الإمام أحمد.

لا يكفي حسن النية إذن، فمن الناس من زُين له سوء عمله فرآه حسنًا!

بل إن هذه الجماعات يخالف فقهها فقه الإخوان في قضايا كثيرة في السياسة الشرعية، وفي الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية والإعلامية وغيرها.

فهم متشددون في قضايا المرأة، وفي قضايا التعددية السياسية، وفي اقتباس بعض أساليب الديمقراطية وضماناتها مثل الانتخاب، والتصويب بالأغلبية، وإلزامية الشورى، وتحديد مدة الأمير أو الرئيس ... إلخ.

وكذلك في العلاقة بغير المسلمين من المواطنين، وعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها: هل أساسه السلم أو الحرب؟ وإلى أي حد تتدخل الدولة في شئون الاقتصاد؟

فالعجب أن يقال: إن هذه الجماعات خرجت من «معطف» الإخوان، وهي تناقض الإخوان فكرًا وأسلوبًا، وتتهم الإخوان بأنهم فرطوا في الدين، وتعتبر اجتهادهم في قضايا العصر: ضربًا من التبعية والخضوع لتيار التغريب والغزو الفكري! أعني أن هذه الجماعات السملحة تضاد الإخوان، وتناقضها في توجهاتها، وهي ليست كذلك في مصر وحدها، بل هي كذلك في الجزائر وغيرها.

بيانات الإخوان المتكررة تدين العنف:

في السنين الأخيرة أوضح الإخوان موقفهم من العنف بكل الصراحة والوضوح في بيانات رسمية معلنة ومنشورة يدينون فيها العنف ويستنكرونه ويرفضونه بكل أشكاله وصوره، وأيا كانت مصادره وبواعثه, وذلك على أساس فهمهم لقيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه، كما سبق أن أكد الإخوان مرارًا على ضرورة إيقاف أعمال العنف والعنف المضاد، من منطلق وقاية البلاد من نزيف الدم الذي حرمه الله والحفاظ على المجتمع من الانهيار الاجتماعي والخراب الاقتصادي والذي لن يستفيد من ورائه إلا أعداء الإسلام وخصوم المسلمين.

لقد أدى الإخوان المسلمون دورهم بالنسبة لهذه القضية على أكمل وجه ممكن، وبما تتيحه طاقاتهم وإمكاناتهم، فعقدوا لذلك العديد من الندوات

والمحاضرات والمؤتمرات واللقاءات العامة، وأصدروا البيانات والنشرات والكتيبات لتوعية المواطنين «وبخاصة الشباب» وتنبيه الرأي العام لمخاطر العنف والعنف المضاد وأثره السلبي على أمن واستقرار مصر، فضلًا عن دورها الريادي تجاه أمتها العربية والإسلامية، كما أن الإخوان حالوا - من خلال التربية المستمرة والتوجيه المباشر للشباب - دون وقوع عشرات الآلاف منهم في براثن أعمال العنف، وكم لهذه آثاره وانعكاساته البعيدة المدى على تحجيم هذه الأعمال وعدم تناميها وانتشارها.

وقد ظهر للشعب المصري، بل وللعالم كله في شتى بقاع الأرض ما تحمله دعوة الإخوان المسلمين من حكمة واعتدال وبعد نظر، وحرص على إسعاد البشر، كل البشر، ولم يحدث خلال الأزمات الماضية والحالية على كثرتها - والتي كان من الممكن أن تعصب بأمن الوطن واستقراره - أن استغل الإخوان أية فرصة لتصفية حسابات، أو ممارسة أي عمل من أعمال العنف «ولو على المستوى الفردي»، أو عقد اتفاقات أو تشجيع ممارسات من شأنها أن تضر بالصالح العام، بل كانوا حريصين كل الحرص على أمن وسلامة وطنهم، وهدوء واستقرار مجتمعهم، وذلك من منطلق إيمانهم بربهم، وحبهم إسلامهم، والتزامهم بأصول دعوتهم. [بيان الإخوان بتاريخ 18 يونيو 1994].

وقد تعددت البيانات الصادرة عن الجماعة والتي تدين العنف، وتعبر فيها عن رأيها في هذا الخصوص، وقد قامت كل الصحف في مصر والحكومية والحزبية بنشرها في حينها، إما كاملة أو مقتطفات منها، بحيث لم يعد في مصر أحد يجهل رأي الإخوان في هذه القضية، وكا من أبرز البيانات التي

صدرت، ذلك البيان الجامع الصادر في 30 من ذي القعدة 1415هـ الموافق 30 من إبريل 1995م، والذي جاء فيه:

«لقد أعلن الإخوان المسلمون عشرات المرات خلال السنوات الماضية: أنهم يخوضون الحياة السياسية ملتزمين بالوسائل الشرعية، والأساليب السلمية وحدها، مسلحين بالكلمة الحرة الصادقة، والبذل السخي في جميع ميادين العمل الاجتماعي ... مؤمنين بأن ضمير الأمة ووعي أبنائها هما في نهاية الأمر الحكم العادل بين التيارات الفكرية والسياسية، التي تتنافس تنافسًا شريفًا في ظل الدستور والقانون، وهم لذلك يجددون الإعلان عن رفضهم لأساليب العنف والقسر ولجميع صور العمل الانقلابي الذي يمزق وحدة الأمة، والذي قد يتيح لأصحابه فرصة القفز على الحقائق السياسية والمجتمعية، ولكنه لا يتيح لهم أبدًا فرصة التوافق مع الإرادة الحرة لجماهير الأمة ... كما أنه يمثل شرخًا هائلًا في جدار الاستقرار السياسي، وانقضاضًا غير مقبول على الشرعية الحقيقية في المجتمع.

وإذا كان جو الكبت والقلق والاضطراب الذي يسيطر على الأمة قد ورط فريقًا من أبنائها في ممارسة إرهابية، روعت الأبرياء وهزت أمن البلاد، وهددت مسيرتها الاقتصادية والسلمية، فإن الإخوان المسلمين يعلنون - في غير تردد ولا مداراة - أنهم برآء من شتى أشكال ومصادر العنف، مستنكرون لشتى أشكال ومصادر الإهارب، وأن الذين يسفكون الدم الحرام أويعينون على سفكه شركاء في الإثم، واقعون في المعصية، وأنهم مطالبون في غير حزم وبغير إبطاء أن يفيئوا إلى الحق، فإن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، وليذكروا - وهم في غمرة ما هم فيه - وصية الرسول صلى الله

عليه وسلم في حجة وداعه: «**أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى يوم القيامة كحرمة يومكم هذا في عامكم هذا في بلدكم هذا**».

أما الذين يخلطون الأوراق عامدين، ويتهمون الإخوان ظالمين، بالمشاركة في هذا العنف والتورط في ذلك الإرهاب، متعللين في ذلك بإصرار الإخوان على مطالبة الحكومة بألا تقابل العنف بالعنف، وأن تلتزم بأحكام القانون والقضاء، وأن تستوعب في دراستها ومعالجتها لظاهرة العنف جميع الأسباب والملابسات، ولا تكتفي بالمواجهة الأمنية - فإن ادعاءاتهم مردودة عليهم بسجل الإخوان الناصع كرابعة النهار، على امتداد سنين طويلة، شارك الإخوان خلال بعضها في المجالس النيابية والانتخابات التشريعية، واستُبعدوا خلال بعضها الآخر عن تلك المشاركة، ولكنهم ظلوا على الدوام ملتزمين بأحكام الدستور والقانون، حريصين على أن تظل الكلمة الحرة الصادقة سلاحهم الذي لا سلاح غيره، يجاهدون به في سبيل الله «لا يخافون لومة لائم» والأمر في ذلك كله ليس أمر سياسة أو مناورة، ولكنه أمر دين وعقيدة، يلقى الإخوان المسلمون عليهما ربهم **{يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ 88 إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** [الشعراء: 88، 89]. [الإخوان المسلمون، 30 من ذي القعدة 1415هـ/30 من ابريل 1995].

شهادات المسئولين للإخوان:

ولعله من المناسب هنا أن نورد شهادات للمسئولين الرسميين في مصر عن موقف جماعة الإخوان المسلمين من هذه القضية، يثبت كذلك كذب كل ما يقال عنهم بعد ذلك:

تصريح الرئيس حسني مبارك:

فقد صرح الرئيس محد حسني مبارك لجريدة «لوموند» الفرنسية أثناء زيارته لفرنسا سنة 1993، بتصريح نشرته الصحف المصرية وفي مقدمتها جريدة «الأهرام» بتاريخ 1993/11/1 قال فيه:

«إن هناك حركة إسلامية في مصر تفضل النضال السياسي على العنف، وقد دخلت هذه الحركة بعض المؤسسات الاجتماعية واستطاعوا النجاح في انتخابات النقابات المهنية مثل الأطباء والمهندسين والمحامين».

شهادة وزير الداخلية المصري:

ولم يكن رئيس الجمهورية هو الوحيد من رجال السلطة الذي أكد انقطاع أي صلة للإخوان بالعنف والإرهاب، بل إن وزير الداخلية الحالي اللواء حسن الألفي في مؤتمره الصحفي الذي عقده، ونشرت وقائعه بتاريخ 14 من ابريل سنة 1994، سئل عن علاقة الإخوان بتنظيم الجهاد أو الجماعة الإسلامية - وهما المنطتان اللتان يتهمها النظام باستخدام العنف - فكان رده:

«الإخوان جماعة لا يرتكب أفرادها أعمال عنف، بعكس تلك المنظمات الإرهابية» [جريرة الجمهورية، وجريدة الأهرام، عدد 1994/4/14م].

شهادة خبير الأمم المتحدة:

كما أكد ذلك الخبراء والمختصون في هذا المجال وعلى رأسهم خبير الإرهاب الدولي المصري بالأمم المتحدة اللواء أحمد جلال عز الدين - والذي قام الرئيس مبارك بتعيينه عضوًا بالبرلمان عام 1995 ضمن العشرة الذين يحق لرئيس الجمهورية تعيينهم - حيث صرح في مقابلة موسعة له عن

«الإرهاب والتطرف» مع جريدة «الأنباء» الكويتية:

«أن الإخوان المسلمين، حركة دينية سياسية ليس لها صلة بالإرهاب والتطرف» ... وأن الإخوان في نظر عدد كبير من تنظيمات العنف يعتبرونهم متخاذلين وموالين للسلطة ومتصالحين معها ...». [العدد 6560 من جريدة «الأنباء الكويتية» الصادرة في 13 / 8 / 1994).

شهادة د. مصطفى الفقي:

كما أن الدكتور مصطفى الفقي مدير مكتب الرئيس حسنى مبارك لشئون المعلومات، قد أعلن في مؤتمر الإدارة العليا بالإسكندرية: «نحن نقبل مشاركة التيار الإسلامي المعتدل، والمتمثل في جماعة الإخوان المسلمين ومنحها الشرعية بشروط، أبرزها إعلانهم نبذ العنف ومقاومته علنًا، وقبول مبدأ الديمقراطية بكل صيغها، وفي مقدمتها تداول السلطة والأحزاب والحوار». [صحيفة «الوفد» المصرية في 1993/11/1].

الإخوان والتنظيمات السرية:

فليس لدى الإخوان المسلمين أية تنظيمات سرية أو النية لعمل تنظيمات تعمل تحت الأرض بعيدًا عن الأعين، فليس هذا من منهاجهم أو توجههم فضلًا عن أن العمل السري يضر بالعمل الدعوي.

فأما أن التنظيمات السرية لا تتفق ومنهج الإخوان، فذلك واضح من خلال حركتهم ونشاطاتهم في مجالات كثيرة ومتعددة عبر العقود الأخيرة، كما أن لافتاتهم وملصاقاتهم موضوعة في كل مكا من أرض مصر شاهدة على أنهم يعملون في وضح النهار وأنهم موجودون وسط الميدان يعيشون مع الناس

ويمتزجون بهم ويشاركونهم أفراحهم وأتراحهم.

لقد دخل الإخوان المسلمون انتخابات مجلس الشعب في عامي 84، 87، كما أنهم خاضوا انتخابات مجلسي الشورى عام 1989، والمحليات عام 1992، هذا فضلًا عن الانتخابات المتعاقبة للنقابات المهنية المختلفة.

وكان تحرك الإخوان في هذه الانتخابات جميعها علنيًا وظاهرًا وبارزًا بشعاراتهم وهتافاتهم ولقاءاتهم وبياناتهم، وهم الآن موجودة في النقابات المهنية المختلفة ونوادي هيئة تدريس الجامعة، والجمعيات والمجالس المحلية، ومن خلال الانتخابات النزيهة الحرة.

ولا يستطيع أحد أن ينكر دورهم في مجلش الشعب عامي 84، 87 وتكوينهم لتكتل نيابي باسم الإخوان المسلمين، وكيف أنهم أثروا الحياة النيابية بأفكارهم ورآئهم وتوجيهاتهم في كل الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولذلك كان لمجلس الشعب في هذين الفصلين التشريعيين مكانته ونصيبه في اهتمامات الناس.

ولم يختلف الإخوان المسلمون يوما ما عن الإدلاء بدلوهم وتبيان آرائهم ومواقفهم في أية قضية محلية أو إقليمية أو دولية.

فلماذا بعد كل هذا يلجأ الإخوان لعمل تنظيمات سرية؟

وأما أن التنظيمات السرية تضر بالعمل الدعوي فهذا يرجع إلى أن التنظيمات السرية تعمل في ظلام، والظلام بطبيعته يستحيل معه - مهما كانت القيادة نشطة وواعية ومتحركة وجادة - متابعة كل الأفراد «خاصة إذا كان عددهم عظيما» من حيث العقيدة والأفكار والسلوكيات والأخلاق، ومدى

مطابقة هذا من عدمه مع العقيدة الصحيحة، والأفكار الأصيلة للدعوة، والسلوكيات والأخلاق الأساسية للإسلام.

ولأن الإخوان المسلمين ينتمون إلى أهل السنة والجماعة ويعتبرون أنفسهم جماعة من المسلمين فإن عقيدتهم وفكرتهم من حيث النقاء والأصالة لا تشوبها شائبة، كما أن مناهجهم واضحة متميزة من حيث اعتمادها على الكتاب والسنة والفهم الصحيح الذي أجمع عليه أهل العلم الثقات، وبالتالي فهم حريصون على ألا تشوه دعوتهم من قبل فرد أو مجموعة، ومخافة أن تنحرف الدعوة عن مسارها الأصلي، ينبذ الإخوان المسلمون العمل السري ويرونه خطرا على دعوتهم وعلى أفرادهم.

إن العمل الدعوي في وضح النهار يكشف في وقت مبكر وبدون عناء أي انحراف يصيب العقيدة أو الفكر، كما أنه يفضح أي سلوك يخالف تعاليم الإسلام وهديه، وحتى لو حدث هذا فإنه يمكن معالجته سريعا وبشكل ميسور، أو أن تنفي الدعوى عن نفسها الخبث فتتخلص مما يرد أن يعلق بها.

غير أن بعض الكتاب من غير المنصفين يحاول الآن وبشكل مبتسر إيهام الرأي العام بأن جماعة الإخوان صاحبة تاريخ عريق في التنظيمات السرية وأعمال الاغتيالات ... إلخ، مستشهدين ببعض الأعمال الفردية التي انزلق إليها أفراد من النظام الخاص في الأربعينات والتي أدانتها قيادة الإخوان في حينها.

ومن الحق والإنصاف القول بأن ظروف البلاد في الأربعينات ومطلع الخمسينات من هذا القرن اقتضت أن يشكل الإخوان - كغيرهم من الجماعات

الوطنيـة فـي ذلـك الوقـت - نظامـا مـن بعـض الأفـراد المحبـين للتضـحية والاستشهاد للقيام بعمليات جهادية ضد المحتل الإنجليزي الغاصب الذي كـان جاثمـا علـى صـدر مصـر، وأيضـا عصـابات صـهيون التـي كانـت ولا تـزال تعربد بكل الوحشية والإجرام في أرض فلسطين، وقد أدى هذا النظام الخـاص دوره علـى أروع مـا يكـون الأداء حيـث شـهدت ضـفاف القنـاة وثـرى أرض فلسطين بطولات خارقة وأعمـالا استشـهادية فذة للإخـوان المسلمين يفخـر بـه كل غيـور علـى بـلاده، وقد انتهـى النظـام الخـاص بانتهـاء مسببات قيامـه منذ أكثر من أربعين سـنة ولـم يعد لـه وجـود إلا الـذكرى. [الإخوان المسلمون - 30 من ذي القعدة 1415هـ /30 من ابريل 1995].

المحاكمات العسكرية للإخوان:

ويبقى هنا سؤال: إذا كان هذا هو موقف الإخـوان بوضـوح، فمـا سـر هـذه المحاكمـات العسـكرية، والإجـراءات الأمنيـة، التـي تتخـذ فـي حـق الإخـوان بخصوص تنظيمات سرية تكتشف ما بين الحين والحين؟

ولكي أجيب عن هذا السؤال أو أن أسـجل هنـا خلاصـة لقـاء تم بينـي وبـين ضابط مهم مسئول عن الإخوان في أمن الدولة، زارني في بيتي بالقاهرة، فـي صـيف سـنة 1995م وكـان لقائـه معـي غايـة فـي الأدب، وقـال لـي: هـل عنـدك مانع أن أوجه إليك بعض الأسئلة لأسمع إجابتك عنها؟

قلت لـه: لا مـانع قط، أنـا رجـل مـن مهمتـي أن أتلقـى أسـئلة النـاس وأجيـب عنها.

قال: ما رأيك في المحاكمات العسكرية؟ والأحكام التي صدرت فيها؟

قلت: هل تريد رأيي بصراحة.

قال: نعم.

قلت: الأحكام العسكرية كانت قاسية، بل شديدة القسوة، على أناس لم يقترفوا جرما، ولم يمارسوا عنفا. فمن المعلوم لديكم أن الإخوان منذ خرجوا من سجون عبد الناصر إلى اليوم، لم يثبت في حقهم أنهم استخدموا العنف أو شاركو فيه، ولا لمرة واحد.

بل أنتم ـ ولا شك ـ تعلمون الصدامات التي وقعت بين شباب الإخوان في الصعيد وشباب جماعة الجهاد. حيث يتهمون الإخوان بالتخلي عن مبدأ «الجهاد» والمهادنة للسلطة، والاستسلام للطواغيت ... إلخ.

قال: ولكن لا يزال في الإخوان جماعات تتدرب على السلاح؟

قلت: جماعة الإخوان جماعة كبيرة، وممتدة في شرائح متنوعة من الشعب، ولا يبعد أن يوجد فيها عشرة أو عشرون يفكرون مثل هذا التفكير إن صح ذلك، وأنا أحكم على المجموع ولا على الجميع، والمهم هو الاتجاه العام في الجماعة، الذي تقوم عليه التربية والثقافة والتوجيه العام. وقد كان الإخوان قديما يحتاجون إلى هذا النوع من التدريب العسكري حين لم يكن هناك تجنيد إجباري، أما في عصر التجنيد الإجباري فكل المصريين يدخلون الجيش، فلا حاجة لمثل هذا التدريب.

ثم عاد الحديث إلى الأحكام العسكرية. وقلت له فيما قلت: ولماذا المحاكمات العسكرية لأناس مدنيين ليس فيهم عسكري واحد، ثم هم لم يمارسوا أي عمليات عسكرية؟ ولم يتجهوا إلى العنف أو يجيزوه بوجه من

الوجوه، فيما أعلم عنهم، أو عمن أعرفه منهم على الأقل.

أعرف من الدفعة الأولى الدكتور عصام العريان، أعرفه منذ كان طالبا في كلية الطب، وكان أميرا للجماعة الإسلامية، وقد كان حريصا على أن ينتقل بالطلاب من الغلو والتشدد إلى الوسطية، وكان يستعين وبشيخنا الغزالي على ذلك. وأعرفه بعد أن نضج وأصبح وجها إسلاميا مصريا مشرفا، له حضور واضح في المؤتمرات والندوات التي تعقد داخل مصر وخارجها. وماذا ارتكب عصام العريان حتى يحكم عليه بخمس سنوات؟

وأعرف من الدفعة الثانية: الدكتور عبد الحميد الغزالي، وهو أستاذ متخصص في الاقتصاد الإسلامي، ومدير لمعهد البحوث والتدريب في البنك الإسلامي للتنمية، وقد جمعتني به حلقات وندوات ومؤتمرات خاصة بالاقتصاد الإسلامي، وهو يعيش بجدة منذ سنوات، وليس من نشطاء الإخوان.

قال: ولكنه صار من نشطاء الإخوان بعد أن توفيت زوجته.

قلت: هو لحق! إنه عاد من جدة منذ عدة أشهر فقط.

قال: ولكن الإخوان يقيمون تنظيمات مخالفة للقانون؟

قلت له: سأسلم معك بما تقول. ولكن لماذا تلجئون الإخوان لمخالفة القانون؟

أنت تعلمون أن الإخوان جماعة موجودة بالفعل، وتنمو وتتكاثر ككل كائن حي، فلماذا لا تسمحون لها بالوجود القانوني؟ أنتم سمحتم بذلك للشيوعيين والناصريين والقوميين وسائر الفئات، إلا الإخوان، أليس الإخوان مصريين؟

أهم مستوردون من خارج تراب الوطن أم هم جزء منه؟

إن الصواب في ذلك: أن يسمح للإخوان بالعمل علانية فوق الأرض، وتحت سمع الدولة وبصرها، وبإذن من القانون، بدل أن تلجئهم إلى العمل تحت الأرض. فهذا من حقهم بوصفهم مصريين، والتزامهم بالدين وبالإسلام لا يجوز أن يكون سببا في حرمانهم من ممارسة حقوقهم المشروعة.

ثم قلت: وقد كان الإخوان موجودين بالفعل منذ عهد الرئيس الراحل السادات رحمه الله ، وكان الأستاذ التلمساني، يدعى في الاجتماعات المختلفة باعتباره مرشدا للإخوان! قال: ولكن الأستاذ التلمساني، كان عنصرا ملطفا بطبيعته الهادئة، وشخصيته الطيبة، ثم لم يكن التنظيم محكما كما هو محكم اليوم.

قلت: الذي أراه مخلصا: أن علاج هذا كله يكمن في الاعتراف بالإخوان كجماعة لها كيانها وأهدافها ونشاطها في حدود النظام العام والقانون.

ونحن أحوج ما نكون إلى تجميع كل القوى، وتوحيد صفوف الأمة للبناء، والتنيمة والرقي بوطننا بعيدا عن التوترات والصراعات.

أنا أقول هذا بوصفي مصريا مسلما، يحب الخير لوطنه، والإعزاز لدينه، وقد علمتني رحلاتي المختلفة إلى أقطار العالم: أن مصر من أرجى بلاد الله لنصرة الإسلام، إن لم تكن أرجاها جميعا.

أنا أقول لك هذا بصراحة العالم، لا بمناورة السياسي، وأنا ليس لي أي وضع تنظيمي في الإخوان!

قال: نحن نعلم أنه ليس لك أي وضع تنظيمي في الإخوان داخل مصر،

ولكن في التنظيم العالمي ألا يوجد لم مشاركة فيه؟

قلت: كان لي مشاركة من قبل، ثم استعفيت منذ سنين، لأتفرغ لخدمة الإسلام بالعلم والفكر والدعوة، واعتبر نفسي ملك المسلمين جميعا، لا ملك الإخوان وحدهم. وهذا لا يعني أني أتنكر لفكر الإخوان أو لدعوتهم، وهم قد يعتبرونني منظرهم أو مفتيهم، كما أن كتبي تعد من مراجعهم الأولية، وهم أول الناس قراءة لها.

وهناك أسئلة أخرى جرت فيه هذه المقابلة، لا تهمنا هنا، إنما الذي يهمنا هو التعليق على الأحكام العسكرية.

وبعد أكثر من ساعة، انتهيت المقابلة، وانصرف الضابط المسئول مشكورا، ولم أعرف الهدف من وراء المقابلة، ولعله مجرد التعرف أو التعارف، المهم أني قلت ما أعتقد أنه الحق، وبالله التوفيق.

شهادة كاتب منصف:

وقبل أن أدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة، قرأت مقالا يعتبر غاية في العلمية والإنصاف، يتحدث عن حسن البنا بمناسبة مضي خمسين سنة على استشهاده، وهو للكاتب الصحفي المعروف، الأستاذ صلاح عيسى، والرجل لا يتهم بالتحيز للإخوان المسلمين، ولا للتيار الإسلامي، بل هو محسوب على الفكر اليساري، ولكنه كتب ما كتب، إحقاقا للحق، وإبراء للذمة، وإنصافا للحقيقة والتاريخ.

نشرت هذا المقال جريدة «الشرق» اليومية القطرية «يوم الأحد 19من ذي القعدة 1419هـ 1999/3/7م» تحت عنوان: حسن البنا ... لا عنف ولا

تزمت.

ويسرني أن أسجل هذا المقال وهذه الشهادة العادلة هنا، محييا صاحبها على حياده ونزاهته وعلميته. يقول الكاتب:

«الذين يضعون فأس اتجاهات التيارات الإسلامية ... في مصر والعالم العربي نحو التزمت ثم العنف، في عنق الشيخ «حسن البنا» مؤسس جماعة الإخوان المسلمين الذي غاب عن دنيانا في مثل هذه الأيام منذ خمسين عاما. يسيئون عن عمدة قراءة وقائع التاريخ، ويقحمونه في الصراع السياسي القائم الآن، بينهم وبين التيار الإسلامي بمجمل فصائله، فلا يسيئون - بوضعهم الجميع في سلة واحدة - لوقائع التاريخ فحسب، ولكنهم - وهذا هو الأخطر - يؤججون نيران العنف، حيث يتوهمون أنهم سيقضون عليه، ويقودون الأمة إلى صراع عبثي لا جدوى من ورائه، يتوهم خلاله، كل تيار من تياراته الرئيسية في الحركة السياسية العربية، أن باستطاعته استئصال الآخرين، وبذلك تطيش خطواتها نحو المستقبل في الألفية الثالثة، كما طاشت في الألفية الثانية.

وما يتجاهله الذين يحملون «الشيخ حسن البنا» المسئولية عن نشأة تيار العنف، هو أن تشكيل المنظمات شبه العسكرية كان موضة لدى كل التيارات السياسية في الثلاثينيات في إطار النتائج الإيجابية التي حققتها نظم الحكم في ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، التي نجحت استنادا إلى عسكرة المجتمع، في استعادة ما أضاعته الحرب العالمية الأولى من حقوق البلدين الوطنية وأن فرق الجوالة التي أنشأها «البنا» وعرفت بفرق القمصان الكاكية، لم تكن الوحيدة في الساحة، فقد كانت هناك «فرق القمصان الخضراء» التي شكلتها

جماعة «مصر الفتاة» وكان من أعضائها «جمال عبد الناصر» بل إن «الوفد» وهو الحزب الديمقراطي العتيد قد شكل هو الآخر «فرق القمصان الزرقاء» وكل الشواهد التاريخية، تؤكد أن «جوالة الإخوان» كانت أكثر هذه الفرق، انضباطا، سواء من الناحية الأخلاقية أو من ناحية الالتزام بالقانون.

ومما يتجاهلونه كذلك أن الإخوان المسلمين، لم يكونوا هم الذين بدأوا باستخدام الرصاص في الحوار السياسي مع القوى الساسية المحلية، فقد كان أول استخدام له، في هذا الاتجاه عام 1922 وقبل ست سنوات من تشكيلهم، عندما اغتال مجهولون يشك في أنهم من المتعاطفين مع «الوفد» اثنين من زعماء «الأحرار» الدستوريين إبان الصراع العنيف بين الطرفين. كما أن أحدا من الإخوان المسلمين، لم يشارك في محاولات الاغتيال التي تعرض لها «إسماعيل صدقي» وأركان الانقلاب الديكتاتوري الذي تزعمه طوال النصف الأول من الثلاثينيات وكان أحد أعضاء «مصر الفتاة» هو الذي حاول اغتيال «مصطفى النحاس» عام 1937.

ولم يكن استخدام االعنف ضد الاحتلال البريطاني في الأربعينات، قاصرا على الإخوان، فباستثناء الشوعيين الذين لا يؤمنون ... من حيث المبدأ ... بالعنف الفردي، فقد كان اللجوء للعنف لإجبار المحتلين على الجلاء أو على الأقل، تنفيذ معاهدة 1936، والرحيل عن المدن الكبرى إلى قاعدة قناة السويس، يكاد يكون توجها عاما، بين التيارات السياسية الجديدة، كالحرب الوطني الجديد، ومصر الفتاة، فضلا عن كثير من المنظمات السرية الشبابية التي استلهمت تجارب المقاومة السرية ضد الاحتلال النازي لدول أوروبا، وخاصة فرنسا، بل إن هذه الموجة قد شملت كذلك قواعد شبابية تنتمي إلى

الأحزاب التقليدية ومنها «الوفد».

ولم يكن الإخوان وحدهم، هم الذين غيروا، في النصف الثاني من الأربعينات ... اتجاه رصاصاتهم من صدور جنود جيش الاحتلال إلى صدور المصريين، فالذي قتل أحمد ماهر أول ضحية تسقط نتيجة لهذا التغيير لم يكن إخوانيا، بل كان من المنتمين لشباب الحزب الوطني ولم يكونوا أصحاب نظرية هذا التوجه، لأن صاحبها هو ضابط الجيش المفصول آنذاك «أنوار السادات» الذي تعرف إلى مجموعة من الشبان يتزعمهم «حسين توفيق» كانوا يقومون بعمليات مقاومة سرية ضد ضباط وجنود ومؤسسات جيش الاحتلال ويمكنون له، انطلاقا من تصور يرى، أن تطهير البلاد من عملاء الاحتلال وجواسيسه، هو المقدمة الأولى للانتصار عليه ... وهو التيار الذي تواءم مع سعي القصر الملكي للثأر من خصومه من الوفديين وأسفر عن اغتيال أمين عثمان، وعن محاولتين لاغتيال مصطفى النحاس زعيم الوفد.

وليس «حسن البنا» هو الذي أسس تيار التزمت في الفكر الإسلامي، إذ الحقيقة أن هذا التيار قد تأسس ضده ونشأ متمردا على قيادته، وكان وراء أول انشقاق عن جماعته أسفر عام 1937 عن تشكل «جماعة شباب محمد» التي آتهمته بالقعود عن الجهاد، وبالاكتفاء بمساندة ثوار فلسطين الذين يجاهدون ضد الصهيونية بالكلمات، وليس بالقتال الفعلي وبهادنة القوى التي تماطل في تطبيق الشريعة وبالتواطؤ مع الذين لا يحكمون بما أنزل الله، وطالبته بالتخلي عن قيادة الدعوة، أو اتخاذ موقف جهادي واضح، يجابه الحكومة بأنها كافرة ويقاوم المنكر في المجتمع بالعنف ... وكانت «مصر

الفتاة» في سياق التنافس مع «الإخوان» هي التي ارتادت على الصعيد الحركي، طريق مقاومة المنكر باليد، حين قام أنصارها عام 1939 بالهجوم على الحانات لتحطيمها والاعتداء على روادها، وفي المرتين قاوم «البنا» هذا الاتجاه، وأعلن أنه ضد الخروج عن القوانين مهمما كان رأيه في درجة إسلاميتها.

والذين يضعون فأس المسئولية عن العنف الديني الذي تفشى منذ ذلك الحين في أنحاء مختلفة من المنطقة العربية، في رقبة «حسن البنا» يتجاهلون أن المسئول الأول عن ذلك، هم الذين شجعوا بل تآمروا على إقامة دولة دينية في المنطقة عن طريق العنف، والذين سعوا إلى ذلك عن طريق هجرة استيطانية، تحولت إلى أحزاب سياسية صهونية علنية، لكل منها جناح عسكري سري، تتعاون جميعها في ممارسة العنف ضد أصحاب البلاد الأصليين، من المسلمين والمسيحيين، لكي تطردهم منها وتحل محلهم.

وكان ذلك هو التحدي الذي استحجاب له «البنا» فاتبه نفس الطريقة ولكن لهدف مضاد، وشرع - بمشورة المجاهدين الفلسطينيين - في تشكيل الجهاز الخاص للإخوان المسلمين، ليكون بمثابة جناح عسكري للجماعة، يجند طاقات الشبان الأكثر حماسا واستعدادا للتضحية، من خلال دراسات فقهية حول نظرية الجهاد في الفقه الإسلامي، وبرامج للتدريب العسكري للأسلحة والمتفجرات، لكي يكونو مؤهلين لمواجهة الغزو الصهيوني والاحتلال الأجنبي لبلاد المسلمين، وبصرف النظر عن مدى صواب ذلك أو عدم صوابه، فإن المسئول عن نشؤ العنف الديني في المنطقة، ليس صاحب«رد الفعل» ولكنه صاحب «الفعل» الذي يملأ الدنيا الآن في بلاد الغرب، صراخا

ضد هذا النوع من العنف.

والشواهد التاريخية تؤكد أن معظم عمليات العنف التي قام بها الجهاز الخاص أو تلك التي قام بها قسم الوحدات الذي يضم ضباط الجيش وجنوده وضباط الشرطة من الإخوان ضلت في إطار الهدف الذي أنشئ من أجله الجهازان، وفي السياق نفسه لعمليات متشابهة، قام بها أعضاء من فرق سياسية أخرى، سواء بصفتهم الحزبية أو الشخصية، إذ توجهت في الأساس تجاه جنود ومؤسسات جيش الاحتلال ثم بعد ذلك وحين تعقد الوضع بين الفلسطينيين والصهاينة في أعقاب صدور قرار التقسيم. توجهت ضد الممتلكات اليهودية والصهاينة في أعقاب صدور قرار التقسيم. توجهت ضد الممتلكات اليهودية ومع أن تحفظا قد يرد على عمليات من نوع نسف حارة اليهود. أو محلات مثل ومع أن تحفظا قد يرد على عمليات من نوع نسف حارة اليهود، أو محلات مثل «شوكوريل» و«اوركو» فإن الفظائع التي كان يرتكبها الصهاينة ضد الفلسطينين، تجعل وقوعها أمرا واردا، وفضلا عن ذلك فقد تطوع عدد كبير من أعضاء القسمين، ضمن أفواج المتطوعين العرب، التي جخلت أرض فلسطين، قبل أن تدخلها الجيوش العربية رسميا في 15 مايو 1948.

لكن الجهاز الخاص الذي كان قسما ذا استقلال شبه ذاتي، له قيادته التنفيذية وتشكيلاته الخاصة ولوائحه المستقلة، ولا يربطه عمليا بالجماعة سوى مجلس المستشارين، ورئاسة «حسن البنا» ما لبث، بعد أن اتسعت عضويته، وتعاظم نفوذه، أن بدأ ينحو نحو مزيد من الاستقلال، ونشأ لدى بعض قيادته وخاصة «عبد الرحمن السندي» نزوع للانفراد باتخاذ القرار،

تذرعا بأن ضرورات التنفيذ، تبيح محظور عدم استشارة المرشد العام.

ومن الإنصاف للرجل، أن نقول بأن عمليات العنف التي قام بها الجهاز الخاص، ضد مصريين، في حياته، لا تتجاوز ثلاثة، هي قتل القاضي «أحمد الخازندار» بسبب أحكام قاسية أصدرها بحق بعض الذين قاموا بأعمال عنف ضد قوات الاحتلال، من أعضاء الجهاز ومن غيرهم، واغتيال رئيس الحكومة محمود فهمي النقراشي، ردا على قراره بحل جماعة الإخوان ومصادرة ممتلكاتها واعتقال قاداتها، وأخير محاولة نسف محكمة الاستئناف، لإحراق الأوراق السرية للجهاز الخاص، التي كانت قد ضبطت في سيارة جيب لتدمير أدلة الاتهام ضد قياداته وتأمين من لم يقع في أيدي الشرطة من أعضائه.

ولم يكن «البنا» طرفا في هذه العمليات الثلاث، فقد نفذت أولاها دون علمه، وغضب غضبا شديدا لوقوعها ونفذت الثانية والثالثة بعد حل الجماعة، وتفكك روابطها التنظيمية، بسبب اعتقال قادتها ومطاردة الاخرين، ووضعه هو نفسه تحت رقابة بوليسية صارمة، حالت بين الذين خططوا لهما وبين عرض الأمر عليه، وحالت بينه وبين الاعتراض على التنفيذ، بل إنه اعتبر أن الرصاصات التي وجهت إلى «النقراشي» قد أصابته هو نفسه، ونظر إلى محاولة نسف محكمة الاستئناف باعتبارها تحديا له، إذا كان يجري مباحثات سياسية، لكي يلغي قرار الحل، أبدى خلالها مرونة سياسية وصلت إلى حد أبدى فيه استعداده، لأن يقصر نشاطها على الجانب الديني وحده، ويتوقف عن التدخل في الشئون السياسية.

ولم يكن استقلال الجهاز السري للإخوان برؤاه وعملياته، بعيدا عن

القوانين العامة لهذا النوع من الأجهزة، بل إنه يكاد يكون تكرارا لتجربة الجهاز السري لثورة 1919 الذي نشأ للقيام بعمليات عنف محسوبة ضد الاحتلال، ومع أن الثورة كانت قد حققت أهدافها، فأعلن الاستقلال ثم الدستور، وتولي زعيمها سعد زغلول رئاسة الوزارة، فقد قامت مجموعة منه، باغتيال القائد البريطاني للجيش المصري، وحاكم السودان العام، فكانت النتيجة استقالة وزارة سعد، وسحب الجيش المصري من السودان وتعطيل الدستور.

والحقيقة أن انشغال «البنا» بالحشد والتحريك والتنظيم على حساب ما كان محتما ألا يتأخر في القيام به، وهو صيغة فقه إسلامي يستجيب لحاجات العصر، وخاصة ما يتعلق بالمسألة السياسية، لم يؤد فقط، إلى المخاوف التي أشاعها هذا الحشد في نفوس بقية الفرقاء على الساحة الاجتماعية والسياسية المحلية والدولية، ولم يسفر عن تعدد الرؤى داخل جماعته، بل وانعكس كذلك داخل الجهاز الخاص، الذي قام بهذه العمليات الثلاث، استنادا إلى اجتهاد خاص ببعض أعضائه لم ينظر إلى الإخوان المسلمين كما كان ينظر إليها باعتبارها «جماعة من المسلمين» يجوز الخلاف معها، بل نظر إليها باعتبارها جماعة المسلمين التي يتوجب حمل السلاح في وجه من يختلف معها.

ومن سوء الحظ التاريخي، أن الذين توجهت إليهم رصاصات الجهاز الخاص للإخوان، استنادا إلى هذا الاجتهاد الخاطيء، لم يميزوا بين الرجل، وبين الذين أساءوا فهم أفكاره، ووضعوها في سلة واحدة، فاغتالوه، وفي ظنهم أنهم يقضون على العنف، فإذا بهم يشعلونه في الأرض، إذ المؤكد أنه

لولا غياب حسن البنا، لتغير وجه النصف الثاني من القرن العشرين عما صار إليه، ولاختلف استقبالنا للألفية الثالثة عما نحن فيه». انتهى مقال الكاتب صلاح عيسى بنصه، لم أحذف منه حرفا.

وقد حلل فيه الأحداث تحليلا علميا سليما، دل على علمه بالتاريخ، ووعيه به، ومعرفته بما وراء الحوادث من بواعث، وما يؤثر فيها من تيارات وأوضاع. لقد نظر إلى الأحداث في حجمها الحقيقي، لم يحاول أن يكبر الصغير أو يهون الكبير، وربطها بمقدماتها ولواحقها، ووضعها في سياقها التاريخي المحلي والعالمي، فجاءت شهادته - والحق يقال - غاية في تحري الحقيقة، والدقة العلمية، والنظرة المستوعبة، والإنصاف، في زمن قل فيه المنصفون!

* * *

5 - الإخوان وإقامة الدولة المسلمة

بعض المعترضين على الإخوان يواجههم بسؤال محرج، يقول: لقد مر عليكم سبعون عاما، وأنتم تنادون بإقامة دولة إسلامية، تحقق حكم الله في الأرض، وتمكن لدينه في حياة الناس، تبني المجتمع المسلم المنشود، الذي يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، دولة ترجع إلى الكتاب، وتستخدم الحديد والميزان، ليقوم الناس بالقسط، ومع هذا لم تقيموا هذه الدولة التي سعيتم إليها وناديتم بها؟

ألا يدل هذا على أن طريقتكم خاطئة أو أن أهدافكم مستحيلة التحقيق؟

والجواب: أن هذا السؤال فيه كثر من الخلل والخطل من عدة أوجه:

الدولة ليست هي الهدف الأوحد:

الوجه الأول: أن إقامة الدولة المسلمة هدف أصيل، وأمل منشود، ولكنه ليس الهدف الأوحد، بحيث تقول إن الحركة كان لها هدف سعت إليه، ولم تحققه.

إذا الواقع أن للحركة جملة أهداف دعت إليها وحرصت عليها، وجاهدت لتحقيقها، فحققت بعضها، ولم تحقق بعضا آخر.

فقد أعلن مؤسس الدعوة، أنه يسعى لإيجاد: الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والأمة المسلمة.

وقد نقلنا من الإمام البنافي رسالته إلى الشباب:

1 - نريد أولا: الفرد المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، فهذا هو تكويننا الفردي.

2 - ونريد بعد ذلك: البيت المسلم: في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، ونحن لهذا نعني بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعني بالطفولة عنايتنا بالشباب، وهذا هو تكويننا الأسري.

3 - ونريد بعد ذلك: الشعب المسلم في ذلك كله أيضا، ونحن لهذا نعمل على أن تصل دعوتنا إلى كل بيت، وأن يسمع صوتنا في كل مكان، وأن تنتشر فكرتنا، وتتغلغل في القرى والنجوع، والمدن والمراكز، والحواضر والأمصار، لا نألو في ذلك جهدا، ولا نترك وسيلة.

4 - ونريد بعد ذلك: الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدي الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل. ونحن بهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه.

5 - ونريد بعد ذلك أن نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي، الذي فرقته السياسة الغربية، وأضاعت وحدته المطامع الأوروبية، ونحن بهذا لا نعترف بهذه التقسيمات السياسية، التي تجعل من الوطن الإسلامي دويلات ضعيفة ممزقة يسهل ابتلاعها على الغاصبين.

ولا نزاع في أن الإخوان قد حققوا - إلى حد كبير - بعض هذه الأهداف، بالنظر إلى تكوين الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم.

ولا يشك منصف في تأثير الحركة الإسلامية في تغير الأفكار والمشاعر

والسلوك، لدى الكثير ممن كانوا قد استسلمو لتيار الحضارة الغربية الزاحف، وساروا وراءها شبر بشبر، وذراعا بذراع، وظهر أثر ذلم في الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم.

والحكومة الإسلامية لم تقم بالفعل في مصر، ولكن تهيأ الرأي العام لها تهيؤا كبيرا، بحيث لو ترك الناس أحرارا ليختاروا لأنفسهم لاختاروا الإسلام وممثليه، كما ظهر ذلك بوضوح في الجزائر، وكما ظهر في مثر انتخابات النقابات المهنية، واتحادات الطلاب الجامعية، وانتخابات نوادي هيئات التدريس بالجامعات.

والأمة الإسلامية الواحدة لم تقم بالفعل، ولكن وجدت هذه الأمة في عقول الكثيرين من المسلمين ومشاعرهم، كما بينت ذلك في كتيب لنا بحق: «الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم».

قيام حكومات إسلامية:

2 - على أننا ينبغي ألا ننسى أن هناك حكومة إسلامية قامت - على أساس المذهب الشيعي - في إيران، وحكومة أخرى قامت على أساس المذهب السني - في السودان. وتأثير الحركة الإسلامية في إقامة هاتين الحكومتين لا ينكر، حتى حكومة إيران الشعبية، فقد تأثروا بفكر الإخوان.

وقام في فترة من الزمن حكم إسلامي جزئي في الأردن، ومثله في اليمن، ومثله في تركيا، ولو كان الأمر بيد الشعوب الإسلامية، تقضي أمرها بنفسها، وتختار لنفسها ماتريد، ومن تريد ما اختارت إلا الإسلام، ولكن القوى الغالبة على أمر المسليمن لا تمكنهم من ذلك، ولا تمنحهم الفرصة لذلك أبدا، وبهذا

أصبحوا كما قال الشاعر قديما في قبيلة تيم:

ويقضي الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنوا وهم شهود!

الدولة المسلمة مسئولية الجميع:

3 - على أن عدم إقامة الحكومة المسلمة أو الدولة المسلمة، ليس مسئولية الإخوان وحدهم، فهذا الأمر فريضة على كل المسلمين: أن تقودهم حكومة مسلمة تحكم بما أنزل الله، ولا تتبع الهوى فيضلها عن سبيل الله.

ويجب أن يسأل الجميع أنفسهم: ماذا قدمنا لإقامة دولة الإسلام، فليس يكفي أن يسأل المسلمون الإخوان: لماذا لم يقيموا دولة الإسلام، فليس يكفي أن يسأل المسلمون الإخوان: لماذا لم يقيموا دولة الإسلام التي دعوتهم إليها؟ فقد يجيبهم الإخوان: وماذا عملتم أو بذلتم لنا حتى نقيمها معا؟!

وأذكر أن الداعية الشهير سعيد رمضان رحمه الله ، ألقى محاضرة في إحدى المدن قديما، فسأله بعدها أحد الحضور: يا أستاذ، صار لكم عشرون سنة وأنتم تخطبون وتتكلمون فماذا عملتم؟

وكان جواب الداعية الموفق: وأنتم صار لكم عشرون سنة وأنتم تسمعون، فماذا عملتم؟!

إن السامع شريك المتكلم في تحمل التعبة، وإن المدعو شريك الداعي في المسئولية.

بذر البذرة أم قطف الثمرة؟

بقي هنا أمر مهم، بل في غاية الأهمية، هو: أن المطلوب من المسلم

والواجب عليه شرعا: أن يسعى لإقامة دولة الإسلام، وحكم الإسلام، حتى يكون للمسلمين إمام يقود أمتهم، ويجسد وحدتهم، ويحكم شريعتهم، فرارا من أن يموتوا «ميتة جاهلية» وهو ما حذر منه رسول الإسلام حين قال: **«من مات وليس في عنقه بيعة، فقد مات ميتة جاهلية»**[159] وينجي المسلم من الإثم هنا: أن يسعى مع الساعين لإيجاد هذا الإمام.

والإنسان يملك أن يسعى ويجهد، ولكنه لا يملك أن يكلل سعيه بالنجاح، وهذا ما قاله الناس من قديم، وتحدث عن الشعراء، كما قال القائل:

على السعي فيما فيه نفعي   وليس على إدراك النجاح!

ولقد ناقشت بعض الأخوة من حزب التحرير سنة 1952 حين زرت الأردن لأول مرة، وقد كانو يتبنون فكرة: أن أي دعوة أو حركة تعمل لإقامة الدولة الإسلامية، ثم يمضي عليها 23 سنة «وبعضهم قال: 13 سنة» ولا تحقق هدفها، لا بد أن يكون طريقها خطأ.

قلت لهؤلاء الإخوة: ما قولكم في سيدنا نوح؟ قالوا: رسول من أولي العزم من الرسل، قلت: وما رأيكم في دعوته؟ قالوا: دعوة حق وخير وهدى. قلت: وما رأيكم في أسلوبه وطريقته؟ قالوا: أسلوب بليغ متميز، قلت: ولكن نوحا عليه السلام ظل ألف سنة إلا خمسين عاما، يدعو قومه، فلم يستجيبوا له، وسجل ذلك القرآن حين قال: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا 5 فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا 6 وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا}** [نوح: 5 - 7].

---

(159) رواه مسلم عن ابن عمر.

ورغم مرور نحو ثلاثين جيلا عليه ما آمن معه إلا قليل، حتى امرأته وابنه، لم يؤمنا به، ولا غرو أن دعا على قومه قائلا: **{رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا 26 إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}** [نوح: 26، 27].

إن الدعية عليه أن يبذر البذرة، ويتعهدها بالسقي والتسميد والرعاية، ولكن قد تحول حوائل سماوية أو قدرية أو بشرية دون نضج الثمرة أو قطف الثمرة، فهو يبذر الحب، ويرجو الثمار من الرب.

إن الله تعالى لن يسأل عباده يوم الحساب: لماذا لم تنجحوا؟ ولماذا لم تنتصروا؟ ولكنه سبحانه سيسألهم: لماذا لم تعملوا؟ لماذا لم تجاهدوا؟ ولماذا لم تحاولوا؟

فإذا عملوا وجاهدوا وحاولوا فقد ارتفع الإثم عنهم، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

وهنا يقول الأستاذ البنا: إن العامل يعمل لإداء الواجب أولا، ثم للأجر الأخروي ثانيا، ثم للإفادة «أي تحقيق الهدف في الدنيا» ثالثا.

وهو إن عمل، فقد أدى الواجب، وفاز بثواب الله، ما في ذلك من شك، متى توافرت شروطه، وبقيت الإفادة، وأمرها إلى الله، فقد تأتي فرصة لم تكن في حسبانه تجعل عمله يأتي بأبرك الثمرات، على حين أنه إذا قعد عن العمل، فقد لزمه إثم التقصير، وضاع منه أجر الجهاد، وحرم الإفادة قطعا، فأي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا، وقد أشار القرآن إلى ذلك في صراحة ووضوح: **{لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ**

رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ 164 فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ} [الأعراف: 164 ، 165][160].

* * *

(160) «إلى أي شيء ندعو الناس» (ص: 54) من مجموعة الرسائل.

6 - الإخوان والمشروع الحضاري

ومن التهم التي وجهت إلى الإخوان: أنه ليس لديهم «مشروع حضاري» متميز، يقدمونه للناس، ويحلون به المشكلات المعقدة للمجتمعات التي نشأوا فيها. إنما كل ما عندهم مبادئ عامة وأفكار «هلامية» وبيانات عاطفية، تهز المشاعر، ولا تعالج المشاكل.

عند الإخوان خاصة - وعند التيار الإسلامي عامة - خطب ومحاضرات، ورسائل ومقالات، وكتب ومطبوعات، تشرح بعض جوانب من الإسلام، وربما كان شرح بعضها جيدا أو ممتازا، ولكنها لا تقدم مشروعا متكاملا للنهضة والإصلاح والتجديد الحضاري، وبناء الأمة من جديد، على أسس واضحة، وركائز معلومة، تقتنع بها العقول، قبل أن تستثار بها العواطف!

وبما خدع بهض الناس بهذا الكلام، وتصوروا أن الإخوان لم يقدموا «مشروعا» للناس.

والواقع أن الإخوان قدموا مشروعا متكاملا للناس في مضمونه، وإن لم يكن متكاملا في شكله وصورته.

وهذا كما يقال: إن الإسلام ليس لديه نظرية سياسية، أو نظرية اقتصادية، وهذا قد يكون مسلما بالنسبة للشكل، فليس في التراث الإسلامي شيء، اسمه «النظرية السياسية» أو «النظرية الاقتصادية»، ولكن مادة هذه النظرية وتلك موجودة في تعاليم الإسلام وأحكامه، ومبثوثة في مصادره ومراجعه.

دعائم المشروع الحضاري للإخوان:

مشروع الإخوان الحضاري موجود في مصادرهم، وهو يقوم على جملة دعائم:

1 - الإيمان بالمرجعية العليا للإسلام المجسدة في القرآن والسنة في بناء حياتنا كلها، ثقافية وتربوية واجتماعية وسياسية واقتصادية.

2 - الدعوة إلى تجديد الدين وإلى الاجتهاد في فهمه، لمن يملك شروطه، وفي مجال الاجتهاد، والنظر إلى الإسلام وأصوله بعين، وإلى العصر ومشكلاته، بعين أخرى.

3 - الاستفادة من كل المدارس الإسلامية في علاج مشكلاتنا المعاصرة، وخصوصًا المدارس التحديدية في تراثنا الفكري والفقهي، والانتفاع بإبداعاتها، والإضافة إليها.

4 - رفض ما ألصق بالإسلام من أفهام خاطئة متخلفة، من رواسب عصور الهزيمة والترجع الحضاري، عملا بالقول المأثور: خذ ما صفا، ودع ما كدر.

5 - الانتقاء مما جاءتنا به الحضارة الغربية، فلا نقبل كل ما جاءت به، ولا نرفضه، بل نأخذ منها ما ينفعنا وما يتفق مع قيمنا وشريعتنا، وندع ما يضرنا وما يخالف ديننا، ومن أهم ما نأخذ منها: الجوانب العلمية والتكنولوجية والإدارية، فاقتباس هذه الجوانب وإتقانها فريضة وضرورة. وهي في الواقع بضاعتنا ترد إلينا.

6 - المشروع للأمة الإسلامية كلها، ولكن مصر هي نقطة الانطلاق،

لموقعها الديني والحضاري والتاريخي والجغرافي، ولأنها بلد الأزهر، والوطن الأم للحركة الإسلامية، ولتجاوب جماهير شعبها مع الإسلام فكرا وشعورا وسلوكا.

7 - تقوم النهضة أول ما تقوم على تحرير الوطن - المصري والعربي والإسلامي - من الاستعمار وآثاره الثقافية والتشريعية والتربوية والاجتماعية، وإعادة بنائها في شتى نواحي الحياة.

8 - أن تقوم فيه للإسلام دولة قوية تبني عقيدته، وتحكم شريعته، وتثبت قيمه، دولة شورية مجددة وملتزمة، تستلهم التراث، وتعايش العصر، تؤمن بالله ربا، وبالإنسان خليفة له في الأرض، وتؤدي الواجبات، وترعى الحقوق، وتصون الحريات، وتؤمن الحرمات، وتقوم بمهمتها في تعبئة قوى الشعب، وجمع كلمة العرب والمسلمين، وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم.

9 - العمل على إقامة مجتمع فاضل راق، جدير بالانتماء للإسلام، متحرر من الظلم والقهر والخوف، تحقق فيه تنمية إنسانية شاملة وعدالة، اجتماعية كاملة، وتكافل إنساني عميق، مجتمع يحارب الفقر والجهل، والمرض والرذيلة، ويجد فيه الجائع خبزه، والمريض دواءه، والقادر عمله، والمشرد مأواه، والمحتاج كفايته، والمظلوم عدالته، والمكبوت حريته.

10 - يهدف المشروع الإسلامي إلى توحيد أمة الإسلام، كما أراد لها الله تعالى، وكما كانت في التاريخ، وكما يوجبه منطق العصر في ضرورة التكتلات الكبرى، ولكنه يؤمن بسنة التدرج، ويرى أن وحدة العرب

وتحررهم وعزتهم، مقدمة ضرورية لوحدة الأمة الإسلامية وعزتها، فالعروبة وعاء الإسلام، والعربية لسانه، والعرب هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته الأولون، وفي الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام.

11 - يبدأ المشروع بإصلاح الفرد، وبنائه بناء متكاملا: روحيا بالعبادة وعقليا بالثقافة، وجسميا بالرياضة، وخلقيا بالفضيلة، مع التركيز على التغير النفسي والعقلي، فهو أساس كل تغير **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ}** [الرعد: 11] ثم بناء البيت المسلم، فالمجتمع المسلم، فالأمة المسلمة، في خطوات متدرجة، ومراحل مدروسة، وفق سنن الله في خلقه، بلا قفز على الواقع ولا انكار للعوائق والصعوبات.

12 - يقوم المشروع الحضاري الإسلامي على التوعية والتثقيف للجماهير، وعلى التربية والتكوين للطلائع، وعلى الكفاح السلمي، والنضال الدستوري، والتلاحم مع الشعب، حتى تتغير الأمة من داخلها، وتحقق آمالها.

الإسلام الذي ندعو إليه:

وفي مناقشاتنا أو مناظراتنا مع العلمانيين في مصر، كانوا يقولون لنا: إنكم تدعوننا إلى الإسلام، ولكن لم نعرف بالضبط: أي إسلام تدعوننا إليه؟ إنكم تدعوننا إلى «ضبابية» غائمة أو معتمة، لا نرى فيها حاضرنا ولا مستقبلنا بوضوح ناصع.

إن الإسلام له صور عدة في بلاد عدة، تزعم أنها تطبقه، هل تدعوننا إلى إسلام إيران أو إسلام باكستان أو إسلام السودان، أو إسلام السعودية ... إلخ؟

وأحيانـا ينسـبون هـذا الإسـلام إلـى أشـخاص القـائمين علـى هـذه البلـدان الإسـلامية، فيقولـون: تـدعونا إلـى إسـلام الخمينـي أم إسـلام ضـياء الحـق، أم إسلام النميري ... إلخ.

والحق أننا لا ندعوا إلى إسلام مقيد ببلد أو بشخص أو بمـذهب، أو بعصـر، نحـن نـدعوا إلـى إسـلام القـرآن والسـنة، موصـولا بـالواقع؛ مربوطـا بالزمـان والمكان والإنسان، مشروحا بلغة العصر، مفتوحا للتجديد والاجتهـاد مـن أهلـه في محله، مستلهما للماضـي، معايشا للحاضر، مستشرفا للمسـتقبل، جامعـا بـين الأصـالة والمعاصـرة، محافظـا فـي الأهـداف، متطـورا فـي الوسـائل، ثابتـا فـي الكليات، مرنـا في الجزئيات، مشـددا فـي الأصـول، ميسـرا فـي الفـروع. رابطـا بين النصـوص الجزئيـة، والمقاصد الكلية، منتفعا بكل قديم صـالح، مرحبـا بكـل جديد نـافع. موفقا بين النقل الصـحيح والعقل الصـريح، ملتمسـا الحكمـة مـن أي وعاء خرجت، ومستفيدا العلـوم مـن أي جهـة جـاءت، فـي غيـر تعصـب لـرأي قديم، ولا عبودية لفكر جديد.

ولـم نكتشـف بهذا الإجمـال، بـل قدمنا معـالم للإسـلام الـذي نـدعو إليـه، فـي عشرين أصـلا، نبين الملامح، ونضـع النقاط على الحـروف. ويمكـن للقـارئ أن يطلع علـى هذه المعالم العشـرين للإسـلام الـذي نـدعو إليـه فـي كتابنـا «الإسـلام والعلمانيـة وجها لوجه».

وفـي دراسـتنا هـذه قـد وضـحت مواقـف الإخـوان مـن جملـة مـن القضـايا المهمة والكبيرة، من خلال رسائل الأستاذ البنا وتراث الإخـوان، مثـل: موقـف الإخوان من استخدام القوة، وموقفهم من الحكم، ومن الدسـتور، ومـن القـانون، ومـن الأحـزاب السياسـية، ومـن الهيئـات الإسـلامية، ومـن الخلافـات الدينيـة،

ومن الغربيين والحضارة الغربية، وموقفهم من الوحدات الثلاث: الوحدة الوطنية «المصرية» والوحدة العربية، والوحدة الإسلامية، وموقفهم من الخلافة وعودتها، وأخيرا: موقفهم من النزعة العالمية الإنسانية.

لقد أزحنا الضباب الذي يتعمد البعض أن يلف به هذه القضايا وموقف الإخوان منها، وبيناه من مصادره بما لا يدع مجالا للشك أو التشكيك.

ولا بد لمن يريد أن يستبين مشروع الإخوان للحضارة والنهضة بالأمة أن يراجع هذا الفصل، تحت عنوان «وضوح المواقف» وهو المقوم السابع من مقومات الدعوة المكتملة، والحركة الناجحة، والجماعة الموفقة.

هيكل والمشروع الحضاري الإسلامي:

الأستاذ محمد حسنين هيكل كاتب كبير في مجال السياسة، ولا يختلف اثنان في عمقه ومقدرته على الرصد والتحليل والموازنة، والتفسر، واستخلاص النتائج، التي قلما يقدر عليها غيره. وخصوصا في السياسة المصرية والعربية، وإن كان هناك كثيرون يخالفونه فيما ينتهي إليه، لسبب وآخر.

ولكنه إذا خاض في الجوانب الإسلامية لا يحلق كما يحلق في آفاق السياسة، ولا يغوص ويتعمق كما يغوص ويتعمق في الجوانب السياسية، داخلية وخارجية.

وهو لا يدعي أنه عالم بالإسلام أو خبير فيه، ولكنه قد يدخل في بعض الجوانب المتعلقة بالإسلام من قريب أو بعيد، ويبدي فيها رأيه، فيصيب أحيانا، أو يخطئ أحيانا في اجتهاداته، وكل ميسر لما خلق له.

ومن ذلك: ماذكره لجريدة «السفير» اللبنانية - في الصيف الفائت 1998 - خاصا بالتيار الإسلامي «فهو لا يرى هذا التيار يصلح لشئ إلا للمقاومة، ولا يقوم غيره مقامه في هذه الناحية. وهو قد أنصف التيار الإسلامي في ذلك، ولكنه بخسه حقه في الجوانب الأخرى، ويبدو من سيرة الأستاذ هيكل: أنه ليس لديه وقت يفرغه لمتابعة التراث الفكري الضخم للتيار الإسلامي في شتى مجالات الحياة: الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والدينية.

ومما عجبت له ما قاله في حواره هذا لصحيفة «السفير»: أنه لقى الشيخ حسن البنا، وأنه وجده رجلا طيبا، وظريفا جدا! ولكن لم يكن لديه مشروع يقدمه للناس!

هل كان حسن البنا غير ذي مشروع؟

أحسب أن الأستاذ هيكلا ظلم الأستاذ البنا بهذا الحكم الذي ذكره، وأحسب أنه لم يفهم الشيخ البنا، أو أنه لم يسبر أغواره، ولم يقرأ فكره، كما ينبغي، قبل أن يحكم عليه هذا الحكم القاسي.

علماء المنطق يقولون: الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وأظن أن «هيكلا» لم يتصور «البنا» تماما، وربما كان عذره أنه كان في ذلك الوقت شابا في مقتبل العمر، ولم يجشم نفسه عناء البحث في دعوة البنا ومشروعه.

والواقع أن حسن البنا كان لديه «مشروع» واضح في ذهنه، راسخ في وجدانه، مستقر في أعماقه، اتضحت له أهدافه، واتضحت له وسائله ومناهجه، واتضحت له عقباته ومعوقاته، وجند لتحقيقه عقله وقلبه، ولسانه وقلمه، ووقته وجهده، ونفسه وجماعته، فكان يعرف ماذا يريد؟ وكيف يصل

إلى ما يريد؟ وبمن يصل إلى ما يريد؟

وقد تحدثنا في القسم الأول من هذا الكتاب عن دعوة البنا، واكتمال مقوماتها، ومن ذلك: وضوح أهدافها، ووضوح وسائلها، ووضوح مواقفها من القضايا الكبيرة.

كان البنا يعرف عن خصائص مشروعه: أنه «إسلامي بحت» في غاياته وفي وسائله، وفي أسسه ومنطلقاته، فهو يعتمد الإسلام مصدرا أول وأوحد لمشروعه. ولكنه «الإسلام الصحيح» كما سماه الأديب الفلسطيني إسعاف النشاشيني، أو «الإسلام الأول» كما سماه حسن البنا نفسه، إسلام الرسول وأصحابه قبل أن تشوبه الشوائب، وتلحق به الزوائد، ورواسب القرون، مفرغا في قالب يلائم العصر، ويواكب التطور، ويفتح باب «الاجتهاد» لعلاج مشاكل الحياة بطب الإسلام، ووسطية الإسلام.

وإذا كان الإسلام هو المعيار، وهو الرجع الأعلى، فلا أظن أن هناك من يتهم حسن البنا بعدم فهم الإسلام، أو أنه يفهمه على غير وجهه الصحيح، أو يفهمه فهما يناقض منطق العصر في التقدم الحضاري، والرقي العمراني، على أساس من النهوض العلمي، والنمو الاقتصادي والاجتماعي.

فالحقيقة أن منطق العصر هذا هو منطق الإسلام، والمنهج العلمي أو التجريبي الذي نهض الغرب على ركائزه هو منهج اقتبسه أصلا من الحضارة العربية الإسلامية، كما شهد بذلك مؤرخو العلم الغربيون، من أمثال بريفولت، ولوبون وجورج سارتون.

ومن قرأ رسائل الأستاذ البنا - على صغر حجمها - وجد فيها معالم

مشروع شامل متكامل متوازن للنهضة والتقدم والبناء، يمزج المادة بالروح، ويوفق بين العقل والقلب، ويقرن بين المثالية والواقعية، كما يجمع بين الدين والدنيا، ويوازن بين حقوق الفرد ومصلحة المجتمع. وبين النظرة القومية، والنظرة الإسلامية، والنظرة العالمية.

ولو قرأ الأستاذ هيكل رسالتين صغيرتين من رسائل البنا إحداهما كتبت سنة 1936 وهي رسالة «المؤتمر الخامس» الشهيرة، والأخري، عنوانها «دعوتنا في طور جديد» كتبت سنة 1942، لوجد فيهما رؤية مركزة لمشروع حضاري متميز: في منطلقاته، متميز في أهدافه، متميز في رسائله.

في هذه الرسالة الثانية نظرة عميقة تتحدث عن العقلية الغيبية الخرافية، والعقلية العلمية الحسية والوضعية، وعن خصائص العقلية الإسلامية التي يريدها ويكونها الإسلام. وهي عقلية متوازنة، تؤمن بالغيب، ولكن لا إلى حد التصديق بالخرافة، وتؤمن بسلطان العقل والحسن، ولكن لا إلى حد إنكار الوحي.

وترسم طريق النهضة للأمة المسلمة بدءا بمصر، التي انتهت زعامة الشعوب الإسلامية، والتي ردت عن حمى الإسلام كيد المعتدين من تتار الشرق، وصليبي الغرب، والتي تحيا حياة تتذبذب فيها وتتأرجح بين الإسلام الأصيل والتغريب الدخيل، والذي كان من ثمراته وجود تعليمين: ديني ومدني، وقضاءين: شرعي وأهلي، وحياتين: إسلامية وإفرنجية.

ولا مناص لمصر من التحرر من هذه الثنائية الغربية، ومن تأسيس حياتنا كلها على قواعد الإسلام، ونعني به: الإسلام المؤسس على الاجتهاد

والتجديد.

هذا ما نادى به حسن البنا بوضوح وجلاء.

ربما قيل: إن اعتماد الإسلام مصدرا، ومعيارا لا يحل المشكلة، لأن كل فئة تفسر الإسلام حسب منظورها، فلا تعرف بالضبط موقف الإسلام من القضايا الكبرى، والمشكلات المعقدة التي تتطلب حلا وعلاجا، يقدم للناس في صورة مشروع، ولم يفعل هذا الإمام البنا، لأنه كان مشغولا بجمع الناس على الكليات والمبادئ العامة، ولا يعني بعلاج الأمور التفصيلية، خشية أن يختلف الناس عليها، في وقت وهم فيه أحوج إلى التجمع والتوحد.

وهذا صحيح - إلى حد - في وقت من الأوقات، ولكن الشيخ البنا في أواخر حياته بدأ يفصل مشروعه للناس في مقالات نشرها في جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية، وجمعت بعد ذلك في كتاب تحت عنوان «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي».

وهذا المبحث قد تحدث الأستاذ البنا عن القضية الوطنية، وقضية الوحدة، والقضية الدستورية، والقضية الاقتصادية، وقدم حلولا لكل منها في ضوء الإسلام، وعرضها في الجريدة اليومية لتناقش.

ولنأخذ هنا مثلا: علاجه للقضية الوطنية، قضية الصراع مع الاحتلال الانجليزي، وتحددت في محورين: الجلاء، ووحدة وادي النيل.

وقدم الأستاذ حله لقضية الجلاء في ضوء رؤيته الإسلامية: المفاوضة، فإن لم تفلح فالمقاطعة، ثم «النبذ على سواء» بإعلانهم بالخصومة الصريحة وإلغاء ما بيننا وبينهم من معاهدات، واعتبار الأمة في حالة حرب، وتنظيم

حياتها على هذا الاعتبار اقتصاديا، واجتماعيا، وسياسيا.

وقدم الأستاذ حله للمشكلة السياسية الداخلية، أو مشكلة «نظام الحكم» وتتلخص في قبوله: «نظام الدستوري» وقبول الدستور المصري بصفة عامة، مع التنبيه على وجوب إزالة الغموض في بعض مواده، وعلى ضرورة تعديل «القانون» ليتفق مع الدستور الذي لم يره يناقض الإسلام مناقضة صريحة.

ويقول المرشد: ليس في قواعد هذا النظام النيابي أو الدستوري ما يتنافى مع القواعد التي وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيدا من النظام الإسلامي ولا غريبا عنه، وبهذا يمكن أن نقول في اطمئنان: إن القواعد الأساسية التي قام عليها الدستور المصري لا تتنافى مع قواعد الإسلام. بل إن واضعي الدستور المصري قد توخوا فيه ألا يصطدم أي نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية، فهي إما متمشية معه بصراحة، أو قابلة للتفسير بما يتفق معه.

الإصلاح السياسي لدى الإخوان:

وفي الإصلاح الداخلي: حسبنا أن نذكر هنا فقرات مما ذكره ريتشارد. ب. ميتشل في كتابه عن «الإخوان» حول آرائهم في الإصلاح البرلماني والسياسي والإداري فيقول:

تضمنت اقتراحات إصلاح البرلمان والأحزاب ما يلي:

1 - وضع قائمة من «الصفات» التي يجب أن تتوافر في المرشحين سواء أكانوا ممثلين لهيئات أم لم يكونوا.

2 - وضع حدود للدعاية الانتخابية.

3 - إصلاح الجداول الانتخابية وطرق التصويت لتكون في منأى عن تلاعب ذوي المصالح الشخصية وعن التصويت الإجباري.

4 - فرض عقوبات رادعة على التزوير والرشوة في الانتخابات.

كذلك اقترح البنا تطبيق نظام الانتخابات «بالقائمة» مفضلا إياه على الانتخاب المباشر حيث ينتمي الفرد إلى حزب سياسي، وكان يرى أن هذه الطريقة «تحرر النائب من ضغط الذين انتخبوه» وتؤمن خدمة المصلحة العامة دون المصالح الشخصية.

أما ميدان الإصلاح الحكومي الآخر، فهو الجهاز الإداري عموما والتوظيف الحكومي بصفة خاصة. فالوجه الأول للإصلاح هو تطبيق الإسلام من ناحيته المعنوية، والوجه الثاني هو معالجة مسائل العمل والاجراءات. وقد تحدث البنا طويلا عن الوجه الأول فحبذ:

1 - نشر الروح الإسلامية في جميع المصالح الحكومية.

2 - مراقبة السلوك الشخصي للموظف حتى لا توجد ثلمة في سلوكه تميز بينه كموظف حكومي وكإنسان.

3 - إعادة تنظيم أوقات العمل لتسهيل أدائه وحتى يمتنع العامل من السهر ليلا.

4 - مراقبة جميع الأعمال الحكومية بحيث تتفق مع روح التعاليم الدينية.

5 - استخدام عدد أكبر من خريجي الأزهر في الوظائف العسكرية والمدنية.

كانت هذه الإصلاحات السمة الغالبة في موقف البنا من مشكلة الإصلاح في عمومها، كما تعرض لما يمس أتباعه مباشرة من المشاكل الدنيوية اليومية للوظيفة العامة، وتضمنت آراؤه في الإصلاح بالنسبة لهذه المشاكل الإجراءات التالية:

1 - اختيار الموظفين الحكوميين على أساس الكفاءة دون القرابة.

2 - استقرار ظروف العمل وتبسيط إجراءاته عن طريق تحديد المسئولية وإلغاء المركزية.

3 - تحسين أحوال صغار موظفي الدولة برفع رواتبهم وعلاواتهم وذلك لسد الهوة بينهم وبين كبار الموظفين، وبإيجاد تأمين قانوني ومالي مضمون لهم بحماية المرءوسين من عسف ونزعات الرؤساء.

4 - تقليل عدد الوظائف الحكومية وتوزيع العمل على من يبقى توزيعا أعدل وأقوم.

5 - إلغاء ما هو جار من «استثناءات» من القوانين يتمتع بها المقربون والأصدقاء والأقرباء[161].

قامت اللجنة الفرعية للوظيفة العامة المنبثقة من قسم المهن بالجماعة بوضع الكثير من البرامج لإصلاح الوظيفة الحكومية - كما قررت اللجان الخاصة التي شكلت في المدن الكبرى «والتي كان مزمعا تشكيلها أيضا في

---

(161) الرسائل الثلاثية: نحو النور (ص: 114 - 120) وانظر جريدة الإخوان المسلمون (2 يوليو 1946) (ص: 4) والبيان (ص: 12).

القرى» بعد الحرب العالمية الثانية - قررت تقديم مساعدة فعلية اتخذت شكل دفع مصروفات التعليم الجامعي لأولاد الموظفين الذين يقل راتبهم عن ثلاثين جنيها في الشهر وذلك «لمحاربة غلاء المعيشة»، وكانت هذه اللجان الخاصة تعمل في مجالها علاوة على ما كانت تقوم به الجماعة من دعوة إلى الإصلاح - خصوصا فيما يتعلق بالأجور والضمان الاجتماعي، وهي دعوة كثيرا ما امتلأت بها صحافة الجماعة.

وإذ كان التحرر السياسي من الاستعمار وثيق الصلة بالإصلاح السياسي فقد كان هذا الإصلاح يتضمن دائما أفكارا عن الإصلاح العسكري.

وقد نادى البنا بتعميم هذا الوضع على الصعيد الوطني حينما دعا إلى «تقوية الجيش وإشعال الحماس فيه على أساس الجهاد الإسلامي».

كان الدفاع «عن الوطن» والدفاع «عن حقائق الإسلام» هما الفكرتين اللتين رددتهما المقالات العديدة في صحافة الجماعة كلما حثت على إصلاح عسكري، وهما فكرتان اكتسبتا أهمية أعظم بعد ثورة عام 1952، واقترحت الجماعة في ذلك الوقت.

1 - تعزيز قوى الجيش وزيادة عدده دون اعتبار لما يتضمنه ذلك من نفقة.

2 - أن يتم تدريب الضباط والجنود بحيث تقوم العلاقة بينهم جميعا على أساس الأخوة.

3 - أن يتسع نطاق التجنيد بحيث لا يبقى فرد في الأمة بعد وقت معين يكون قادرا على حمل السلاح ولا يحمله.

4 - وجوب جعل التدريب العسكري بما في ذلك الفنون الحربية وطرائق

القتال الفعلية إجباريا في الجامعات والمدارس.

5 - إنشاء جيش إقليمي للذين لا ينخرطون في الجيش النظامي.

6 - التزام الحكومة بإنشاء الصناعات الحربية[162].

الإصلاح الاقتصادي:

وتحدث الدكتور ميتشل عن الإصلاح الاقتصادي الذي يقترحه الإخوان لإصلاح مصر والنهوض بها، فقال:

لم تكد الإجراءات الاقتصادية تتغير سواء في مداها أم في أهميتها النسبية ضمن الفكرة الإجمالية للإصلاح، طوال السنين التي دعت خلالها الجماعة إلى الإصلاح في مصر. على أنه بينما قدم البنا الإصلاحات الخلقية والسياسية والثقافية على الاقتصادية، اعتبر بعض أتباعه الإصلاح الاقتصادي أحق بالتقديم، بل اعتبره أساسا للإصلاح.

وعلى كل حال، أخذت المشكلة الاقتصادية تحتل مكانا أكبر في اهتمام الجماعة حتى من قبل البنا، وكان ذلك رجعا لصدى ما يشغل الأعضاء، ولما هم في حاجة إليه إبان الأزمة الاقتصادية المتزايدة في مصر، عقب الحرب العالمية الثانية.

وقد رأى الإخوان تحقيق الإصلاح الاقتصادي في عاملين:

---

(162) انظر: «الإخوان المسلمون» لميتشل (ص: 219 - 221) وقد اعتمد المؤلف على رسائل الأستاذ البنا، وبيان الإخوان الشهير بعد الثورة، الذي يتضمن رأيهم في الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي ... إلخ.

1 - أن الاستقلال الاقتصادي أساس الاستقلال السياسي.

2 - أن التحسن الاقتصادي في صورة نوع من الضمان الاقتصادي والاجتماعي - بالنسبة للجماهير التي صرعها الفقر في مصر - أمر ضروري لملء الفراغ في البناء الطبقي.

وبهذا تتجنب البلاد فرقة وطنية جديدة باسم الصراع الطبقي. وفي هذا النطاق اقترحت الجماعة بعض إجراءات الإصلاح الاقتصادي لتصدر الدولة قوانين بها، إما عن طريق السلطة التشريعية، أو السلطة الإدارية، وهي قوانين ترمي إلى جعل مصر أكثر انسجاما مع تراثها الإسلامي:

1 - يجب إلغاء الربا في كل صوره، وعلى الحكومة أن تكون رائدة في هذا المجال بأن لا تقبل الفائدة في جميع معاملاتها.

ولكن إذا سلمنا جدلا بأن الدولة أصدرت قانونا بإلغاء الفائدة على الودائع في المصارف، وإلغائها في الشركات والمؤسسات العامة والقروض الخاصة، فماذا يحدث حينئذ؟ سيحدث أن تجد رؤوس الأموال نفسها غير قادرة على زيادة الثروة إلا بوسيلتين عامتين، أولهما: أن توظف الأموال مباشرة في بعض المشروعات المثمرة والمفيدة، وذلك باستثمارها في الصناعة أو التجارة أو الزراعة، وثانيهما: أن توظف هذه الأموال بطريقة مربحة نافعة باستثمارها في أسهم الشركات حيث ترتفع قيمة الأسهم أو تنخفض، وكلتا الطريقتين مشروعة في الإسلام ولن تضر إحداهما بالحياة الاقتصادية أي ضرر.

2 - يجب تأميم مصادر الثروة في البلاد، وإنها السيطرة الأجنبية على

المرافق العامة والثروات المعدنية، كما يجب إحلال رأس المال الوطني محل رأس المال الأجنبي، ويجب أن يصحب هذه الإجراءات استغلال الثروات الطبيعية في البلاد على نطاق واسع، سواء في المجال الزراعي أم التعديني[163].

3 - يجب تصنيع البلاد فورا مع إعطاء الصناعات التي تعتمد على المواد الأولية المحلية والصناعات الجربية أهمية خاصة، كما يجب تشجيع الصناعات المنزلية المحلية لا لمجرد مساعدة الفقراء والمعدمين، ولكن للتمهيد لشق طريق التغير نحو خلق الروح الصناعية والعصر الصناعي الجديد، ويمكن أن يتم هذا التشجيع في ميادين الغزل والنسيج وصناعة الصابون والعطور وأعمال الصيانة[164].

4 - يجب تأميم البنك الأهلي المصري كخطوة أخرى في سبيل الإصلاح المالي، ويجب أن يكون لمصر مطبعتها لطبع أوراقها النقدية، وأن يكون لها دارها الخاصة لسك النقود المعدنية.

5 - يجب إلغاء بورصة العقود وإصلاح السياسة القطنية.

6 - يجب إصلاح قانون الضرائب بحيث تفرض بشكل تصاعدي على رأس المال كما تفرض على الأرباح، ويجب استعمال حصيلة الضرائب لأغراض الدولة العامة ولرفع مستوى المعيشة ولخدمة مصالح الشعب.

---

(163) لم يدع برنامج 1952 رسميا إلى تأميم الشركات الأجنبية ولكنه كان أكثر اهتماما إلى حد بعيد بإصلاح الأراضي. «ميتشل».

(164) يرى البنا أن القرآن قد أمر المسلمين أن يبنوا الصناعات الثقيلة. ميتشل.

كذلك يجب أن يكون من أهداف الضرائب الحد من الإنفاق المفرط ومن البذخ.

7 - تجب متابعة الإصلاح الزراعي دون هوادة: فيقرر حد أقصى للملكية الزراعية، ويباع ما زاد عنه إلى من لا يملكون أرضا بأسعار معقولة على آماد طويلة[165].

8 - يجب إصدار قانون خاص بكراء الأرض وذلك لحماية المستأجرين من سوء استغلال أصحاب الأرض لهم بأخذهم حصة غير عادلة من محصول الفلاحين.

9 - يجب إعادة النظر في قانون العمل والاهتمام بالإصلاحات التي (أ) تضمن للعمال جميعا «بما فيهم العمال الزراعيون» تأمينا ضد البطالة والإصابات والمرض والشيخوخة والموت. (ب) تحتم تنظيم العمل. (ج) تؤمن للأجير حصة عادلة من الكفاية الانتاجية المتزايدة، ويجب تدريب العمال الصناعيين الزراعيين في مهنتهم تدريبا أو في حتى تضمن زيادة كفايتهم الإنتاجية[166].

10 - وأخيرا يجب أن يضمن لكل عامل «تأمين اجتماعي»، فلو عجز إنسان عن العمل أو لو كام عمله غير كاف أو كان غير قادر على العمل، فيجب

---

(165) قبل البنا مبدأ الإصلاح الزراعي ولكن يبدو أنه لم يلق إليه بالا، ولم يكن ذلك حال بعض أتباعه، وخصوصا الغزالي وقطب، كما سبق ذكره، أما الهضيبي فقد قبل المبدأ وإن اختلف مع الحكومة على الحد الأقصى. ميتشل.

(166) انظر أيضا قطب: في «دراسات إسلامية» (ص: 90) وذلك بخصوص موضوع إصلاح العمل. كما جاءت آراء قوية للغزالي في تأملات في الدين والحياة (ص: 68).

على الدولة حينئذ أن تقوم بحاجاته من معين الزكاة. ويجب أن تنفق الزكاة على المحتاجين في المنطقة التي جبيت فيها حتى يحس الأغنياء والفقراء على سواء الشعور: «بالمسئولية المتبادلة».

فإن لم تكف لمقابلة حاجات المعوزين، كان للدولة الحق في إرغام الموسرين على زيادة ما يدفعون إلى الفقراء إن لم يفعلوا ذلك عن طواعية واختيار[167].

هذه بعض الملامح للمشروع الإخواني للإصلاح والتقدم. وهي قليل من كثير.

أعتقد أن الأستاذ هيكل لو قرأ ما كتبه الأستاذ البنا من رسائل وخطابات ومقالات، ودرسه بتأمل وإنصاف، لغير رأيه الذي أعلنه، وأيقن أن عن الأستاذ البنا مشروعا أنضج وأعمق وأوسع وأوضح، مما كان عند الضباط الأحرار من «المبادئ الستة» المعروفة[168] ومن «فلسفة الثورة» لعبد الناصر، ودوائرها الثلاث: العربية والإفريقية والإسلامية، وقد قيل: إن الذي صاغ هذه الفلسفة هو الأستاذ هيكل نفسه.

أما إنا كان الأستاذ هيكل يريد: أن الأستاذ البنا لم يقدم برنامجا مفصلا، لعلاج كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فهذا قد رددنا عليه في كتابنا «بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانين والمتغربين»

---

(167) انظر: ميتشل «الإخوان» (ص: 232 - 434).

(168) وهي: محاربة الاستعمار، والملكية، والإقطاع، وإقامة جيش قوي، وعدالة اجتماعية، وحياة نيابية سليمة، وهذه كلها سبق بها الإخوان وأصلوها وفصلوها.

وذكرنا هناك أن كل الدعوات التغييرية الكبرى، ليبرالية أو اشتراكية، لم تأت بتفصيلات، إنما جاءت بمبادئ عامة، وأصول كلية، وملامح مميزة، للمجتمع الذي ينشدونه. فلماذا يطلب هذا، من البنا أو من الإسلامين وحدهم؟ ولا أحسب هيكلا يقصد بالمشروع البرنامج المتصل.

على أن المكتبة الإسلامية الآن حافلة بأعمال كبيرة، وتفصيلات جمة، للمشروع الإسلامي، ولكن الأستاذ هيكل وأمثاله لا يتنازلون ليقرأوا ما كتبه الإسلاميون.

* * *

7 - الإخوان والعقيدة

العلمانيون يتهمون الإخوان بأنهم مسلمون متعصبون لعقيدتهم، متصلبون في إيمانهم، متشددون في نظرتهم إلى الطوائف الأخرى.

وبعض الفصائل الأخرى من الإسلاميين - مثل بعض السلفيين والتحرريين - يتهمون الإخوان بأنهم متهاونون في أمر العقيدة، كما في قضية الأولياء والقبور، وقضية التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والملائكة وأولياء الله الصالحين، وقضية الآيات والأحاديث التي يطلق عليها: آيات الصفات، وأحاديث الصفات، فهم في هذا من الأشاعرة وليسوا من أهل السنة! وكذلك قضية الولاء والبراء، فهم يتهمون الإخوان بأنهم لا يبرأون من الكفار ومن اليهود والنصارى وغيرهم، القطعية - فهم في نظر المدعين - التي تطالب بقتال هؤلاء، وأخذ الجزية منهم، وهم لا يكفرون الحكام الذين لا يحكمون شرع الله تعالى في جوانب الحياة كلها: اجتماعية واقتصادية وسياسية، مخالفين لما نطق به القرآن. بل يقول هؤلاء: إن العقيدة لا تأخذ في فكر الإخوان حيزا كافيا، ولا في أدبياتهم مكانا يليق بها.

إلى غير ذلك من التهم التي يلصقها هؤلاء بالإخوان، وهي تهم لا تقف على رجلين سليمتين، ولا تستند إلى برهان بين أو إلى فقه صحيح.

ولا أدل على تهافت هذه الاتهامات من تناقضها فيما بينها، فتهم العلمانين يرد عليها تهم المتشددين، والعكس بالعكس.

وسنلقي شيئا من الضوء على ذلم فيما يلي:

العقيدة أس البناء:

إن العقيدة في فكر الإخوان وفي دعوتهم هي: رأس الأمر، وأس البناء، وروح الإسلام.

فالإسلام عقيدة، تقوم على أساسها شريعة، تتفرع عنها أخلاق وأعمال وينبثق مجتمع، تحكمه دولة. والإخوان مؤمنون كل الإيمان بعقيدة الإسلام، ولكنهم غير متعصبين ضد مخالفيهم، إلا إذا اعتبر الاعتزاز بالعقيدة، والحماس لها، والثقة بتفوقها، واليقين بنصر الله إياها: تعصبا، فهم حينئذ أول المتعصبين.

والعقيدة يعبر عنها في القرآن والسنة باسم «الإيمان» والشريعة والعبادة والأخلاق يعبر عنها باسم «العمل» ولا يقبل عمل بلا إيمان. كما لا ينفع إيمان بلا عمل.

وقد ركز الإمام البنا منذ فجر دعوته على بناء الإيمان لدى الدعوة، اقتداء بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي ظل ثلاثة عاما في العهد المكي يغرس فيها - قبل كل شيء - أصول الإيمان، وحقائق التوحيد، وعبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت، كما يغرس في النفوس والعقول أصول الفضائل ومكارم الأخلاق.

وكانت «دار الأرقم» في مكة هي معهد التربية الأول لغرس الإيمان، وتثبيته في الرعيل الأول من المسلمين.

كان من «الشعارات» التي تجمل دعوة الإخوان في كلمات: «الله غايتنا، والقرآن شرعتنا، والرسول قدوتنا، والجهاد وسيلتنا ...» وكان هتاف الإخوان

المحبب: «الله أكبر، ولله الحمد» حيث كان الناس يهتفون بحياة الزعماء والملوك. وكانت صيحاتهم الجهيرة تقول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد حتى نلقى الله».

وكانت مناهج التربية في جماعة الإخوان تقوم على أن الإيمان هو الركن الركين، والحصن الحصين، وأن «الجانب الرباني» في التربية مقدم على كل الجوانب، وهو أصلها الأصيل، وأن رضوان الله تعالى هو «غاية الغايات» فإذا كان من غايات الإخوان إقامة مجتمع إسلامي أو حكم إسلامي أو دولة إسلامية، أو تحرير الوطن الإسلامي، أو توحيد الأمة الإسلامية، أو غير ذلك من الأهداف والغايات، فإن الغاية القصوى من وراء ذلك كله: ابتغاء رضوان الله تتت، وهذا معنى «الله غايتنا».

وقد كتب الأستاذ البنا - وهو ابن ست وعشرون سنة - رسالة مركزة وميسرة في «العقائد» وأشار في كثير من رسائله ومقالاته إلى أهمية العقيدة ودورها، وفي محاضراته التي عرفت باسم «أحاديث الثلاثاء» ركز على هذا الجانب. وحينما أصدر مجلته الشهرية «الشهاب» لتخلف مجلة «المنار» في تثقيق الأمة وتوجيهها، كان من أبرز الأبواب فيها: «الله» وهو بحث في عقيدة الألوهية والتوحيد.

ولا يكاد يوجد كاتب من كتاب الإخوان إلا وكتب عن العقيدة: الشيخ الغزالي كتب «عقيدة المسلم» و «ركائز الإيمان بين العقل والقلب» وغيرهما، والشيخ سيد سابق «العقائد الإسلامية» والشهيد سيد قطب «خصائص التصور الإسلامي» و«مقومات التصور الإسلامي» والشيخ سعيد حوا «الله» و«الرسول» في عدة أجزاء. والشيخ عبد المنعم تعيلب

«العقائد في القرآن» في عدة أجزاء، والدكتور عمر الأشقر عن العقيدة في عدة أجزاء والشيخ عبد المجيد الزنداني «بناء الإيمان» والدكتور محمد نعيم ياسين عن «الإيمان» وأركانه، والفقير إليه تعالى: «الإيمان والحياة» و «وجود الله» و «حقيقة التوحيد» إلى ما ذكر في الكتب الأخرى.

وهناك كتب كثيرة أخرى غير مباشرة تتحدث عن العقيدة والإيمان، مثل كتب التفسير والحديث والدعوى والتربية والسلوك. فكلها مشحونة ببناء الإيمان، وتجديد الإيمان، وتثبيت الإيمان.

يعتمد الإخوان في عرض العقيدة وشرحها على دعامتين:

الأولى: النصوص النقلية من القرآن الكريم والحديث الصحيح، ولا سيما القرآن، فهو الينبوع الأول للعقيدة، وصحيح السنة هي البيان والتفسير.

والثانية: البراهين العقلية والعلمية، التي لفت إليها القرآن بقوة، والتي أمدنا فيها العلم الحديث بذخيرة هائلة، تقمع الماديين، وتفحم الملاحدة والمشككين.

والداعية الموفق هو الذي يجمع بين النقل والعقل في عرض العقيدة، وبناء الإيمان، وهو منهج القرآن.

كيف يقدم الإخوان العقيدة؟

لا يريد الإخوان من تقديم العقيدة وشرحها: أن تكون كلمات تحفظ وتردد، ولا مجادلات مع الآخرين، دون أن يكون لها أثر في حياة صاحبها، بحيث يقتنع بها عقله، ويطمئن بها قلبه، وينفعل بها وجدانه، وتتحرك بها إرادته.

إن القرآن حين عرض لنا إيمان المؤمنين جسده في أخلاق وأعمال باطنة

وظاهرة كما قال تعالى: {**إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ2 ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ 3 أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا**} [الأنفال: 2 - 4].

وكذلك أوائل سورة المؤمنين {**قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ 1 ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ 2 وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ 3 وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ 4 وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ**} [الآيات: 1 - 5].

يرفض الإخوان الشركيات والخرافات الأباطيل التي ألصقت بعقيدة التوحيد، مثل ما يفعل كثير من العوام في كثير من بلاد المسلمين، ويبرره لهم بعض الخواص، من الطواف بقبور الصالحين والنذر لها، ودعاء أصحابها، والاستغاثة بهم، وغير ذلك من المنكرات.

وقد بين الأستاذ البنا في «أصوله العشرين» برغم وجازتها وتركيزها: أن هذه الأعمال من المنكرات والكبائر التي يجب محاربتها.

يقول رحمه الله :

«وكل بدعة في دين الله لا أصل لها استحسنها الناس بأهوائهم - سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها. «ولا شك البدعة تشمل: البدعة الاعتقادية، كما تشمل البدعة العملية».

ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم: قربة إلى الله تتنت، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى: {**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ**} [يونس: 63] والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد

أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم، فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

وزيارة القبور أيا كانت: سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا، ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها، والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات: كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة.

والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب[169]. انتهى.

قضية التوسل:

وأما قضية التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم والأنبياء، والملائكة والصالحين من عباد الله، فقد ذكر الأستاذ البنا: أن هذا من الأمور الخلافية بين الأئمة، وأنه خلاف في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة.

وقد أنكر إخواننا السلفيون على الأستاذ البنا هذا القول، واشتد نكيرهم عليه، وعلا صوتهم في معارضته والتشنيع على قائله. ولا أدري لم هذا كله؟ ولم يقل الرجل شيئا يستوجب الطعن أو التشنيع.

---

(169) من رسالة «التعاليم» - مجموع الرسائل (ص: 358).

أولا: لأن الأمر خلافي بالفعل، ومن قرأ كتب المذاهب المتبوعة من الحنفية والمالكية والشافعية بل حتى الحنابلة: وجد هذا واضحا، فالكثيرون أجازوا التوسل بالرسول وبالصالحين من عباد الله.

وهناك من كره التوسل، وهناك من منعه.

ولك فريق من هؤلاء أدلته أو شبهاته - على الأقل - في تأييد ما ذهب إليه، وللمخالفين ردودهم عليه، كما هو الشأن في المسائل الخلافية.

وهنالك دليل قوي لمن قالوا بالتوسل، وهو حديث عثمان بن حنيف، وقد صححه الشيخ الألباني، وهو من منكري التوسل، وإن وجهه هو وجهة أخرى، هي في نظرى أقوى وأحرى. وهو هذا الحديث:

أخرج أحمد وغيره بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال ادع الله أن يعافيني. قال: إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخرت ذاك فهو خير، «وفي رواية: وإن شئت صبرت فهو خير لك»، فقال: ادعه. فأمره أن يتوضأ، ويحسن وضوءه، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهم فشفعه في «وشفعني فيه». قال: ففعل الرجل، فبرأ[170].

---

(170) أخرجه في «المسند» (4 / 138)، ورواه الترمذي (4 / 271 - 282 بشرح التحفة)، وابن ماجه (1 / 418)، والطبراني في «الكبير» (3 / 2 / 2)، والحاكم (1 / 313) كلهم من طريق عثمان بن عمر (شيخ أحمد فيه): أنا شعبة عن أبي جعفر المدني قال: سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان به، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب» وفي ابن ماجه عقبه: «قال أبو إسحاق: حديث صحيح: ثم رواه أحمد: ثنا شعبة به، وفيه

يرى الكثرين: أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الصالحين، وإذ فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم علم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى فعاد بصيرا.

أما الشيخ الألباني فقال:

«وأما نحن فنرى أن هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل المختلف فيه، وهو التوسل بالذات، بل هو دليل آخر على النوع الثالث من أنواع التوسل المشروع الذي أسلفناه، لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه.

والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة». اهـ. وقد فصلها في كتابه «التوسل وأنواعه وأحكامه» فليرجع إليه.

وثانيا: لأن التوسل يتعلق بالعمل، ولا يتعلق بالعقيدة فهو من بحوث علم الفقه لا من بحوث علم التوحيد.

أما أن التوسل من مسائل العمل، وليس من مسائل العقيدة، فهذا توجيه صحيح، لأنه خلاف في كيفية الدعاء، ما دام المدعو والمتوسل إليه هو الله تتت.

لكن بقي البحث في مشروعيته هل يقال: أتوسل إليك بنبيك محمد، أو بملائكتك المقربين أو بعبادك الصالحين أو لا يجوز؟ فهذا بحث فقهي، وليس

الرواية الأخرى، وتابعه محمد بن جعفر ثنا شعبة به. رواه الحاكم (1 / 519» وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. انظر: تخريجه في كتاب «التوسل» للألباني (ص: 67، 68).

ببحث عقدي.

وليس الإمام البنا هو أول من قال بذلك، بل قال به الإمام محمد بن عبد الوهاب نفسه، كما نقل في مجموع فتاويه.

حيث قال في المسألة العاشرة: «قولهم في الاستسقاء: لا بأس بالتوسل بالصالحين، وقول أحمد يتوسل بالنبي خاصة، مع قولهم: إنه لا يستغاث بمخلوق، فالفرق ظاهرا جدا، وليس الكلام مما نحن فيه، فكون بعض يرخص في التوسل بالصالحين، وبعضهم يخصه بالنبي صلى الله عليه وسلم . وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسألة من مسائل الفقه. ولو كان عندنا قول الجمهور أنه مكروه، فلا ننكر على من فعله»[171].

فقد تضمن كلام الشيخ أن التوسل بالصالحين، أو بالنبي صلى الله عليه وسلم هو موضع خلاف بين العلماء، وإن هو صوب قول الجمهور أنه مكروه، وأن هذه المسألة من مسائل الفقه. وهذا عين ما قرره البنا، فلا وجه للإنكار عليه.

وقال به أيضا المحدث السلفي الشهير الشيخ ناصر الدين الألباني في مقدمته لشرح «العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي، فقد تحدث عن سبع مسائل هامة، قال: كلها في العقيدة إلا الأخيرة منها[172]. يعني بالأخيرة: ما قاله شارح الطحاوية من كراهية التوسل بحق الأنبياء وجاههم، تبعا لإمامه أبي حنيفة.

---

(171) «مجموعة فتاوى الشيخ محمد عبد الوهاب» (ص: 68 - 69).

(172) انظر: مقدمة «شرح الطحاوية» (ص: 55) طبعة المكتب الإسلامي.

ولأن الموضوع التوسل فقهي لا عقدي، تكلمت عنه جميع كتب المذاهب الفقهية، على اختلاف أحكامها فيه، ودخل الموسوعات الفقهية، باعتباره من المسائل الفروعية العملية، التي تدخل في إطار البحث الفقهي.

وهناك كثيرون من المستقلين عن المذاهب قالوا بإجازة التوسل، منهم الإمام الشوكاني - وهو سلفي معروف - في كتابه «تحفة الذاكرين» شرح «الحصن الحصين». وهناك غيره من القدامي والمحدثين. ومنهم من أجاز التوسل بالنبي وحده، ولم يجز التوسل بغيره من الأنبياء والصالحين، كما هو رأي الإمام عز الدين بن عبد السلام.

والخلاف في المسألة ظاهر. يمكنك أن تراجعه في بحث «التوسل» في الموسوعة الفقهية الكويتية في الجزء الرابع عشر. وبهذا يتضح لنا سلامة ما قاله الشيخ البنا بميزان العلم والتحقيق.

وأنا شخصيا أميل إلى ترجيح عدم التوسل بذات النبي وبالصالحين.

وأتبنى رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك، لعدة أمور:

الأول: أن أدلة المنع - أعني منع التوسل بذات النبي وذوات الصالحين - أرجح في الميزان العلمي. وخصوصا أن باب الله تعالى مفتوح لكل خلقه، وليس عليه حاجب ولا بواب، مثل أبواب الملوك والأمراء. حتى العصاة فتح الله تعالى لهم أبواب رحمته، ونسبهم إلى ذاته، فقال تعالى: **﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾** [الزمر: 53].

والثاني: أن إجازة التوسل قد يكون ذريعة إلى دعاء غير الله تعالى، والاستغاثة به، وكثير من الناس يخلط بين الأمرين، فسد الذريعة بالنظر إلى

العوام أولى.

والثالث: أن المنهج الذي أخذته وسرت عليه في التعليم والدعوة والفتوى: أننا إذا استطعنا أن نتعبد لله تعالى بالأمر المتفق عليه فلا داعي لأن ندخل في الأمر المختلف فيه.

وعلى هذا الأساس لا أفضل التعبد بصلاة التسابيح، لأن في الصلوات الأخرى المتفق عليها، والتي تواتر عن رسول الله التعبد بها ما يغني عنها.

ولكني لا أؤثم من أداه اجتهاده إلى جواز التوسل، أو جواز التعبد بصلاة التسابيح ونحوها. ولا أنكر عليه إلا من الإرشاد إلى الأرجح والأفضل، إذا لا إنكار في المسائل الخلافية، كما هو معلوم.

وشيخ الإسلام ابن تيمية وإن أنكر التوسل بالذات، لم يشتد في نكيره إلى حد التكفير أو التأثيم، كما يفعل بعض من يدعون الانتساب إلى مدرسته. وقد قال في «فتاويه» بعد أن ذكر الخلاف في المسألة: «ولم يقل أحد: إن من قال بالقول الأول فقد كفر. ولا وجه لتكفيره، فإن هذه المسألة خفية ليست أدلتها جلية ظاهرة، والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ونحو ذلك ... بل المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من تغليظ العقوبة والتعزير ما يستحق أمثاله من المفترين على الدين، لا سيما مع قول النبي: «**أيما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما**»[173].

---

(173) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (1 / 106)، والحديث متفق عليه عن ابن عمر.

قضية الولاء والبراء:

وأما قضية الولاء والبراء فالإخوان كانوا أسبق الجماعات إلى تقريرها، فهم يوالون كل من والى الله ورسوله وجماعة المؤمنين، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ 55 وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ}** [المائدة: 55، 56].

وهم يعادون كل من عادى الله ورسوله والمؤمنين: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ}** [الممتحنة: 1].

ويؤكد الأستاذ البنا في رسائله على هذه القضية، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله. وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟

وفي رسالة «التعاليم» في ركن «التجرد» يقول: أريد بالتجرد: أن تتخلص لفكرتك مما سواها من المبادئ والأشخاص، لأنها أسمى الفكر وأجمعها وأعلاها: **{صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ}** [البقرة: 138]. **{قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ}** [الممتحنة: 4]. والناس عند الأخ الصادق واحد من ستة أصناف: مسلم مجاهد، أو مسلم قاعد، أو مسلم آثم، أو ذمي معاهد، أو محايد، أو محارب. ولكل حكمه في ميزان الإسلام. وفي حدود هذه الأقسام نوزن الأشخاص والهيئات، ويكون الولاء والعداء»[174]. اهـ.

---

(174) رسالة «التعاليم» مجموع الرسائل (ص: 363).

لا أحسب عالما أو منصفا يتهم صاحب هذا الكلام بأنه لا يعرف الولاء والبراء، أو الموالاة والمعاداة في الله، بل لقد ربى جيلا يحب في الله، ويبغض في الله، ويوالي في الله، ويعادي في الله.

والإخوان كانوا أشد الناس على المستعمرين والصهاينة، الذين احتلوا ديار المسلمين، وهم الذين قادوا الجهاد وحركوه في ديار الإسلام لمقاومة هؤلاء، فلا يتصور أن يتهموا بدعوى الولاء لهم.

أخوة المواطنين من غير المسلمين:

ولكن الإخوان يفرقون بين هؤلاء وبين مواطنيهم، الذين يعيشون في دار الإسلام، وهم من أهل البلاد الأصليين، وقد دخل الإسلام عليهم وهم فيها، وأعطاهم الذمة والأمان أن يعيشوا مع المسلمين وفي ظل حكمهم، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، إلا ما اقتضاه التميز الديني.

فهؤلاء لم ينه الله تعالى عن برهم والإقساط إليهم، كما في قوله تعالى: **{لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ}** [الممتحنة: 8].

فهؤلاء لهم حق البر والقسط، والقسط هو العدل، والبر فوق العدل، وهو الإحسان.

القسط: أن تعطيهم حقهم، والبر: أن تزيد على ما هو حق لهم.

القسط: أن يأخذ منهم الحق الذي عليهم، والبر: أن تتنازل عن بعض حقك عليهم.

فهؤلاء - إذا كانوا من أهل وطنك - لك أن تقول: هم إخواننا، أي إخواننا في الوطن، كما أن المسلمين - حيثما كانوا - هم إخواننا في الدين. «والفقهاء يقولون عن أهل الذمة: هم من أهل الدار، أي دار الإسلام». فالأخوة ليست دينية فقط كالتي بين أهل الإيمان بعضهم وبعض، وهي التي جاء فيها قول الله تعالى: **{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** [الحجرات: 10]. بل هناك أخوة قومية، وأخوة وطنية، وأخوة بشرية.

والقرآن الكريم يحدثنا في قصص الرسل مع أقوامهم الذين كذبوهم وكفروا بهم، فيقول: **{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ 105 إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ}** [الشعراء: 105 ، 106]. **{كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ 123 إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ}** [الشعراء: 123 ، 124]. **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ 141 إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ}** [الشعراء: 141 ، 142]. **{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ 160 إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ}** [الشعراء: 160 ، 161].

كيف أثبت الله الأخوة لهؤلاء الرسل مع أقوامهم مع تكذيبهم لهم وكفرهم بهم؟ لأنهم كانو منهم، فهم إخوتهم من هذه الناحية، فهي أخوة قومية، ولذا قال عن شعيب في نفس السورة: **{كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ 176 إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ}** [الشعراء: 176 ، 177]. وذلك أنه لم يكن منهم، وإنما كان من مدين، ولذا قال في سورة أخرى: **{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}** [هود: 84].

وإذا أثبت القرآن هذه الأخوة القومية بين الرسل وأقوامهم، فلا حرج أن نثبت أخوة وطنية بين المسلمين ومواطنيهم من الأقباط في مصر، أو أمثالهم في البلاد الإسلامية الأخرى.

ولا يكون ذلك سببا للطعن في عقيدة الإخوان، وأنهم لا يعرفون الولاء والبراء في عقيدتهم، بل يكون هذا من حسن فقه الإخوان، وفهمهم عن الله ورسوله ما لا يفهم الآخرون.

تكفير الحكام:

وأما اتهام الإخوان بأنهم لا يسارعون بـ «تكفير الحكام» الذين لا ينفذون شرع الله، ولا يحكمون بما أنزل الله، ويتهاونون في ذلك، ممالأة للحكام، ومداهنة في الدين.

فيعلم الله، ويعلم المؤمنون، ويعلم الناس أجمعون: كم لقى الإخوان من الحكام، وكم بذلوا من تضحيات، وكم قدموا من شهداء، وكم أضاعوا من أعمارهم سنوات وسنوات في سجون الحكام ومعتقلاتهم، وكم ارتوت السياط من دمائهم، وأكلت الآلات من لحومهم، وسحقت أدوات التعذيب من عظامهم. سواء في ذلك الحكومات المملكية، والحكومات الجمهورية، والحكومات في عهد الليبرالية اليمينية، والحكومات في عهد الثورية الاشراكية اليسارية. فليس الإخوان هم الذين يتهمون بالمداهنة في الدين أو الممالأة للحكام.

ولكن الإخوان لهم أصول يرجعون إليها في تقويم الحكام، وفي الحكم عليهم، وعن هذه الأصول يصدرون، وعلى أحكامها ينزلون، ولا يحرفونها من أجل ظلم الحكام لهم، وانتهاكهم لحرماتهم، وسفكهم لدمائهم، وأكلهم لأموالهم بالباطل.

ومن هذه الأصول: أن التكفير قضية لها خطرها، ويترتب عليها آثارها،

ولا يجوز التساهل فيها، وإلقاء الأحكام على عواهنها دون الاعتماد على الأدلة القاطعة، والبراهين الناصعة. فإن الذي نحكم عليه بالكفر: نخرجه من الملة، ونسلخه من الأمة، ونفصله عن الأسرة، ونفرق بينه وبين زوجه وولده، ونحرمه من موالاة المسلمين، ونجعله عدوا لهم، وهم أعداء له. وأكثر من ذلك: أن جمهور فقهاء الأمة يحكمون عليه بالقتل، فهو محكوم عليه بالإعدام الأدبي بالإجماع، وبالإعدام المادي بالأكثرية.

لهذا قال الأستاذ البنا في آخر أصل من أصوله العشرين:

«لا تكفر مسلما أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما برأي أو معصية. إلا إذا أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره تفسيرا لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر»

والتضييق في التكفير هو اتجاه المحققين من علماء الأمة، من جميع المذاهب.

ولنا رسالة موجزة مركزة حول «ظاهرة الغلو في التكفير» بينا فيها حقائق مهمة حول هذا الأمر الخطير، الذي أسرفت فيه بعض الجماعات في عصرنا، فكفرت الأمة أو كادت. كفرت الحكام لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله، وكفرت الجماهير، لأنهم سكتو على الحكام! بدعوى أن من لم يكفر الكافر فهو كافر، وجهل هؤلاء أن هذا إنما هو في الكافر الأصلي المعلوم كفره بالضرورة، مثل الملاحدة والوثنيين والمحرفين من أهل الكتاب وغيرهم.

وقد عرض الإمام ابن القيم لتكفير الحكام في كتابه «مدارج السالكين»

ونظر في قوله تعالى: **{وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ}** [المائدة: 44]. وكان مما قاله في تأويلها:

«فأما الكفر فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود ... كما في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: «**اثنتان في أمتي، هما بهم الكفر: الطعن في النسب، والنياحة**»، وقول في «السنن»: «**من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد**»، وفي الحديث الآخر: «**من أتى كاهنا أو عرافا، فصدقه بما يقول. فقد كفر بما أنزل الله على محمد**»، وقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب ببعضكم رقاب بعض**».

وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى: **{وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ}** [المائدة: 44]. قال ابن عباس «ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر»، وكذلك قال طاووس. وقال عطاء: «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدا له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح. فإن جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناني. وهو أيضا بعيد. إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل. وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه

وببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل. حكاه البغوي عن العلماء عموما.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ. فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفر ينقل الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر, وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم المخطئين.

قال ابن القيم: والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر، فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة. فالسعي إما شكر، وإما كفر، وإما ثالث، لا من هذا ولا من هذا. والله أعلم[175]. اهـ.

آيات الصفات وأحاديثها:

وأما الموضوع الذي أثار لغطا كبيرا، فهو ما يتعلق بموقف الإخوان مما سمى «آيات الصفات وأحاديث الصفات» فقد عرض الأستاذ البنا عليه رحمة الله ورضوانه - لها في موضعين أساسيين:

---

(175) «مدارج السالكين» لابن القيم بتحقيق محمد حامد الفقي (جـ 1 / 335 - 337) مطبعة السنة المحمدية.

أولها: في الأصول العشرين من رسالة التعاليم. وذلك في الأصل العاشر، وفيه يقول:

«معرفة الله تتت، وتوحيده وتنزيهه: أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات، وأحاديثها الصحيحة، وما يليق بذلك من المتشابة: نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه **{وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا}** [آل عمران: 7].

وثاني الموضعين: في رسالة «العقائد» التي كتبها مقالات في سنة 1932، أي بعد تأسيس الإخوان بثلاث سنوات، وكان في العشرينات من عمره، ورغم أن الرسالة موجزة، فقد عرض للموضوع بالتفصيل المناسب، ولا بأس أن نذكر أهم عناصره هنا.

مذاهب الناس حول آيات الصفات وأحاديثها:

ذكر الأستاذ البنا أن الناس انقسموا في هذه المسألة على أربع فرق، أو أربعة مذاهب.

مذهب المشبهة:

1 - **الفرقة الأولى:** فرقة أخذت بظواهر هذه النصوص كما هي، ونسبتها إلى الله تعالى: وجها كوجوه الخلق، ويدا أو أيديا كأيديهم، وضحكا كضحكهم! وهكذا حتى فرضوا الإله شيخا، وبعضهم فرضه شابا! وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة، وليسوا من الإسلام في شيء، وليس لقولهم نصيب من الصحة.

ويكفي في الرد عليهم قول الله تتت: {لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ} [الشورى: 11]. وقوله تعالى: {قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ 1 ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ 2 لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ 3 وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ} [الإخلاص: 1 - 4].

مذهب المعطلة:

2 - **والفرقة الثانية:** فرقة عطلت معاني هذه الألفاظ على أي وجه، يقصدون بذلك نفي مدلولاتها مطلقا عن الله تتت، فالله تتت لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر؛ لأن ذلك لا يكون إلا بجارحة، والجوارح يجب أن تنفى عن سبحانه، فبذلك يعطلون صفات الله تتت ويتظاهرون بتقديسه، وهؤلاء هم المعطلة. ويطلق عليهم بعض علماء تاريخ العقائد الإسلامية: الجهمية، ولا أظن أن أحدا عنده مسكة من عقل يستسيغ هذا القول المتهافت! وها قد ثبت الكلام لبعض الخلائق بغير جارحة، فكيف يتوقف كلام الحق تتت على الجوارح؟! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

هذان رأيان باطلان لا حظ لهما من النظر، وبقي أمامنا رأيان هما محل أنظار العلماء في العقائد، وهما رأي السلف ورأي الخلف.

مذهب السلف:

3 - **أما السلف رضوان الله عليهم فقالوا:** نؤمن بهذه الايات والأحاديث كما وردت، ونترك بيان المقصود لله تتت، فهم يثبتون اليد والعين والأعين والاستواء والضحك والتعجب ... إلخ وكل ذلك بمعان لا ندركها، ونترك الله تتت الإحاطة بعلمها، ولا سيما وقد نهينا عن ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : «**تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروه**

قدره»[176].

أ - روى أبو القاسم اللالكائي في «أصول السنة» عن محمد بن الحسين صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهب قال: «اتفق العلماء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي حدث بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وفارق الجماعة؛ فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا».

ب - وذكر الخلال في كتاب «السنة» عن حنبل وذكره حنبل في كتبه مثل كتاب «السنة والمحنة» قال حنبل: «سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تروى: إن الله تتت ينزل إلى سماء الدنيا». و «إن الله يرى» و «إن الله يضع قدمه» وما أشبه هذه الأحاديث؟ فقال أبو عبد الله: نؤمن بها ونصدق بها ولا كيف ولا معنى، ولا نرد منها شيئا، ونعلم أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حق إذا كان بأسانيد صحاح، ولا نرد على الله قوله، ولا يوصف الله تتت بأكثر مما وصف به نفسه، بلا حد ولا غاية، ليس كمثله شيء».

جـ - وروى حرملة بن يحى قال: سمعت عبد الله بن وهب يقول: سمعت مالك

---

(176) ذكره في «الجامع الصغير» بلفظ: **«تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله »** وأشار إلى أنه رواه أبو الشيخ والطبراني في «الأوسط» وابن عدي والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمر، وبلفظ: **«تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله»** رواه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عباس. وحسنهما الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (2975 و 2976).

بن أنس يقول: من وصف شيئا من ذات الله قوله: {وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: 64]. فأشار بيد إلى عنقه، ومثل قوله: {وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [الشورى: 11]. فأشار إلى عينه أو أذنه أو شيء من بدنه، قطع ذلك منه؛ لأنه شبه الله بنفسه. ثم قال مالك: أما سمعت قول البراء حين ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يضحي بأربع من الشحايا، وأشار البراء بيده كما أشر النبي صلى الله عليه وسلم ، قال البراء: ويدي أصغر يد من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره البراء أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له وهو مخلوق، فكيف الخالق الذي ليس كمثله شيء؟!

د - وروى أبو بكر الأثرم، وأبو عمرو الطلمنكي وأبو عبد الله بن أبي سلمة الماجشون كلاما طويلا في هذا المعنى ختمه بقوله: «فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه، ولم نتكلف منه صفة ما سواه، لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف».

مذهب الخلف:

وأما الخلف فقد قالوا: إننا نقطع بأن معاني ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لا يراد بها ظواهرها، وعلى ذلك فهي مجازات لا مانع من تأويلها، فأخذوا يؤولون «الوجه» بالذات «اليد» بالقدرة، وما إلى ذلك؛ هربا من شبهة التشبيه وإليك نماذج من أقوالهم في ذلك:

1 - قال أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي في كتابه «دفع شبهة التشبيه»: قال الله

تعالى: {وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: 27]. قال المفسرون: يبقى ربك، وكذلك قالوا في قوله تعالى: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ} [الكهف: 28]. أي يريدونه. وقال الضحاك وأبو عبيدة: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ} [القصص: 88]. أي إلا هو.

وعقد في أول الكتاب فصلا ضافيا في الرد على من قالوا: إن الأخذ بظاهر هذه الآيات والأحاديث هو مذهب السلف؛ وخلاصة ما قاله: أن الأخذ بالظاهر هو تجسيم وتشبيه؛ لأن الظاهر اللفظ هو ما وضع له، فلا معنى لليد حقيقة إلا الجارحة، وهكذا. وأما مذهب السلف فليس أخذها على ظاهرها، ولكن السكوت جملة عن البحث فيها.

وأيضا فقد ذهب إلى أن تسميتها آيات صفات: وأحاديث صفات تسمية مبتدعة لم ترد في كتاب ولا في سنة، وليست حقيقة، فإنها إضافات ليس غير، واستدل على كلامه في ذلك بأدلة كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

2 - وقال فخر الدين الرازي في كتابه «أساس التقديس»: وأعلم أن نصوص القرآن لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجوه: الأول أن ظاهر قوله تعالى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ} [طه: 39]. يقتضي أن يكون آلة تلك الصنعة هي تلك العين، والثالث أن إثبات الأعين في الوجه الواحد قبيح فثبت أنه لا بد من المصير إلى التأويل، وذلك هو أن تحتمل هذه الألفاظ على شدة العناية والحراسة.

3 - قال الإمام الغزالي في الجزء الأول من كتابه «إحياء علوم الدين» عند كلامه على نسبة العلم الظاهر إلى الباطن وأقسام ما يتأتى فيه الظهور والبطون، والتأويل وغير التأويل: القسم الثالث أن يكون الشيء بحيث لو

ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز؛ وليكون وقعه في قلب المستمع أغلب ... ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : «**إن المسجد لينزوي**(177) **من النخامة كما تنزوي الجلدة على النار**». ومعناه أن روح المسجد وكونه معظما، ورمي النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة. وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض من نخامة، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله من رأسه رأس حمار**»(178) وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون، ولكن من حيث المعنى هو كائن؛ إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته وكونه وشكله بل بخاصيته، وهي البلادة والحمق، وهو المقصود دون الشكل. وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلي أو شرعي. أم العقلي فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن، كقوله صلى الله عليه وسلم : «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**»(179) إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع، فعلم أنها كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي، ومنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا في تفهم تمام الأقدار.

---

(177) قوله صلى الله عليه وسلم : «**إن المسجد لينزوي**» أي لينقبض. قال الزبيدي في «شرح الإحياء»: قال العراقي: هذا لم أر له أصلا في المرفوع وإنما هو من قول أبي هريرة، وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في المسجد في القبلة فقال: «**ما بال أحدكم مستقبل ربه فينخع أمامه! أيجب أحدكم أن يستقبل فينخع في وجهه**».

(178) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

(179) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو.

إلى هنا وضح أمامك طريقا السلف والخلف، وقد كان هذان الطريقان مثار خلاف شديد بين علماء الكلام من أئمة المسلمين، وأخذ كل يدعم مذهبه بالحجج والأدلة، ولو بحثت الأمر لعلمت أن مسافة الخلف بين الطريقين لا تحتمل شيئا من هذا لو ترك أهل كل منهما التطرف والغلو، وأن البحث في مثل هذا الشأن، مهما طال فيه القول، لا يؤدي في النهاية إلا إلى نتيجة واحدة، وهي التفويض لله تتت، وذلك ما سنفصله لك إن شاء الله تعالى.

بين السلف والخلف:

قد علمت أن مذهب السلف في الآيات والأحاديث التي تتعلق بصفات الله تتت أن يمروها على ما جاءت عليه، ويسكتوا عن تفسيرها أو تأويلها؛ وأن مذهب الخلق أن يؤولوها بنا يتفق مع تنزيه الله تتت عن مشابهة خلقه. وعلمت أن الخلاف شديد بين أهل الرأيين حتى أدى بينهما إلى التناثر بالألقاب العصبية؛ وبيان ذلك من عدة أوجه:

أولا: اتفق الفريقان على تنزيف الله تتت عن المشابة لخلقه.

ثانيا: كل منهما يقطع بأن المراد بألفاظ هذه النصوص في حق الله تتت غير ظواهرها التي وضعت لها هذه الألفاظ في حق المخلوقت، وذلك مترتب على اتفاقهما على نفي التشبيه.

ثالثا: كل من الفريقين يعلم أن الألفاظ توضع للتعبير عما يجول في النفوس، أو يقع تحت الحواس مما يتعلق بأصحاب اللغة وواضعيها، وأن اللغات، مهما اتسعت، لا تحيط بنا ليس لأهلها بحقائقه علم، وحقائق ما يتعلق بذات الله تتت من هذا القبيل، فاللغة أقصر من أن تواتينا بالألفاظ التي تدل

على هذه الحقائق، فالتحكم في تحديد المعاني بهذه الألفاظ تغرير.

وإذا تقرر هذا فقد اتفق السلف والخلف على أصل التأويل، وانحصر الخلاف بينهما في أن الخلف زادوا تحديد المعنى المراد، حيثما ألجأتهم ضرورة التنزيه إلى ذلك حفظا لعقائد العوام من شبهة التشبيه، وهو خلاف لا يستحق ضجة ولا إعناتا.

ترجيح مذهب السلف:

قال الشيخ البنا رحمه الله :

«ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تتت: أسلم وأولى بالاتباع، حسما لمادة التأويل والتعطيل؛ فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان، وأثلج صدره ببرد اليقين، فلا تعدل به بديلا.

ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق، ولا تستدعي هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديما وحديثا، وصدر الإسلام أوسع من هذا كله. وقد لجأ أشد الناس تمسكا برأي السلف، رضوان الله عليهم، إلى التأويل في عدة مواطن، وهو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه(180)؛ من ذلك تأويله لحديث: «**الحجر الأسود يمين الله في أرضه**»(181) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**»(182) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «**إني لأجد نفس الرحمن**

---

(180) نقل ذلك الإمام الغزالي عن بعض الحنابلة في زمنه وأنكره شيخ الإسلام ابن تيمية.

(181) قال العراقي: رواه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو، بلفظ: «الحجر يمين الله ... ».

(182) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو.

من جانب اليمين»[183].

وقد رأيت للإمام النووي رضي الله عنه ما يفيد قرب مسافة الخلاف بين الرأيين مما لا يدع مجالا للنزاع والجدال، ولا سيما وقد قيد الخلف أنفسهم في التأويل بجوازه عقلا وشرعا، بحيث لا يصطدم بأصل من أصول الدين.

قال الرازي في كتابه «أساس التقديس»: «ثم إن جوزنا التأويل اشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل، وإن لم نجز التأويل فوضنا العلم بها إلى الله تعالى، فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات، وبالله التوفيق».

وخلاصة هذا البحث أن السلف والخلف قد اتفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق، وهو تأويل في الجملة، واتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز، فانحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع، وهو هين كما ترى، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم.

وأهم ما يجب أن تتوجه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف، وجمع الكلمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، والله حسبنا ونعم الوكيل[184]. انتهى.

أوجه اعتراض الإخوة السلفين على البنا:

والإخوة السلفيون - عفا الله عنا وعنهم - يعترضون على كلام الإمام البنا

---

(183) قال العراقي: رواه أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه: «وأجد نفس ربكم من قبل اليمن» ورجاله ثقات.

(184) من رسالة «العقائد» (ص: 411 - 418) من مجموع الرسائل.

من عدة أوجه:

الأول: أنه اعتبر موقف السلف هو السكوت عن بيان المعنى، وتفويض معرفته إلى الله تتت، فالبشر أعجز من أن يحيطوا بصفاته عز وجل . وهم ينكرون نسبة هذا التفويض إلى السلف، ويقولون: إن موقف السلف هو: الإثبات وليس التفويض.

الثاني: محاولته التقريب بين الموقفين، وأن الشقة ليست بعيدة جدا بينهما، لأن موقف السلف فيه تأويل في الجملة.

الثالث: هو عدم تأثيم وتضليل المؤولين من الخلف، والتماس الأعذار لهم، مع خروجهم عن سلف الأمة من الصحابة وتابعيهم بإحسان.

وسأبين فيما يلي سلامة موقف الشيخ البنا رحمه الله ، وأنه لم يجاوز الصواب فيما ذهب إليه من هذه الأوجه، وأنه لم يبتدع هذا الكلام من عنده، بل هو متبع لأئمة كبار، وصلوا إلى ما وصل إليه.

التفويض والإثبات:

أما الوجه الأول، وهو نسبة التفويض إلى السلف، فليس هذا موقف البنا وحده، إنما هو الموقف المروي عن كثير من الأئمة والعلماء الكبار.

وقد بين ذلك بوضوح وتفصيل علامة الحنابلة في عصره، الشيخ مرعي بن يوسف، الكرمي المقدسي الجنبلي، المتوفي سنة (1032هـ)، وذلك في كتابه القيم «أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات». فقد قال بعد كلام عن المحكم والمتشابه. والتأويل وعدمه:

«إذا تقرر هذا فاعلم: أن من المتشابهات، آيات الصفات التي التأويل فيها بعيد، فلا تؤول ولا تفسر.

وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث، على الإيمان بها وتفويض[185] معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسرها، مع تنزيهنا له عن حقيقتها.

فقد روى الإمام اللالكائي الحافظ عن محمد بن الحسن قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى الغرب، على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه[186].

وقد روى اللالكائي أيضا في «السنة»[187] بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها في قوله تعالى: **{ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ}** [طه: 5] قالت: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، والبحث عنه كفر».

وهذا له الحكم الحديث المرفوع[188]، لأن مثله لا يقال من قبيل الرأي.

وقال الإمام الترمذي[189] في الكلام على حديث الرؤية[190]: المذهب في

---

(185) انظر «الرسالة التدمرية» (30).

(186)نقله عنه الذهبي في «العلو» (159 - مختصرة)، والإمام ابن تيمية في «مجموع الفتاوي» (4 / 4، 5).

(187) (3 / 397)، وأشار إلى هذه الرواية الحافظ ابن حجر في «الفتح» (13 / 406).

(188) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى»: وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا ومرفوعا، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه. اهـ. أقول: ودعوى أن هذا لايقال من قبيل الرأي: فيها نظر، وقد روي مثله عن مالك.

(189) في «سننه» (4 / 692) بأطول مما هنا، وذكره نحوه في (5 / 251) منه.

هذا عند أهل العلم من الائمة، مثل سفيان الثوري وابن المبارك، ومالك، وابن عيينة، ووكيع وغيرهم أنهم قالوا: نروي هذه الأحاديث كما جاءت، ونؤمن بها، ولا يقال: كيف؟ ولا نفسر، ولا نتوهم(191).

قال الشيخ مرعي:

وذكرت في كتابي «البرهان في تفسير القرآن» عن قوله تعالى: **{هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ}** [البقرة: 210]، وبعد أن ذكرت مذاهب المتأولين : أن مذهب السلف هو عدم الخوض في مثل هذا، والسكوت عنه وتفويض علمه إلى الله تعالى.

قال ابن عباس: «هذا من المكتوم الذي لا يفسر»، فالأولى في هذه الآية وما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها، ويكل علمها إلى الله تعالى، وعلى ذلك مضت أئمة السلف.

وكان الزهري ومالك والأوزاعي وسفيان والليث بن سعد وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق يقولون في هذه الآية وأمثالها: أمروها كما جاءت(192).

وقال سفيان بن عيينة وناهيك به: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته، والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله(193).

---

(190) وهو حديث طويل أوله: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين، فيقول ... » الحديث. إسناده صحيح.

(191) والمصنف ينقل عن «الإتقان» (2 / 958).

(192) أوردها ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (2 / 96).

(193) انظر: «السنة» للالكائي (3 / 431)، و «شرح السنة» للبغوي (1 / 171)، و «خلق

وسئل الإمام ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات، فقال: ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب أئمة الدين، مثل مالك وسفيان والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق ويحيى بن يحيي وابن المبارك وأبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبي يوسف يتكلمون في ذلك، وينهون أصحابهم عن الخوض فيه، ويدلونهم على الكتاب والسنة.

وسمع الإمام أحمد شخصا يروي حديث النزول، ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ولا تغير حال: فأنكر أحمد ذلك، وقال: قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو كان أغير على ربه منك! انتهى(194).

فهذه النقول كلها تدل بجلاء على أن السلف لم يكونوا يخوضون في تفسير هذه النصوص، بل كانوا يسكتون عنها، ويمرونها كما جاءت، ويفوضون معناها، إلى الله تنتت. لعلمهم أن عقل الإنسان محدود، وعلمه قاصر، وقد قال تعالى: **{يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا}** [طه: 110].

التقريب بين السلف والخلف:

وأما محاولة التقريب بين السلف والخلف، فليس الأستاذ البنا أول من حاول ذلك، فقد وجدنا من كبار القدامى والمحدثين من اجتهد في ذلك، ومنهم العلامة الواسطي السلفي الصوفي (ت 712هـ) الذي كان الإمام ابن تيمية يسميه «جُنيد زمانه» في رسالته «النصيحة» وقد تحدث فيها عن معنى «العلو» و «الفوقية» التي يثبتها السلف لله تعالى، فقال كلاما في غاية الروعة

أفعال العباد» (126).

(194) انظر: «أقاويل الثقات» (ص60 - 63) طبعة الرسالة بتحقيق شعيب الأرناؤوط.

والقوة، وقرب هذا الأمر تقريبا كاد يذيب الفوارق بين الفريقين.

وقد نقل خلاصة ذلك العلامة السفاريني الحنبلي (ت 1188هـ) في كتابه الشهير في العقائد: «لوامع الأنوار الإلهية»[195] ونقلها عنه مؤيدا: العلامة السيد رشيد رضا في «تفسير المنار»، في تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران. ثم قال: إن ما ذكر يشبه تأويل المتكلمين في قولهم: إن العلو علو المرتبة، أو هو هو! وأقر الشيخ رشيد أنه يتفق مع في الجوهر، ولكنه يفارقه بعدم حظر استعمال ما جاءت به النصوص للعامة والخاصة مع اعتقاد التنزيه. انتهى.

المسافة إذن ليست بعيدة بين الفريقين، كما يتصور بعض الكاتبين أو يصورون، من المتحمسين من كلا الفريقين.

ونقرأ للمصلح السلفي العلامة جمال الدين القاسمي (ت 1332هـ) في تفسيره المعروف «محاسن التأويل» قوله: قال ابن كثر في قوله تعالى في سورة الفجر: **{وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا}** [الآية: 22]: أي وجاء الرب تتت، لفصل القضاء، كما يشاء، والملائكة بين يديه صفوفا صفوفا.

وسبقه ابن جرير إلى ذلك، وعضده بآثار عن ابن عباس وأبي هريرة والضحاك في نزوله تعالى من السماء يومئذ في ظلل من الغمام، والملائكة بين يديه، وإشراق الأرض بنور ربها.

ومذهب الخلف في ذلك معروف، من جعل الكلام على حذف مضاف،

---

(195) انظر «لوامع الإلهية» (1 / 210، 211) وقد نشر المكتب الإسلامي بتحقيق زهير الشاويش رسالة «النصيحة» للواسطي.

للتهويل. أي جاء أمره وقضاؤه. أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثاره قهره وسلطانه.

قال الزمخشري: مثلت حاله في ذلك، بحال الملك إذا حضر بنفسه، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم. انتهى.

قال العلامة القاسمي معلقا:

وكأن الخلاف بين المذهبين لفظين إذ مبني مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد.

ويعنون بالظاهر: ما للخلق مما يستحيل على الخالق، فيوجب تأويله وأما السلف فينكرون أن معنى الظاهر منها ما للخلق. بل هو ما يتبادر إلى فهم المؤمن الذي يعلم أن ذاته تعالى، كما أنها لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات, لأنها لا تكيف ولا تعلم بوجه ما، فهي حقيقة بالنسبة إليه سبحانه على ما يليق به. كالعلم والقدرة. لا تمثيل ولا تعطيل.

قال الإمام ابن تيمية رضي الله عنه: واعلم أن من المتأخرين من يقول: إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مرد، وهذا لفظ مجمل، فإن قوله: «ظاهرها غير مراد» يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين، مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلي، أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه، و «إن الله معنا» ظاهره أنه إلى جانبنا، ونحو ذلك، فلا شك أن هذا غير مراد، ومن قال: إن مذهب السلف أن هذا غير مراد، فقد أصاب في المعنى، لكن أخطأ في إطلاق القول

بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث، فإن هذا المحال ليس هو الظاهر، على ما قد بيناه في غير هذا الموضع، اللهم إلا أن يكون هذا المعنى لممتنع صار يظهر لبعض الناس، فيكون القائل لذلك مصيبًا بهذا الاعتبار، معذورًا في هذا الإطلاق، فإن الظهور والطبون قد يختلف باختلاف أحوال الناس، وهو من الأمور النسبية. انتهى.

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك في «الرسالة المدنية» أوضح أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية.

وقال رحمه الله في بعض فتاويه: نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل، ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منا، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل، والله عند لسان كل قائل، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب، إلى هدم السنة والكتاب، واللحاق بمحرفة أهل الكتاب، والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه: أن القرآن مشمل على المجاز، ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص في هذه المسألة، وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم، كأبي بكر بن أبي داود، وأبي الحسن الخرزي، وأبي الفضل التميمي، وابن حامد، فيما أظن، وغيرهم، إلى إنكار أن يكون في القرآن مجاز، وإنما دعاهم إلى ذلك ما رأوه من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى لمجاز، فقابلوا الضلال والفساد،

بحسم المراد، وخيار الأمور التوسط والاقتصاد[196]. انتهى.

وبهذا نرى أن حسن البنا لم يحد عن نهج الأئمة المحققين، الذين يحرصون على البناء لا الهدم، وعلى الجمع لا التفريق.

عدم تأثيم المؤولين وتضليلهم:

وأما الوجه الثالث، وهو عدم الحكم بالإثم أو الفسق - فسق التأويل - أو الضلال على المؤولين، فهذا هو توجه شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه، وتوجه تلميذه الإمام ابن القيم، في عدم تأثيم المخطئ في تأويله في المسائل الأصولية أو العلمية، ويراد بها: المسائل المتعلقة بالعقائد وأصول الدين.

وقد رد ابن تيمية على الذين عذروا المخطئين في الاجتهاد في الأحكام الفرعية العملية، بل جعلوا لهم أجر المجتهد المخطئ، ولم يعدوا ذلك إلى من اجتهد في المسائل العلمية أو الاعتقادية، فأخطأ. وأكد أن كل عالم اجتهد في طاعة الله ورسوله، والفهم عنهما، في مسائل العلم أو العمل، الفروع أو الأصول، فأخطأ في اجتهاده أو أصاب، فهو دائر بني الأجر والأجرين.

وكان من فضل الشيخ مرعي في كتابه «أقاويل الثقات» الذي نقلنا منه من قبل: أنه لم يتعقب بعض النقول التي أوردها في كتابه، وهي بمنأى عن منهج السلف الذي صرح بالأخذ به، والعدول عما سواه، ولا سيما في نقله عن الإمام ابن الجوزي (ت 597هـ) الذي اضطرب رأيه في مسألة الصفات، فمرة ينحو منحى السلف في الإثبات، وتارة يخالفهم، ويجنح إلى التأويل، وهو متابع في ذلك شيخه أبا الوفاء ابن عقيل الذي جالس المعتزلة، وتأثر بهم،

(196) «محاسن التأويل» (جـ17 / 151، 152).

ووافقه في بعض ما ذهبوا إليه، ومع هذا كان موضع التجلة والتقدير من الحنابلة وغيرهم من علماء الأمة ...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «در تعارض العقل والنقل» (60/8، 61): ولابن عقيل أنواع من الكلام، فإنه كان من أذكياء العالم، كثير الفكر والنظر في كلام الناس، فتارة يسلك مسلك نفاة الصفات الخبرية، وينكر على من يسميها صفات، ويقول: إنما هي إضافات، موافقة للمعتزلة، كما فعله في كتابه «ذم التشبيه وإثبات التنزيه»(197)، وفي كتابه «منهاج الوصول»، وتارة يثبت الصفات الخبرية، ويرد على النفاة والمعتزلة بأنواع من الأدلة الواضحات، وتارة يوجب التأويل، كما فعله في كتابه «الواضح» وغيره، وتارة يحرم التأويل ويذمه، وينهى عنه كما فعله في كتابه «الانتصار لأصحاب الحديث» فيوجد في كلامه من الكلام الحسن البليغ ما هو معظم ومشكور، ومن الكلام المخالف للسنة والحق ما هو مذموم ومدحور(198). انتهى.

وإذا كنا نعيب على بعض السلفيين غلوهم في تكفير بعض المسلمين من المؤولين وغيرهم، أو تفسيقهم وتأثيمهم، فإنا نعيب كذلك على بعض مخالفيهم الغلو في اتهام هؤلاء السلفيين بل أئمتهم وشيوخهم - بالضلال والمروق، وتقويلهم ما لم يقولوه في دين الله، ورميهم بالجتسيم والتشبيه وهم يبرأون منهما في كل ما كتبوه، حتى قالوا عن الإمام الرباني، علامة الأمة، شيخ

---

(197) حققه ونشره الشيخ محمد زاهد الكوثري وقدم له الشيخ محمد أبو زهرة بعنوان «دفع شبهة التشبيه بأكف التنزيه» وطبع بالقاهرة، وهناك طبعة أخرى بتحقيق حسن السقاف.

(198) «أقاويل الثقات» السابق، من مقدمة الشيخ شعيب محققة (ص23، 24).

الإسلام ابن تيمية ما لا يجوز ولا يقبل أن يقال: بحال من الأحوال.

وإني أشارك الأخ الشيخ شعيب الأرناؤوط كلمته التي وجهها في مقدمة تحقيقه لكتاب الشيخ مرعي «أقاويل الثقات» ووجه فيها النصح مخلصًا إلى الذين قضوا شوطًا من حياتهم في قراءة كتب الخلف، وتمرسوا بها، ولم يدخروا شيئًا من الوقت للنظر في الكتب التي تناولت مذهب السلف بالبيان والشرح، وعرضته بأمانة وصدق، ودللت على صحته بالأدلة العقلية والنقلية المقنعة، حتى يتاح لهم المقارنة بين المذهبين، واختيار ما هو أحكم، وأسلم، وأعلم، لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم ولأتباعهم الذين يأخذون عنهم، لو أنهم يتأثرون بهم، ولكانوا يكفون ألسنتهم عن تقويل العلماء الأثبات الذين انتهجوا منهج السلف، وألفوا فيه، ودافعوا عنه ما لم يقولوه، وإلزامهم بتلك الأقوال التي نسبوها إليهم والحكم عليهم بموجب تلك الإلزامات بالكفر والمروق، والشذوذ.

مع أن هؤلاء الأئمة ينفون تلك الإلزامات بصريح القول ومنطوقه في كتبهم التي تناولوا فيها مسألة الصفات وغيرها من مسائل الاعتقاد.

وأهل العلم متفقون على أنه لا يجوز التكفير باللوازم، لا سيما إذا كان المطعون فيه يصرح بنفيها وردها.

ولا أدري كيف يجرؤ طالب العلم على الحكم بالكفر والمروق والشذوذ على من كان له سابقة فضل في الإسلام وأهله بما حباه الله من علم وفضل وتقوى، وبما دبجته براعته من العلوم المختلفة النافعة التي تحيي موات القلوب، وتبصر الناس بمراشد الحق ومهيع الصدق، مع أنه ليس له مستند

في الحكم عليه بذلك إلا نقول مبتسرة مشوهة من كتبه، نقلها عنه من كان في قلبه عليه عداوة وحقد، وأقامها على الوجه الذي يروق له، بغية التشويه والتهويش، وتنفير الناس من علمه، وإضعاف الثقة به.

ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء الطلبة يتشبثون بتلك الأقوال، ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث في مراجعتها في مظانها الموثوقة(199)، ليتبين لهم وجه الحق، وقول الصدق، وليشهدوا بأنفسهم تدليس هؤلاء الحاقدين وتحريفهم، وافتراءهم.

وهم إلى ذلك لا يلقون بالًا، ولا يعيرون اهتمامًا لما حكاه العلماء الثقات الذين عاصروا ذلك الإمام وخالطوه في بيان عظم إمامته في الدين والعلم، والفضل والصلاح، والسداد والاستقامة.

وما أظن أن أي طالب علم يستشعر خوف الله، ويتحلى بالتقوى والإنصاف يرتضي لنفسه أن يقف إلى صف هذا النفر الحاقد الذي يمضي على غير هدى، ويلتمس للبرآء العيب، ويتهالك عصبية وحقدًا **{رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}**(200) [الحشر: 10].

اتباع نهج القرآ ن في عدم التجميع:

وأريد أن أنبه هنا على حقيقة ذات أهمية كبيرة في قضية الصفات، والإيمان بها، وتعليمها للناس على مذهب السلف.

---

(199) الأولى أن يقال: الموثوق بها، أو الموثقة.

(200) مقدمة الشيخ شعيب (ص 24، 25).

وتلك الحقيقة: أن تعرض هذه الصفات كما وردت في كتاب ا لله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أعني أن تذكر مفرقة لا مجموعة، فكل مسلم يؤمن بها ويثبتها لله تعالى كما جاءت.

فليس مما يوافق الكتاب والسنة جمعها في نسق واحد يوهم تصور ما لا يليق بكمال الله تعالى، كما يقول بعضهم: يجب أن تؤمن بأن لله تعالى وجهًا، وأعينًا، ويدين، وأصابع، وقدمًا، وساقًا ... إلخ. فإن سياقها مجتمعة بهذه الصورة قد يوهم بأن ذات الله تعالى وتقدس كل مركب من أجزاء، أو جسم مكون من أعضاء ...

ولم يعرضها القرآن الكريم ولا الحديث الشريف بهذه الصورة، ولم يشترط الرسول لدخول أحد في الإسلام أن يؤمن بالله تعالى بهذا التفصيل المذكور.

ولم يرد أن الصحابة وتابعيهم بإحسان كانوا يعلمون الناس العقيدة بجمع هذه الصفات، كما تجمع في بعض الكتب المؤلفة في ذلك.

ولكن المسلم إذا قرأ القرآن الكريم، أو الحديث الصحيح، وانتهى إلى آية مشتملة على صفة من هذه الصفات، أو إلى حديث من هذا النوع، آمن به كما ورد، دون تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وبهذا يكون سلفيًا حقًا، لأمة لم يعد ما كان عليه الصحابة والتابعون وخير القرون في هذه الأمة.

الإخوان والأشاعرة:

واتهام الإخوان بأنهم من الأشاعرة، لا ينتقص من قدرهم، فالأمة

الإسلامية في معظمها أشاعرة أو ماتريدية، فالمالكية والشافعية أشاعرة، والحنفية ماتريدية.

والجامعات الدينية في العالم الإسلامي أشعرية أو ماتريدية: الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب، وديوبند في الهند، وغيرها من المدارس والجامعات الدينية.

فلو قلنا: إن الأشاعرة ليسوا من أهل السنة، لحكمنا بالظلال على الأمة كلها، أو جلها، ووقعنا فيما تقع فيه الفرق التي نتهمها بالانحراف.

ومن ذا الذي حمل لواء الدفاع عن السنة ومقاومة خصومها طوال العصور الماضية غير الأشاعرة والماتريدية؟

وكل علمائنا وأئمتنا الكبار كانوا من هؤلاء: الباقلاني، الإسفراييني، إمام الحرمين الجويني، أبو حامد الغزالي الفخر الرازي، البيضاوي، الآمدي، الشهرستاني، البغدادي، ابن عبد السلام، ابن دقيق العيد، ابن سيد الناس، البلقيني، العراقي، النووي، الرافعي، ابن حجر العسقلاني، السيوطي، ومن المغرب: الطرطوشي والمازري والباجي وابن رشد «الجد» وابن العربي والقاضي عياض والقرطبي والقرافي والشاطبي وغيرهم.

ومن الحنفية الكرخي والجصاص والدبوسي والسرخسي والسمرقندي والكاساني وابن الهمام وابن نجيم والتفتازاني والبزدوي وغيرهم.

والإخوان السلفيون الذين يذمون الأشاعرة بإطلاق: مخطئون متجاوزون، فالأشاعرة فئة من أهل السنة والجماعة، ارتضتهم الأمة، لأنهم ارتضوا الكتاب والسنة مصدرًا لهم، ولا يضيرهم أن يخطئوا في بعض المسائل، أو

يختاروا الرأي المرجوح أو حتى الخطأ، فهم بشر مجتهدون غير معصومين، ولا توجد فئة سلمت من الزلل والخطأ فيما اجتهدت فيه، سواء في مسائل الفروع أم في مسائل الأصول، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويدر عليه إلا الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم .

على أن الحقيقة أن الإخوان في اتجاههم العام ليسوا أشاعرة، ولا ضد الأشاعرة، إنهم يستمدون عقائدهم من القرآن أولًا، ثم من صحيح السنة ثانيًا، ويأخذون من كل طائفة أفضل ما عندهم، مرجحين ما يرجحه الدليل، وما يؤيده البرهان، مؤثرين مذهب السلف على مذهب الخلف، غير متعصبين ولا منغلقين، داعين إلى التوحيد، بريئين من الشرك كله، أكبره وأصغره، جليه وخفيه، ولله الحمد أولًا وآخرًا.

* * *

8 ـ الإخوان والتصوف

الذين يعادون التصوف من أنصار «السلفية الصارمة»، يتهمون الإخوان بأنهم «جماعة صوفية» ويستدلون لذلك بأن حسن البنا نشأ في طريقة صوفية، كما حدثنا بقلمه عن نفسه في مذكراته، وهي «الطريقة الحصافية» وبأن البنا رحمه الله قال عن دعوة الإخوان: إنها حقيقة صوفية. وبأن للتربية الصوفية أثرها لدى الإخوان في كثير من المظاهر، ومنها: المبالغة في حب بعضهم لبعض، والغلو في تعظيم شيخهم البنا إلى درجة التقديس، واعتبار رسائله وكلماته وكأنها وحي منزل!

أما جماعات «الطرق الصوفية» فهم على العكس من ذلك تماما، فهم يرون الإخوان جماعة «سلفية وهابية» تنكر على المتصوفة كثيرا من أفكارهم وأذكارهم وسلوكياتهم، وتصف ذلك بأنه بدع وضلالات، مثل طوافهم حول أضرحة الأولياء، واستغاثتهم بهم، وعمل الموالد لهم، إلى آخر هذه السلوكيات المعهودة عند الطرق الصوفية في شتى البلاد الإسلامية.

والحقيقة أن دعوة الإخوان مزيج رائع من «السلفية المتصوفة»، و«الصوفية المتسلفة» وهي كما شرحها مؤسسها رحمه الله دعوة سلفية، وحقيقة صوفية.

هي دعوة سلفية؛ لأن الإخوان يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهي حقيقة صوفية؛ لأنهم يعملون على أساس التزكية وطهارة النفس،

ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير.

فهذا هو التصوف، وهذه هي الصوفية الحقيقية عن حسن البنا، إنها ليست الموالد والعوائد، وليست «الشركيات» في العقيدة، ولا «البدعيات» في العبادة، ولا «السلبيات» في التربية، التي تجعل المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل!

التصوف الحق عند حسن البنا يتمثل أول ما يتمثل في طهارة النفس ونقاء القلب، فتزكية النفس هي أول سبيل الفلاح **{وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا 7 فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا 8 قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا}** [الشمس: 7 - 10].

والقلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الإنسان كله، وإذا فسدت فسد الإنسان كله، وسلامته أساس النجاة يوم القيامة **{يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ 88 إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ}** [الشعراء: 88، 89]. فلا بد من المجاهدة لنقاء هذا القلب وصفائه وطهارته من معاصي القلوب وأخطارها.

والمواظبة على العمل الصالح واجب على المسلم، فإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

والإعراض عن الخلق بالإقبال على الخالق: من صفات الربانيين من أصحاب الرسالات **{ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ}** [الأحزاب: 39].

وهم الموصوفون في قوله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ**

يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ} [المائدة: 54].

فهم لإعراضهم عن الخلق، لا يخافون لومة لائم منهم، ولا يخشون أحدا إلا الله سبحانه، لأنهم يوقنون أن الخلق لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا حياة ولا موتا، وأن الأرزاق التي يطمع الناس فيها، والأعمار التي يخاف الناس عليها، كلتاهما بيد الله وحده، لا يملك أحد أن ينقصهم لقمة من رزقهم، ولا أن يقدم من أجلهم لحظة أو يؤخر **{فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ}** [الأعراف: 34].

والحب في الله: دعامة من الدعائم التي تقوم عليها الجماعة المؤمنة، فكما تربط بينها المفاهيم المشتركة، والفكرة الواحدة، تربط بين أبنائها العواطف المشتركة. وأعظم هذه العواطف وأخلدها وأعمقها هو الحب في الله. فهو حب لا يقوم على عرض من الدنيا، أو مال أو جاه، أو متعة، أو نحو ذلك، بل يقوم على الإيمان بالله تعالى، والتقرب إليه، والرغبة في نصرة الإسلام، وأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

والارتباط على الخير من دلائل هذا التوجيه الخير، وهذا الارتباط يعني: التفاهم والتواصي والتضامن على الخير فعلا ونية ودعوة. فقد قال تعالى: **{وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ}** [الحج: 77].

وقال عز وجل : **{وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ}** [آل عمران: 104].

وقال عليه الصلاة والسلام: **«من دل على خير فله مثل أجر فاعله»**(201).

---

(201) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود «صحيح الجامع الصغير» (6239).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[202].

وقال تعالى: **{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ}** [المائدة: 2].

وقال عز من قائل: **{وَٱلۡعَصۡرِ 1 إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ 2 إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ}** [العصر: 1 - 3].

لقد استفاد الأستاذ البنا من تجربته الصوفية، أخذ منها ما صفا، وترك ما كدر، وهو موقف كل الرجال الربانيين، كما رأينا عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، فلم يكونا ضد التصوف بإطلاق، كما يتصور أو يصور بعض من يزعم الانتساب إلى مدرستهما، بل كانا من أهل المعرفة بالله، والحب له، ومن رجال التربية الإيمانية والسلوك الرباني، كما بدا ذلك في مجلدين من «مجموع فتاوي ابن تيمية»، وفي عدد من كتب ابن القيم، أعظمها: «مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات» **{إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ}** [الفاتحة: 5].

بل كان الإمام أبو الفرج ابن الجوزي (ت 597 هـ) من هؤلاء الربانيين، برغم نقده للتصوف بعنف في كتابه الشهير «تلبيس إبليس» كما بين ذلك العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه الممتع «ربانية لا رهبانية» وظهرت استفادة البنا في مظاهر شتى في حركته، منها في شعارات الحركة: الله غايتنا، والرسول قدوتنا، أي أن رضوان الله هو غاية الغايات من وراء

---

(202) متفق عليه عن عمر، وهو أول حديث في «صحيح البخاري».

الدعوة والعمل كله. كما نرى ذلك واضحا في جملة من أركان الدعوة أو أركان التبعة، مثل: الإخلاص، والتجرد، والأخوة، والعمل، والجهاد، والثبات، والثقة.

وكثير من دعاة الإخوان نجد عندهم ما ليس عند غيرهم من الذوق الوجداني، والشوق الإيماني، والتألق النوراني، والتوجه الرباني، الذي يجعل كلامهم يمس شغاف القلوب، ويلمس أوتار الأرواح، فيؤثر فيها رغبة ورهبة، وجدنا ذلك عند شيخنا البهي الخولي في كتابه «تذكرة الدعاة» وحديثه الفياض فيه عن «الروحانية الاجتماعية»، وكتابه «آدم عليه السلام » ومقالاته في مجلة «المسلمون» عن «العارفين» وحديثه معنا في طنطا قديما، ونحن طلاب، في «كتيبة الذبيح» يعني إسماعيل عليه السلام .

ووجدنا ذلك عند الداعية المحبوب، الذي كان في شبابه شعلة متقدة: سعيد رمضان، ووجدنا ذلك عند شيخنا محمد الغزالي، كما بينت ذلك في كتابي عنه «الغزالي كما عرفته» ووجدنا ذلك في كتابات عبد العزيز كامل قديما، والتلمساني ومشهور والسيسي وغيرهم. وقد بدأنا منذ سنوات كتابة سلسلة «في الطريق إلى الله» أصدرنا فيها أربعة كتب عن «الحياة الربانية والعلم» وعن «النية والإخلاص» و «التوكل» و «التوبة إلى الله» ونسأل الله أن يعيننا على إكمالها، ونحن نسير فيها إلى «تصويف السلفية» و «تسليف الصوفية» كما قال الأستاذ محمد المبارك رحمه الله .

ومن أبرز ما يتميز به الصوفية الصادقون ثلاثة أشياء: الاستقامة، والمحبة، وطاعة الشيخ، وهذه مقومات أساسية في التربية الإخوانية.

وللأستاذ البنا رأي في التصوف والصوفية سجله في مذكراته، يحسن بنا أن ننقله هنا، لما يعرفنا بموقف الرجل النظري والعملي من التصوف والطرق الصوفية وأهلها، والرغبة في إصلاحها.

رأي في التصوف للأستاذ البنا:

قال رحمه الله : «حين اتسع عمران الدولة الإسلامية صدر القرن الأول، وكثرت فتوحها، وأقبلت الدنيا على المسلمين من كل مكان، وجبيت إليهم ثمرت كل شيء وكان خليفتهم بعد ذلك يقول للسحابة في كبد السماء: شرقي أو غربي فحيثما وقع مطرك جاءني خراجه، كان طبيعيا أن يقبلوا على هذه الدنيا يتمتعون بنعيمها ويتذوقون حلاوتها وخيراتها في اقتصادا أحيانا وفي إسراف أحيانا أخرى، وكان طبيعيا أمام هذا التحول الاجتماعي، من تقشف عصر النبوة الزاهدة إلى لين الحياة ونضارتها فيما بعد ذلك: أن يقوم من الصالحين الأتقياء العلماء الفضلاء دعاة مؤثرون يزهدون الناس في متاع هذه الحياة الزائل، ويذكرونهم بما قد ينسونه من متع الآخرة الباقي: **{وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}** [العنكبوت: 64] ومن أول هؤلاء الذين عرفت عنهم هذه الدعوة الإمام الواعظ الجليل - الحسن البصري، وتبعه على كثير من أضرابه الدعاة الصالحين، فكانت طائفة في الناس معروفة بهذه الدعوة إلى ذكر الله واليوم الآخر. والزهادة في الدنيا وتربية النفوس على طاعة الله وتقواه.

وطرأ على هذه الحقائق ما طرأ على غيرها من حقائق المعارف الإسلامية، فأخذت صورة العلم الذي ينظم سلوك الإنسان، ويرسم له طريقا من الحياة خاصا: مراحله الذكر والعبادة ومعرفة الله، ونهايته الوصول إلى

الجنة ومرضاة الله.

وهذا القسم من علوم التصوف - وأسميه «علوم التربية والسلوك» - لا شك أنه من لب الإسلام وصميمه، ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها، والطب لها والرقي بها، لم يبلغ إليها غيرهم من المربين، ولا شك أنهم حملوا الناس بهذا الأسلوب على خطة عملية من حيث أداء فرائض الله واجتناب نواهيه، وصدق التوجه إليه، وإن كان ذلك لم يخل من المبالغة في كثير من الأحيان، تأثرا بروح العصور التي عاشت فيها هذه الدعوات: كالمبالغة في الصمت والجوع والسهر والعزلة. ولذلك كله أصل في الدين يرد إليه، فالصمت أصله الإعراض عن اللغو، والجوع أصله التطوع بالصوم، والسهر أصله قيام الليل، والعزلة أصلها كف الأذى عن النفس ووجوب العناية بها. ولو وقف التطبيق العملي عند هذه الحدود التي رسمها الشارع لكان في ذلك كل خير.

ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علم السلوك والتربية، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيرا لها وللناس، ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة إلى الزهد والتقشف، والرغبة في الحصول على هذه النتائج الروحية الباهرة.

وأصبح كل ما يكتب أو يقال في هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين في دين الله والحريصين على صفائه ونقائه.

وجـاء بعـد ذلـك دور التشـكيل العملـي للفكـرة، فنشـأت فـرق الصـوفية وطوائفهم، كل على حسب أسلوبه في التربية. وتدخلت السياسة بعد ذلك لتتخذ من هذه التشكيلات تكأة عن اللزوم ونظمت الطوائف أحيانا علـى هيئـة النظم العسكرية، وأخرى على هيئة الجمعيات الخاصـة. حتـى انتهت إلـى مـا انتهت إليـه اليـوم مـن هـذه الصـورة الأثريـة التـي جمعـت بقيـة ألـوان هـذا التـاريخ الطويـل، والتـي يمثلهـا الآن فـي مصـر «مشيخة الطـرق الصـوفية» ورجالهـا وأتباعها.

ولا شك أن التصوف والطرق كانت من أكبر العوامل في نشر الإسلام فـي كثير من البلدان، وايصاله إلى جهات نائية مـا كـان إلا علـى يد هؤلاء الـدعاة، كمـا حـدث ويحـدث فـي بلـدان إفريقيـا وصـحاريها ووسـطها، وفـي كثيـر مـن جهات آسيا كذلك.

ولا أن الأخذ بقواعد التصوف مـن ناحيـة التربيـة والسلوك لـه الأثـر القوي فـي النفـوس والقلـوب، ولكـلام الصـوفية فـي هـذا البـاب صـولة ليسـت لكـلام غيرهم من الناس. ولكن هذا الخلط أفسد كثيرا من هذه الفوائد وقضى عليها.

مـن واجـب المصـلحين أن يطيلـوا التفكيـر فـي إصـلاح هـذه الطوائـف مـن الناس، وإصلاحهم سهل ميسور، وعندهم الاستعداد الكامل لـه، ولعلهم أقرب النـاس إليـه لـو وجهوا نحـوه توجيهـا صـحيحا، وذلـك لا يسـتلزم أكثـر مـن أن يتفرغ نفر مـن العلمـاء الصـالحين العـاملين، والوعـاظ الصـادقين المخلصـين، لدراسة هذه المجتمعات، والإفادة من هذه الثروة العلمية، وتخليصـها ممـا علـق بها، وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة.

وأذكر أن السيد توفيق بكري رحمه الله فكر في ذلك، وقد عمل دراسات علمية عملية لشوخ الطرق، وألف لهم فعلا كتابا في هذا الباب، ولكن المشروع لم يتم ولم يهتم به من بعده الشيوخ، وأذكر من ذلك أن الشيخ عبد الله عفيفي رحمه الله كان معنيا بهذه الناحية، وكان يطيل الحديث فيها مع شيوخ الأزهر وعلماء الدين، ولكنه كان مجرد تفكير نظري لا أثر للتوجه إلى العمل فيه. ولو أراد الله والتقت قوة الأزهر العلمية، بقوة الطرق الروحية، بقوة الجماعات الإسلامية العملية، لكانت أمة لا نظير لها توجه ولا تتوجه، وتقود ولا تنقاد، وتؤثر في غيرها ولا يؤثر شيء فيها، وترشد هذا المجتمع الضال إلى سواء السبيل. اهـ[203].

وفي مقال قديم للأستاذ البنا[204] تحدث عن التصوف في ضوء تعاليم الكتاب والسنة، وذلك في جريدة الإخوان المسليمن الأسبوعية، ننقل منه هذه الفقرات: حيث قال رحمه الله :

«التصوف الإسلامي بمعناه الصحيح يستمد أصوله وقواعده من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ككل علم إسلامي، وذلك هو الذي تظاهرت عليه أقوال شيوخع وأئمته.

قال الجنيد قدس الله سره: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه».

---

(203) «من مذكرات الدعوة والداعية» للإمام حسن البنا (ص: 15 - 17).

(204) قدمه إلى ابننا وتلمذينا عصام تليمة مما جمعه من تراث الإمام الشهيد من المجلات القديمة.

وقال سهل بن عبد الله: «بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكف الأذى، وأكل الحلال، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق».

وقال أبو عثمان الخيري: «من أمر السنة على نفسه نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة».

وقال أبو القاسم النصر أبادي: «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع».

والأقوال في ذلك كثيرة، حتى قال أبو الحسن الشاذلي: «إذا استند كشف الولي إلى غير الكتاب والسنة، فهو كشف شطاني ولا يؤخذ عنه ولا يسلم».

والقاعدة عندهم أن السنة هي الأصل، لأن صاحبها صلوات الله وسلامه عليه معصوم من الخطأ، وما عداها تابع، لأن قائليه غير معصومين، فكل كلام غيرها يعرض عليها، فإن وافقها قبل وإلا رفض.

وقد صار الناس يطلقونه كلمة صوفي، وابن طريق، وولي، ودرويش «وهي كلمة فارسية معناها: مريد أو ما يقرب من ذلك» على كل من ظهرت عليه علامات التقشف ورثاثة الثياب، وعدم العناية بنظافة الجسم، أوكل من ظهرت عليه دلائل البله بشئون الحياة، أو كل من تكاسل عن أداء الفرائض الدينية وارتكب المخالفات، وادعى لذلك أعذارا مجهولة، كأنه يصلي في الكعبة، أو أنه ينظر في اللوح المحفوظ، فيرى أن المعصية مقدرة عليه، فهو ينفذها لذلك، أو أنه وصل إلى درجة رفع عنه فيها التكليف، أو أن حقائق الأشياء تنقلب له، فيصير الخمر ماء، إلى غير ذلك من المزاعم.

وقد يستدل بعضهم بما ينسب لبعض الشيوخ من قوله:

فلا تلم السكران في حال فقد رفع التكليف في سكرنا عنا

وقد علمت مما سبق أن التصوف برئ من هذه المزاعم مشيد بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن الصوفي لا يكون صوفيا إلا بالتمسك بهما، والولي لا يكون وليا إلا إذا اهتدى بهديهما. فهما عماد الوصول، ومنار طريق السلوك، ولن يصل السالك إلى شيء من نور الهداية والمعرفة إلا بصدق التوجه والعمل بهما.

هذه أقوال المحققين من الصوفية أنقلها إليك وهي قليل من كثير لتعلم كيف تعلق الناس بالأسماء وتركوا الحقائق، وأخذوا القشور ورموا اللباب.

وما أظرف قول قائل:

ليس التصوف لبس الصوف ولا بكاؤك إن غنى المغنونا

ولا صياح ولا رقص ولا ولا اضطرب كأن قد صرت

بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدنيا

وأن ترى خاشعا لله مكتئبا على ذنوبك طول الدهر

وقول الآخر:

ألم يعلموا أن الطريق كناية عن العمل الجاري على وفق

وذبح النفوس الضاريات بمدية من الخلف حتى لا تميل إلى

فما أشد الغفلة، وما أعظم سلطان الألفاظ!

وما أبعد العرف عن الحقيقة، فاعرف ذلك جيدا واطلب لباب الأمور لتكون من الصادقين في الطلب، الواصلين إلى درجات القرب، إن شاء لله.

اهـ[205].

وقد أبديت رأيي في التصوف في فتويين من كتابي «فتاوى معاصرة» الجزء الأول، ووضحت موقفي أكثر وأكثر في مقدمة الجزء الأول من سلسلة «في الطريق إلى الله» تحت عنوان «الحياة الربانية والعلم» فليراجعه من أراد.

أما قول المعترضين على الإخوان بأنهم يبالغون في حب بعضهم لبعض، وأن هذا من أثر التصوف عليهم، فهذه مزية تحسب للإخوان، وليس عيبا يؤخذ عليهم. وهذا الحب هو الذي نفع الإخوان في المحن الشدائد، التي خاضوا لججها، واكتووا بنارها، فلم ينس بعضهم بعضا، ولم يقل أحدهم: نفسي نفسي، بل كانوا يتقاسمون القليل في معتقلاتهم، وكان الإخوان في الخارج يعولون أسر إخوانهم المسجونين والمعتقلين، مضحين مغامرين، وكثيرا ما ضبطوا وقيدوا إلى المحاكمة وإلى السجون، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله.

لقد قيل عن ترابط الإخوان وتوادهم وتعاطفهم في مصر: هذه الجماعة التي إذا عطس أحدهم في الإسكندرية قال من في أسوان يرحمك الله!

وأذكر أن الداعية الفقيه الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله ذكر لي: أنه سافر في سنواته الأخيرة للعلاج في أوربا، وكان يعاني من الآم مضنية، فوجد إخوة ينتظرونه في كل مطار ينزل به، ويرتبون له الأمور، يقول الشيخ: وأنا والله لا أعرفهم، ولا هم من وطني، ولكنه «الحب في الله» الذي

---

(205) جريدة الإخوان الأسبوعية (ص: 106 - 108) سنة 1934م.

تميزت به هذه الدعوة. قال ذلك وعيناه مغرورقتان بالدموع.

وأما قولهم: إن الإخوان غلوا في حب حسن البنا إلى درجة التقديس، فهذه مبالغة غير مقبولة، ولا يرضاها أي أخ مسلم يعرف دعوته. ولكنها المحبة الفطرية للقائد، والتوقير له شرعا؛ لأنه من الحب في الله، ومن توقير الكبير، والمعرفة بقدر العالم. وفي الحديث: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا**»(206)، وفي لفظ: «**ويعرف شرف كبيرنا**»(207). وإذا كان في الإخوان من يخرج عن هذا الحد، فهو شذوذ مرفوض، لا يسأل عنه حسن البنا رضي الله عنه. وقديما قال فقهاؤنا: النادر لا حكم له، فكيف بالشاذ؟!

وأنا واحد من الإخوان وتلميذ حسن البنا، ولم أجد حرجا في أن أخالفه في بعض ما اجتهد، فليت شعري أين التقديس الذي يزعمونه من الإخوان لمرشدهم؟

الحق أن لا تقديس، ولا اعتقاد بعصمة، ولكنه الحب والتقدير للقائد، وهو أدب من آداب الإسلام. {**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ**} [آل عمران: 8].

* * *

(206) رواه الترمذي عن أنس، وذكره في «صحيح الجامع الصغير» (5440).

(207) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمرو. المصدر السابق (5444).

خاتمة

لماذا يعدون الإخوان؟

وأختم هذه المباحث بالجواب عن سؤال كبير، هو: لماذا تعادى هذه الفئات المختلفة في الداخل والخارج: حركة الإخوان المسلمين؟ ومن المسئول عن هذه العداوة: أهم الإخوان أم الذين يعادونهم؟

رضا الناس غاية لا تدرك:

ويهمني أن أبين هنا حقيقتين صغيرتين:

الأولى: أن أحدا لا يستطيع أن يرضي جميع الناس، وقديما قالوا في الأمثال: رضا الناس غاية لا تدرك.

وقال الشاعر:

ومن في الناس يرضي كل وبين هوى النفوس مدى بعيد؟

وقال الآخر:

إذا رضيت عني كرام فلا زال غضبان على لئامها!

وفي الآثار الإسرائيلية: أن موسى عليه السلام قال: يا رب، كف عني ألسنة الناس، ورضهم عني، قال: يا موسى هذا شيء لم أختصه لنفسي، فكيف أجعله لك؟!

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا:

والحقيقة الثانية: أن الكون كله قائم على التباين والتقابل، فالنهار يقابله

الليل، والنور يقابله الظلام، والخصب يقابله الجدب، والبصر يقابله العمى، والحياة يقابلها الموت. وكذلك الحق يقابله الباطل، والهدى يقابله الضلال، والتوحيد يقابله الشرك، والتقوى يقابلها الفجور، والمؤمنون يقابلهم الكفار، والمتقون يقابلهم الفجار، وهذه سنة الله في خلقه.

ولهذا خلق الله آدم وإبليس، وإبراهيم ونمرود، وموسى وفرعون، ومحمدا وأبا جهل، وأكد القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى: **{كَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا}** [الأنعام: 112].

وقال تعالى: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}** [الفرقان: 31].

وإذا كان في الناس من عادى الله تعالى، خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم كما قال تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ}** [الممتحنة: 1] . فبين أن هناك أعداء لله تعالى، فيكيف يطمع المخلوق ألا يكون له أعداء مهما تكن صفحته بيضاء؟

فيكيف بجماعة جاءت بدعوة لها أهداف ومبادئ لا يمكن أن يرضى عنها كل الناس؟

إن هناك إناسا وجدوا في هذه الدعوة قيودا على سرقاتهم وأطماعهم ومصالحهم وامتيازاتهم، فلا غرو أن يعدوا دعوة الإخوان، دفاعا عن مصالحهم التي كسبوها بالباطل، ولكنهم لا يعنون ذلك بصراحة، بل يغفلون ذلك بأغلفة شتى، حتى لا تظهر لصوصيتهم ولا فجورهم للناس.

وهناك آخرون رأوا في دعوة الإخوان: قيودا على ملذاتهم، وشهواتهم المحرمة، من الخمر والميسر والنساء، وغيرها مما تتيحه لهم الأنظمة الوضعية، فهم لذلك يقاومون هذه الدعوة التي تضيق عليهم ما كان موسعا لهم، على طريقة قوم لوط الذين دعاهم إلى الإيمان والطهارة من القذارة، فقالوا: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون!

وهناك من يعادون الإخوان، لأنهم يجهلون حقيقة دعوتهم، ولا يعرفون أهدافها ولا مناهجها ووسائلها، ولا القائمين عليها، وقد قال العرب: من جهل شيئا عاداه، والله تعالى يقول: **{بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ}** [يونس: 39].

وقد ساعد الإعلام المعادي للإخوان - في الغرب والشرق ومن الداخل والخارج - على تشويه صورتهم وتجهيل الناس بحقيقة أمرهم، وإظهارهم في شكل منفر، كأنهم يعوقون التقدم، ويرجعون بالناس القهقري ويقفون ضد الحريات، ويجمدون الحياة، ويعادون غير المسلمين، ويريدون أن يعلنوا الحرب على العالم كله.

وهناك من يعادون الإخوان؛ لأنهم يعادون الإسلام: رسالته وحضارته وأمته، ويتوجسون خيفة من انبعاثه وصحوته، أو يتميزون غيظا كلما نهض من عثرته أو قرب من جمع كلمته، وهؤلاء تحركهم أحقاد قديمة، وأطماع جديدة، ومخاوف دائمة، ونرى هذا يتجسد في القوى الصهيونية، والصليبية والشيوعية، ومن دار في فلكها، وحطب في حبالها فلا يتصور من هؤلاء أن يفتحوا قلوبهم للإخوان، وأن يرحبوا بدعوتهم، بل هي مصنفة في قائمة الأعداء أبدا، وهو ما لا نزال نشاهده إلى اليوم. مهما حاول الإخوان أن يبينوا

وجه المرونة في دعوتهم، والانفتاح في وجهتهم، ويفتحوا صفحة للحوار مع الآخر ويتبينوا فكرة الوسطية والاعتدال في مواقفهم، حتى اتهمهم المتشددون بتمييع الإسلام، وتقديم التنازلات دون مقابل.

ومع هذا رأينا الغرب المعادي والمتأثر باللوبي الصهيوني، يزداد بعدا كلما ازددنا منه قربا، ويخوف من الصحوة الإسلامية ومما سماه «الخطر الإسلامي» الذي أطلق عليه «الخطر الأخضر»، بل غدا يحذر من «الإسلام المعتدل» بعد أن كان يحذر من «الإسلام المتطرف» ويقول: إن الإسلام المعتدل أشد خطرا؛ لأنه أبقي أثرا وأطول عمرا.

ومن كان عميلا لهذه القوى المعادية للإسلام وأمته، أو من عبيد فكرها، وأسارى فلسفتها، فهو يحتضن أفكارها، ويروج أخبارها، عن وعي وقصد أو عن تقليد كتقليد القردة، ومحاكاة كمحاكاة الببغاء.

ومثل هؤلاء: من يعادي الإخوان - ممن ينسب إلى أبنائه - لأنه يعادي الإسلام ويكره الإسلام، وإن تسمى بأسماء أهله، فهو لا يحب للإسلام أن يسود، ولا لأمته أن تقود، ولا لدولته أن تعود، ولا ذنب للإخوان لدى هؤلاء إلا أنهم يدعون إلى الإسلام، ويجاهدون في سبيله.

ولكن من مكر هؤلاء الكارهين للإسلام ولتعاليمه وشرائعه: أنهم لا يستطيعون أن يظهروا أمام الناس على حقيقتهم، ولا أن يكشفوا اللثام عن وجوههم، وأن يعلنوا عن عداوتهم للإسلام، فلا غرو أن يصبوا عداوتهم كلها على الإخوان، ويفرغوا كل أحقادهم وكراهيتهم في جماعتهم، تنفيسا عن الحقد والبغضاء لهذا الدين.

وهؤلاء لا علاج لهم ولا دواء لأحقادهم، إلا أن يتخلى الإخوان عن الإسلام وعن الدعوة إليه وعن جمع الأمة عليه، هنا يكونون سمنا على العسل، ويصبحون موضع الرضا والقبول.

وقديما قال معاوية: أستطيع أن أرضي كل خصومي إلا واحدا! قيل: من هو؟ قال: الحاسد، لأنه لا يرضى إلا زوال نعمتي.

وكذلك تستطيع أن ترضي أي خصم بطريقة وأخرى إلا من يكره الإسلام، فهذا لا يرضيه إلا سقوط راية الإسلام، وانطفاء جذوة الإسلام **{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ}** [التوبة: 32].

وفي مثل هؤلاء جاء قوله تعالى: **{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** [البقرة: 120]. أي لا يرضيهم شيء إلا ترك الإسلام تماما والدخول في دينهم، وهو مستحيل.

ولقد بين القرآن نية أعداء الإسلام الكارهين له، فقال عز من قائل: **{وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ}** [البقرة: 217].

فانظر إلى هذه الصيغة **{وَلَا يَزَالُونَ}** التي تشعر بالاستمرار، وإلى الهدف، **{حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ}** والمعركة دائرة الرحى ومستمرة، ما دام في الدنيا حق وباطل، وإيمان وكفر.

ومن فضل الله تعالى أن قال **{إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ}** فقيدها بـ «إن» الشرطية التي تفيد التشكيك، ولن يستطيعوا إن شاء الله، وعندنا آيات ثلاث في كتاب الله تبشرنا بأن الله سيظهر الإسلام على الأديان كلها **{هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ**

بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ} [التوبة: 33، الصف: 9].

{لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا} [الفتح: 28].

اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وسريع الحساب، وهازم الأحزاب، اخذل أعدائك وأعداءنا المتربصين بنا، الكائدين لنا. اللهم اجعل كيدهم في نحورهم، ورد سهامهم المسمومة إلى صدورهم. اللهم اهدنا صراطا مستقيما وأنصرنا نصرا عزيزا، **{رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ 85 وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ}** [يونس: 85، 86].

وصل اللهم على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *